في ذكرى ثورة تموز:

الرسوخ والتجاوز..

تنهض بمهمتها ، وهي لا تكتفي بالانتصار ، بل تضع نصب العين ، الحفاظ على الانتصار وتطويره .. تلك هي القيادة الواعية للثورة ، وتلك هي اختبارات قدراتها على التصور ، وتجاوز الحاضر ، في سياق المضي بالممكن نحو الطموح ، وتجاوزا ، واقتدارا .

ولم تكن قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي منذ ثورة تموز 1958 وعبر السنوات العشر الاولى (لغاية 1968) قيادة جامدة لا في التصور ولا في التكوين ولا في التحرك اليومي ..

ولان الحياة ، وقائع سنوات الخضم والتضاد والاحتراب ، والردة ، وما بعد الردة .. هي عقد صاخب ، متناقض ، خشن ، ومعقد ، على مستوى الافعال والاحداث ، والقوى وميزانها وعلاقاتها ، وعلى مستوى الواقع العربي ووضع الامة ، والعصر .. فان الحزب في رسوخه وتجاوزه، وتجدده (افعالا وقيادة) ، توفر على الهيبة والمكنة والاقتدار ونوع الاقتحام ، الذي اتاح له يحقق فعله الثوري الجديد في 17 – 30 تموز 1968 ، بعد عشر سنوات فقط من ثورة 14 تموز .. وبعد خمس سنوات فقط من ثورة رمضان ، وبعد عام واحد فقط من نكسة حزيران ..

من هنا قدم الحزب برهانا على صحة نظريته في الثورة ، ودقة توقيته في ضرب الحلقات الضعيفة في الوقت والزمان والمكان ، ضمن حسابات الاعتماد على القدرة الذاتية في التنظيم ، مدنيا وعسكريا ، ووعي مخاطبة القاعدة الجماهيرية ، والشارع ، وجماهير الامة ، بدءا من بيان الثورة الذي القاه الرئيس القائد المهيب احمد حسن البكر ، كونها « ثورة بيضاء » ، والمعنى النفسي المدروس الذي نهضت به قيم ومعطيات البيان ، في المفردات ولغة المخاطبة ، قطريا وقوميا ودوليا .. وحتى العمل بدقة للهيمنة الكاملة على ادارة الثورة وتحريك مفاصلها في حركة الثلاثين من تموز ، وتنقية تشكيلتها من العناصر المندسة وغير المتكافئة مع مدها وطموها ويقينها ، وانتهاء بوضع الخطط التنموية ذات المديات المتصاعدة في عملية البناء الحضاري والتحول الاجتماعي الثوري الجذري لخدمة الاهداف المركزية في الوحدة والحرية والاشتراكية ، وتعميق الرابطة الجدلية بين هذا الثلاثي الستراتيجي على ارض الواقع وفي سياق العملية الثورية الانقلابية الشاملة .

ولم يكن طارئا ، في علم حساب الثورة ، ذلك التحول النوعي في الخصائص ونمط التفكير الذي احاط كل اجراء وتدبير ، من اجراءات وتدابير الثورة ، على المستوى العسكري والاقتصادي والسياسي والثقافي العام .. وبالتالي ، على مستوى فهم مفاصل الوحدة الوطنية ، وحل المسألة القومية (الاكراد والتركمان والاثوريين .. الخ) ، حل سلميا انسانيا عادلا ، ونموذجيا .. ، ووضع صيغ التعامل الامثل مع الاطراف والقوى الوطنية والقومية التقدمية في نموذج « الجبهة الوطنية والقومية التقدمية » ، وعبر ميثاق العمل الوطني .. لان خبرة الحزب النضالية ، منذ التاسيس وحتى استلام السلطة ، وخلال المنعطفات والانكسارات والكبوات ، التي مرت بها ، والنهوض المستمر ، الواثق والمتصدي والمقتحم، الذي تميزت به حركة الثورة العربية ، وكوادر الحزب في العراق ، جعلت هذه الخبرة من نمط الخبرات الخاصة المتميزة ، الراسخة الجذور ، والمتجاوزة ذاتها باستمرار . ففي يقين الثورة ، وهي تقطع العام الاول في عقدها الثاني ، اصبحت المثل وقيم التعامل مع الانسان .. كوحدة نموذجية هدفا ووسيلة – ومع المجتمع ،ضمن تركيبته البيئوية ومؤثراته الاقليمية ، ومع الامة في سياق تشتت مصادر ثرواتها وقواها الذاتية والبشرية وتفاوت أنظمتها وتباعدها المكاني الذي ورثته عن نظم التجزئة وسياسات « فرق تسد » ، والاشرطة العازلة المعادية التي قسمت الوطن الواحد واستلبت فلذات منه ، كالشريط العدائي التقليدي : الكيان الصهيوني ، « محمية حداد » الجديدة – في جنوب لبنان – ، والانظمة التي تحاول عزلة نفسها عن جماهير شعبنا العربي ، كالنظام المصري الخائن ، ونظام نميري المهزوز ، ونظام قابوس العميل ،.. الخ ،..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اصبحت تلك المثل وقيم التعامل من التنوع المحسوب في المكان والزمان والنوع ، والتوجه ، ولكن ليس ضمن « تعددية » في المبدا ، بل من خلال وحدة مبدأ ويقين ، بحيث اضفت مؤشرا واضحا من مؤشرات حكمة القرار السياسي العراقي ذي البعد القومي الانساني الخاص والمتميز . والذي يصطفي نفسه في خطط التنمية والتوجهات والمواقف ، لا على اساس قطري ضيق ، بل على اساس قومي ، مبدئي ، راسخ ، وحازم معا .. واضحا ، في الصورة ، وعلى جدول العمل والتحرك ، القضية الفلسطينية وتحرير كامل التراب العربي ، نقطة مركزية ستراتيجية لا في التعامل البنائي ، التنموي ، حسب ، بل وفي التعامل الدولي ، وتحديد « الصديق » و « العدو » – على تفاوت الدرجات – ايضا .. واساسا ، ان مع القوى المتحالفة مع فصائل المقاومة الفلسطينية ، او مع القوى العالمية الاخرى ، على صعيد حركات التحرر في العالم الثالث ، ودول عدم الانحياز ، والدول الكبرى ، والمحاور العالمية .. مما جعل بعض تلك القوى والدول ، تتعامل ، في البدء ، في سياق « سوء الفهم » ، حتى اصبح الموقف القومي العراقي والطريق الخاصة للثورة ، من الوضوح ، في الاستقلالية ، وتجربة البناء والتفكير ، بحيث بات التعامل ، الان ، لا لبس فيه ولاتمويه.

لذا فان « العزلة » التي اتهمت بها الثورة ، في البدء ، هي ليست عزلة – بالمفهوم التقليدي – ولكنها موقف صارم وحازم من كل القوى التي تحاول تكييف العلاقات لصالح غطائها الدولي وتكتيكاتها خاصة مع البلدان النامية – بلدان العالم الثالث على وجه الخصوص – وضمن مفهوم « تقسيم مناطق النفوذ » ومحاور الصراع الدولية ..

وهكذا لقنت ثورة تموز درسها للعالم ، ضمن سياق عدم التفريط « بشبر » عربي واحد من الارض ـ في السعودية او غيرها ـ في حالة وقوع ما يسيء الى سيادة الارض . حتى لو كان المعتدي اقرب الاصدقاء والحلفاء الدوليين ..

وهكذا لقنت الثورة محاور العالم ، درسا ، حين اعدمت الجواسيس، وأممت النفط ، وطبقت القانون تجاه العسكريين المخالفين لنصوصه ..

لذا برزت ثورة تموز وقيادتها الحكيمة ، على المستوى الدولي ، ليس في حجم الملايين الاثني عشر ـ كحجم سكاني ـ بل على مستوى الندية والتعامل بالمثل واحترام السيادة الوطنية ، والقومية ، وبات تعاملها في السياسة الخارجية اكثر رسوخا ، حين فهم الاصدقاء والاعداء ، ابعاد الثورة ومواقفها القومية الراسخة ، وجدواها الفعلي على صعيدي العلاقات والمنافع المتبادلة لما فيه خدمة مصالح الشعوب وقضايا أمن وسلام العالم .

ولقد عزز هذا الرسوخ والتجاوز قدرات حكومة الثورة على توفير الاستقرار الداخلي وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول المجاورة والصديقة ، واحترام المواثيق الدولية . مما جعل سياق التعامل الدولي ينشط في السنوات الاخيرة ، ويكتسب بعدا جديدا لم تكن تتوفر له شروط الرسوخ والنجاح في السنوات الاولى من عمر الثورة ..، وبات وزن العراق في المحافل الدولية أكثر ثقلا نوعيا ، وأوضح دلالة وتعبيرا وتفهما . ويأتي هذا التفهم لحجم العراق النوعي ، عربيا ودوليا ، من افعال وممارسات ذات يقين صلد ، من بينها المشاركة الفعالة في حرب تشرين عبر ذلك الانتاج الثر للتضحية والبذل الذي قاد قواتنا المسلحة ـ بزمن قياسي ـ الى ساحة المعركة ، والدخول في صلبها استجابة لنداء الوازع القومي ، والمبدأ الراسخ ..

ويأتي استخدام النفط سلاحا في المعركة وعمليات التاميم المتوالية بتصعيد مدروس ومحسوب ، ليكشف الاحتياطي الكامن في القدرات والقرارات ، مع حساب دقيق ومرونة عالية في التعامل مع الاصدقاء ومناصري قضيتنا المركزية ..

وتاتي النقلة النوعية في التحرك العربي ، على صعيد لقاء القطرين الشقيقين العراق وسورية وأعلان ميثاق العمل القومي المشترك على طريق الوحدة النوعية ، برهانا أكثر دمائة وأصالة على أن الدم العربي سيظل هو الحكم الفيصل في كل ظرف وزمان ..، وان الوحدة العربية هي قدر الامة ، اللذي يقلب كل الحسابات التقليدية الكلاسيكية التي تتحدد على ضوئها مواقف وتقديرات بعض الدول ..

فالورقة التي حاولت جهات عدة اللعب عليها ، أسقطتها المبادرة العراقية ـ السورية التي حولت مجرى العلاقات من « حالة القطيعة والاحتراب » الى يقين الاتحاد والتوحد والمصير المشترك ..،

وتاتي قمة بغداد في الحد الادنى من المقررات ، كسبا قوميا كبيرا لمبادرة حكومة الثورة ، ولنهج ثورة تموز ، لحكمة قيادة الحزب والثورة ..

وتاتي مقررات وزراء الخارجية والاقتصاد العرب ، دلالة اخرى على طريق عزلة النظام المصري الخائن ، وضد الحلف الساداتي ـ الصهيوني ـ الاميركي ـ الامبريالي ، وتاتي ..

كل الافعال ، على الساحة القومية والعالمية ، لتؤكد رسوخ الثورة وعمقها اليقيني ، وتجاوزها المبدع ..

وتاتي كل الافعال الداخلية ، من التاميم ـ وهو زمن حضاري نوعي وليس خطوة تقليدية ـ حتى رفع القدرة الشرائية للمواطنين ، وكل القرارات الاقتصادية والثقافية ، والتعليم الالزامي ، والسعي لاعلان نظافة العراق من الامية ، والثورة الزراعية ، والتكامل الصناعي ، وتوفير السلع والمواد الغذائية للمواطنين ، وتوفير الكتاب والدواء والكساء والامن والرفاه ، والسكن .. ذلك بعض مفردات القائمة الطويلة من المنجزات .. وهي في سياق الذكرى لا يمكن الالمام بها كعد تصاعدي ، بل هي انتباهات نوعية تغذي عقل المواطن وسلوكه وحياته اليومية ، وضمان مستقبله ومستقبل أسرته واطفاله ، بكرامة ..

انها تحولات النوع في بناء الانسان الجديد والمجتمع الجديد والدولة المعاصرة .. تلك الثلاثية العميقة ، الجذرية ، والتي تحصن مديات العمل اليومي وتصعد من وتائره باتجاه الرسوخ والتجاوز ..

لذا فثورة تموز القومية الاشتراكية التي تجاوزت في سنواتها الماضية مرحلة التجريب الى ذرى التعميق والمنهجية ، والتي حققت ، عبر الكثير من مفرداتها ، الخصوصية القومية والوطنية ، واوضحت مداها الاستقلالي النوعي ، لهي ـ على صعيد تجارب العالم الثالث ـ ثورة نوعية من طراز خاص ..

ويعود الفضل في ذلك الى رسوخ ايمان الحزب وقواعده وجماهيره بالفكر والتنظيم والعمل المتواصل ، الامر الذي جعل وحدة الرؤية ووحدة التوجه ، ووحدة الافعال ، تصب في سياق التخطيط والاهداف ، ولا تتعداه حيث ابتعدت عن الشطط والانفعال والمواقف المتعجلة ..

وكانت الوثيقة السياسية « التقرير السياسي الصادر من المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي ـ في القطر العراقي ـ » مرشد عمل حصن القيادات والكوادر على مستوى الهيكل التنظيمي والهيكل الاداري ، على المضي بالعملية الثورية نحو مدياتها القصوى .. فيما كانت خطب وتوجيهات السيد الرئيس المناضل احمد حسن البكر والرفيق المناضل صدام حسين نائب أمين سر القطر ، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة ، مرشدا نقديا ، وملهما للحاضر والمستقبل ، لكل الكوادر والاجهزة ..، ويقينا واضحا وبينا لتحديد أطر السياسة الداخلية والخارجية للثورة .. وطرائق التعامل الامثل .

- ■ النجاح المضطرد ، والاقتحام الباسل ، على طريق بناء المجتمع العربي الاشتراكي الوحدوي ..
- ■ المجد لحزب الثورة العربية .. حزب البعث العربي الاشتراكي صانع الثورة وملهمها ..
- ■ الاجلال والاحترام لقيادة الحزب والثورة التي أعطت من البذل ما يسجل لها في مداد من الفخر على مر الدهور ..
- ■ الخلود لكل الذين بذلوا حد الشهادة ، وقضوا من اجل كرامة الامة وعز الوطن ..
- ■ ولتبق راية تموز خفاقة الى الابد في ذرى المجد والانتصارات الدائمة .

■ / « آفاق عربية »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دور الوطن العربي في ميزان القوى العالمية

د. الياس فرح

مع التحولات التاريخية الكبرى التي اصبحت سمة هذا العصر ، ياخذ الوطن العربي مكانه الطبيعي الذي استلبته القرون السبعة التي انقضت على اغتيال الحضارة العربية ، منذ سقوط بغداد عام 1258 .

فهذه المنطقة من العالم ، التي كانت منذ انبعاث اول حضارة في التاريخ ، المركز الحضاري الاول الذي استمر في عطائه التاريخي ، تعود اليوم بعد انقطاع ، ويشاء لها التاريخ ان تكون مسيرة الانبعاث من هنا ايضا ، من بغداد ودمشق ، حيث اغتيل التاريخ ، لكي تنبعث قيمه الانسانية من جديد ، مع انبعاث الامة العربية .

فالتحول في مركز الثورة من الغرب الى الشرق ، نتيجة يقظة شعوب العالم الثالث ، واغفال مركز اهتمام العالم ، والمحاور الرئيسية للافكار والمبادرات والقوى ، من القارة الاوربية الى القارات الاخرى ، وخاصة آسيا وافريقيا وامريكا ، وانكشاف تناقضات الانظمة والايديولوجيات التي عجزت عن استيعاب هذا التطور الجديد في معطيات الحياة بعد الحرب العالمية الثانية .. كل ذلك وغيره من الظواهر الكبرى المميزة للمرحلة التاريخية على صعيد عالمي ، قد اعطى للوطن العربي ، على صعيد الفكر والنضال والثروة والقيم ، دورا يتسم بخصوصية بارزة . لان هذا السياق العام للتطور في عالم اليوم ، قد التقى بالسياق الخاص للتطور الداخلي للوطن العربي .

فالتقاء المسيرتين قد افسح المجال لنضوج عوامل تحول تاريخية تربط مصير الامة العربية بمصير التطور الانساني ربطا جدليا . فما هي طبيعة هذا الدور ، وما هي مصادر قوته ؟

المعايير الاساسية

لابد اولا من تحديد المعايير الاساسية التي نستطيع من خلالها ان نحدد دور الوطن العربي في ميزان القوى العالمية . واول هذه المعايير يكمن في الاطار التاريخي العام لهذا الدور .

وعندما يقول القائد المؤسس(1) :

« اذا رجعنا الى الماضي والى التاريخ واستجوبناهما ، عندها نرى حقيقة لا تكاد تكون موضع خلاف ، وهي ان العرب في تاريخهم الطويل لم يعرفوا غير نوعين من الحياة ، الانقلاب والانحطاط . هذه تكاد تكون ميزة او علامة فارقة حقيقية للامة العربية . اما ان تقوم بانقلاب يحدث نهضة تفيض على بلاد العرب وتبلغ الشمول وتصبح نهضة عالمية انسانية ، واما ان توغل في النوم والانحطاط . فليس من حل وسط في تاريخ العرب ..

فاذا نظرتم الى ما يقاسيه العرب في هذا العصر من المصائب والكوارث التي تتوالى عليهم ، وكل واحدة اثقل وافدح من التي سبقتها . اذا تدبرتم هذا الواقع ، واخذتم بعين الاعتبار تلك الظاهرة وهي ان الامة العربية بطبيعتها اما ان تعيش على الانقلاب واما ان تعيش في الانحطاط ، والتي هي بمثابة قانون ، ادركتم ان ايغال العرب فيما يبدو في الظاهر انه تاخر وانحطاط هو عبارة عن تحفز للانقلاب الذين هم مهياون له » .

فان هذا القول يعني قبل كل شيء ، ان ننظر الى الوطن العربي من خلال مرحلته الراهنة كحلقة في سلسلة طويلة ، حتى تكون مقاييس القوة والادوار السياسية ، مرتكزة الى اسس عميقة ونظرة شمولية تستوعب علاقة الجزء بالكل . ولكي نستطيع في الوقت نفسه ان نرى الغابة كلها فلا نتوقف عندما يبدو احيانا من اشجار ، قد تحجبها .

أ ـ فالوطن العربي ، يمر بمرحلة تاريخية تتميز بتناقضات اساسية ذات طابع انفجاري . وشعبه العربي اخذ يدرك بالاضافة الى معطيات المرحلة ، قدرته على مواجهة تحدياتها . فالى جانب وعيه للضرورة ينضج شعوره بالمسؤولية التاريخية . فهو اذن يمر بمرحلة نهضة آخذة في التبلور ، على الاصعدة الفكرية والتنظيمية ، الايديولوجية والستراتيجية .

وقد اصبح للنهضة القومية قاعدة انطلاق ثورية واضحة الابعاد والمعالم في ثورة البعث في العراق ، تربط مسلمات الواقع العربي الراهن بممكنات المستقبل وبحتميات الانبعاث القومي .

ب ـ ثم ان الوطن العربي اصبح اليوم يتحرك بحركة عميقة الجذور مع هويته التاريخية واصالته ، لان وعيه ارتفع الى مستوى اكتشاف الانقطاع الحضاري مع الماضي جنبا الى جنب مع اكتشافه لوحدة المتناقضات الاساسية في الواقع العربي الراهن .

فالتجزئة تناقض لا يمكن تصوره او حله بمعزل عن وحدته الجدلية مع تناقضات الاحتلال الصهيوني والهيمنة الامبريالية والتخلف والاستغلال الطبقي . فالوحدة العربية كهدف هي اذن جزء من كل هو (الانبعاث الموضوعي والتراث) للامة ولواقعها الذي تجسده وحدة الاهداف الاساسية للنضال العربي . فلا وحدة بدون تحرير فلسطين ولا حرية بدون وحدة واشتراكية. ولا اشتراكية الا بربط الصراع الطبقي بالنضال القومي ضد التجزئة والنضال من أجل تحرير الوطن المحتل .

ج ـ وهذه الحركة التاريخية العميقة للوطن العربي ضمن اطار ثورة شاملة ومتكاملة ، ومنظور انبعاثي حضاري انساني معاصر ، تقترن بوعي متصاعد لطبيعة المسيرة النضالية ، وكونها مسيرة كفاحية شاقة وطويلة تتبلور من خلالها حياتنا الفكرية والنفسية ومؤسساتنا وعلاقاتنا الاجتماعية حول المعركة المتصلة المصيرية. لان طبيعة العدو الذي تواجهه النهضة العربية ، وطبيعة المرحلة السابقة للنهضة التي جعلت المجتمع العربي في حالة شلل وعزلة عن التطور البشري ، يحتمان هذا المستوى المصيري من المعركة المزدوجة مع الذات ومع العدو .

فالصهيونية عدو ذو خصوصية متميزة ، لانها ترتكز الى عصبية دينية والى ايديولوجية عنصرية ، والى تنظيم عالمي ، والى مخططات كانت وما تزال تؤكد المعادلة الحتمية التي تجعل بقاء الصهيونية مساويا لزوال الدور الطبيعي التاريخي للوطن العربي ، ولتصفية القضية العربية والوجود العربي لهوية حضارية فاعلة في التاريخ . وكذلك تحالف الصهيونية مع الاستعمار القديم ، ثم مع الامبريالية الامريكية ، يشكل عداء له خصوصية متميزة ، لان مصير النظام الراسمالي الذي يربط بينهما متوقف الى حد بعيد على الحيلولة دون ممارسة الوطن العربي لدوره التاريخي ، التحرري ، الانبعاثي .

لذلك فان حركة التحرر والتحرير والنهضة والانبعاث القومي المعاصر ، تقترن بوعي كامل لابعاد التجربة وما تتطلبه من تضحيات وآلام ، ومن اعتماد على الذات ، سيما وان الحلفاء الطبيعيين للامة العربية في مرحلة نهضتها المعاصرة ، هم في وضع تاريخي لا تتطابق معه اتجاهاتهم وظروف مجتمعاتهم وتطورهم ، مع خط النهضة العربية . فهم على مسافة منها تطول وتقصر ، ولكنها باستمرار تذكر العرب بضرورة الاعتماد الكامل على انفسهم ، وبناء تحالفاتهم على اساس نضالي . الا ان الاعتماد على الذات يعني في المنظور الانبعاثي خلق هذه الذات من جديد اولا وانقاذها من ترسبات مرحلة الانحطاط والتردي. فالمعركة مع العدو ، حيث تجابه الامة كل منجزات المدنية الحديثة ، لا يمكن ان تنفصل على المعركة مع رواسب التجزئة والتخلف في الذات العربية ، حتى يواجه العرب عدوهم بذات منبعثة جديدة تتوفر فيها كل ضمانات الانتصار التاريخي : ذات موحدة ، بطولية ، متفتحة ، اصلية ، انسانية ، تفجر القوى الكامنة والطاقات المختزنة في النفس العربية وفي الواقع العربي ، وتمنح للوطن العربي وزنا نوعيا جديدا في ميزان القوى العالمية .

مقاييس ومعايير القوة

ان صورة العالم الراهن ، تقدم لنا من طرف آخر ، معايير جديدة للقوة ، ومفاهيم جديدة للادوار السياسية والعسكرية ، في عصرنا .

فتاريخ القرن العشرين ، يكشف عن تبدل حاسم في موازين القوى وفي معنى القوة . لان عصر الجماهير قد فجر طاقات وقوى جديدة . كما ان العصر الذري قد بدل في المقاييس والمفاهيم القديمة للقوة، وكذلك في علاقة القوة العسكرية بالقوة السياسية .

واذا كانت الحرب العالمية الاولى ، قد لعبت دورا حاسما في انهاء (التوازن الاوربي) وسببت افول نجم القارة الاوربية ، بعد ان امتد سلطانها واستعمارها على القارات الاخرى . وظنت بانها سوف تظل الى الابد محتفظة بهذا التفوق . فاذا بالحرب تنهي اسطورة اوروبا المتفوقة وتسخر من غطرستها واعجابها بنفسها وعنصريتها ونظرتها المتعالية الى الامم والقارات الاخرى .

كذلك ، فان الحرب العالمية الثانية ، قد جاءت لتنهي ما تبقى من اسطورة اوروبا واوهامها ، ولتؤكد بأن التحولات الاقتصادية والتكنولوجية والسكانية والايديولوجية والاعلامية ، التي تمت في مرحلة ما بين الحربين ، قد بقيت بعيدة عن ادراك القوى الاستعمارية الاوربية، .. تلك القوى التي واصلت سياستها التقليدية التي تفرض اولوية المشاكل الاوربية ، وظلت تعتقد بانها ما تزال محتفظة بمكانتها العالمية القوية .

فقد كرست احداث الحرب العالمية الثانية بطريقة حاسمة الانتقال بالعلاقات الدولية من اطار التمركز حول اوروبا ، الى انواع جديدة من التمركز :

- التمركز الايديولوجي : الاشتراكي والراسمالي،ايديولوجيات العالم الثالث .
- التمركز القاري : امريكا ، آسيا ، افريقيا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– التمركز السياسي : القوتان العظيمتان (امريكا ، والاتحاد السوفياتي) والامم المتحدة .

التمركز الحضاري : الدول المتفوقة (صناعياوتكنولوجيا) والدولة المتقدمة ، والدول النامية، والدول المتخلفة .

– التمركز الاقتصادي : البلدان المنتجة للطاقة ، البلدان المنتجة للغذاء ، البلدان المنتجة للاسلحة .

– التمركز النووي : البلدان المنتجة للاسلحة الذرية ، وللطاقة النووية .

ان هذه التعددية في مراكز الاستقطاب والتأثير والضغط والجذب، قد جعلت من (العالم) ذاته (مركزا) للعلاقات الدولية لان (بقاءالعالم) الذي اصبحت تهدده الاسلحة الذرية ككل ، مسألة قد دخلت في صلب المشاغل الخاصة بكل قوة ودولة ومجتمع وشعب من شعوب العالم . واصبح العالم في هذا (العصر الذري) يستمد قدرته على تحقيق الامن، من قدرته على تحويل (القوة) الى اداة لصنع السلام . ولكن حين يضع السلام القائم على توازن الرعب بالمفاوضات بين الدول الكبرى ، يضع السلام القائم على حل مشكلات الشعوب بالنضال في العالم الثالث .

– ان مفهوم (القوة) ذاته ، قد تعرض الان الى التبدل في هذا العالم الجديد (العالم الذري) الذي ولدته الحرب العالمية الثانية، لان تفجير (الطاقة النووية) فيه ، قد اقترن بانفجار الطاقات النضالية لامم وجماهير القارات الثلاث . فهو (عصر الجماهير) كما هو عصر (الثورة العلمية التقنية الحديثة) .

– ففي هذا العصر ، لم تعد (القوة العسكرية) التي كانت تعتبر في المراحل التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، اقصى درجات القوة ، تحتل المرتبة ذاتها في سلم القيم .

لان القوة الامريكية العسكرية التي تجسد ذروة التقدم التكنولوجي لم تعد متكافئة مع قوة النضال المسلح بالعقيدة الثورية لشعوب القارات الثلاث . ومثال فيتنام ما يزال حيا في الذاكرة .

– وقد الغى (العصر الذري) المقياس التقليدي الذي كانت فيه (قوة الدولة) تقاس بقدرتها على حماية سكانها ضد اي هجوم لان ازدياد القوة لم يعد يعني بالضرورة زيادة امكانية الدفاع والحماية . طالما ان الطاقة التدميرية للاحتياطي النووي للقوتين العسكريتين الكبيرتين ، تستطيع ان تدمر كل ساكن فيها ، بمعدل 16 مرة للامريكيين و 18 مرة للسوفيت .

فالتزايد اللا قياسي للقوة العسكرية ، كما يقول كيسنجر ، قد ادى الى افقادها كل اتصال بالسياسة ، لذلك أصبح عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية الذي هو عالم تتجاذبه متطلبات من القوى العسكرية ، متعدد الاقطاب سياسيا .

– ومن هنا يبرز دور الوطن العربي كساحة كبرى متميزة تتجمع فيها عناصر مهمة ، موضوعية وذاتية ، لدور سياسي عالمي .

ابعاد الدور العربي

– ان هذا الدور يتحدد اولا من خلال الامكانات الموضوعية الثابتة، (الموقع) على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، والاطلالة على المحيطات والامتداد على اكبر قارتين ، والوجود في مركز العالم . و (الثروة) الطبيعية والغنى في الموارد الجوفية والفضائية . و (السكان) كطاقة بشرية منتجة وفعالة على صعيد التكاثر والحيوية .

كما ان هذا الدور السياسي للوطن العربي ، يتحدد على ضوء ما تطرحه طبيعة المرحلة العربية اليوم من مهمات : المهمات الوحدوية والتحررية والاشتراكية ، وما يواجهها من التحديات ومخططات معادية ، لها وجود ومصالح في المنطقة العربية تتعارض مع خط النهضة ، وتدفع بالصراع معه الى اعلى درجات التحدي المصيري .

واخيرا فان هذا الدور السياسي يستكمل ابعاده من خلال استناده الى (الماضي) حيث التاريخ الطويل والتجارب الفنية والتفاعل الحضاري . وكذلك من خلال اطلالته على (المستقبل) لانه يشارك في صنع (عالم جديد) تنهار فيه قوى كانت ضخمة ، و (حضارة جديدة) تولد من آلام ونضال الامم التي تنبعث كأمتنا حيث الدور السياسي يعتمد على تفجير القوى الثورية المبدعة الكامنة في الجماهير.

وهكذا فان هذا الدور ينمو من خلال المعارك والصراع ، وما تنطوي عليه من مد وجزر ، وانتصارات ونكسات .. وهو يشكل محصلةجدلية لعوامل سياسية واقتصاديةوعسكرية تاريخية ونضالية، لانه دور قومي حضاري .

– لذلك فان الحكم على هذا الدور قد يتعرض الى جملة من الاخطاء من جراء الخلل في المنهج الذي يتبعه الباحث ، سواء من حيث النظرة الجزئية التي تكتفي بالتركيز على جانب من جوانب هذا الدور او من خلال النظرة السكونية ، التي تتوقف عند لحظة من لحظات تطوره لتعمم نتائجها على مسيرته بكاملها ، او النظرة المقطعية التشريحية التي تأخذ بعين الاعتبار جانبا من الجوانب المتعددة الفنية التي يتميز بها الدور السياسي للوطن العربي في هذه المرحلة من حياة الامة .

فبقدر ما يرتبط هذا الدور السياسي بواقع الامة ، فهو يرتبط ايضا بحركة الامة ونضالها من اجل تغيير واقعها . وبقدر ما يحتل من مكان في ساحة العلاقات الدولية من خارطة العالم السياسية والاقتصادية والعسكرية ، فهو يرتبط ايضا بحركة الصراع في هذا العالم وبنمو القوى الجديدة فيه .

وبمقدار اقترانه بسياق تاريخي وحضاري للامة العربية ، فانه متأثر ومتفاعل مع العوامل الفكرية والتيارات الثقافية للايديولوجية لعصرنا الراهن .

لذلك فان جدل العوامل الموضوعية والذاتية، الداخلية والخارجية، التاريخية والمعاصرة ، ينبغي ان يكون الدليل المنهي لاستيعاب الدور السياسي للوطن العربي في ميزان القوى العالمية الراهنة .

الوزن الحالي لدور الوطن العربي

ـ وعلى ضوء هذا المنهج ، نستطيع ان ننظر الى العوامل الجغرافية والديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ... التي تشكل (عناصر) هذا الدور ، نظرة جدلية علمية تاريخية ، تستوعب المقاييس الداخلية والموازين الخارجية لهذا الدور ، ولا تكتفي بالنظرة الكمية الرقمية الحسابية لتحديد هذا الدور وابراز اهميته . لان العدد والمظهر والشكل ، ليست سوى اشارات تنبىء عن حركة وميل واستعداد وتوثب . فعناصر الدور السياسي العربي ليست عوامل ساكنة جامدة بل هي عوامل متطورة ومرتبطة بمسار تاريخي صاعد . كما ان القوى الراهنة الظاهرة في الميزان السياسي لا تشكل المعايير الكافية للحكم على هذا الدور لان ما في الواقع العربي من طاقات واستعدادات كامنة ، ومن تحولات تتعمق شروط انضاجها ، انمايشكل الجوهر الحقيقي والقاعدة الاساسية للدور السياسي المتنامي للوطن العربي .

فاعداء النهضة العربية ، قد ادركوا منذ وقت مبكر خطورة هذا الدور ، منذ تحققت وحدة مصر وسورية في ظل محمد علي وابنه ابراهيم خلال السنوات العشر 1830 ـ 1840 .

فمبعوث مترنيخ (بروك فون اوستن) في رسالته الى حكومته بعد زيارته لمصر بتاريخ 16ـ6ـ1833 (التي كشفت عنها الوثائق النمسوية) يقول : (ان ظاهرة انبعاث الروح القومية عند العرب هي اكثر ما يستلفت النظر) ويعتبر ذلك بمثابة ظاهرة مهددة لمستقبل الغرب والمصالح الغربية .

و (بالمرستون) وزير الخارجية البريطانية في العام نفسه1833 يعبر عن ذعره من احتمالات الوحدة العربية ، بطريقة صهيونية ، عندما يردد دعوة نابليون من قبله ، الى نشوء كيان يعترض طريقها .

وبعد عامين من ظهور كتاب (نجيب عازوريا) : (يقظة الامة العربية) عام 1905 الذي تنبأ فيه بالاصطدام الحتمي بين النهضة العربية وبين المشروع الصهيوني الذي يجري الاعداد له ، وبأن مصير العالم بأسره سوف يتوقف على الصراع بينهما . اي في عام 1907 ، كانت اللجنة المشتركة التي شكلتها حكومة (نريمان) البريطانية من جامعتي لندن وباريز ، للنظر في مستقبل الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية ، على ضوء تاريخ الامبراطوريات القديمة .. كانت تلك اللجنة قد انهت تقريرها بالاشارة الى الوطن العربي ، حيث تمتد الشواطىء الشرقية والجنوبية للبحر الابيض المتوسط ، ويقطن شعب تتوفر له كل اسباب النهضة والقوة .

وقد وظف اعداء الامة العربية تلك المعرفة المبكرة لمحاربة هذا الدور السياسي التاريخي الحتمي ، باساليب شتى ، والتركيز بخاصة ضد القوة الاساسية التي يمكن ان يعتمد عليها هذا الدور وهو (الوحدة العربية) . فبدون الوحدة تأكل التجزئة كل تقدم ، وتهدم كل قوة ، وبالوحدة يرتفع ذلك الدور السياسي الى مستواه التاريخي ويصبح قوة عالمية فاعلة . بالتجزئة تغيب قوة الوطن العربي مهما تجمعت له من عناصر القوة ، لذلك فان ادراك اعداء النهضة العربية ، قد تفننوا في تعميق التجزئة وخلق بنى فكرية واجتماعية متوالدة لها ، وفي محاربة كل فكرة او نضال او عمل وحدوي . وفي التآمر على كل خطوة وحدوية ، وفي تشجيع محاولات تشويه فكرة الوحدة وتزييفها من داخلها ، والهبوط بالوحدة من مستواها كحاجة مصيرية ومبدأ اساسي من مبادىء الحياة والدفاع عن الوجود العربي ، والتحول عن العمل الستراتيجي من أجل بناء الوحدة ، الى استهلاك شعار الوحدة في اللفظات الظرفية التكتيكية البعيدة عن مشاركة الجماهير وقيادة الطلائع الثورية واستلهام عقيدة الوحدة كثورة شاملة في حياة العرب المعاصرة .

لذلك كان التحالف الستراتيجي بين الاستعمار القديم والصهيونية من اجل خلق عائق تاريخي في وجه الوحدة العربية ، واستمرار هذا التحالف بين الامبريالية الامريكية والصهيونية من جهة، وعدم تطابق مفاهيم الاتحاد السوفياتي الايديولوجية واستراتيجيته مع الثورة العربية تطابقا يحقق الحد الادنى من الموازنة في مواجهة التآمر الدائم على النهضة العربية . كل ذلك قد جعل الدور السياسي للوطن العربي يتعرض لعمليات صعود وهبوط ، والى قفزات ونكسات كثيرة الانعطافات خلال العقود الماضية التي انقضت على نشوء الكيان الصهيوني .

المؤامرة الراهنة على الدور العربي

وبعد تلك المراحل ، وما انطوت عليه من مواجهات بين الوطن العربي وبين (ذاته) حيث التناقضات الراهنة تضعف دوره السياسي، وبينه وبين اعدائه ، وحيث يتعرض هذا الدور الى امتحان لم يشهده من قبل ، تأتي مؤامرة عزل مصر عن الجسم النضالي للامة العربية وتوقيع معاهدة الصلح مع العدو الصهيوني ، لتؤكد ان هدف هذه المؤامرة الاول هو تحويل الدور السياسي للوطن العربي عن مساره التاريخي ، والغائه وجعله تابعا للمخططات الصهيونية والامبريالية ، والقضاء على كل ما هو ذاتي ، ونضالي ، ومميز للهوية الحضارية العربية ، وعلى كل ما هو حي في وجود العرب وفي دورهم في الحياة المعاصرة .

وعندما يأتي احد منظري السياسة الامريكية ، والمستشار للشؤون القومية (زبنجنيو بريجنسكي) في حديثه في ندوته التلفزيونية لشبكة (C B S) قبل عام تماما (مساء الاحد في 7ـ5ـ1978) على ذكر النهضة العربية ، فيقول :

« هنالك منطقة اراد المرء ذلك ام لم يرد ، يتصاعد دورها السياسي والاقتصادي ، وتغدو مهمة اكثر فاكثر باضطراد ، ولا توجد فائدة في التحسر على هذه الحقائق .. او الايحاء بشكل او بآخر بان النفط مفسد .. الحقيقة هي ان العالم العربي يمر بنهضة سياسية والاقتصادية .. والسؤال المهم هو : لمن تكون هذه النهضة ؟ وفيما اذا كانت ستتم في اطار اعتدال سياسي وبروابط تعاون وثيق مع الغرب ، وتلاؤم سياسي مع اسرائيل . ام اذا كانت ستتم في اطار اضطراب متنام وراديكالية وتوارد مع اخصامنا الرئيسيين والذين يكنون عداوة لاسرائيل .. » .

ان هذه الاقوال تكشف عن ان اعداء الامة العربية يخططون للوطن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العربي على مستوى النهضة العربية ، ويركزون تآمرهم على مستوى ضرب القضية العربية والوطن العربي في صميم اهداف المرحلة التاريخية .. وقد كان العام الذي انصرم حافلا بالاحداث والشواهد التي تقدم الجواب الامبريالي والصهيوني : (لمن تكون النهضة) ؟

العربي على مستوى النهضة العربية ، ويركزون تآمرهم على مستوى ضرب القضية العربية والوطن العربي في صميم اهداف المرحلة التاريخية .. وقد كان العام الذي انصرم حافلا بالاحداث والشواهد التي تقدم الجواب الامبريالي والصهيوني : (لمن تكون النهضة) ؟

فالسؤال الذي طرحته الثورة العربية على نفسها ، والذي اجابت عليه من خلال الايديولوجية العربية الثورية واستراتيجية الثورة العربية ، التي تؤكد دور الوطن العربي في احداث تحول تاريخي في المنطقة في هذه المرحلة التاريخية ، بتحقيق الوحدة العربية ، وتحرير الوطن العربي وتصفية ركائز الامبريالية والصهيونية ، والقضاء على التخلف وارساء قاعدة انطلاق حضارية شاملة ..

ان هذا السؤال : « لمن تكون النهضة العربية ؟ » ، هو الذي يطرح ابعاد الجواب عليه :

ا ـ النهضة العربية لجماهيرها ، جماهير الامة العربية ، وعندئذ يتحدد الدور السياسي للوطن العربي على مستوى الثورة العربية ، والدور التاريخي لطلائعها الثورية .

ب ـ النهضة العربية كحقل للتسويات ، وعندئذ يتحدد الدور السياسي على مستوى الانظمة ، ويبقى الوطن العربي اسير التجزئة ، وحقلا للمساومات واشكال التبعية ، والاستغلال والمؤامرات والنكسات .

ج ـ خنق النهضة العربية ، وتمديد مراحل الانحطاط وتناقضاتها ، بتحويل الوطن العربي الى بيئة انقسامية ترسخ الاوضاع المصطنعة ، وتقدم فرصا دائمة لتثبيت الاحتلال الصهيوني والهيمنة الامبريالية ، وتوسيع عدوانها وطغيانها على الحقوق الطبيعية للشعب العربي والارض العربية وطمسهما للدور الحضاري التقدمي للامة العربية .

ان المؤامرة على الدور السياسي للوطن العربي تتركز اليوم في الحيلولة دون العرب ودون استخدام الاسلحة والقوى الاساسية التي تعتمد عليهما النهضة العربية وحركة الثورة العربية ، وهي :

ا ـ سلاح النفط : وتصريح اسحق رابين في 20ـ7ـ1977 يكشف عن تزويد الامريكيين لاسرائيل باسلحة خاصة تستخدم في الحالة التي يقرر فيها العرب جديا ايقاف ضخ النفط الى الغرب .

ب ـ سلاح الجماهير : وقد اخذت الانظمة القطرية والطبقات الرجعية على عاتقها مساعدة العدو على خنق هذه الطاقة الثورية التاريخية .

ج ـ سلاح الوحدة ، وقد استعانت المخططات المعادية للنهضة العربية بكل ما خلفته المرحلة الاستعمارية من تجزئة ومن عقلية ، ومصالح ، ونفسية ، بعيدة عن الفهم الموحد للتاريخ العربي والاستيعاب لحتمية الوحدة والاستعداد النضالي لمقاومة مخلفات مرحلة الانحطاط . لكي تخلق مضادات للوحدة وتزرع تناقضات جديدة في طريقها .

د ـ سلاح التضامن مع العالم الثالث وتثبيت سياسة عدم الانحياز وقد نجحت مؤامرات التحالف الامبريالي الصهيوني في ذدع بذور انقسامية في هذا العالم الجديد ، وجعلت سياسة عدم الانحياز في مستوى التنسيق الكمي والظرفي الذي ما يزال يفتقر الى الديناميكية الفاعلة المؤثرة في ميزان القوى العالمية .

ولكن الدور السياسي للوطن العربي ، الذي هو دور تاريخي ، يؤكد نفسه من خلال اكتشافه اولا لحجم التآمر والتحدي الذي يجابهه ، ومن خلال تبلور الوعي وتعميق النظرة الثورية والمنظور الانبعاثي للنهضة العربية ، ومن خلال اقتراب الجماهير العربية من معركتها ودورها التاريخي ، رغم كل المحاولات القمعية والتضليل الاعلامي .

فالحتمية التاريخية تقترب يوما بعد يوم بوجهها المكمل المسؤولية التاريخية .. وتأتي المفاجآت حول الوطن العربي وفي جواره ، حيث تفاجأ الامبريالية الامريكية والكيان الصهيوني بأوسع انفجار شعبي يقلب موازين القوى .. ليؤازر بوادر التحول التاريخي الذي بداته النهضة العربية ، لتعيد هذه المنطقة الى مكانها من الفعل التاريخي والحضاري في مصير الانسانية بكاملها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالغرب ، ووليده الكيان الصهيوني ، يستخدمان اليوم كل ما يملكان من سلاح في وجه النهضة العربية التي لم تستخدم بعد سوى القليل من اسلحتها .

وهي بلا شك ماضية في استخدامها كلها . وهي تجد في ثورتكم في هذا القطر ، انضج واقوى سلاح امتلكته حتى اليوم في مواجهة اعدائها الذين يحاربون بسلاح ضعفنا اكثر منهم بسلاح قوتهم ، بسلاح التجزئة والتخلف والفراغ الجماهيري في الوطن العربي ، اكثر منهم بسلاح التفوق التكنولوجي .

فالمعركة المفتوحة بين النهضة العربية واعدائها ، هي ان ترسم الطريق الصاعد للوطن العربي من ميزانية القوى العالمية ، لان هذه المعركة هي شرط النمو السريع والتفجير العميق للطاقات الكامنة في الوطن العربي . كما انها شرط نهاية الاعداء وزوال الانظمة الراسمالية والقوى الامبريالية والصهيونية ، لانها بقدر ما هي معادية للنهضة العربية ، معادية ايضا لمسيرة التاريخ .

---

(1) انظر ميشيل عفلق ، في سبيل البعث ـ مقالة (حزب الانقلاب) 1929 ، ط 19 ص 56 .

▪ محمد حسن علي

انتفاضة سنة 1787 العربية الثلاثية ضد حكم المماليك الأتراك في العراق

عندما عزمت على دراسة احوال العراق السياسية والاجتماعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، لتكون مدخلا لدراستي للحياة الادبية في الحلة (1) ، هالتني كثرة الثورات والانتفاضات الشعبية والوطنية ضد حكم الاتراك العثمانيين ، منذ وقوع العراق فريسة اطماع الدولة العثمانية (2) ، حتى نهاية الاحتلال العثماني في اوائل القرن العشرين ، وبخاصة في القرنين الاخيرين من الاحتلال ، فقد تميزا بكثرة تلك الانتفاضات وعنفها ، حتى تكاد لا تمر سنة من السنين في القرن التاسع عشر دون قيام تمرد مسلح في قبيلة من قبائل العراق ، او عشيرة من عشائره ، او عصيان في ريف من ارياف ، او انتفاضة شعبية في مدينة من مدنه ضد الحكم الاجنبي والحكام الدخلاء . ولعل من يتصفح كتب التاريخ التي تناولت حياة العراق في تلك الحقبة من الزمن سيراها مكتظة بتلك الحوادث والاضطرابات والانتفاضات (3) التي لم تنقطع حتى رحيل العثمانيين عن العراق سنة 1917 .

الا ان واحدة من ابرز تلك الانتفاضات ، كان قد استفحل امرها على السلطة ، وعمت معظم ارجاء العراق ، وهددت حكم الاتراك المماليك (4) بالسقوط ، وكاد الثوار فيها ان يدخلوا بغداد ، ويستولوا على مركز الوالي ، ايام سليمان باشا الكبير (1780 – 1802) ، ويسحبوا من تحته كرسي الولاية . تلك كانت انتفاضة سنة (1787) التي قادها ثلاثة من زعماء القبائل العربية في العراق وهم : الشيخ سليمان بن عبدالله الشاوي احد امراء عشيرة العبيد الذي كان يسكن بغداد ، والشيخ ثويني بن عبدالله شيخ عشائر المنتفك ، والشيخ حمد بن حمود رئيس قبيلة خزاعة في الفرات الاوسط ، والتي عرفت فيما بعد بالثورة الثلاثية .

لقد كان لكل واحد من هؤلاء الزعماء مكانة مرموقة في المجتمع العراقي عامة ، وفي قومه بشكل خاص ، اضافة لما يتمتع به من شخصية قوية ونفوذ واسع ، وتأثير كبير في حياة الناس . فقد ذكر المؤرخ عثمان بن سند (5) في كتابه (مطالع السعود) (6) عن الشيخ سليمان الشاوي انه « من افراد الدهر عقلا وحلما وكرما وشجاعة » (7) كما ذكر عنه انه يجمع الى نبل الاصل وشرف المحتد وعلو الهمة ، الثقافة الادبية العالية ، والشاعرية المتدفقة ، وانه كان ينتدب للملمات حتى عين في منصب (باب العرب) (8) . اما الشيخ ثويني فقد كان طموحا يتطلع الى ولاية البصرة والاستقلال بها (9) ، وكان ثويني هو الذي استعاد البصرة من الفرس بعد استيلائهم عليها ، سنة 1190 هـ / 1776م (10) .

اما الشخصية العربية الثالثة : وهو الشيخ حمد الحمود الذي كان يسيطر على منطقة الفرات الاوسط واهوارها من مقره بالحسكة (11) ، فقد كان ذا شخصية وثابة طموحة ، يأبى الضيم والهوان ، كما كان كريما وذا تأثير عظيم في حياة الناس ، حتى حيكت حول شخصه الاساطير (12) ، بقي الكثير منها يتردد على السنة الناس وفي مجالسهم الخاصة في العراق الى عهد قريب ، كما كان قليل الخضوع لسلطة الاتراك ، كثير التمرد على حكومة بغداد والخروج عليها والاصطدام بها (13) .

لقد اتفقت الشخصيات العربية الثلاثة على التمرد ضد حكم الاتراك ، والخروج على سلطة والي بغداد (سليمان باشا الكبير) وذلك بسبب فداحة الضرائب الثقيلة التي كانت تفرضها الحكومة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على العشائر العراقية من جهة ، وبسبب تعسف وغطرسة الموظفين الاتراك واستئثارهم بالسلطة دون ابناء البلاد من جهة اخرى مما كان يؤدي دائما الى تبرم تلك العشائر وسخطها على الحكم ، والانتفاض على الحكومة ، والتمرد عليها بشكل مستمر (14) ، وعدم خضوعها للسلطات القائمة الا خضوعا جزئيا ، وصار ولاء ابناء تلك العشائر وطاعتهم لشيوخها ورؤسائها ، وباتت سلطة الحكومة محدودة على العشائر ، وانحصرت بشكل رئيس في مراكز المدن الكبيرة ، وبعض الاقضية والنواحي ، حتى باتت كل محاولة من جانب الولاة لفرض نفوذهم على تلك القبائل والسيطرة عليها ، فاشلة ..

اما السبب المباشر في تلك الانتفاضة ، فقد كان في بدايته بسبب صراع دار بين الشيخ سليمان الشاوي وبين الكتخدا (15) (معاون الوالي) المسمى (احمد اغا المهردار) والمدعو ب (ابن الخربندة) (16) حين استشار الوالي الشيخ الشاوي بتعيين ابن الخربندة لهذا المنصب سنة 1200 هـ / 1786 م وان الشاوي عارض هذه الفكرة وابدى له خطل هذا الراي ، لعدم كفاءة ابن الخربندة لمثل هذا المنصب الرفيع بسبب وضاعته وسوء خلقه وجهله التام (17) ، الا ان الوالي لم ياخذ براي مستشاره الشاوي ، بل عمد الى تعيين ابن الخربندة لمنصب الكتخدا ، لانه من المماليك الاتراك مثله ، ولعل تعيين هذا المملوك في هذا المنصب قضى على امل الشيخ الشاوي بمنصب الكتخدائية ، لما يتمتع به من مكانة مرموقة لدى الوالي وما عرف به من سعة اطلاع وسداد راي وثقافة ادبية حتى صار مستشار الوالي في الامور العامة . ولما يتمتع به من كلمة نافذة باعتباره رئيس عشائر العبيد ، ولكن خطة المماليك التي كانت تهدف الى اقصاء الموظفين العراقيين من كل المناصب العالية في البلاد (18) قد اسقط في يد الشيخ الشاوي وحال دون تحقيق امله (19) . وحين تسلم ابن الخربندة منصبه ، فانه كان عارفا براي الشاوي فيه ، والعمل على عدم اسناد المنصب اليه . فمن الطبيعي بعد ذلك ان يبغضه وان يكيد له ، فصار يوغر عليه صدر الوالي ، ويحاول ان يوقع بينهما ، بل صار يوهم الوالي ان الشاوي يحتقر المماليك ، وانه طامع في الباشوية وفي ولاية بغداد . ولعله هو الذي اشاع نبا ترشيح سلطات الاستانة للشيخ الشاوي لباشوية بغداد ، مما اثار غضب الوالي وفزعه ، فوسط المقيم البريطاني في بغداد لتدارك الامر (20) ، كما عزم على الفتك به . ولم تخف نوايا الوالي على الشيخ الشاوي ، وما صار يضمره له من سوء ، وما يدبره من كيد ، نتيجة الوساوس والمخاوف التي اخذت تساوره على ولايته ، وتاكد الشاوي انه غير ناج من كيد الوالي ومعاونه ، خاصة بعد ان صادر الوالي كل املاكه (21) فاضطر الى الفرار من بغداد والتوجه الى منطقة (عكركوف) وحيث تقطن اعداد كبيرة من ابناء عشيرة العبيد ، ومن هناك اعلن العصيان على الوالي (22) ، وعلى الحكم التركي في العراق . وما ان انتشر خبر انتفاضة الشاوي بين العشائر العربية حتى وافته وفودها ونجداتها (23) ، ثم راسل الشيخ الشاوي من مركز تجمعه ، الشيخ ثويني في المنتفك ، وطلب منه المؤازرة ، فلقيت الدعوة هوى في نفس ثويني ، لانه كان يتوق الى توسيع دائرة مشيخته وتقوية نفوذه ولانه ما زال يطمع في السيطرة على البصرة ، وبالتالي تقليص نفوذ الاتراك في العراق ، تمهيدا لطرد الحكم الاجنبي منه ، لذلك تحفز الشيخ ثويني وايد الشاوي ووعده بالدعم . وحين علم الوالي بذلك ادرك خطورة الموقف ، وخشي استفحال امر الثائر العربي ، فجرد حملة قوية عهد بقيادتها لمعاونه ابن الخربندة ، اتجهت صوب عكركوف لملاقاة تجمع الشاوي . ولكن الشيخ الشاوي وجد انه لا قبل له بملاقاة جيش الوالي المتفوق عليه في العدة والعدد ، فاضطر الى الانسحاب مع اتباعه من ابناء العشائر الى جهات تكريت ، ثم توجه الى الشمال باتجاه الخابور ، وتركوا اثقالهم وبعض عددهم ومواشيهم ، فاستولى عليها جيش الوالي (24) ، ورجع بها الى بغداد ، ظنا منه انه كسر شوكة الشيخ الشاوي واتباعه ، وانهى تمرده وعصيانه . ولكن الثائر العربي اعاد تجميع اعوانه من جديد ، فتجمع معه عدد كبير من ابناء العشائر العربية ، وزحف مرة اخرى باتجاه بغداد . ففزع الوالي عند سماع هذا الزحف ، فساق قوة اخرى لقتاله ، فاصطدمت القوتان بالقرب من الفلوجة (25) ، ودارت رحى معارك عنيفة ، انكسر بعدها جيش الحكومة ، وهزم بعد ان قتل عدد من افراد الحملة ، واسر عدد آخر منهم ، بضمنهم قائد الحملة (خالد اغا) وعدد آخر من اركانها وضباطها (26) . فعزز هذا الانتصار المدوي الثقة في نفوس الثوار العرب ، واشعرهم بالقوة والمنعة ، وبالقدرة على مناجزة المماليك وقواتهم ، فتجمع عدد غفير منهم مع القائد العربي ، وبعد شهر واحد من ذلك الانتصار ، زحف الثوار صوب بغداد ، فاستولوا على الكاظمية ، ثم دخلوا الكرخ بعد قتال عنيف (27) ، وبهذا اراد « الشاوي ان يؤسس دولة عربية في العراق ... حتى كاد الامير العربي يستولي على بغداد سنة 1201 » (28) ، ففزعت الحكومة وجمع الوالي بكل سرعة قوات اخرى لصد الزحف العربي الجديد ، وانقاذ ملكه مما يتهدده من سقوط وشيك ، وساق للتجنيد عددا كبيرا من ابناء بغداد (29) ، ثم تسلم بنفسه قيادة الدفاع ، وكادت الانتفاضة تطيح بحكم الوالي المملوك ، وتدخل بغداد « لولا عشيرة عقيل التي صدته عنها » (30) ، ولولا اتباعه سلاح الخديعة والتفريق بين الثوار من انصار الشيخ الشاوي واخوته واعوانه ، فتخلى عنه اخوته وجمع من قواته (31) وحينذاك رجحت كفة جيش الوالي ، فتراجعت قوات الشاوي ، وتقهقر هو ، ولاذ بالبادية . ولكن قوات الحكومة بقيت تتعقبه ، فاتجه صوب المنتفك ، مستنجدا بالشيخ ثويني ، فوجده متاهبا للنصرة والقتال (32) ، واذ اجتمعا ، قررا بعد مناقشة الموقف ، وتبادل الراي دعوة الشيخ حمد الحمود شيخ الخزاعل للانضمام اليهما . وما ان دعي الشيخ حمد لذلك حتى استجاب لهما في الحال ، واعلن العصيان على الحكومة في منطقتي الفرات الاوسط والجنوبي ، ثم تحرك الشيخ ثويني فاستولى على البصرة سنة 1787م ، وطرد متسلمها التركي (ابراهيم افندي) (33) ، واسس فيها حكما عربيا (34) ، وبذلك تم للثوار العرب احتلال الجزء الاكبر من وسط العراق والجزء الجنوبي منه برمته ، وقرر الزعماء الثلاثة انهاء حكم المماليك ، وانشاء كيان عربي في العراق كله يتبع للسلطان العثماني ، ويستمد شرعيته من رضى اهل البلاد وترشيحهم ، فسلكوا الطريقة المالوفة آنذاك ، ونظموا (مضبطة) رفعوها الى السلطان العثماني ، وقعها وجهاء البصرة واشرافها ورؤساؤها والشخصيات الوجيهة فيها ، وقسم كبير من رؤساء العشائر العراقية ، طلبوا فيها تعيين الشيخ ثويني واليا على العراق باجمعه ، كما ذكروا في المضبطة : انه لا يصلح لولاية العراق عموما ولوزارة بغداد وتامين الطرق الا ثويني العبدالله . فانه هو الاسد الذي يحميها من العجم (35) ، مكررا بذلك طموح جده في ملك العراق (36) .

وما ان تناهى للوالي سليمان الكبير ما آل اليه تجمع الثوار ، وما

صاروا اليه من قوة ، وما سمعه من امر (المضبطة) التي رفعوها الى المراجع المختصة في الباب العالي ، حتى ثارت ثائرته ، وفقد صوابه ، وخشي خشية شديدة ان تلبي السلطات العليا في الاستانة نداء الثوار الثلاثة ، وتحقق لهم مطلبهم ، لانه يعرف منزلتهم لدى تلك السلطات ، كما يعرف سطوتهم وشدة باسهم ، وتاثيرهم في الاحداث ، كما يعرف مكانتهم لدى قبائلهم خاصة ولدى ابناء العراق عموما ، كما كان يعرف ان قيام ثورة عربية موحدة حينذاك معناه تهديد حكم المماليك في العراق ، وتقويض سلطتهم نهائيا ، بل قد يتعرض الحكم التركي برمته للزوال في العراق ، ولما كان يدرك انه من العسير عليه تماما ان يقابل تلك القوات الضخمة الضاربة الساخطة على الحكم ، والتي تالفت من تحالف ثلاث عشائر عراقية كبيرة ، اضافة الى من انضم اليها من ابناء المدن والقرى والعشائر الاخرى من ابناء العراق ، لذلك عمل الوالي بسرعة ونشاط وخبث ، فلجأ الى سلاح الخديعة والوقيعة كعادة الحكام آنذاك فعمل على تفرقة العرب انفسهم ، او باستمالة بعضهم باغداق الاموال (36 أ) ، او بتغليب شخص على آخر في رئاسة القبيلة (37) لضرب ابناء القبيلة الواحدة بعضهم ، او ضرب العراقيين ببعض ، فقد كان الولاة حينذاك « يستعينون بالاكراد لمحاربة العرب » (38) « ويستخدمون العرب في ثورات الاكراد » (39) « وبحكام الموصل لمحاربة اهل الوسط والجنوب » (40) ، لذلك « اصدر الوالي امره كالعادة الى حكام كردستان بالمعاونة ... فقام ابراهيم باشا البابانى متصرف الوية كويسنجق وحرير وبابان ، ومتصرف درنه وباجلان بتجنيد المتطوعين » (41) كما طلب المدد من والي الموصل سليمان الجليلي فارفده بخمسمائة رجل من الينكجرية (42) ، فتالفت بذلك اضخم حملة عسكرية تشنها الحكومة على عشائر العراق وابنائه الرافضين للحكم الاجنبي ، الساخطين على الجور والفساد ابان الحكم العثماني، ثم « تسلم الوالي بنفسه قيادة الجيش وسار به الى البصرة ... بحوالي عشرين الف مقاتل » (43) . ولكن ذلك كله لم يفت في عضد الثوار ، وادركوا الحيلة اللئيمة التي حاولت السلطة اتباعها ، ولم تؤثر خطتها في سياسة (فرق تسد) في تجمع الثوار ، ولا الحشود الفخمة التي تالفت لمحاربتهم او في اضعاف معنوياتهم . فاستعدوا لمقابلة جيش الوالي الجرار المتجه صوب الجنوب ، والذي قصد منطقة الخزاعل في الفرات الاوسط اول الامر اواخر صيف سنة 1787 م ، فوجد الشيخ حمد الحمود متاهبا للدفاع والمناجزة ، فتصدى الخزاعل لجيش الحكومة ، وابدوا مقاومة باسلة، واوقعوا به خسائر جسيمة، الا انهم لم يستطيعوا الصمود للنهاية بوجه جيش الحكومة طويلا ، بسبب ما كان لديه من اسلحة حديثة آنذاك ، وللاعداد الضخمة فيه ، فتشتت جمع الخزاعل (44) وتراجع الشيخ حمد مع جموع من قواته الى الجنوب ، منظماً الى حليفيه الشيخ ثويني والشيخ سليمان الشاوي في المنتفك ، فنظم هؤلاء قواتهم من جديد ووحدوها، وجمعوا اكثر من عشرين الف مقاتل (45) من الخيالة والمشاة ، وساروا لملاقاة جيش الوالي الزاحف ، فالتقوا به في موقع يسمى (ام الحنطة) (46) ، فحدثت معركة رهيبة ، اشترك فيها الوالي نفسه ، وقاتل بضراوة المستميت الذي يتقرر مصيره ومصير حكم المماليك ونفوذهم بنتيجة المعركة ، كما استبسلت – من الجهة الاخرى – القوات العربية ، وحاربت بشجاعة وضراوة نادرتين ، لانها كانت – هي الاخرى – تعرف ، ان على قتالها يتقرر مصيرها ووجودها ، كما انها كانت تدرك ان انتصارها في هذه المعركة يعني زوال حكم المماليك ، وانحسار ظل العثمانيين عن العراق ، فكانت تقاتل من اجل شرف العراق وكرامة العرب ، فنزل الى الميدان اكثر من عشرة آلاف فارس مرة واحدة ، يؤازرهم مثلهم من المشاة (47)، وبقي القتال سجالا بين الطرفين ساعات طويلة من يوم الرابع من محرم سنة 1202 هـ/1787 م (48) حتى مالت كفة الحرب لصالح جيش الوالي ، واندحرت جيوش الانتفاضة العربية ، بعد ان سقط منها زهاء ثلاثة آلاف شهيد (49) من الخيالة، وعدد كبير من المشاة «ادبر بعدها عسكر ثويني ، فكانوا عرضة للقتل والاسر ... وبني الوالي من رؤوس عرب المنتفك ثلاث منارات » (50) ، ولكن القواد العرب الثلاثة استطاعوا النجاة بعد ان بقوا يديرون دفة القتال بانفسهم حتى نهاية المعركة (51) .

وهكذا انتهت انتفاضة جريئة رائدة ، قامت وسط اعتى حكم اجنبي عرفه العراق ، اتسم بالظلم والفساد ، وتبدد حلم كبير كان يراود العراقيين بالخلاص من الحكم الاجنبي الذي ابتليت به الامة العربية منذ دخول المغول بغداد سنة 656 هـ ، والذي كان من الممكن ان تبدأ به فترة حكم عربي ، واستقلال ذاتي ، يتطور بعدها الى استقلال تام ، فضاع ذلك الحلم ، وبقي املا يراود ابناء العراق بثورة عربية اخرى ضد الحكم الاجنبي ، الا انها تأخرت، ولم تتحقق بالشكل والصورة ذاتها ، وباتفاق كلمة العراقيين من ابناء المدن والعشائر ، الا بعد حوالي قرن ونصف القرن من الزمان ، وذلك في ثورة العشرين ضد حكم الاحتلال الانكليزي في العراق ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش :

1 – الدراسة هي رسالة ماجستير بعنوان (الشعر في الحلة بين سنتي 1824 – 1917) في كلية الاداب بجامعة بغداد 1977 .

2 – احتل الاتراك العثمانيون العراق لاول مرة سنة 941 هـ/1534 م ايام السلطان سليمان القانوني ، ثم اخرجهم الفرس منه سنة 1032 هـ/1623م ايام الشاه عباس الصفوي ، ثم عاد الاتراك الى العراق مرة اخرى ، وفتحوا بغداد ثانية سنة 1048 هـ/1638 م ايام السلطان مراد الرابع ، وبقوا فيه حتى نهاية الحرب الاولى سنة 1917 م .

3 – ينظر عن تلك الثورات والاضطرابات والانتفاضات :
مطالع السعود – مخطوط – الورقة 157 ، حديقة الزوراء ص 30
اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص 199 ، 241 ، 292
تاريخ العراق بين احتلالين 22/6 ، 39 ، 41 ، 77 ، 82 ، 83 ، 87 ، 93 ، 94 ، 98 – 103 ، 112 ، 114 ، 120 ، 139 ، 222 ، 227 ، 287 ، 291 ، 293
20/7 ، 88 ، 97 ، 207
52/8
بغداد كما وصفها السواح الاجانب ص 29 ، رحلة فريزر الى العراق سنة 1834 . ص 174
الشعر السياسي العراقي 64–75
مجلة لغة العرب 191/1931/3 .

4 – حكم بغداد من المماليك الاتراك اثنا عشر واليا على مدى اثنين

وثمانين عاما بين سنتي (1749 – 1831 م) وهم :
1 – سليمان باشا 1750 – 1762
2 – علي باشا 1762 – 1763
3 – عمر باشا 1763 – 1775
4 – مصطفى باشا 1775 – 1776
5 – عبدالله باشا 1776 – 1778
6 – حسن باشا 1778 – 1779
7 – سليمان باشا الكبير 1780 – 1802
8 – علي باشا 1802 – 1807
9 – سليمان باشا الصغير او (القتيل) 1808 – 1810
10– عبدالله باشا 1810 – 1813
11– سعيد باشا بن سليمان باشا الكبير 1813 – 1816
12– داود باشا 1816 – 1831
ينظر عن حياتهم وسلوكهم : تاريخ العراق بين احتلالين ج6 . والمماليك في العراق .

5 – عثمان بن سند النجدي الوائلي البصري (1766–1826م) مؤرخ واديب ، له مؤلفات عديدة ، ارخت حياة العراق في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر ، اشهرها كتابه (مطالع السعود) .
ينظر عن ترجمته :
خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق – المقدمة بقلم محمد بهجة الاثري صفحة 2 – كب
والاعلام 367/4 ط 3 .

6 – كتاب (مطالع السعود) اشهر كتب عثمان بن سند ، ما زال مخطوطا في مكتبة الاثار ببغداد تحت رقم (233) ، وهو يحوي اخبار داود باشا والي بغداد ، وقد ارخ له بين سنتي 1188–1242 هـ .

7 – مطالع السعود – الورقة (112) ، خمسة وخمسون عاما ص 38 .

8 – صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة 209/1 .
ووظيفة (باب العرب) تختص بادارة شؤون القبائل العربية في مراجعاتها الرسمية لديوان الوالي ببغداد .
كما ينظر عن سيرة سليمان الشاوي وثقافته :
الاعلام 191/3 ط 3 .

9 – صور من تاريخ العراق 209/1 .

10– كان الفرس قد استولوا على البصرة سنة 1190 هـ/1777 م ، واسروا عددا من ابنائها ، كما اسروا المتسلم التركي (سليمان بك) وهو نفسه الذي سمي فيما بعد ب (سليمان باشا الكبير) بعد تقلده ولاية بغداد 1193 هـ ، ولكن الفرس اضطروا الى الجلاء من البصرة واطلاق سراح الاسرى بعد ان هاجمتهم امداد كبيرة من ابناء المنتفك ، كان على راسها الشيخ ثويني واخوه ثامر ، فمزقت جيوش الفرس ، وهزمتها ، ودخل المنتفكيون البصرة ، ثم اعادوا لها المتسلم السابق .
ينظر عن ذلك :
مختصر تاريخ بغداد ص 207 وما بعدها ، صور من تاريخ العراق 209/1 ، 210 .

11– قصبة الحسكة قديما هي مدينة الديوانية حاليا . انظر تاريخ الديوانية ص 14 ، 19 .

12– انظر : مجلة التراث الشعبي العدد 11 السنة الخامسة لسنة 1974 ص 145 .

13– ينظر عن تمرد حمد الحمود المتكرر على الحكومة واصطدامه بها :
مطالع السعود الورقة 90 ، خمسة وخمسون عاما 22 ، 37
دوحة الوزراء 173 ، 180
تاريخ العراق بين احتلالين 87/6 ، 93 ، 94 ، 101
صور من تاريخ العراق 210/1 .

14– ينظر عن تعسف السلطة وتمرد القبائل :
مطالع السعود الورقة 90
حديقة الزوراء 12 ، 13
غاية المرام 179 ، 185 ، 189
تاريخ العراق بين احتلالين 39/6
صور من تاريخ العراق 125/1 – 128 .

15– الكتخدا تعني معاون الوالي او نائبه ، وقد تلفظ (كخيا ، او كهيا ، او كهية) وهي فارسية الاصل تعني الشريف او رئيس القرية او رئيس صنف الصناعة ، او القهرمان .

16– الخربندة تعني : سائس خيل الجيش .

17– صور من تاريخ العراق 208/1 .

18– انظر عن خطة المماليك في اقصاء ابناء العراق عن كل المناصب العالية في الدولة : المماليك في العراق : 17 ، تاريخ العراق بين احتلالين 96/6 .

19– ذكر جعفر خياط ان الشيخ الشاوي كانت تراود ذهنه فكرة تولي ولاية بغداد او منصب الكهية على اقل تقدير ، تمهيدا للوصول الى الولاية .
صور من تاريخ العراق 208/1 .

20 عندما شاع نبا تعيين الشاوي للباشوية استرحم الوالي من المقيم البريطاني ببغداد ان يسرع بمراسلة السفير البريطاني في استانبول ليتوسط في الامر ، لان المقيم البريطاني هو الذي كان يسند الوالي لدى سلطات استانبول ، وهو الذي كان قد توسط في تعيينه لولاية بغداد سنة 1780 م .
انظر : اربعة قرون من تاريخ العراق ص 225 .

21– اربعة قرون من تاريخ العراق ص 199 .

22– دوحة الوزراء 182 ، المماليك في العراق 61 .

23– دوحة الوزراء 182 ، المماليك في العراق 61 ، تاريخ العراق بين احتلالين 96/6 ، صور من تاريخ العراق 212/1 .

24– دوحة الوزراء 182 ، المماليك في العراق 61 .

25– دوحة الوزراء 185 ، تاريخ العراق بين احتلالين 99/6 .

26– خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ص 40 ، دوحة الوزراء ص 185 .

27– صور من تاريخ العراق 213/1 .

28– مختصر تاريخ بغداد ص 213 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

29ـ المماليك في العراق ص 61 .

30ـ مختصر تاريخ بغداد ص 213 . وانظر ايضا : خمسة وخمسون عاما ص 40 .

31ـ صور من تاريخ العراق 214/1 .

32ـ صور من تاريخ العراق 214/1 .

33ـ خمسة وخمسون عاما ص 41 .

34ـ المماليك في العراق 62 ، تاريخ العراق بين احتلالين 100/6 .

35ـ مطالع السعود الورقة 113ـ114 مخطوط ، خمسة وخمسون عاما ص 42 .

36ـ ذكر بعض المؤرخين الاتراك ان سعدون شيخ المنتفك كان يحاول الخروج على الدولة ليكون ملكا على العرب . انظر : صور من تاريخ العراق 126/1 .

136ـ الحياة في العراق قبل قرن ص 68 .

37ـ من ذلك ان هذا الوالي راسل حمود بن ثامر بن سعدون لتسليمه رئاسة قبيلة المنتفك بدل الشيخ ثويني رئيسها الحالي ، مقابل وقوفه الى جانب الدولة ضد عمه ثويني ، للايقاع بينهما ، وضرب الواحد منهما بالآخر . انظر : خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ص 43 .

38ـ مطالع السعود ، مخطوط الورقة 77 .

39ـ المماليك في العراق ص 59 .

40ـ الشعر السياسي العراقي ص 15 .

41ـ خمسة وخمسون عاما ص 42 ، المماليك في العراق ص 62 .

42ـ غاية المرام ص 190 .
والينكجرية معناها العسكر الجديد ، او الجيش الحديث .

43ـ المماليك في العراق ص 62 .

44ـ تاريخ العراق بين احتلالين 101/6 .

45ـ دوحة الوزراء ص 187 ، تاريخ العراق بين احتلالين 102/6 .
صور من تاريخ العراق 217/1 .

46ـ تاريخ العراق بين احتلالين 102/6 .
صور من تاريخ العراق 217/1 .

47ـ تاريخ العراق بين احتلالين 102/6 .

48ـ دوحة الوزراء ص 187 .

49ـ تاريخ العراق بين احتلالين 102/6 ، صور من تاريخ العراق 217/1 .

50ـ مطالع السعود ، مخطوط ـ الورقة 114 ، خمسة وخمسون عاما ص 43 .

51ـ صور من تاريخ العراق 217/1 .

ثبت المصادر

1 ـ اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ـ جيمس هيملي لونكريك ترجمة ـ جعفر خياط ط 3 مط البرهان ـ بغداد 1962 .

2 ـ الاعلام ـ خيرالدين الزركلي . ط 3 .

3 ـ بغداد كما وصفها السواح الاجانب في القرون الخمسة الاخيرة جمعه وترجمه عن الالمانية : سعاد هادي العمري ، مط دار المعرفة ـ بغداد 1954 .

4 ـ تاريخ الديوانية قديما وحديثا ـ الحاج وداي العطية ـ المط الحيدرية ـ النجف 1954 .

5 ـ تاريخ العراق بين احتلالين ـ عباس العزاوي ج 6 ـ بغداد 1954.

6 ـ حديقة الزوراء في سيرة الوزراء ـ عبدالرحمن بن عبدالله السويدي. تحقيق الدكتور صفاء خلوصي مط الزعيم ـ بغداد 1962 .

7 ـ الحياة في العراق منذ قرن ـ بيير دي فوصيل ـ ترجمة الدكتور اكرم فاضل . دار الجمهورية ـ بغداد 1968 .

8 ـ خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق ـ وهو مختصر كتاب (مطالع السعود) لعثمان بن سند الوائلي . اختصره الشيخ امين الحلواني. المط السلفية ـ القاهرة 1371 هـ .

9 ـ دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء تاليف الشيخ رسول الكركوكلي ـ ترجمة موسى كاظم نورس مط كرم ـ بيروت .

10ـ رحلة فريزر الى العراق سنة 1834 ـ جيمس بيلي فريزر ـ ترجمة جعفر خياط . مط المعارف ـ بغداد 1964 .

11ـ الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ـ ابراهيم الوائلي ط 2 . مط المعارف ـ بغداد 1978 .

12ـ صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة . جعفر خياط حـ1 مط دار الكتب ـ بيروت 1971 .

13ـ غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ـ ياسين خيرالله العمري . مط البصري ـ بغداد 1968 .

14ـ مختصر تاريخ بغداد ـ علي ظريف الاعظمي ـ مط الفرات ـ بغداد 1926 .

15ـ مطالع السعود في اخبار اعلم الوزراء واعظمهم داود (مخطوط) عثمان بن سند الوائلي البصري .
موجود في مكتبة الآثار العامة ببغداد برقم 233 .

16ـ المماليك في العراق . احمد علي الصوفي . مط الاتحاد الجديدة ـ الموصل 1952 .

17ـ مجلة التراث الشعبي . العدد /11 السنة الخامسة لسنة 1974 .

18ـ مجلة لغة العرب . العدد /3 لسنة 1931 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقدمة طللية

كان الحنينُ مَـدى عذباً ،
وكان لنـا
من وجهها كوكبٌ في الليل سيّارُ
هذا دخانُ القرى ما زال يتبعنـا
وملءُ أحلامنا زرعٌ وأجنحـةٌ
وصِبْيةٌ ،
وطريق في الحقول الى الموتى ،
وصبّـارُ
فملتقى الارض بالافق الذي اشتعلتْ
ألوانه شـفقاً .
فالقاطراتُ التي غابت مُولولةً
في بؤرة الضوءِ ،
فالحزنُ الذي هطلتْ
عليَّ أمطارُه يومـاً ، فصرت الى
طَيْرٍ ،
وسافرتُ من حزن الصبيِّ الى حزن الرجالِ ،
فكل العمرِ أسـفارُ !

★

يا صاحبيَّ قِفا ! فالشمس قد رجعت
ولم تَعِدْ بغـدٍ .
كل المقاهي انتظارٌ ،
ساء ما فعلت بنا السنونُ التي تمضي
ونحن على موائـدٍ في الزوايا ،
ضارعين الى شمسٍ تخللتِ البللورَ واهنـةً
ولامست جلدَنا المعتلَّ وانحسرت
عنـا الى جارِنا
فما نعمنـا ، ولم ينعم بهـا الجارُ !

يا صاحبيَّ !
أخمرٌ في كئوسكما
أم في كئوسكما همٌ وتذكارُ *
وما الذي تنفع الذكرى اذا نكأت
في القلب جرحا ، علمنا لا دواء له
حتى نعودَ ، وما يبدو أن أقتربت
أيامُ عودتنا ، والجرحُ نَغّارُ
ها نحن نفرط فوق النهر وردتنا
وتلك أوراقها تنـأى ، ويأخذها
وراء أحلامنا موجٌ وتيّـارُ !
يا صاحبيَّ ! أحقـاً أنها وسِعَتْ
أعداءها ،
وجفتْ أبناءها الدارُ ؟
لو أنها حوصرت حتى النهايةِ
حتى الموتِ !
لو سَحبت على مفاتنهـا
غلالةً من مياه النيلِ واضطجعتْ
في قاعـهِ !
لو سفتها الريحُ فانطمرتْ
في الرمل ، واندلعتْ
من كل وردةِ جُرحٍ وردةٌ
فالمدى عشبٌ ونوّارُ !
هذا دخان قراها يقتضي دَمَنا
وملءُ أحلامنـا ذئبٌ نَهشُ لهُ
نسقيه من كأسنا الذاوي ،
ونسأله عنها ،
وننهـارُ !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اشجار الاسمنت

يُقبلُ الوقتُ ويمضي
دون أن ينتقلَ الظلُّ ،
وهذا شجرُ الاسمنتِ ينمو
كنبات الفِطرِ ،
يكسو قشرةَ الارضِ ،
فلا موضعَ للعشب ،
ولا معنى لهذا المطر الدّافقِ
فوق الحجر المُصمتِ
لا يُنبتُ الا صدأً ،
أو طُحلباً دون جذور !

★

تُقبلُ الريحُ وتمضي
دون أن تعبُرَ هذا الصمتَ
أو تقوى على حمل استغاثات القُرى
والسفنِ الغرقى ،
وهذا شجر الاسمنتِ في كلِّ مكانٍ ،
يتمطى كالشياطينِ ،
ويصطادُ العصافيرَ التي تسقط كالاحجارِ
في أجهزة الرادارِ
أو تُشنقُ من أعناقها الزغبِ
على أسلاكِ آلاتِ استراقِ السمع ،
في تلك السموات التي نعرف من شرفاتنا
أن العصافيرَ تموت الآن فيها
حينما يرتطم السربُ ،
فتهتزُ قرونُ المعدنِ الوهاجِ ،
في الضوءِ الاخير !

★

يُقبلُ الليلُ ويمضي
دون أن نشبعَ من نومٍ ،
وهذا شجرُ الاسمنتِ يلتف علينا
والمواليدُ الذين اعتاد آباؤهم الصمتَ
يجيئون قِصارا ،
ناقصي الخِلقةِ ، لا يخرجُ من أفواههم صوتٌ
ولا [illegible] خصاهم
والنفايات التي تلفِظُها الشهوةُ في كل صباحٍ
سأما ، لا شبعا ،
توضعُ أكداساً على الابواب ،
والآلاتُ تُلقي غيرها زُبدا وخمرا ،
في النهيراتِ التي تُفضِي الى الباعةِ
والارضُ تدور !

احمد عبد المعطي حجازي

باريس 20-3-1979

---

* تضمين من بيت المتنبي :

يا ساقييَّ أخمرٌ في كئوسكما
أم في كئوسكما هم وتسهيد

الوطن العربي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1 ـ السكان ، عددهم ، توزيعهم ،

● تتناول هذه الدراسة جانبا من مسالة السكان في الوطن العربي .

ويقتصر هذا الجانب على التالي :

1 ـ محاولة اجراء تقدير سكاني عام .
2 ـ توزيع السكان جغرافيا واجتماعيا .
3 ـ معدل النمو والزيادة الطبيعية .
4 ـ عوامل التزايد العالي السريع .

ولا تتناول الدراسة موضوعات اخرى مثل :

1 ـ الجغرافية القومية ـ توزيع السكان حسب القومية (العرب والاقليات)
2 ـ الجغرافية الدينية والمذهبية ـ توزيع السكان حسب الدين والمذهب
3 ـ الجغرافية اللغوية ـ توزيع السكان حسب اللغة .
4 ـ فئات الاعمار ـ توزيع السكان حسب السن .
5 ـ الذكور والاناث ـ توزيع السكان حسب الجنس .
6 ـ توزيع القوة العاملة حسب العمر والجنس والمهنة .
7 ـ الهجرة ـ اتجاهات الهجرة الداخلية والخارجية .

وسوف يعالج هذا كله في دراسات اخرى لاحقة .

● مشكلة السكان في الوطن العربي ●

ان بحث مشكلة السكان في الوطن العربي ، يواجه مشاكل عدة . ولعل أهم هذه المشاكل التالي :

1 ـ عدم وجود احصاءات دقيقة وشاملة ، في معظم الاحيان .

الجغرافية البشرية

معدل نموهم ، عوامل التزايد السريع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

◆ ناجي علوش

ذلك ان الاحصاءات الدقيقة لم تطبق تطبيقا شاملا . وحيث جرت محاولة لتطبيقها ، اعترضت التطبيق عوامل مختلفة ، منها عدم تعود الناس على الدقة ، ومنها عجز الاجهزة ، او وجود قصور فيها .

2 ـ هناك بلدان مثل لبنان لا تجري احصاءات فيها ، لان الاحصاءات قد تغير الموازين السياسية .

3 ـ هناك بلدان مثل الخليج العربي وبلدان النفط عموما ، حيث يكثر المهاجرون العرب ، وغير العرب ، ويعطي العدد الشامل عدد المقيمين ، وليس عدد المواطنين فقط . ويجب الانتباه هنا لعدد المواطنين .

4 ـ عدم وجود احصاءات سنوية لمتابعة العدد الحقيقي للسكان ، ولذلك نجد من يعتمد على احصاءات قبل خمس او سبع او عشر سنوات ، ثم يلحق الاضافات على اساس تقديري .

ولذلك نجد ارقاما متفاوتة ، تتراوح بين المائة مليون والمائة والخمسين. فهي مثلا 768 ر 114 (1) حسب تقديرات سنة 1965 عند الدكتور محمد صبحي عبد الحكيم ، في كتابه المنشور سنة 1970 بعنوان «جغرافية الوطن العربي» . وهي 125 مليون نسمة حسب تقديرات 1970 عند الدكتور فيليب رفلة واحمد سامي مصطفى في كتابهما : « جغرافية الوطن العربي »(2) ويبلغ نفس المقدار عند مصطفى الحاج ابراهيم والياس بطحيش في كتابهما : « جغرافية الوطن العربي »(3) .

ومن اسباب هذه الاختلافات ان الكتب لم تذكر الصومال او موريتانيا، لانهما لم تكونا قد استقلتا او انضمتا للجامعة العربية .

وساحاول هنا ان اضع جدولا يستند الى آخر المعلومات المتوافرة :

القطر	السنة	العدد	ملاحظات
المغرب	1978	19ر150	
موريتانيا	1978	1ر370	
الجزائر	1978	18ر500	
تونس	1978	6ر200	
ليبيا	1978	2ر620	وهناك حوالي نصف مليون من غير الليبيين .
مصر	1978	40ر230	
السودان	76/77	18ر200	
الصومال	1978	3ر440	
فلسطين		3ر000	
الاردن	1976	2ر840	منتصف العام
لبنان	1976	3ر200	تقدير
سورية	1976	7ر595	تقدير منتصف 1976 . و 6ر305 احصاء 1970 .
اسكندرون		4ر000	مع الارض العربية المحتلة (ديار بكر ، مرعش ، الخ)
العراق	1977	12ر290	بتاريخ 17–10–1977 ما عدا العراقيين في الخارج ، والبالغ عددهم 141720 تقديرا .
الاحواز		40000(4)	
السعودية	1976	7ر432	منتصف العام(5)
ج ع يمنية	1977	7ر050	تقدير واول احصاء سنة 75 كان 6ر471ر193
اليمن الديمقراطية	1977	1ر770	تقدير اول احصاء 1ر590 سنة 1973
عمان	1976	791	هناك تقديرات انه يبلغ 1ر500
الامارات المتحدة	1976	737	و655ر937 حسب احصاء 1975
قطر	1976	185	عدد القطريين منهم لا يصل النصف .
الكويت	1977	1ر129	994837 احصاء سنة 1975 .
البحرين	1976	265	منهم 227 الف بحراني .
المجموع		165ر984	

وبالطبع ، فانني لا استطيع ان أزعم ان هذه الارقام دقيقة ، لان فيها ثغرات هامة فهي :

1 ـ تعود لسنوات مختلفة ، 76 ، 77 ، 78 ، وبعضها لا يعود الى سنوات.

2 ـ تعود الى مصادر مختلفة .

3 ـ يعود بعضها الى احصاءات ،وبعضها لتقديرات ،وبعضها الى تقديرات عائدة لاحصاءات ، وهذا الاغلب .

4 ـ تعود الى احصاءات وتقديرات لا يعرف مدى دقتها .

5 ـ لا تشير الى عدد المقيمين الاصليين والوافدين في اقطار مثل السعودية واقطار الخليج وليبيا .

ومع ذلك ، فليس هناك امكانية الآن للحصول على ارقام ادق .
هل هذا الرقم معقول ؟

انه معقول ، كما يبدو ، من العودة لمختلف الدراسات والاحصاءات ، وهو يؤكد ان عدد سكان الوطن العربي يبلغ حوالي مائة وستين مليونا سنة 1978 ، اي 155 ـ 165 مليونا واذا كان هناك من يقدر عدد السكان بانه 147 مليونا سنة 1975 (6) ، فان العدد يكون مائة وستين مليونا سنة 1978 ، اذا ما قبلنا نسبة الزيادة التي استخلصها . وبناء على تلك التقديرات يكون العدد 800 ر 037 ر 151 سنة 1976 ، و 235 ر 176 ر 155 سنة 1977 .

وتجعل هذه النسبة الوطن العربي الخامس في الترتيب من حيث عدد السكان في العالم ، تسبقه الصين ، الهند ، الاتحاد السوفياتي ، والولايات المتحدة الاميركية فقط .

● توزيع السكان ●

ا ـ جغرافيا

ان توزيع السكان في الوطن العربي ، مرتبط بالتضاريس الطبيعية ارتباطا شديدا . فهو كثيف في السهول الفيضية والداخلية والسواحل والجبال (سلاسل جبال اطلس والشام واليمن) . وتقل الكثافة كلما اتجهنا نحو الصحراء . وهذا طبيعي اذ ان الماء والدفء والخصب كانت عوامل العمران ، يوم لم يكن للانسان ما يقيه البرد او الجفاف ، او يوفر له الغذاء . ومن هنا نستطيع ان نقول ان توزيع السكان في الوطن العربي ما زال حتى الآن توزيعا عفويا ، اي لم يتدخل فيه التخطيط البشري تدخلا ملحوظا .

ولقد ادى ظهور النفط ، وتدفق الثروات من الصحراء ، وحضور خبراء اجانب لاستغلال هذه الثروة ، الى بناء مدن في الصحارى ، غيرت بعض معالم الصحراء ، وخلقت استثناءات للقاعدة السابقة . ولكنها استثناءات منسجمة مع منطق العصر ، ذلك ان شركات النفط ، وفرت في الصحارى مايلزم للعمران ، وخاصة الماء والكهرباء والتدفئة ، وهي في الوقت عينه استثناءات محدودة .

وسنتناول هنا توزيع السكان في الوطن العربي ، ثم في الشمال الافريقي والجزيرة العربية والشام ، ثم في الاقطار العربية ، وبعدئذ داخل كل قطر .

1 ـ **الكثافة السكانية في الوطن العربي** : لا تزيد الكثافة السكانية في الوطن العربي كله عن 11 (احد عشر) شخصا في الكيلو متر الواحد. وهي نسبة منخفضة جدا ، اذا ما قيست بالكثافة في بلدان العالم الاخرى ، وخاصة بلدان أوروبة واميركا وآسيا . فهذه النسبة في فرنسا 97 ، وفي بريطانيا 212 ، وفي المانيا (الغربية والديمقراطية) 209 ، وفي الولايات المتحدة الاميركية 23 ، وفي الهند 182 ، واليابان 298 ، وبنغلادش 523 . اما الكثافة في العالم كله فتبلغ 23 شخصا .

واذا اردنا ان نطبق القوانين المتفق عليها ، بالنسبة للكثافة ، فاننا نعتبر الوطن العربي باعتباره كلا من مناطق الكثافة المنخفضة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهي المناطق التي تتراوح النسبة فيها بين 10 ــ 50 شخصا في كل كيلومتر واحد . بينما تعتبر المنطقة من مناطق الكثافة المرتفعة ، اذا بلغ عدد السكان في الكيلومتر الواحد ما بين 50 ــ 100 شخصا، ومزدحمة اذا بلغ مابين 100 ــ 500 . هذا ما عدا المدن الكبرى التي لا تنطبق عليها هذه المقاييس .

2 ــ الكثافة السكانية في الشمال الافريقي والجزيرة العربية والشام :

يبلغ عدد سكان الشمال الافريقي 216 ر 104 مليون ، والجزيرة العربية 271 ر 20 والشام 449 ر 28 . وتبلغ مساحة الشمال الافريقي 453 ر 153 ر 10 ، بينما تبلغ مساحة الجزيرة العربية 884 ر 969 ر 2 والشام 000 ر 741 . وهكذا تكون الكثافة في الشمال الافريقي : 10 أشخاص في كل كم2 . وفي الجزيرة العربية 7 أشخاص في كل كم2 . وفي الشام 38 شخصا في كل كم2 .وهكذا نرى انها كلها من مناطق الكثافة المنخفضة ، وان كانت الشام الاكثر كثافة ، يليها الشمال الافريقي ، ثم الجزيرة العربية . . .

3 ــ الكثافة السكانية في الاقطار : ان تحديد حدود الاقطار ، جاء نتيجة التنازع الاستعماري . ولذلك ضم قسم اساسي من الصحراء في شمال افريقية للجزائر ، ولم يعط منها المغرب شيء . وتم تحديد الحدود الليبية ــ المصرية باتفاق بريطاني ــ ايطالي ، والحدود العراقية السورية باتفاق بريطاني ــ فرنسي وهكذا . ولهذا فان هذه الحدود تعكس تقسيما مصطنعا . ومع ذلك فاننا سندرس التوزيع السكاني ، ضمن هذا الاطار .

والكثافة هي :

الاردن	27	اليمن (ش)	5
سورية	38	البحرين	420
العراق	25	تونس	33
مصر	36	الجزائر	6
الامارات	3	السعودية	3
السودان	7	عمان	4
الصومال	5	قطر	6
الكويت	52	لبنان	302
موريتانيا	1	المغرب	38
ليبيا	1		
اليمن (ع)	33		

ونجد هنا ان اعلى نسبة للكثافة في البحرين 420 ، ثم لبنان 302 ، ثم الكويت 52 ، ثم المغرب وسورية 38 ، ثم مصر 36 ، فاليمن (ع) وتونس (33) ، فالعراق 25 ، وتنخفض النسبة دون العشرة بعد ذلك .

4 ــ الكثافة السكانية في الجبال والسهول والصحارى ، يلاحظ عند دراسة الكثافة السكانية ما يلي :

أ ــ ان الصحراء خالية ، أو شبه خالية . ولذلك تكون الكثافة ما بين 2 ن كلم2 و 1ن كلم2 . فهي 2 في بادية الشام الملحقة بسورية . وفي الجزائر يقطن الصحراء التي تبلغ مساحتها مليوني كم2 حوالي مليون انسان . ان الصحراء تشكل 86٪ من مساحة الجزائر و 83٪ من مساحة الاردن و 50٪ من مساحة العراق .

ب ــ ان الشواطىء الساحلية وسفوح الجبال الملاصقة لها : ساحل البحر الابيض المتوسط ، والسفوح الغربية لجبال الشام واطلس التل ذات كثافة سكانية عالية تتراوح بين 50 ن كلم2 ، و 150 ن كلم2 . وقد تبلغ 300 ن كلم2 ، كما في سفوح جبال لبنان .

جـ ــ ان السهول الفيضية واحواض الانهار والغوطات ترتفع كثافتها عن بقية المناطق فهي تزيد عن الف في مصر ، وتزيد عن مائة وسط العراق ، وتبلغ 150 ن كلم2 في غوطة دمشق ووادي العاصي ويلعب توافر المياه وخصوبة الارض دورا اساسيا في تحديد الكثافة الطبيعية .

ب ــ اجتماعيــا

كان الوطن العربي في اوائل القرن مجتمعا تغلب عليه حياة الريف والبداوة الا ان هذه الظاهرة اخذت بالتغير من اوائل القرن ، اذ اخذت بعض المدن بالنمو ، مثل بيروت . كما ان دخول القوى الاستعمارية ، من اوائل القرن الماضي ، ساعد على تطور بعض المدن كعدن والجزائر .

ومع ذلك ظل الطابع العام ريفيا متخلفا يتداخل مع اشكال من البداوة وشبه البداوة .

الا ان هناك عددا من العوامل التي ادت الى كثير من التطورات في توزيع السكان بين المدينة والريف والبادية . ومن هذه العوامل :

1 ــ استقلال اقطار الوطن العربي ، وقيام دول حديثة . بدأ ذلك في العشرينات ، ولكن القسم الاعظم منه لم ينجز الا في الخمسينات والستينات . ولقد حمل الاستقلال معه ، والتطورات الاجتماعية والاقتصادية التي رافقته ، قيام مدن جديدة ، واتساع مدن قائمة .

2 ــ التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي حملت شرائح من البرجوازية الصغيرة الى السلطة ، والتي قادت الى انتقال اقسام من هذه الطبقة واتباعها الى المدن ، كما حصل في سورية ومصر والجزائر الخ . . .

3 ــ تدفق الثروة النفطية ، وبروز مدن ومراكز عمل جديدة في الصحارى ، وانتعاش العديد من المدن في الوطن العربي ، بسبب هذه الثروة ، وما انتجته من اوضاع اقتصادية جديدة .

4 ــ اهمال حل مشاكل الريف ، وهجرة الفلاحين الى المدن نتيجة لذلك ، وبسبب ظهور فرص عمل اكثر فائدة من الفلاحة .

ولهذا نجد ان المدن القائمة تطورت تطورا كبيرا خلال العقود الثلاثة الماضية . كما نجد ان مدنا جديدة نشأت ، واخرى اتسعت اتساعا كبيرا.

سنعطي هنا بعض الامثلة .فعدد سكان بيروت كان 000ر160 سنة 1912 ، وهو اليوم حوالي مليون ودمشق 000ر200 ، وهي اليوم حوالي مليون(7) ، وبغداد 000ر120 وهي اليوم حوالي ثلاثة ملايين ، وطرابلس الغرب 000ر35 وهي اليوم حوالي نصف مليون .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رافق ذلك أيضا قيام مدن جديدة ، لم تكن الا قرى صغيرة في اول القرن مثل الكويت التي اصبح عدد سكانها سنة 1970 م 80ر405 وحولي الضاحية المجاورة لها 106ر542 . والرياض التي كان عدد سكانها سنة 1975 حوالي نصف مليون .

ان نسبة الهجرة من الريف الى المدن تزداد يوما بعد يوم ، وتنمو العواصم نموا عفويا ، غير مدروس . وقد كانت نسبة سكان المدن في سورية 37٪ سنة 1960 من مجموع السكان ، فاصبحت 43٪ سنة 1970 وقد ازدادت ازديادا ملحوظا خلال السنوات الثماني الماضية .

وتختلف هذه النسبة ما بين 7٪ و 60٪ . اذ انها 7٪ في الجمهورية العربية اليمنية ، و 13٪ في السودان و 18٪ في السعودية ، وهي ترتفع في لبنان والعراق الى 60٪ وفي الامارات الى 65٪ و 78٪ في البحرين ، الا انها في المتوسط تتراوح بين 35٪ و 45٪ .

وهناك عدد من المدن التي تتجاوز المليون ، وهي القاهرة 8 – 9 ملايين ، بغداد 3 ، الاسكندرية 2ر5 ، الدار البيضاء 1ر6 ، وتبلغ مدينتنا الجزائر وتونس المليون مثل بيروت ودمشق . وهناك العديد من المدن التي تتجاوز الربع مليون .

ان هذا يجعلنا نقرر ان النسبة العامة تتجاوز 50٪ . وهي غير النسبة التي كانت تنشرها كتب الجغرافية حتى سنة 1970 ، والتي كانت 22٪ (8) .

وسنحاول ان نقدم هنا بعض الامثلة .

1 – الجزائر : كان في الجزائر حسب احصاء 1966 ست عشرة مدينة يتراوح سكانها بين 50 الف و 1ر000ر000 . وهذه المدن هي :

الجزائر	903ر530	سكيكده	88ر000
وهران	327ر493	مستغانم	74ر876
قسنطينه	243ر558	الاصنام	69ر580
عنابه	152ر006	باطنه	68ر856
سيدي بلعباس	105ر000	بجاية	65ر012
صطيف	98ر384	بسكره	59ر052
تلمسان	96ر072	مديه	53ر951
بليده	93ر000	تيزى اوزو	53ر291

وكان عدد السكان آنذاك 11ر821ر679 . والنسبة حوالي 22ر5٪ . وقد اصبح عدد السكان الآن ، كما بينا ، 17 مليون ، وارتفع عدد سكان المدن .

ب – سورية : كان اهم المدن حسب احصاء سنة 1970 :

دمشق	836ر668	اللاذقية	125ر716
حلب	639ر428	دير الزور	66ر000
حمص	215ر423	الحسكة	33ر000
حماه	137ر241		

ويبلغ عدد سكان هذه المدن 2ر023ر656 من عدد السكان البالغ 7ر354ر000 ، والنسبة حوالي 27ر5٪ . ولقد زاد عدد السكان منذ ذلك الحين ، وزاد عدد سكان المدن .

ج – مصر : وهذه هي مدنها الرئيسية ، حسب تقدير سنة 1970 :

القاهرة	4ر961ر000	المنصورة	212ر300
الاسكندرية	2ر032ر000	اسوان	201ر500
الجيزة	711ر900	اسيوط	175ر700
السويس	315ر000	الزقازيق	173ر300
بور سعيد	313ر000	الاسماعيلية	167ر500
المحلة الكبرى	255ر800	دمنهور	161ر400
طنطا	253ر600	الفيوم	150ر900
شبرا الخيمة	252ر500		

وهكذا يكون عدد سكان هذه المدن 10ر337ر400 ، اي بنسبة 31ر5٪ من عدد السكان المقدر سنة 1970 بحوالي 33ر000ر000 .

وتظهر الجداول التي نشرتها الامم المتحدة تطور هذه النسبة سنة بعد سنة . وهي كالتالي :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نسبة السكان بالمدن لمجموع السكان (1967 – 1975)

القطر/ السنة	العدد (ذكور واناث)	النسبة المئوية	مجموع عدد السكان
الجزائر			
1972	7437300	48ر7	15270500
1973	7952000	50ر4	15772200
1974	8466800	52ر0	16275000
مصر			
1973	15375000	43ر2	35619000
1974	15862000	43ر6	36417000
1975	16622000	44ر6	37233000
ليبيا			
1972	599000	28ر7	2084000
1973	632000	29ر3	2161000
1974	668000	29ر8	2240000
موريتانيا			
1973	250000	19ر9	1257000

1974	280000	7ر21	1290000
1975	304000	1ر23	1318000
المغرب			
1972	5724000	1ر36	15847000
1973	5995000	8ر36	16309000
1974	6392000	9ر37	16880000
السودان			
1972	2057000	5ر12	16489000
1973	2170000	8ر12	16901000
1974	2289000	2ر13	1734000
البحرين			
1971	168819	1ر78	216078
1972	174897	1ر78	223857
العراق			
1973	6393365	4ر61	10412586
1974	6735646	6ر62	10765442
1975	7083855	7ر63	11124253
الاردن			
1973	1090000	ـر43	2535000
1974	1099500	ـر42	2618000
لبنان			
1970	278000	1ر60	2126325
سورية			
1972	2981855	7ر24	6675707
1973	3121360	3ر45	6894737
1974	3265956	9ر45	7120953
اليمن الديمقراطية			
1972	529063	3ر33	1590275

ويلاحظ من هذا الجدول التالي :

1 ـ انه يشمل اثنى عشر قطرا تنتمي لنماذج مختلفة ، كبيرة وصغيرة ، نفطية وغير نفطية . وان عددا من الاقطار يغيب عنه ، وهي الصومال وجيبوتي وتونس والسعودية وقطر والامارات والكويت واليمن (ج . ش) . ولكن يمكن اعتباره عينة ، والقياس عليها .

2 ـ ان النسبة العامة بالنسبة لهذه الاقطار هي 6ر43٪ . وهي نسبة عالية ، عند دراسة التركيب الاقتصادي العام لهذه الاقطار .

3 ـ ان الاقطار ذات الاراضي الواسعة ، والامكانيات الزراعية الكبيرة تنمو فيها المدن بسرعة كبيرة ، وبنسبة عالية : الجزائر 52٪ مصر 44٪ العراق 7ر63٪ سورية 9ر45 .

ويتم هذا التحول على حساب الريف ، ذلك ان نمو المدن يجتذب الفلاحين كليا او جزئيا ، ويخلي القرى . واذا كانت نسبة سكان المدن العامة قد ارتفعت حتى بلغت 6ر43 ، فان هذا يعني ان نسبة سكان الارياف قد تدنت بالنسبة ذاتها .

وتشير كتب الجغرافية العربية (الصادرة سنة 1970 ان نسبة سكان الارياف تبلغ 80٪ (9) او 78٪ (10) ، او 65٪ (11) . وهي نسبةتعود الى الخمسينات في الرقمين الاولين ، وتقترب من الحقيقة في الرقم الثالث ، وان كان غير دقيق ...

ان ارتفاع نسبة سكان المدن الى نسبة 6ر43 سنة 1975 ، يعني ان نسبة سكان الريف قد هبطت ، وانها باتت حوالي 50٪ فقط من السكان ، اذ ان هناك المجتمع البدوي الذي يقارب 5٪ من عدد السكان .

وبمقدار ما ترتفع نسبة سكان المدن ، فان نسبة سكان الريف تنخفض . ولما كان من المتوقع ان تستمر نسبة تزايد سكان المدن في التصاعد ، حتى تبلغ ما بين 60 ـ 70٪ سنة 1990 ، فان معنى هذا ان نسبة سكان الارياف سوف تستمر في التدهور لتصبح 30٪ او اقل .

وفي هذا الوقت الذي يتدهور فيه وضع الريف ، وبالتالي الانتاج الزراعي ، لاتنمو الصناعة النمو المطلوب ، بل ينمو مجتمع خدماتطفيلي .

هناك الى جانب الريف ظاهرة البداوة التي تستحق الاهتمام في الوطن العربي . وهي موجودة حيث وجدت الصحراء . وتمتد بامتداد الوطن من مشرقه الى مغربه .

واذا كنا نقول ان الاحصاءات غير متوافرة بالنسبة للحضر والريف ، او انها غير دقيقة ، فاننا نستطيع ان نقول بانها غير موجودة ، بالنسبة للبادية . والارقام المطروحة هي تقديرات عامة ، يصعب الاعتماد عليها . ومع ذلك فاننا سنتعامل مع هذه الارقام ، حتى يوجد البديل لها .

ولقد اختلفت التقديرات بالنسبة للبدو . فهناك من اعتبرهم عشرة ملايين(12) ، ومنهم جعلهم خمسة ملايين ونصف المليون(13) .

ويتركز وجود البدو في بادية الشام (سورية ، العراق ، الاردن ، فلسطين) وشبه الجزيرة العربية (الكويت ، قطر ، الامارات ، عمان ، اليمن الديمقراطية ، السعودية) ووادي النيل(مصر والسودان)وصحراء الشمال الافريقي (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، موريتانيا) .

وهناك معلومات متفرقة ، قد تعطينا صورة عن نسبة البدو الى مجموع السكان وسنقدمها حسب توافرها :

المملكة العربية السعودية : كانت نسبة البدو 15٪ من السكان البالغين ستة ملايين سنة 1974 . كما كانت هناك نسبة من البدو شبه الرحل(14) . وتشير معلومات اخرى الى ان نسبة البدو الى عدد السكان سنة 62 ـ 63 كانت 82ر20٪ ، وان العدد اصبح 700 الفا سنة 69 ـ 70 والنسبة 17 (15) . وهو مايؤكده مصدر ثالث على انه من نتائج تعداد 1972 (16) ويتوزع البدو في السعودية كالتالي :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عدد سكان المدن والريف والبدو في الاقاليم ونسبهم الى مجموع السكان

الاقليم	المجموع	سكان المدن	٪	سكان الريف	٪	سكان البدو	٪
الاقليم الاوسط	1ر223ر000	579ر000	47	486ر000	40	158ر000	13
الاقليم الشمالي	509ر000	136ر000	27	77ر000	15	296ر000	58
الاقليم الغربي	1ر370ر000	910ر000	66	380ر000	28	80ر000	6
الاقليم الجنوبي	1ر346ر000	130ر000	10	1ر107ر000	82	104ر000	8
الاقليم الشرقي	552ر000	340ر000	62	150ر000	27	62ر000	11
القطر السعودي	5ر000ر000	2ر100ر000	42	2ر200ر000	44	700ر000	14

العراق : كان عدد البدو في العراق حوالي منتصف القرن الماضي نصف مليون ، عندما كان عدد سكان العراق مليونا وربما . وكان عددهم حوالي 600 الف في تقدير سنة 1938 . اما سنة 1947 فكان عددهم 250 الفا . وانخفض العدد في احصاء سنة 1957 ، فلم يسجل الا وجود 65 الفا(17) .

سورية : كان عدد البدو سنة 1960 ، كما يشير احصاء ذلك العام 670 ر 211 اي 6 ر 4٪ من السكان(18) .

فلسطين : حوالي 15 الفا .

المغرب : حوالي 250 الفا من البدو ، من بين السكان البالغ عددهم 16ر309ر000 حسب تعداد 1973 (19) .

هذه نماذج للمعلومات عن البدو في الوطن العربي . وهي معلومات ناقصة ، لانها لا تشمل كل الاقطار ، ففي ليبيا بدو وكذلك في الجزائر وموريتانيا والصومال واليمن واليمن الديمقراطية والاحواز وامارات الخليج وعمان . كما ان هذه النسب المقدمة تبقى موضع بحث ، ولا تعطي اية دلالات حقيقية .

وتظل القضية ان هناك نسبة من البدو الرحل ، واشباه الرحل ، من بين السكان وان هذه النسبة موجودة في الصحارى وعلى اطرافها . ولقد توطن قسم من هؤلاء بسبب العمل في الزراعة ، او شركات النفط ، ولكن قسما منهم ظل بدويا ، تشجعه الحكومات على ان يظل كذلك ، ليخدم اهدافها .

ولقد ادى ارتباط شيوخهم بالسلطات ، واعتماد السلطات عليهم الى تحسن اوضاع اقسام منهم دون ان يتوطنوا . كما ادى الى توطن فئات منهم .

ويعمل قسم منهم بالتهريب ، وهؤلاء من سكان الحدود عادة .

جـ ـ معدل النمو ومعدل الزيادة الطبيعية .

ان معدل النمو السنوي ، هو الذي يحدد حجم الزيادة السكانية . ويلاحظ كل من يدرس اوضاع السكان في الوطن العربي ان معدل النمو من اعلى المعدلات في العالم . ويعود هذا الفيضان السكاني الى الاسباب التالية : ـ

1 ـ التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي حصل ، وارتفاع مستوى المعيشة (وهو ماسنتعرض له في دراسة اخرى) ، وبالتالي : تحسن مستوى الغذاء .

2 ـ تحسن مستوى الخدمات الصحيه نسبيا .

3 ـ انخفاض نسبة الوفيات للاسباب السابقة .

4 ـ الزواج المبكر ، وخاصة بين النساء .

5 ـ زيادة عدد من هم في سن الانجاب زيادة ملحوظة .

6 ـ سيطرة الافكار التقليدية ، واعتبار كثرة الاولاد (بركة) في الاوساط الشعبية .

7 ـ عدم شيوع استخدام وسائل منع الحمل ، الا في اوساط مدنية محدودة ، وعدم اعتبار الاجهاض قانونيا .

ولهذا فان معدل النمو يبلغ 30 في الالف ، ومعدل الزيادة الطبيعية يبلغ حوالي 31 في الالف ، اذا ما اخذنا معدل الزيادة السكانية (1970 ـ 1975) . وهذا ما يظهره الجدول التالي :

القطر	السنة	معدل النمو	معدل الزيادة الطبيعية	ملاحظات
مصر	70 ـ 75	24	1ر23(20) او 22	23(21)
السودان	70 ـ 75	25	30(22)	
المغرب	70 ـ 75	22	31(23)	
الجزائر	70 ـ 75	32	33(24)	
العراق	70 ـ 75	33	34(25) او 31	5ر31
السعودية	70 ـ 75	30	29(26) او 29	3ر29
سورية	70 ـ 75	32	32(27) او 31	7ر32

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القطر	السنة	معدل النمو	معدل الزيادة الطبيعية	ملاحظات
ج.ع. يمنية	70 – 75	29	29 (28)	
تونس	70 – 75	24	26 (29)	
الصومال	70 – 75	26	26 (30)	
لبنان	70 – 75	30	30 (31) او 24	25
الاردن	70 – 75	33	33 (32)	35
ليبيا	70 – 75	30	30 (33)	
اليمن الديمقراطية	70 – 75	30	29 (34) او 22	3ر22
موريتانيا	70 – 75	26	20 (35)	
عمان	70 – 75	31 (17)	31 (36)	
الكويت	70 – 75	58	45 (37)	
البحرين	70 – 75	31	38 (38)	
الامارات	70 – 75	32	31 (39)	
قطر	70 – 75	31	30 (40)	
		30	5ر30	

وهكذا نجد ان معدل النمو ، ومن ثم الزيادة الطبيعية ، يتراوح بين 22 في مصر و 33 في العراق والاردن . اما النسب الاخرى العالية مثل البحرين 38 والكويت45 فيعود سببها الى ارتفاع نسبة المقيمين الوافدين، ممن هم في اول سن الاخصاب ، اضافة الى توافر الخدمات الطبية ،وارتفاع مستوى الدخل ، ومن الجدير بالذكر ان قسما كبيرا من الوافدين مواطنون عرب ، قادمون من لبنان وسورية وفلسطين وتونس (بالنسبة لليبيا).

ويلاحظ ايضا ان هذه النسبة في ارتفاع عموما ، لا لأن المعدل العام يرتفع بالتساوي في كل الاقطار والمحافظات ، بل لانه يرتفع هنا او هناك ، بينما هو ثابت هنا او هناك .

وتنتج هذه الزيادة عن ارتفاع نسبة الولادات ، وانخفاض نسبة الوفيات . فلقد كان معدل المواليد ما بين سنة 1920 – 1924 في مصر 8ر42 ، فاصبح ما بين 1950 – 1954 م 5ر43 . وكان معدل الوفيات ما بين 1920 – الى 1924 في مصر 7ر25 فاصبح ما بين 1950 – 1954 وفي مصر ايضا 6ر18 . ولقد ارتفع المعدل العام للولادات في العراق من 7ر8 سنة 1950 الى 1ر12 سنة 1955 ، الى 2ر12 سنة 1958 ، الى 8ر29 سنة 1960 . ثم عاد وانخفض الى 7ر20 سنة 1963 ، بينما كان في سورية 2ر24 في العام نفسه ، فارتفع الى 0ر25 سنة 1963 .وانخفض في مصر من 4ر44 سنة 1950 الى 8ر42 سنة 1963 .

اما بالنسبة الوفيات المسجلة فقد كانت في العراق4ر4 سنة 1948 ، و 6ر4 سنة 1963 ، وكانت في مصر 4ر20 سنة 1948 ، فاصبحت 4ر15 سنة 1963 . وكانت في سورية 5ر6 ، فاصبحت5ر4 ، وفي الاردن 0ر12، فاصبحت 4ر6 سنة 1962 . ان الانخفاض واضح في حالات مصر وسورية والاردن ، بينما تبقى النسبة في العراق ثابتة .

واذا عدنا الى ارقام 1970 – 1975 نجد ان هذه الارقام تعكس الحقائق التالية :

1 – تميل معدلات الولادة والوفاة ومعدل الزيادة الى الثبات ، فهي في الاردن : المواليد 2ر48 والوفاة 7ر13 والزيادة 5ر34 . وفي سورية: المواليد 5ر47 والوفاة 3ر15 والزيادة 3ر32 .

2 – تميل الولادات الى الزيادة والوفاة الى الانخفاض ، كما هي الحال في العراق .

المواليد 5ر47 سنة 1970 و 8ر47 سنة 1974 .

والوفاة 4ر16 سنة 1970 و 8ر14 سنة 1974 .

والزيادة 1ر31 سنة 1970 و ـر33 سنة 1974 .

3 – تميل الولادة الى زيادة ملحوظة ، والوفاة الى انخفاض كبير ، كما هي حالة مصر :

المواليد 1ر35 سنة 1970 و 9ر35 سنة 1974 .

الوفاة 1ر15 سنة 1970 و 4ر12 سنة 1974 .

والزيادة 0ر20 سنة 1970 و 5ر23 سنة 1974 .

4 – تميل الولادة زيادة كبيرة والوفاة الى زيادة محدودة ، كما هي الحال في ليبيا :

المواليد 4ر42 سنة 1970 و 1ر47 سنة 1974 .

الوفاة 8ر7 سنة 1970 و 8 سنة 1974 .

الزيادة 6ر34 سنة 1970 و 1ر39 سنة 1974 .

ان هذه الزيادة في المعدل ، تقود الى ثورة سكانية كبيرة .ولا نستطيع ان نلمس اهمية ما يحدث الا اذا اخذنا ، نماذج من الاقطار العربية وتطورها السكاني . ان عدد سكان العراق كان حوالي 000ر00ر1 (مليون) سنة 1800 ، فاصبح 000ر000ر2 (مليونين) سنة 1900 ، و 000ر848ر2 سنة 1919 ، و 000ر605ر3 سنة 1965 ثم اكثر من 000ر000ر13 سنة 1978 . وهذا يعني ان عدد سكان العراق تضاعف خلال مائة سنة (1800 – 1900) ثم تضاعف اكثر من ثلاث مرات خلال 57 سنة (1900 – 1957) ثم تضاعف مرتين ويزيد خلال عشرين سنة.

وتقدم مصر مثلا آخر على هذه الزيادة : فلقد كان عدد سكان مصر 5ر4 مليون سنة 1846 ، فاصبح 19 مليون سنة 1947 ، 27 مليون سنة 1962 ، 33 مليون سنة 1970 و 38 مليون سنة 1978 ، اي ان عدد السكان تضاعف اربع مرات وينيف خلال مائة عام ، وتضاعف مرتين خلال ثلاثين سنة .

الا ان هذه الزيادة ، التي لا توازيها او تتفوق عليها الا الزيادة في بعض بلدان العالم الثالث ، ترسم هرما سكانيا قاعدته عريضة ، وقمته رفيعة . ويتكون هذا الهرم من : 45٪ ممن هم دون 15 سنة ، و 52٪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين 15 ـ 64 و 3٪ فوق 65 سنة . وهذه النسبة اذا قارناها باجزاء مختلفة من العالم نجد التالي :

1 ـ انها اعلى نسبة في العالم في الحالة الاولى 45٪ (0 ـ 15) ، وان النسبة ذاتها 44٪ في افريقيا ، 42 في امريكا اللاتينية ، 25 في اميركا الشمالية ، 24 في اوروبة ، و 36 في العالم .

2 ـ انها ادنى نسبة في الفئة الثانية (15 ـ 64) فهي 52 في وطننا ، و 53 في افريقيا ، و 64 في اميركا الشمالية واوروبة و 58 في العالم .

3 ـ اما الادنى في الفئة الثالثة (65 فما فوق) وتبلغ 3٪ بينما تبلغ 10 في امريكا الشمالية و 12 في اوروبة و 6 في العالم .

ان لهذا التركيب العمري آثاره الاجتماعية والاقتصادية . ذلك ان 45٪ من السكان هم في سن الاعالة ، اي الاعتماد على الغير . وهي نسبة عالية، تفرض على الدولة والمجتمع تكاليف باهظة . ولكن هذه النسبة العالية تزيد من شباب الوطن ، وتضاعف اعداد القادرين على العمل والانجاب بشكل سريع ، وهو ما نحتاج اليه .

ان هذه الزيادة السريعة في التزايد السكاني ستقود الى ان يتضاعف عدد سكان الوطن خلال فترة 25 ـ 30 سنة . وهذا يعني ان العدد سيكون في نهاية القرن بين 300 و 320 مليون .

● عوامل التزايد العالي السريع ●

ان العوامل التي قادت التزايد العالي السريع ، خلال العقود الثلاثة الماضية ، ما زالت تفعل فعلها على نطاق اوسع وأشمل . وهنا يمكن ملاحظة ما يلي :

1 ـ ان تحسن مستوى المعيشة يضطرد ، في جميع المجالات ، وخاصة ، على صعيد تحسن الغذاء وشروط المعيشة الاخرى (السكن والصحة). وهذا ناتج عن ارتفاع مستوى دخل الفرد ، وتطور الخدمات الصحية والبيئية ، وتطور جغرافية المدن بشكل عام . وقد اخذ بعض هذه الخدمات يدخل الارياف البعيدة والصحارى ، لا المدن فحسب . وسنتحدث عن ذلك عندما نتحدث عن الجغرافية العمرانية والاقتصادية والاجتماعية .

2 ـ استمرار هيمنة الافكار التقليدية لانتشار الامية ، ولكون التخلص من هذه الافكار يحتاج الى تغيير جذري في البنية الاقتصادية، والى تطور جذري في مستوى الوعي . واذا كان التطور الجذري في البنية الاقتصادية يحتاج الى ثورة عميقة لمدة ثلاثة او اربعة عقود ، فان تطور الوعي جذريا وبشكل شامل يحتاج الى فترة اطول من خمسة الى عشرة عقود . ان كل اجراءات الثورة الصينية لم تستطع ان تقنع الفلاحة الصينية الشابة بانجاب طفلين فقط ، وبعد عقدين من انتصار الثورة الشامل .

3 ـ ارتفاع نسبة الاجيال المخصبة ، من بين النساء ، بالنسبة للاجيال الاخرى . ذلك ان هذه النسبة ، بين اللواتي تتراوح اعمارهن بين 15 ـ 45 نسبة عالية ، وهي في ازدياد . كما ان المراة ما زالت لم تتخلص من اوضاعها الموروثة الا بشكل ضئيل ،ذلك ان نسبة الامية مازالت عالية في اوساط النساء ، وقلة قليلة منهن تعمل في المدن ، ومازالت المراة تنظر لنفسها على انها منجبة ، وان اعظم ما تقدمه هو الانجاب ، وهو يسبب محبتها عند الزوج واهله والمجتمع .

4 ـ ان نسبة الوفيات بصورة عامة ، والاطفال خاصة ، آخذة في الانخفاض السريع ، بسبب كل ما ذكرناه ، وبسبب القدرة الآن ، اكثر من اي وقت مضى على حصر عدوى الاوبئة ، وتخفيف اضرارها الى درجة كبيرة.

ولهذا كله ، سيرتفع معدل الزيادة السنوية في مجموعه العام ، نتيجة عاملين :

الاول ـ ارتفاعه في المواقع التي مازال منخفضا فيها ، نتيجة تطور ظروف المعيشة .

الثاني ـ ارتفاعه في المواقع التي ارتفع فيها سابقا ، لدخول نفس الظروف على المناطق التي لم تدخله من قبل ، وخاصة الارياف البعيدة والبوادي .

كما ان عمليات الاحصاء ، وتسجيل الولادة والوفاة ، تاخذ اشكالا اكثر دقة يوما بعد يوم . وهو ما سيخفف يوما بعد يوم عوامل النقص والقصور وعدم الدقة ، الموجودة في الاحصاءات الحالية والسابقة .

المراجع

كتب :

1 ـ فاضل الانصاري / سكان العراق / دراسة ديموغرافية ـ جغرافية مقارنة ـ منشورات مكتبة اطلس ـ دمشق 1970 .

2 ـ د . يسرى الجوهري : محاضرات في جغرافية السكان ، مكتبة الجامعة العربية بيروت .

3 ـ د . فتحي ابو عيانه : دراسات في جغرافية السكان ، دار النهضة العربية ، 1978 .

4 ـ د . عبد الفتاح محمد وهيبة : في جغرافية السكان . دار النهضة العربية 1972 .

5 ـ د . عبد الحميد لطفي ، د . حسن الساعاتي : دراسات في علم السكان ، دار المعارف بمصر 1977 ، طبعة خامسة .

6 ـ د . محمد ابراهيم حسن : دراسات في سكان الوطن العربي ـ الجزء الاول دراسة مقارنة ، معهد الدراسات العربية العالية 1965 .

7 ـ د . احمد نجم الدين : احوال السكان في العراق ، معهد البحوث والدراسات العربية ، 1970 .

8 ـ د . عبد العزيز كامل : دراسات في الجغرافيا البشرية للسودان . معهد البحوث والدراسات العربية ، 1972 .

9 ـ د . عباس فاضل السعدي : محافظة بغداد ـ دراسة في جغرافية السكان ـ 1976 .

10 ـ د . يسرى جوهري : جغرافية السكان : منشاة المعارف ـ طبعة ثانية .

11- J . I . Clarke and W . B . Fisher : Populations of

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

the Middle East and North Africa University Press ltd .

-12 V . F . Costello : Urbanization in the Middle East . Cambridqe University Press .

-13 United Nations : World Stalistics in Brief

-14 Middle East Year book 1978

-15 Middle East Anual Review 1978

-16 New Africa Year book 1978

مجلات وجرائد ونشرات :

17 ـ د . يونس حمادى : سكان المجتمع العربي : الصفحات 47 ـ 123 العلوم الاجتماعية ـ الجمعية العراقية للعلوم الاجتماعية ، العدد 2 تموز 1978 .

18 ـ د . نافع ناصر القصاب : السكان في المملكة العربية السعودية : ص 125 مجلة الجمعية الجغرافية العراقيـة . المجلد العاشر ، تموز 1978 .

19 ـ تيسير عبد الحافظ : سكان الوطن العربي : الاتجاهات والتوقعات ص 133 المستقبل العربي ، العدد 1 78/5 .

20 ـ كتابة الدولة للتخطيط والتنمية ـ المغرب : النشرة الاحصائية السنوية 1975 .

21 ـ الاقتصاد العربي ، عدد 27 ايلول 1978 ـ مصر 62ر5 مليـون نسمة عام 2000 ص 41 .

22 ـ البعث 1977/2/25 اقليم عفار وعيسى .

23 ـ السفير 1978/8/16 سكان الجماهيرية .

الهوامش

1 ـ د . محمد صبحي عبدالحكيم : المرجع السابق ص 90 .

2 ـ د . فيليب رفله واحمد سامي مصطفى . المرجع السابق ص 76 .

3 ـ وزارة التربية ـ الجمهورية العربية السورية 1973 ـ 1974 ـ الثالث الثانوي الادبي .

4 ـ او عربستان . عدد السكان 3ر5 مليون حسب احصاء سنة 1962 . انظر علي نعمة الحلو : « بلاد الاحواز عربستان » : الدار القومية ، ص 25 .

5 ـ هناك خلافات شديدة حول عدد سكان السعودية تتراوح بين تسـعة ملايين نسمة . 1977 ـ 75ر5. انظر د . نافع ناصـر القصاب : السكان في المملكة العربية السعودية ، مجلة الجمعية الجغرافيـة العراقية ، المجلد العاشر ، تموز 1978 .

6 ـ تيسير عبدالحافظ : سكان الوطن العربي : الاتجاهات والتوقعات ، المستقبل العربي ، العدد 1 78/5 ص 133 .

7 ـ نشرت الصحف ان احصاء البت ان في دمشق اكثر من مليونين (السفير 1978/9) .

8 ـ د . محمد صبحي عبدالحكيم واخرون : جغرافيـة الوطـن العربي والخرائط ص 94 .

9 ـ د . محمد صبحي عبدالحكيم واخرون : المرجع السابق ص 92 صدر سنة 1970 .

10ـ د . فيليب رفله واحمد سامي مصطفى ، المرجع السابق ص 92 صدر سنة 1971 .

11ـ د . محمود طه ابو العلا : جغرافية العالم العربي ص 65 صـدر سنة 1973 .

12ـ د . محمد صبحي عبدالحكيم ، المرجع السابـق ، ص 91 ـ 92 ، ود . فيليب رفله : المرجع السابق ص 81 .

13ـ د . محمود طه ابو العلا ، المرجع السابق ص 64 .

14ـ يوسف صايغ : اقتصاديات العالم العربي بالانجليزية ص 139 .

-15 J . I . Cyarke and W . B . Fisher Populations of the Middle East and North Africa . P. P. 226 , 237 .

16ـ د . نافع ناصر القصاب ، السكان في المملكة العربية السعودية ، ص 125 ـ 147 مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ، المجلد العاشر ، تموز 1978 .

17ـ د . محمد جاسم الخلف : جغرافية العراق ، دار المعرفة ، ص 414 و J . I . Clarke Ibid P . 108 - 109 .

-18 J . I Clarke Ibid P . 130 - 141

19ـ د . يسرى جوهري : شمال افريقية : منشأة المعارف ، ص 188 .

20ـ احصائيات الامم المتحدة .

21ـ د . يونس حمادي ، المرجع السابق ، ص 52 ـ 53 و 56 ـ 57 و 23 كتاب الشرق الاوسط 1978 .

22ـ 35ـ د . يونس حمادي : المرجع السابق ص 52 ـ 53 و 56 ـ 57 .

36ـ د . يونس حمادي : المرجع السابق . نفس الصفحات .

37ـ احصائيات الامم المتحدة .

38ـ د . يونس حمادي ـ معدل النمو واحصائيات الامم المتحدة حول الزيادة الطبيعية .

39ـ الرقم الاول حول معدل النمو من د . يونس حمادي والثاني حـول الزيادة الطبيعية من الامم المتحدة .

40ـ معدل النمو من يونس حمادي والزيادة الطبيعية من الامم المتحدة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاعلام المتميز

منذ عام 1967 والى نهاية عام 1970 كانت هناك صعوبة كبيرة جدا في نشر اي مقال في ايـة صحيفة بريطانية لنقل وجهة نظر العرب ناهيك عن راي الفلسطينيين في حين يتصدر اي مقال يعبر عن وجهة النظر الاسـرائيلية الصحف . وكانت الصحف وكثير من محرريها يوجهون من انصار اسرائيل وكانهم تحت التنويم المغناطيسي .

مايكل آدامز

عندما ينظر المؤرخون الى الوراء في قضية الصـراع العربي ـ الاسرائيلي فانني اعتقد انهم يعتبرون حرب تشرين الاول (اكتوبر) 1973 حدا فاصلا كان يبدو ان الاسرائيليين كانوا يملكون القدرة على التفوق ولـكن بعدها اصبح الانتصار العربي اكيدا .

ان الراي العام في بريطانيا وفي معظم الدول الغربية الاخرى وحتى قبل نهاية القتال قد ابدى استعدادا لقبول عدد من الافكار التي رفضها من قبل . وبدات الشعوب ترى ان العرب ليسوا على استعداد لقبول الاحتلال الاسرائيلي لاجزاء كبيرة من اراضيهم الى ما لا نهاية ومن غير المعقول ان يتوقع العالم منهم ذلك : واذا اصر الاسرائيليون على البقاء في هذه الاراضي فيصبح من المؤكد حدوث المزيد من سفك الدماء وعدم الاستقرار الذي لا يمكن احتماله من اجل مصلحة اسرائيل ذاتها والعالم المتعطش للبترول . وكما تبين بشكل واضح وبطريقة مفاجئة فان جميع الفوضى انبثقت نتيجة للظلم الذي تعرض له الفلسطينيون عندما خلقت دولة اسرائيل ، وعليه فان شيئا ما يجب عمله لازالة هذا الظلم حتى اذا عنى ذلك فرض ضغوط على الاسرائيليين التي كان العالم سابقا قادرا على تجاوزها .

لم تكن هذه الافكار جديدة او مفاجئة للبعض منا ، اذ انها شكلت محتوى الرسالة التي حاولنا لسنوات طويلة ايصالها الى الراي العام البريطاني والراي العام الاوربي وكذلك الامريكي . كنا قد اسـتطعنا تحقيق بعض النجاح وبخاصة مع الجيل الجديد ، الا ان عملنا بشكل عام كان مرهقا جدا ، ولم يكن ذلك بسبب عدم رغبة الشـعب في ان يسمع عن الشرق الاوسط او بسبب صعوبة فهم الموضوع المقصود ، اذا ما تم عرضه بشكل واضح ، بل ان ذلك يعود للحقيقة القائمة وهي ان هذا الموضوع نادرا ما عرض على الناس بشكل واضح ، بـل على العكس من ذلك فانهم على العموم محاطون بقدر كبـير من الحجب المعتمة وقدر كبير من وسائل الدفاع الخاصة التي جرت رجل الشارع وحولت تفكيره عن الحقائق المغطاة . وكانت الصحافة تتحمل الجزء الاكبر من مسؤولية هذه الحيرة ، ولم يكن من السـهل التخلص من الشكوك بأن معظم هذه الحيرة قد خلقت واوجدت بتعمد .

توجد قناعة راسخة ومنتشرة جدا في العالم العربي ان الصحافة البريطانية وكذلك خدمات الراديو والتلفزة ـ يسيطر عليها والى حدود كبيرة المساندون لاسرائيل ، ولا يمكننا القول ببساطة ان الفكرة تلك غير حقيقية تماما ولكن يجب ان نتذكر عدم وجود اية صحيفة وطنيـة في بريطانيا تسيطر عليها كلية المصالح الصهيونية (وبهذا الخصوص ليس من السهولة الحديث عن شركات التلفزة بنفس الطريقة(1) . ويكون

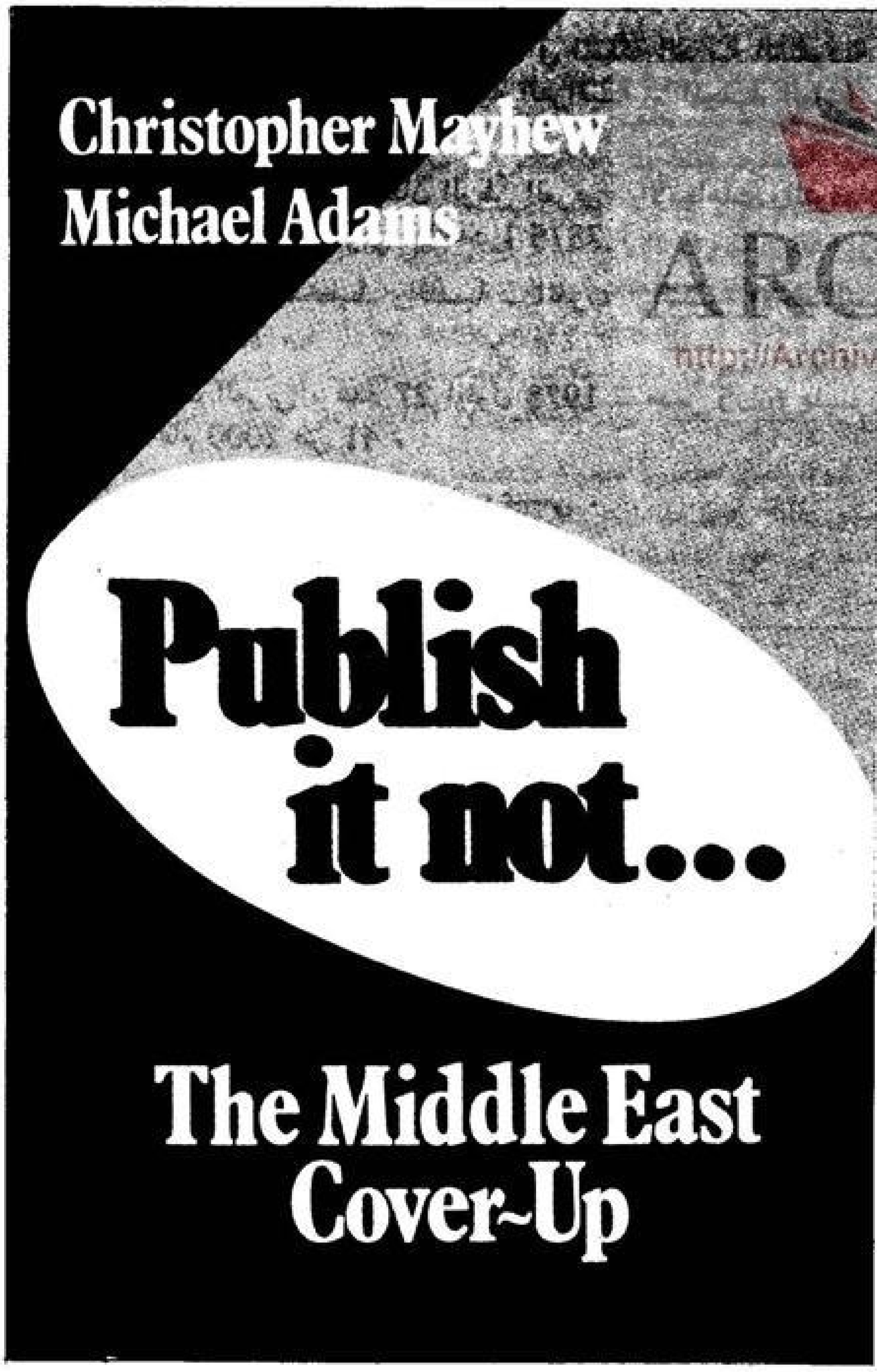

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

بقلم مايكل ادامز / ترجمة عفراء زيدان

مضحكا جدا التطرف ايضا والقول بعدم وجود التأثير الصهيوني في عمل جميع الصحف البريطانية . اذ ان الواقع هو وجود صحف قليلة في بريطانيا ليس فيها اي موقع متميز للمتحمسين والمساندين لاسرائيل سواء في هيئة التحرير او الادارة او المشرفين على اختيار المواضيع . ومن هذه الاسماء التي تقفز الى الذهن فورا : ديفيد سبانير (David Spanier) في صحيفة التايمز ، وجون كمج (John Kimche) في صحيفة ايفننك ستاندارد (Evening Standard) وارك سلفر (Eric Silver) وتيرنس بريتي (Terence Prittie) في الغارديان وكان الاخير مراسل الصحيفة الدبلوماسي خلال الفترة الحرجة قبل وبعد حرب الايام الستة . وهناك بعض الصحف يعمل فيها محررون صهاينة وليس من الضروري ان يكونوا يهودا فصحيفة نيو ستيتمان (New Stateman) مثال واضح جدا في هذا المجال حيث عمل فيها وخلال الفترة الزمنية التي ظهرت فيها اسرائيل الى الوجود على التعاقب المحررون : كنجسلي مارتن (Kingsley Martin) وبول جونسون (Paul Johnson) وريتشارد كروسمان (Richard Crossman) الى ان وصل السيد انتوني هوارد (Anthony Howard) في موقع الادارة عام 1972 . وبعد ذلك أخذت الصحيفة الاسبوعية الايكونوميست (The Economist) محلها كصحيفة مساندة لاسرائيل وبلا نقاش عندما اصبح الاستير برنيت (Alastair Burnet) محررا فيها .

وكان من اكثر المؤثرين من هؤلاء «الصهاينة من غير اليهود» في عالم الصحافة واولهم واكثرهم تميزا هو مدير صحيفة الغارديان وقد عرفت ذلك حالما بدات العمل في الشرق الاوسط كمراسل في الصحيفة (وكما تسمى ايضا المانشستر غارديان) ففي عام 1956 وخلال زيارتي الاولى الى القدس تعرضت الى تجربة محرجة ، عندما قدمت الى شخص فلسطيني معروف وهو رئيس بلدية احدى المدن العربية والذي رحب بي بكياسة خاصة ودعاني لمقابلة مجموعة من اصدقائه كان احدهم مديرا لاحدى الكليات واصبح وزيرا لخارجية الاردن فيما بعد، سألني أيا من الصحف امثل وعندما اجبته قال بلطف: « آه الصحيفة الصهيونية » . وقد صعقت وتصورت للوهلة الاولى انه يمزح معي فابتسمت ولم اعقب ، ولكن حالما تهيأت لي الفرصة قمت ببعض الاستفسارات واكتشفت المساهمات المهمة التي قدمتها الغارديان بادارة سكوت (C. P. Scot) في النجاح المبكر للصهيونية في بريطانيا . فان سكوت هو الذي قدم حاييم وايزمان الى المجتمع السياسي البريطاني حيث بدات سلسلة الاحداث التي قادت الى اعلان وعد بلفور والذي يمكن تسميته بالحجر الاساس لدولة اسرائيل الحديثة واصبح وايزمان فيما بعد اول رئيس لهذه الدولة .

والآن ومن وجهة نظر رجل انكليزي ليس في الامر اي سوء اذ من السهل جدا فهم كيفية حدوث شيء من هذا القبيل قبل نصف قرن من الزمان في بريطانيا التي كانت مملوءة ثقة بسلطتها الامبريالية ، ومن خلال الوكالة العبقرية المتطرفة التي يمتلكها امثال سكوت ، الوكالة التي لم تتأثر ثقتها ابدا بالتفكير في احتمال وجود وجهة نظر اخرى لهذه القضية بالذات . واذا اخذنا بنظر الاعتبار كيف يشعر الفلسطيني المثقف تجاه هذه القضية فمن غير المثير للعجب ان يراها للوهلة الاولى زميلي الجديد في القدس نسخة مألوفة لعينيه : الصحافة البريطانية في تجمع مع الصهيونية تساعد على وضع فتيل المفرقع يحطم فلسطين التي يحب ضمن عمر زمني أمده جيل واحد .

انه تحريف الحقائق كما سيقول عدد كبير من الناس وهذه النقطة بالذات موضوعة للمناقشة اذ ان النقاش لم يحدث على الحقائق نفسها فقد قدم سكوت بروفيسور وايزمان الى السيد لويد جورج ووضع كل امكانات صحيفة المانشستر غارديان تحت تصرف القضية الصهيونية، وكان من ذكائه انه لم يتردد ابدا في استخدام الفرص والذي بلغ الذروة عندما نشرت الحكومة البريطانية اعلانها في دعم الفكرة الصهيونية وتم التعبير عن هذه السياسة بوعد بلفور وادت فيما بعد اذا ما توبعت الاحداث منطقيا الى طرد المواطنين واخضاع البعض منهم من اصحاب فلسطين .

تبدو بعض الامور التي نتجت عن ذلك قليلة الاهمية نسبيا ومنها انني عندما وصلت الى فلسطين بعد اربعين عاما من الحدث السابق ظن الفلسطينيون (او على الاقل الجيل الاقدم) بان الغارديان صحيفة صهيونية . وكان علي ان استجمع شجاعتي ولم يمض علي وقت طويل قبل ان ادرك ما يفكر به الآخرون الذين يشاطرون الفلسطينيين الراي فيما يتوقعون ويعرفون عن الغارديان فيما يتعلق بالشرق الاوسط .

بعد اسابيع قليلة من زيارتي الاولى الى فلسطين كان انفجار ازمة السويس والتي علمتني درسا مهما عن المشاكل وضرورة الابقاء على حرية الاعلام .

في تموز (يوليو) 1956 سحبت الحكومة الامريكية فجأة مساعدتها في تمويل بناء السد العالي فوق النيل (وانقطع عقب ذلك ايضا المقدار الضئيل من المساعدة البريطانية) ورد الرئيس ناصر غاضبا مؤمما شركة قناة السويس العريقة ، وصمم السير انطوني ايدن بسرعة ووضوح ان يجبر الرئيس ناصر على التنازل ولو اضطره الامر الى اعلان الحرب لاستعادة ما اصر على اعتباره الحقوق البريطانية . وانقسم بوضوح الاعلام البريطاني وكذلك الراي العام في موقفه ، فعارضت الغارديان منذ البداية سياسة الحكومة وتعرضت نتيجة لذلك الى فقدان الشعبية . وبعد تطور الازمة تبعت صحف اخرى نفس الخط تدريجيا ، الا ان الغارديان كانت قد فقدت في ذلك الوقت عددا كبيرا جدا من قرائها بشكل هدد مصيرها .

من المحتمل ان يكون عدد من هؤلاء القراء متأثرا بمزيج من الشوفينية والجشع وبدافع قوي من العنصرية التقليدية التي كانت الدافع المحرك الاعتيادي للمواقف البريطانية نحو مصر في مرحلتنا التاريخية بعد الامبراطورية . فان هؤلاء الافراد اختاروا بشكل اعتيادي ان تكون صحيفتهم ديلي تلغراف بدلا من الغارديان لم يتحملوا ان تلعب الحكومة البريطانية كولونيل مصري مبتديء ، الا ان الحالة الخاصة التي تميز بها موقف الغارديان حول ازمة القناة حدا بنسبة كبيرة من المشتركين الذين كانوا اعضاءا في المجموعة اليهودية الهائلة والمؤثرة في مانشستر وحولها الى الغاء اشتراكاتهم وكتب بعض منهم ليقول انه يحث اصدقاءه لعمل نفس الشيء . وينتمي هؤلاء الى مجموعة واضحة في ليبراليتها ومعارضتها للمواقف التي تؤدي الى اضمحلال النظام الاجتماعي القديم ولم يشعر هؤلاء الافراد بالالفة الطبيعية مع نوع المحافظة التي عبر عنها ايدن ، ولم يكن انقطاع عدد منهم عن الغارديان دون الم لاذع . اما ما دعاهم للقيام بذلك فهو اعتقادهم ان الغارديان وايدن سواء في اهتمامهم في مصالح بريطانيا الا ان سياسة ايدن هي التي تحقق الافضل الى اسرائيل ولهذا السبب فانهم شجبوا الغارديان لانها هاجمته .

ان هذا الحادث العرضي قدم بشكل غير اعتيادي مثالا واضحا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للحدود التي يجب على الاعلام الحر العمل ضمنها وان القراء الساخطين الذين اخذوا على انفسهم عهدا الا يسمحوا ابدا للغارديان ان تسود موائد افطارهم مرة اخرى ، لهم مطلق الحق في ممارسة حريتهم لاختيار الصحيفة الاكثر ملائمة لهم وان الاسس التي استندوا عليها في رفضهم للغارديان لم تكن الافضل الا انها مشروعة ولكن ارتدادهم كاد ان يشل الغارديان التي كانت قاعدتها في ذلك الوقت لا زالت في مانشستر والتي فقدت الآلاف من قرائها عند حدوث ازمة السويس ، ولكن معظمهم عادوا الى ولائهم بعد خفوت الازمة . وليس هناك اي طريق لمعرفة مقدار خسارة الغارديان من الاعلانات خلال تلك الفترة او مستوى المكانة الرفيعة التي تكون قد ربحتها على المدى البعيد لو انها اصرت على موقفها . الا ان التجربة كانت تذكيرا مزعجا لقابلية سقوط حتى احسن الصحف في وجه العمل المخطط من جانب مجموعة الضغط المؤثرة .

ليس من العدل اهمال حقيقة ان محرري الصحف الجديدة هم بلا شك والى حد ما رجال اعمال ايضا ، واذا كنا صريحين في قولنا فان الشخص مهما كان قوي العقيدة فهو لا يستطيع التعرض الى سياسات غير رائجة الى الحد الذي ينفر قراءها واصحاب الاعلانات المحتملين ويعرض صحيفته الى الافلاس ، واذا اظهر اشارات لعمل ذلك فيوجد على راسه مدير اداري مهمته ايقافه من التمادي في ذلك .

انا اشك في ان تكون اي قضية من القضايا العالمية ومنذ الحرب العالمية الثانية قد تعرضت الى ضغط عنيف في الاوساط الاعلامية عموما كما حدث للصراع العربي الاسرائيلي . ولم يكن هذا طبيعيا — ولو اننا تعودنا عليه الى الحد الذي بدانا نعتقد انه كذلك — هذا مع ان مصالحنا الوطنية معنية به بلا شك والى حد ما ولكن بطريقة غير مباشرة . وعندما حدث ذلك حقيقة كما في اغلاق قناة السويس بعد حرب 1967 كانت قد جهزت اقوى الضغوط ضد مصالحنا الوطنية بدلا من حمايتها.

وقد كانت الضغوط بشكل طبيعي على الطرفين ، الا ان المقلق هو ان الضغط الذي طبق على احد الاطراف يتجاوز بقوته ما طبق على الطرف الآخر ، مناقضا بذلك الحياد الظاهري لبريطانيا ، وان هذا الضغط قد طبق نيابة عن حكومة اجنبية وكان له تاثير مميز في تشكيل السياسة البريطانية عموما في اتجاه لا ينسجم ومصالح بريطانيا الوطنية .

لابد ان هناك من يخالف هذا الراي ، الا انك لا تجد بينهم من له المام كاف بهذا الموضوع . ولا يمكنك ان تجد اي محرر يستطيع ان يضع يده على قلبه (يقسم) ويرفض تعرضه لضغط من انصار اسرائيل . ولا يوجد اي مراسل عمل في الشرق الاوسط لم يع طبيعة القوى التي تعمل في التاثير على موازنة الاخبار والتعليقات في صحيفته ، ولا يوجد اي شك في ان مجموعات الضغط المناصرة لاسرائيل كانت الاقوى قبل حرب اكتوبر 1973 . وكمدير اعلام مجلس تنمية العلاقات العربية البريطانية (CAABU) كان من واجبي وزملائي خلال هذه الفترة ان نجمع قوانا ضد وكالات الاعلام الصهيونية المختلفة ومجموعات الضغط الكبيرة في هذا القطر . ومنذ البداية في عام 1967 تركنا انطباعا طيبا وعلى الاقل قدمنا عنصرا جديدا الى الموقف الذي كان الصهاينة في السابق قد ملؤوه بكل ما يرغبون ، وكان من الصعب علينا ان نتوقع عملا اكثر من ذلك ضد الخصم المحصن بثبات منذ نصف قرن قبل ولادة منظمتنا وكان الخصم : اللوبي الصهيوني ومراكزه الرئيسية الكبيرة في لندن وفروعه المنتشرة في القطر عدا وكلائه في مجلسي البرلمان في شارع فليت ووكلائه في عالم الاعمال الذي يستمد منه قوته المادية.

كثر النقد في السنوات القريبة الماضية حول ضعف تاثير الاعلام الصهيوني في بريطانيا ونشرت معظمه صحيفة جويش كرونيكل . واما اقل ما يقال بحق هؤلاء الناقدين الذين لي تماس مباشر وغير مباشر معهم منذ عام 1967 فهو انهم غير محقين فانهم بشكل عام قاموا بعمل جبار اذا اخذنا بنظر الاعتبار ضعف القضية التي يقدمونها ، ولم يكن اقناع اكثرية الشعب البريطاني في منح الدعم واستمراره لبناء دولة على ارض تعود لغيرهم انجازا قليلا كما فعل الصهاينة حاليا وكونت قاعدة هذه الدولة اسس عنصرية شكلت سياسة حكومتها التي تمارسها علنا وتتحدى تكرارا قرارات الامم المتحدة وتثبت توسعها الاقليمي على حساب جيرانها العرب .

واخيرا ادرك الراي العام من خلال الاعلام الذي كان نتيجة لبيراليته الواسعة في مجتمع انساني مثل مجتمعنا ان هذه المبادىء والممارسات لا تستوجب الدعم وان الفشل الجزئي (ولا زال حتى الآن جزئيا) للاعلام الصهيوني لم يكن بشكل اكيد نتيجة نقص في الجهد المبذول .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالجهد الذي بذله على مستويات متعددة وفي وسائل مختلفة افراد ومنظمات شملت ارض الوطن كلها . وانها بالطبع لا زالت تبذل ولكن بتقييد اكثر مما كانت عليه الحال قبل حرب اكتوبر 1973 . وقد تم التعبير عن ذلك وبشكل عام عن ضعف تاثير الجهد بصراحة من قبل منظماتهم : كالاتحاد الصهيوني والصندوق اليهودي الوطني ومكاتب بحوثهم وموظفيهم الاعلاميين . كما عبر عنها بحذر اكثر خلال مجلس ادارة ممثلي اليهود البريطانيين المؤثرين والاعضاء الصهاينة الاقوياء المتنفذين للمجموعة اليهودية في بريطانيا ، رجال من امثال اللورد جانر واللورد شنول والسير مرقص سيف بالاضافة الى عدد من اليهود اعضاء البرلمان الذين كانوا يستطيعون حشو آذان محرر التايمز أو المدير العام لشركة البث البريطانية (BBC) حيث يتم ابعاد الحقائق المميتة . وعبر عنها بطريقة غير مهذبة الملقون اليهود كما وضعها بطريقة مؤثرة جدا على المدى البعيد العديد من مناصري الصهيونية من اليهود وغير اليهود الذين كانوا يعملون فعليا في الاعلام او الملقين المستقلين الذين تمتعوا بفرص كبيرة في نشر كتاباتهم في اعمدة الصحف الرئيسية بالمقارنة مع اقرانهم الكتاب الذين لهم آراء ناقدة لاسرائيل(2) . واخيرا لابد لنا ان نذكر الظاهرة غير الاعتيادية وهي وجود المراسلين اليهود لكل صحيفة تقريبا ولشركة الاذاعة البريطانية العاملين في اسرائيل والذين سنتحدث عنهم فيما بعد . ولا يمكن للشخص ان ينسى السفارة الاسرائيلية وموظفيها في لندن الجادين والذين يملكون كل الحق ان يكونوا كذلك في تغذية الاعلام ودعوة رجاله في جولات سياحية عالية التنظيم الى اسرائيل .

من المستحيل بالطبع تحديد مقدار النتائج لعملية بهذا الحجم. ولكن لا يوجد صحفي يهتم بالشؤون العربية الاسرائيلية بين الحربين 1967 و 1973 يستطيع ان يهملها ولا يحس بها . واتذكر بهذا الصدد محادثة مع صحفي صديق اصبح مراسلا دبلوماسيا ووجد نفسه بين الآونة والاخرى في الطرف المتعرض للضغط . سألته كيف يتم عمل ذلك ، اجابني بصراحة حيث قال انه اذا كتب اي شيء عن الشرق الاوسط ممكن ان يفسر لغير صالح الاسرائيليين فانه يتوقع ان يجد في صباح اليوم التالي ملاحظة على طاولته من رئيس منظمته تقول انه يرغب قبل منتصف نهار ذلك اليوم الاجابة على ثلاثة او اربعة نقاط

حساسة تتعلق بالقطعة التي كتب . « وبعد ذلك» اضاف قائلا «اشعر برعشة خفيفة تنحدر الى عمودي الفقري » . واضاف مبتسما للتخفيف من هول اللطمة : « اذا قدمتَ نفس النوع من الاعتراض نيابة عن (C A A B U) فان ذلك لا يمكن ابدا ان يقلقني بنفس القدر» .

ان هذا المثل ذا المغزى الاخلاقي يعبر عن الكثير فيما يتعلق بالموضوع الذي نحن بصدده ، حيث تنبثق منه ثلاث نقاط يقتضي تذكرها ، الاولى : ان اي شخص اذا كتب مقالا لصحيفة وطنية او تحدث الى شركة البث البريطانية ونال عدم رضا السفارة الاسرائيلية او اصدقائها في هذا البلد فانه يتوقع التعرض حالا الى التقريع مهما كان رصيده قويا . والثانية : كقاعدة يتم تسجيل احتجاج حول ذلك لا من السفارة نفسها بل من بعض الافراد والمنظمات الصديقة لها على مستوى عال . والثالثة : ان الشخص الذي تعرض الى الاحتجاج (ولا يهم علو مركزه) يتوقع ان يتعرض لاجراء وفق ذلك بالحاح وبسرعة وبطريقة تعني في محتواها اكثر من تلميح بالردع والعقوبة.

ان هذه الاعتبارات تجعل الصحفي بلا شك متاهبا دوما وقد يكون ذلك شيئا ممتازا ولكنها في نفس الوقت تحبط همته في نشر اي شيء مهما كانت معرفته باصالته ما لم يكن في موقع يمكنه من الاستشهاد عنه من مصدر موثوق ودقيق . واتذكر قول كاتب متميز آخر للشؤون الخارجية لي عندما سالته لماذا لم يكتب عن الشرق لفترة طويلة ؟ « عندما تعلم انك ستتعرض للتوبيخ لكل اشارة صغيرة فانها لا تستحق ذلك » . والواقع الذي يعرفه كل الصحفيين ان هذه التحديدات قادرة على احباط همة (تعويق) الممارسة العادلة للمتخصص الخبير وتمنع نشر الكثير الذي يجب نشره . ويمكن معادلة هذه القضية لو ان نفس اساليب المنع قد استعملت عن التعليقات التي تناقش وجهتي النظر في الصراع ، الا ان الحالة ليست كذلك اذ ان ايا كان يستطيع تقديم شهادته حول ارتباطات المتحدثين عن الانباء والمعبرين عن وجهات النظر المتعلقة بالشرق الاوسط ولاجل اعطاء مثل بارز فقد كررت الصحف نشر المزاعم عن المعاملة السيئة لليهود في سوريا معتمدة على اشاعات اليهود الاخرين غير المدعومة بوثائق رغم الحقيقة ان الاقاصيص المشابهة قد ثبت خطؤها تكرارا في الماضي . في حين يهمل الاعلام في معظم الاحيان وبلا تمييز الروايات الكثيرة والاصيلة لسوء معاملة الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية حتى اذا كانت مصادرها محايدة او حتى اسرائيلية(3) .

قامت دعوة واسعة جدا في عام 1967 الى جمهور القراء للتضامن مع الاسرائيليين اذا لم يدعموهم ايجابيا . وقد خفتت هذه الدعوة في السنوات التي تلت . وحتى معرفة اكثر الحقائق المثبتة بالوثائق وعلى سبيل المثال امتلاء سجون اسرائيل بالسجناء السياسيين واحتلالها العسكري اراض تشكل ثلاثة اضعاف حجمها ، بدت معرفة كل ذلك عديمة الجدوى بل ان كل هذا حول بعبقرية لصالحها فكان هذا « اكرم احتلال في التاريخ » . وكان المراسلون الدؤوبون فقط هم الذين يبحثون خلف المظاهر الكاذبة للكشف عن الحقائق ، عن التعذيب والارهاب في الضفة الغربية والخطوات المستمرة في الطرد والتجريد من الممتلكات التي يتوسع بواسطتها الاسرائيليون في فرض سيطرتهم على حساب الفلسطينيين . ومن ناحية اخرى عندما يئس الفلسطينيون من العدالة التي وعدتهم بها القرارات المتكررة للامم المتحدة التي لم تترجم ابدا الى حقائق وفقدوا صبرهم ولجأوا الى العنف كان الاعلام البريطاني سريعا جدا وجريئا في شجبه .

والغريب ان عدم التوازن هذا من جانب الصحافة كان في اوجه وبشكل مطلق في النصف الثاني من عام 1967 عندما كان العرب في اوطأ انحطاط بعد هزيمتهم المدمرة في حرب الايام الستة وكان الاسرائيليون منتصرين وفي منتهى القسوة ، وفي ذلك الوقت وفي ذلك الموقف يتوقع الشخص من الصحافة ان تعير انتباها اكثر الى اي راي يتناول الضغوط التي يمارسها المنتصرون على المهزومين او ان تعطي الصحافة على الاقل اذنا صاغية الى المهزوم وتنصت الى من امسك هؤلاء بقبضتهم . ولكن من المحزن التذكر ان ما حدث هو عكس ذلك تماما واتت عموم التقارير عن التطورات في كل من اسرائيل والاراضي المحتلة في الصحافة البريطانية من المراسلين موشي بريليانت عن التايمس وولتر كروس عن الغارديان ومايكل الكن عن شركة البث البريطانية وفرانسيز اوفنر عن الاوبزرفر وهكذا .. وهؤلاء المراسلون لم يكونوا اجانب بالمفهوم الطبيعي حيث انهم كانوا في الواقع في بلدهم في اسرائيل اذ انهم كانوا يهودا وفي معظم الحالات مواطنين اسرائيليين حقيقيين وقد يكونوا معرضين الى ضغط مكثف من المجتمع الذي يتوقع ولاءا صارما من اليهود ولا يقبل بديلا عن ذلك. وهم يشاركون المجتمع المفاضلة والطموح ولا داعي للتاكيد على التعصب معه حيث يفرض واجبهم عليهم ان يوجهوا اليه نظرة النقد ، الا انهم في الحقيقة والواقع يماثلونه ويتطابقون معه ومهما كانت الميزات الاخرى التي يملكها اي من المراسلين فان موضوعيتهم تثار حولها التساؤلات .

يبدو استثنائيا ومن غير المعتاد ان المحررين البريطانيين لا يفكرون في تعيين مراسل من الافريقيين الجنوبيين من الانصار المتحمسين ضد التمييز العنصري في جنوب افريقيا او تعيين مراسل من الشيوعيين الروس المتفانين في موسكو ولكنهم لا يرون اي اعتراض في توكيل مراسلين يهود في اسرائيل يحملون كل التعاطف مع الصهيونية . وهذه القضية نفسها كافية لاثارة التساؤلات عن موضوعيتهم .

ولم يكن طبيعيا ابدا حتى في الاجواء الهادئة نسبيا في اوربا وامريكا لصحيفة بريطانية تعيين شخص فرنسي في باريس او الماني في بون او امريكي في واشنطن بسبب احتمال ان يجد هذا المراسل نفسه بعد فترة من الزمن مواجها الاختيار بين انتمائين متضاربين بين بلده وبين الحقيقة .

كان الصراع اكثر حدة في القدس في الجزء الاخير من عام 1967 ويصعب التفكير في الوضع بالنسبة لمراسل في ذلك الوقت في المدينة التي تمثل في قلبها المكبوت الصراع ، المدينة ذات الاهمية الخاصة للايين من البشر في جميع انحاء العالم وبشكل خاص للمجموعتين المتحاربتين اللتين تقابلتا كمحتلين ومحتكين بين جدرانها . وكان من المهام الحياتية بالنسبة لنا نحن الآخرين فهم اولا الآراء المتضاربة وما اذا كان بالامكان الاصلاح . ولكننا اذا اعتمدنا في مصدر معلوماتنا عن ذلك على الصحافة وكما يفعل معظمنا بشكل اكيد فاننا نسمع وجهة نظر واحدة عن الصراع فقط(4) .

توجد استثناءات نادرة جدا حيث تخترق ملاحظة معارضة من احد المندوبين المعارضين الذين يتساءلون عن كرم قوات الاحتلال الاسرائيلي او يسالون كيف ولماذا يستمر اللاجئون في الفرار من الاراضي المحتلة في فلسطين ومرتفعات الجولان السورية التي احتلها الاسرائيليون في حرب حزيران بعد مرور اشهر من انتهاء الحرب . ولكن هذه التقارير قد اهملت عموما وتعرض كتابها الى القذف بتهمة الشهود المتحيزين .

وقد تعرضت شخصيا الى تجربة من هذا النوع حيث دعتني شركة البث البريطاني بعد ستة اشهر من حرب الايام الستة الى زيارة عدد من الاقطار العربية وكتابة مناهج مسلسلات وثائقية عن وجهة نظر الراي العام العربي . وذهبت لزيارة الاراضي المحتلة لكي اطلع بنفسي عما يجري هناك ، ولم تكن لدي فكرة واضحة عما ساشاهد لانني كنت بعيدا عن المنطقة لسنوات عديدة وما تذكره الصحافة قليل جدا . ومن هذه القلة مقالة واحدة كتبها ديفيد هولدن في صانداي تايمس احتوت مؤشرا او مؤشرين قبيحين عن الاحتلال الاسرائيلي . الا ان الانطباع العام الذي اعطته الصحف البريطانية هو الهدوء والاستسلام من قبل جميع الاطراف الفلسطينية . كان من الصعب علي التصديق ان تلك هي القصة الحقيقية الكاملة للوضع هناك اذ لا يمكن طبيعيا أن يستسلم جميع السكان دون قسر واكراه من الاحتلال الاجنبي .

اضمرت الشكوك حول الوضع في فلسطين ولكن المراسلين المقيمين في القدس كانوا مقتنعين تماما بالصورة التي قدموها حتى كادوا ان يقنعوني كما فعلوا مع الاكثرية الساحقة من قرائهم وعلى الاقل ان الشكوك التي كنت اشعر بها واعبر عنها عن حالة الاوضاع في الاراضي المحتلة مبالغ فيها .

وعندما غادرت متوجها الى القدس تذكرت ما قلته لزوجتي بانني قد ابتلع الكلمات التي ساكتب عندما اعود .

كانت الحالة التي رايت في الواقع اسوا بكثير من اي شيء يمكنني توقعه مما سيجعلني اجابه مشكلات ضخمة . واقل هذه المشكلات اهمية هي الشخصية والتي ذكرت قسما منها في هذا الكتاب والتي نتيجت من محاولة السباحة في الاتجاه المغاير للتيار الذي كان في ذلك الوقت يركض بقوة لصالح اسرائيل . الا ان المشكلة الآنية والاكثر اهمية هي مشكلة الاتصال وايصال الصورة الحقيقية الى الآخرين عن وضع الامور المرعب ، الصورة التي تتضمن المخاطر الى العالم وهو غافل عنها . عملت ترتيبي قبل ان اترك انكلترا مع الغارديان ان اكتب سلسلة مقالات عن حقيقة الاوضاع في الارض المحتلة ولم يكن بيننا عقد خاص لاننا نعرف بعضنا جيدا بعد عمل مشترك دام اكثر من اثني عشر عاما وكانت الصحيفة قد خصصت لي جزءا يسيرا من النقود لتغطية بعض المصاريف وتركتني فيما عدا ذلك خالي الوفاض .

بعد كل هذه السنين يصعب علي تذكر هذه المرحلة دون انفعال جعلت القدس نقطة الانطلاق وسافرت اسبوعين خلال المناطق المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، قوبلت في الوهلة الاولى بشكوك سوداء من قبل الفلسطينيين المعنيين الذين تعلموا ان يلزموا الصمت امام المراسلين الاجانب . انهم قابلوا الكثير وقليل من هؤلاء كان يهتم بمشاكل الفلسطينيين حيث كان اهتمامهم اكثر في مشاركة الاسرائيليين فرحة النصر وعكسها الى العالم المعجب . وقد حققت نصيحة احد اصدقائي الفلسطينيين في بيروت وواحدا من الكثيرين المنفيين من القدس وكانت عائلته قد لعبت دورا متميزا في حياة المدينة لقرون عديدة قبل ولادة الدولة اليهودية وسلمني قائمة اسماء وقصاصة ورق تحمل بعض الكلمات في العربية وبهذه وجدت نفسي اشق طريقي من يد الى اخرى في جميع الاراضي المحتلة بين افراد شعروا ان نفوسهم سجينة وشعروا بالياس من اعادة تأسيس الاتصال والعلاقات مع العالم الخارجي .

من هؤلاء عرفت الحقيقة عن الاحتلال : عن الضغوط على المواطنين المدنيين ، الضغوط الجسدية والنفسية التي اتبعها الاسرائيليون لاقناعهم وبتعبير ادق اكراههم على ترك منازلهم : عن الاحكام العرفية التأديبية والاعتقالات الجماعية والسجن والاحتجاز دون محاكمة والتجريد من الملكية والتدمير وكل الوسائل الجائرة الاخرى التي استعملها المحتلون لكسر معنويات الفلسطينيين والقضاء على روحيتهم قضاء نهائيا . كانت تجربة مرعبة وفظيعة وفي احيان كثيرة محزنة جدا خفف منها الملكة العقلية للفلسطينيين الذين قابلت وقدرتهم في استعادة حيويتهم اثر البلاء الملم وطاقتهم في تحمل مصائبهم واسوأ جميع المظاهر هو الاحساس الذي بدات اقاسمهم اياه تدريجيا بأن نوعا من الحواجز قد اقيم ولا زال قائما بينهم وبين بقية العالم كحجاب ضدهم من التعصب حتى الحقيقة تبدو امامه عاجزة عن ان تنتصر .

وجدت في القدس عددا كبيرا من اعضاء المجموعة الاجنبية – قناصل ورجال دين وعمال خدمات اجتماعية وموظفي الامم المتحدة – كانوا يعرفون بالظلم الذي استرعى انتباهي وكانوا في بعض الاحيان غاضبين كغضبي حول الموضوع ولكن يبدو ان هناك في اغلب الاحيان سببا قاهرا لصمتهم وعلى الاقل لاعلان غضبهم في المجال العام . كان اكثرهم يعرف قضية الشاب الذي اختفى في الليل ولم يعد والنساء والاطفال الذين احتجزوا في اكواخهم في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في غزة لايام من غير انقطاع والسلب والنهب في كل مكان رافق النصر الاسرائيلي حتى المقرات الرئيسية للامم المتحدة في القدس لم تستثن ولم تذكر هذه الحقائق ولا صحيفة واحدة بريطانية ، انهم جميعا عرفوا غلق الطريق المؤدي الى رام الله لمدة ستة اشهر بينما دمر الاسرائيليون كليا ثلاث قرى فلسطينية ونقلوا في العربات الدبش وحرثوا الارض التي كانوا عليها ، كلهم عرف ذلك الا ان لديهم الاسباب التي تجعلهم يلزمون الصمت وفي بعض الحالات لا كلها سبب لهم الصمت الآلام الكثيرة ، فقد فرض على بعضهم لمواقعهم كدبلوماسيين او موظفين مدنيين عالميين وعلى البعض الآخر حسب تقديري لسبب بسيط وهو حماية الذات (ويبدو لي ان رجال الدين بشكل خاص غير مستعدين للتعرض للرؤساء الجدد في القدس) ولكني اتذكر باجلال كبير قلة منهم صمموا تجاوز هذه القاعدة وساهموا معي في الاعلان عن الحقيقة .

بامكاني فهم جميع هذه المواقف الا ان ما لا استطيع فهمه وجعلني في عنفوان الغضب في ذلك الوقت معرفتي ان قسما من المراسلين الصحفيين في القدس ومن « الاجانب » الذين كانوا بلا شك يعلمون بهذا الظلم وهذه الاساءات وراوها بأم اعينهم بقوا صامتين ولم يذكروا شيئا عنها . لابد ان لديهم اسبابهم الخاصة ، حيث رات الاكثرية منهم ان من الاسهل جدا غلق عيونها وآذانها عن الامور غير المسرة التي تحدث حولهم في كل مكان . لم اسمع ان ايا منهم تغلغل الى غزة التي اعتبرها عدد من الناس في ذلك الوقت مكانا خطرا وكذلك لم يجد المراسلون اليهود اي سبب حتى لمحاولة تكوين علاقات مع الفلسطينيين في الارض المحتلة الذين يعتبرونهم جواسيس وعملاء . وحتى في هذه الظروف لابد ان يكون بينهم من يستطيع – اذا رغب – الكشف عن اسطورة « الاحتلال الخير » قبل ان تسيطر على تفكير العالم . « انهم كالالمان الذين لم يسمعوا ابدا عن التعذيب النازي » .

بعد سنوات ذهبت لسماع احد هؤلاء المراسلين شاهد العيان وهو مدعو للتحدث الى مستمعين في لندن . كان ذلك في الربيع من عام 1974 بعد ستة اشهر من حرب التشرين اول (اكتوبر) عندما كانت اسرائيل في الم المحنة المبرح الذي ادى الى استقالة السيدة مائير ، حيث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدات عيون الناس تتفتح حول حقيقة اسرائيل وكانت مفاجئة لي ان اسمع هـذا المراسل يتحدث بصراحة كبيرة عن بلده المتبنى مبينا الانحدار في المستويات الاخلاقية في اسرائيل وفقدان الثقة في قادتها ووضوح فشل الاسس التي تقوم عليها سياستها الخارجية . صُعق المستمعون الذين كانوا مناصرين وناقدين لاسرائيل لما سمعوه من التعقيبات الجديدة للصحفي الذي كانت نبرته المميزة التي تسجل للراي العام تختلف تماما عما ذكره . في نهاية حديثه هنأته على صراحته وموضوعيته وعلقت قائلا : عندما يحاول قسم منا ان يفضي بنفس الاشياء التي ذكرت الى مجموعة من المستمعين فانه يجد صعوبة اكبر في اقناعهم بسبب عدم وجود صوت قادم من اسرائيل يتحدث بهذه الموضوعية .

كانت المشكلة التي نتجت عن زيارتي للقدس في بداية عام 1968 بان التقارير التي سلمت الى الغارديان عن الوضع في غزة وعن الهرب المستمر للفلسطينيين من الاراضي المحتلة والاوضاع في القدس العربية التي ضمها الاسرائيليون وصادروا منها اراضي العرب لاحلال اليهود المهاجرين داخل الجزء العربي ، كانت هذه التقارير وصفا نابضا بالحياة تعبر عن الصورة الحقيقية والتي تناقض بشكل صارخ تقارير الحكومة الاسرائيلية والتي يعود الفضل الكبير في وضعها امام القراء البريطانيين والاجانب الى تعاونها مع المراسلين المقيمين ، اذ ان جميع المراسلين الذين يكتبون للصحف البريطانية والامريكية هم من اليهود وعلى الاغلب اسرائيليون ، فليس من العجب ان بدأ القراء رؤية الامور من الزاوية اليهودية (او من وجهة النظر اليهودية) يشاركونهم احاسيس الحماس والمرح التي تحيي الاسرائيليين المحتلين وتهمل مشاعر الفلسطينيين الذين راوا حقوقهم وبيوتهم ازيلت بالقوة لفتح طريق لطموحات الصهاينة .

هذه المشكلة لم تكن مشكلتي وحدي اذ ان محرر صحيفة الغارديان الذي نشر رسائلي السريعة التي ارسلتها وجد نفسه هدفا لنقد كبير وتعرض نتيجة ذلك الى الظلم والاساءة فقد تم التنسيق الدعائي بين السفارة الاسرائيلية والصحافة اليهودية في بريطانيا وعدد من الافراد بحيث تحقق اقصى ما يمكن من التاثير وحاولوا التشكيك بي ومن خلالي بالصحيفة . فقد نشرت صحيفة جويش اوبزرفر « رسالة مفتوحة الى الغارديان » منتقدة المحرر وواصفة اياه بالرجل اللامسؤول واوحت تحالفه مع من اسماهم الكاتب « اصدقاؤك العرب » . واتهمت بشكل صريح صحيفة «اسرائيل تودي » المحرر لنشره مواد معارضة للسامية ، وبسعادة اقول ان هذه الصحيفة قد توقفت عن الصدور بعد ذلك بفترة غير طويلة ، كما كتب الملحق الصحفي الاسرائيلي رسالة طويلة نفى فيها الاتهامات المؤكدة والتي تم نشرها والتي ثبتها حول خرق الاسرائيليين مقررات مؤتمر جنيف في غزة . ومما يثير السخرية ان رد الملحق جاء حالا بعد لقائي بناءا على طلبي في القدس مع ممثل كبير من وزارة الحربية الاسرائيلية واكد ان حقائق الاوضاع في غزة كانت تماما كما عبرت عنها وذكرتها . كانت هذه من الظواهر الواضحة والاشارات المرئية للضغوط التي مورست لاسكاتي ومن غير الصعوبة الرد عليها ولكن بامكاني الا استغرب اذا ازعجت المحرر اضافة للتدخل في عمله .

كنت ممتنا جدا للثقة التي منحني اياها وكتبت له عند عودتي من القدس اشكره عليها وارسلت له في نفس الوقت قائمة طويلة بأسماء الاشخاص في القدس يشهدون للحقائق التي ذكرت رغم تحفظهم بالكلام علنا وتطوعا بسبب مواقعهم الرسمية . ولم يجب على هذه الرسالة ومع نمو الجدل حول مقالاتي شعرت ان ثقته بي بدات تضعف ، وفي اوجها كتب اليّ رسالة اعطاني فيها فكرة عما سأجابه ، معلقا اولا عن رؤيته رسالة مني في صحيفة اليوم السابق مجيبا فيها السيد ليمان واستمر مستفسرا :

« انا اتساءل : هل رايت المقالة المكتوبة في عدد هذا الاسبوع وفي صحيفة جويش اوبزرفر ؟ يبدو ان عليّ ان اضمن رسالتي بعض النقاط المهمة . لقد ارفقت طيا نسخة منه في حالة عدم رؤيتك له ووضعت خطوطا جانبية على الاقسام التي اثارت اهتمامي .

« بشكل خاص ـ انك جعلت موضوع معاملة العرب جزءا مركزيا في مقالك ـ وهل صحيح ان بدائل من وسائل الراحة هي على الاقل في مستوى مشابه او احسن قد جهزت للذين اخرجوا من بيوتهم ؟ اذ كانت هذه الادعاءات قد ذكرت في رسالة او رسالتين ووضعها امامي اللورد سيف عندما التقيت به صدفة قبل يوم او يومين .

« من المؤكد ان المجموعة الكبيرة من القراء اليهود يعتقدون ان الاسرائيليين تصرفوا بتحفظ مثير . وربما كان هذا السبب في صعوبة تقبلهم لما مثلت امامهم وجها لوجه وبهذه الصراحة وانت تكتب مسجلا لهم الرعب » .

كانت هذه هي الصعوبة التي ذكرت سابقا : وفي الحقيقة ان ايا من المراسلين المقيمين في القدس لم يكتب ابدا عن الرعب والفزع الذي يتعرض له العرب هناك وفي غزة مما سهل كثيرا على قراء الغارديان تصديقهم اختراعي لكل ذلك . كان باستطاعتي ادراك هذا ولعل عددا غير قليل منهم كان مخلصا في اعتقاده هذا ، كان صعبا للشخص الاعتيادي في لندن واقل صعوبة لمحرر صحيفة التأكد من هؤلاء الموجودين في القدس والذين يستطيعون بسهولة تثبيت اقوالي وعلى سبيل المثال : ممثلي الصليب الاحمر والامم المتحدة والكنيسة الانكليكية والقنصل العام الامريكي والمسؤولين المحايدين الكثيرين والافراد الخاصين وعمال الانعاش الاجتماعي الذين ادرجت اسماءهم في الرسالة التي كتبتها بعد عودتي . ولكن دون اي محاولات من هذا النوع للتاكد او نقض حقائقي لم ار اي سبب وجيه في عدم اخذ كلمتي كمراسل صحفي ممارس ومستقل وشاهد عيان وضرورة قبولها ومفاضلتها على كلمة السيد ليمان وصحيفة جويش اوبزرفر واللورد سيف و « مجموعة القراء اليهود » الذين اضافة الى كونهم جميعا ملتزمين ومرتبطين بلا تحفظ في الدفاع عن اسرائيل كانوا على بعد الفي ميل من المساومات ويعتمدون مصادر معلوماتهم في الاساس على المراسلين اليهود الذين يكتبون من القدس والذين ذكرنا سابقا عن انتمائهم المحدد .

والآن أصبحت الحقائق التي كشفتها معلنة للجماهير وقد تكررت مرارا وتأكدت صحتها حتى انها سُجلت في وثائق الامم المتحدة . يكون من المحزن جدا متابعة القصة الى نهايتها . وصلت الامور الى ذروتها عندما سلمت آخر مقال من مقالاتي ، المقال الذي يحتوي على حقائق لا يمكن ان يتطرق اليها الشك ولكنها من تلك التي لم تعرف طريقها الى

الصحف البريطانية سابقا ، ومما يثير السخرية والاستغراب ان هذا هو احد الاسباب التي برر بها عدم نشر المقال الذي احتوى الوسيلة التي محا بها الاسرائيليون بعد فوزهم في عام 1967 القرى الفلسطينية الثلاث : امواس (القرية التي جاء ذكرها في الانجيل ايموس) ويالو وبيت نوبا .

باستطاعتي تقدير صعوبة تصديقها لاتصالها بذكرى رهيبة واصيلة في الكتاب القديم حتى انني ترددت في التصديق حتى تثبت من ذلك بعيني . كان المكان الذي تقع فيه القرى الثلاث يبعد بين 12 و 15 ميلا من القدس في اقصر الطرق . والحقيقة المؤلمة ان ايا من المراسلين البريطانيين في القدس لم يكتب عن تخريبها ، اما اقل ما يقال عن عملهم هذا هو اعطاؤهم انطباعا سيئا عن المصادر الصحفية مما سهل على المحرر الاقتناع انني ان لم اكن في الحقيقة قد اخترعت القصة باكملها فانني بلا شك وعلى اقل تقدير قد اسقطت من الحساب بعض الاسباب الموجبة . بعد ذلك باشهر قام المحرر بارسال مراسل آخر من انكلترا ولم يكن يهوديا حيث اكد الخبر الذي كتبته ونشرته الغارديان في نهاية الامر(5) . في ذلك الحين ونتيجة للجدل المباشر الذي حدث حول هذا الحدث الحياتي وضع المحرر نهاية لعلاقتي مع الغارديان واخبرني انه سوف لن ينشر لي ابدا اي شيء اكتبه عن الشرق الاوسط(6) . وقد اصبت بخيبة امل مريرة لرفضه نشر مقالتي لانني لم اتحمس لاي موضوع كتبته مثلما تحمست لهذا الموضوع خاصة وان لدي من الشكوك ما يجعلني اعتقد ان لو كانت القصة معكوسة وان العرب دمروا ثلاث قرى اسرائيلية طاردين سكانها الى املاقهم لاوردت كل صحيفة بريطانية قصتهم في صفحتها الاولى .

اعتقد ان هذا تعليق عادل ومهم جدا في قضية التغطية المتحيزة في الصحافة في صراع الشرق الاوسط ومن العدل ايضا الاضافة الى ان اكثر صحيفة حافظت على اكبر سياسة توازن فيما يتعلق بالشرق الاوسط في العامين 1967 و 1968 هي صحيفة الغارديان ، في وقت ازمة السويس شقت الصحيفة طريقها وحيدة بصعوبة تشبه في بعض الاحيان شق اخدود في ارض صخرية ، وتبعها الآخرون بعد ان سارت الامور بطريقة اسهل بعد عام او عامين وانا اشك في قبول اي صحيفة يومية في ذلك الوقت بنشر مقالتي عن غزة والقدس . اما المقالة عن القرى المدمرة التي رفضتها الغارديان فقد قدمتها الى التايمس وقبلتها وارسلتها حالا للطبع الا انها غيرت رايها بشكل مفاجيء دون اي تفسير . كدت اصل الى القناعة ان مصير هذه القرى سوف لن يعرف ابدا ولكن قبلته ونشرته اخيرا صحيفة ساندي تايمز وقد قامت هذه الصحيفة بعد سنوات بنشر اكثر التقارير نقدا لاسرائيل ولكنها في عام 1968 ابدت اهتماما قليلا في الشرق الاوسط . اما عن ردود فعل القراء فقد فوجئت في حجم الرسائل التي بعثوا بها مستفزين بما كتبت .

كانت الاستقلالية وعدم التحيز في الراي شيئا غير طبيعي في تلك الايام ، حيث ظهرت معظم الصحف البريطانية خلال السنتين التي تلت عام 1967 مسمرة ومسحورة بالقوة العسكرية والحصانة السياسية التي امتلكتها اسرائيل وكان المحررون مترددين بشكل غير اعتيادي في نقد سياسات اسرائيل واعمالها حتى ولو تعارضت مع قرارات الامم المتحدة كتلك التي تدور حول القدس مثلا حيث ضمت اسرائيل القسم العربي من المدينة وتبعت ذلك بتجريد ملكية المئات من الهكتارات من الاراضي العربية والتي تمت على الرغم من القرارات الخاصة لكل من مجلس الامن والجمعية العامة او عندما دمروا المصالح البريطانية كما حدث في قناة السويس التي بقيت مغلقة على حساب مصلحة المصدرين البريطانيين والمواطنين الكادحين بسبب استمرار اسرائيل في احتلالها لسيناء . من جهة اخرى كان المحررون مشدودين بالفرحة من اخطاء العرب وكانوا في منتهى القسوة في استنكاراتهم للاعمال الفدائية التي تقوم بها الاقلية البائسة من الفلسطينيين الذين بداوا في اللجوء الى القوة في محاولة كسر قبضة الاسرائيليين على الاراضي المحتلة . ومن المهم جدا التذكر ان اعمال العنف كانت نتيجة للضغط والارهاب الاسرائيلي في الاراضي المحتلة وليست سببا . وحدثت اول عملية اختطاف طائرة في تموز (يوليو) 1968 بعد مرور ستة اشهر من الحوادث المفزعة التي وصفت حدوثها في غزة .

باختصار كانت رؤية اية عبارة ترتبط منطقيا مع وجهة النظر العربية حول القضية الفلسطينية او اي شرح عن جذور ومسببات الصراع العربي الاسرائيلي في الصحف البريطانية حالة نادرة الحدوث جدا في الاعوام التي تلت عام 1967 وهذه الحقيقة نفسها موجودة في كل الغرب حيث كان الراي العام يتاثر بنفس مشاعر الاحساس بالذنب حيال اليهود واحتل الصهاينة مواقع جيدة لاستغلال هذه المشاعر ووجهوا ضغوطا كبيرة ومسؤوليات جساما الى الشخصيات المعروفة وعلى صفحات الصحف . اما العرب الذين لم يتمتعوا بهذه الفائدة وجدوا انفسهم مقطوعين تماما من فرص التعبير عن آرائهم في الصحافة الغربية وشعروا بخيبة الالم لغياب اي مناقشة متوازنة حول القضايا التي تخص الشرق الاوسط . ومن اجل كسر الطوق الذي بدا لهم مصنوعا بتعمد وبطريقة مبهمة بعد ان اقتنعوا بعدم استطاعتهم الحصول على اي مجال في الصحف باي طريقة ، لجاوا الى شرائه . في صيف عام 1969 اجرى مدير مكتب الجامعة العربية في لندن ترتيبا لنشر اربع صفحات ملحقة عن فلسطين في التايمز على شكل اعلانات .

ولغرض تحقيق صورة واضحة قدر المستطاع ضمن هذا المجال الضيق فانه دعا عددا من المختصين للكتابة عن جوانب مختلفة عن الموضوع : عن الخلفية التاريخية وصراع القوميات في فلسطين ومعالجة المسالة الفلسطينية في الامم المتحدة ومشكلة اللاجئين واشراك الاقطار العربية الاخرى في الصراع الفلسطيني وتاثير ذلك على العلاقات البريطانية مع العالم العربي . كانت هذه مواضيع مهمة عولجت بجدية تامة كما توقع قراء التايمز من المساهمين في كتابة المقالات احد الفلسطينيين العاملين في مكتب الجامعة العربية وفيما عدا ذلك كان جميع الكتاب من الانكليز المعروفين والمطلعين على قضايا الشرق الاوسط منهم وزيران سابقان في حكومة العرش احدهما عمالي والآخر محافظ وآخر من اعضاء البرلمان مرشح للوزارة وسفيران سابقان قضيا معظم حياتهما العملية في التعامل في شؤون الشرق الاوسط وانا كمندوب سابق في الشرق الاوسط .

ومن الطبيعي ان لا يعتقد اي شخص ان الوزراء او السفراء معصومين من الخطأ وكذلك الحال بالنسبة للمراسل الاجنبي ومن العدل القول ان هذه الاوراق الاربعة من الملحق كانت مركزة جدا ومليئة بتفصيلات كثيرة ومعلومات دقيقة عن فلسطين في الماضي والحاضر لم تكن ابدا متوفرة في اي عدد سابق من اعداد التايمز وفيها كمية لا باس بها من المعلومات عن خلفية الصراع العربي ـ الاسرائيلي لم تكن قد ظهرت ابدا في التايمز وبشكل اكيد منذ عام 1967 . وقد عبر كل الكتاب المشاركين عن وجهات نظرهم والآن عندما اعيد النظر الى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صفحات الملحق يصعب عليّ ان اجد اية ثغرة في تعرضهم لمناقشة تاريخ فلسطين او تحليلهم لمضامينها المستقبلية التي تحمل كل الاستعداد للانفجار من اجل فلسطين والعالم اجمع .

الا ان تصرف التايمز في نشر الملحق كان غريبا ، فبالاتفاق بين الطرفين تم وصف الملحق بالاعلان التجاري فظهرت كلمة اعلان بالاحرف الكبيرة العميقة على راس كل صفحة من الصفحات الاربع . ان ذكر هذه الملاحظة للقاريء الاعتيادي وكتابتها بالخط الغامق وطبعها على الصفحة الاولى وتكرارها بطريقة مضجرة وذكر ان الملحق يحتوي على « اعلان سياسي برعاية مكتب الجامعة العربية في لندن » يؤكد بشكل غريب ان التايمز « قد قبلت نشره تمشيا مع سياستها التقليدية ولكنها لا تكفل ايا من الحقائق او الآراء التي تم التعبير عنها » . ولكي تكون الصحيفة في موقع الامان في طريقة مشابهة لوضع حكومة تنظم انتخابات في بلد اكثرية الشعب فيه من الاميين فقد قامت التايمز باجراء احتياطي آخر واستنسخت الى جانب هذه الملاحظة شعار الجامعة العربية مع الترجمة الانكليزية لكلمات « جامعة الدول العربية » التي ظهرت تحت الشعار في كلمات عربية . في هذا الوقت وكما هو متوقع بدأ القاريء يفقد صبره للوصول الى مادة الملحق هذا اذا لم يكن قد فزع من هذه التحذيرات المرعبة ، ولكن الملحق استمر مشيرا الى محتواه وان « كتاب هذه المقالات قد قبلوا دعوة مكتب الجامعة العربية للمساهمة في هذه المعلمة » .

مما لا شك فيه ان اي قاريء متوسط الثقافة لصحيفة التايمز قد فهم بوضوح ان المحرر الذي قبل بالطبع ـ خلافا للكتاب ـ نشر المقالات مقابل كميات كبيرة من النقود يرغب عزل نفسه عن الافكار التي عبروا عنها ، حتى مر على ذهن عدد من قرائه انه كان مغاليا في تنصله وحماسه المتكرر لاي ايحاء باحتمال اشتراكه في الجريمة مع المشاركين (الكتاب هنا) . الا ان شعور المحرر كان بشكل واضح مختلفا واعتقد ان عليه ان يقدم تأكيدات اخرى . فهو اضافة الى كل هذه التقنيات الموسعة لحماية نفسه ودون اي اشارة للدوافع التي حدت بالجامعة العربية الى القيام بهذا الاعلان فقد شعر مكرها بضرورة نشر مقال رئيسي وفي نفس العدد من الصحيفة ، عمل في مقاله الرئيسي جاهدا على احباط تأثير الملحق بوصفه « النصير المتطرف » وان المساهمين هم « افراد في بريطانيا متعاطفون جدا مع القضية العربية » مضيفا ملاحظته الاخيرة غير المهذبة التي سلطت الاضواء وبغرابة على قراره بنشره اصلا وبان الملحق « لم يكن ابدا من النشريات المفيدة » .

ان تصرفا من هذا النوع من جانب الصحف الكبيرة وضحت بصراحة شرعية الشك الذي يضمره بشكل واسع العالم العربي بأن الصحف البريطانية (واكثر منها الصحف الامريكية) يسيطر عليها ان لم يوجهها وكلاء الصهاينة ، وعندما يبحث اي شخص عن وسيلة لتحرير العرب البسطاء من هذا الشك فان العملية صعبة جدا وزاد من صعوبتها محرر التايمز الذي ذهب الى هذا المدى من تقطيب الوجه وتحريف المعنى لاقناع قرائه بانه بينما كان مستعدا لاخذ نقود من العرب الا انه لن يقوم ابدا بأي عمل مخز وضار بالسمعة كسماع وجهة نظرهم مثلا . وهو بهذه المناسبة من اجل ان يؤكد مناصرته لاسرائيل فقد واصل تصرفه بحماسة وانفعال وقدم في الصفحة الاولى من نفس العدد التايمز رسالة اخبارية من مراسلها في تل ابيب وكان اسرائيليا . ولكن المحرر لم يشعر بالحاجة لوصف مراسله بـ « النصير المتطرف » . كما بين المساهمون في الملحق في رسالة نشرتها التايمز فيما بعد(7) ، ولم يشعر بالصعوبة في نشر ملحق عن اسرائيل قبل فترة قصيرة ساهم فيه افراد غير متميزين سوى انهم جميعا متعاطفون مع اسرائيل ولم يعتقد ان من الملائم التعليق على ذلك او وصفه الملحق المذكور بانه اعلان او الشرح الى قرائه فيما اذا فكر ان نشروجهات نظرهم « مفيدة » او لا .

ان هذا التصرف بكل بشاعته هو اقل فظاعة من تصرف السيد بول جونسون محرر صحيفة نيو ستيتمان في احدى المناسبات وفي نفس الوقت تقريبا . فالسيد جونسون النصير القوى لاسرائيل كتب ملاحظة يومية ونشر رسالة من قاريء توحي ان كريستوفر مايهو كان معاديا للسامية . كتب مايهو مدافعا عن نفسه وبدلا من رفض السيد جونسون نشر الرسالة وهو شيء ليس غريبا نشرها بعد استئصال اكثر النقاط اهمية دون استشارة السيد مايهو وكانت صورة مشوهة للرسالة ، ثم نشر جونسون رسالة اخرى في الاسبوع الذي تلا مكررا التلميح ان مايهو معاد للسامية .

بعد هذا الحدث شكا كريستوفر مايهو السيد جونسون الى مجلس الصحافة الذي ايد احتجاجه(8) . الا ان سمعة السيد مايهو كانت قد دمرت بلا شك . وبالمقابل وبعد ذلك عين السيد هارولد ولسون السيد جونسون عضوا في المجلس الصحافي الملكي .

سادت حقيقة غريبة مستويات متعددة في حياة الجماهير البريطانية عام 1969 وبدت الفرضية ان اي دلالة على مناصرة العرب تعتبر تطرفا اعتيادية جدا ، والاسوا من ذلك نشر وجهات نظرهم ومؤيديهم ولم يكن الامر كذلك بالنسبة للاسرائيليين وللذين يدعمونهم رغم ان مناصري اسرائيل هؤلاء يعبرون عن انفسهم غالبا بطريقة غير اعتيادية من المبالغة والاسراف . لكي اكون عادلا مع محرر التايمز يجب التذكر انه كشبيهه محرر الغارديان كان متعرضا في الوقت الذي استشهدت به سابقا الى ضغوط وكانت في ذلك الوقت المقاومة صعبة . كانت الضغوط على الاغلب وبشكل طبيعي تمارس خفية لكنها بين الحين والآخر تنطلق الى الخارج متيحة الفرصة للجمهور ادراك درجة التصميم التي يحتاجها محرر اي صحيفة يرى من الضروري انتقاد بعض اوجه السياسة الاسرائيلية او تصرف حكومتها .

فقد حدث مثال واضح آخر بعد اشهر قليلة من نشر التايمز ملحقها الصحفي عن فلسطين ، ففي 28 تشرين اول (اكتوبر) 1969 نشرت التايمز مقالا مطولا من محررها الاجنبي السيد هوجكين ، وهو متخصص وذو خبرة طويلة في شؤون الشرق الاوسط عموما وفي فلسطين بشكل خاص . ناقش المقال الظرف والموقف الفكري للفلسطينيين في الاراضي المحتلة والذين عاشوا سنتين ونصف تحت الاحتلال الاسرائيلي . وسجل السيد هوجكين استنتاجاته عن بغض جميع الجماهير في الضفة الغربية من الاردن للاحتلال وانه مستمر بسبب سياسات كبت قاسية تمارسها الحكومة الاسرائيلية العسكرية والتي يبدو انها مقدمة على عملية ضم كلي . ووصف الاشكال المختلفة للتعامل القسري الذي شمل السكان جميعا مؤكدا ان الابرياء وغيرهم يتألمون من هذه العقوبات الجماعية وموحيا ان الاسرائيليين بذلك يحفزون بدلا من ان يخمدوا المقاومة من جانب الفلسطينيين الذين لم يجدوا بديلا للقوة كوسيلة لمقاومة تغلغل الكيان الصهيوني .

وكما هو متوقع فقد اثار المقال ردود فعل ومشاعر قوية لانه على الاقل سجل صورة تناقض تماما صورة الحياة في الارض المحتلة التي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نقلها المراسلون المقيمون لصحيفة التايمز وبقية الصحف الى القراء . ولهذا السبب فقط وجد عدد من قراء التايمز المقالة مفاجاة ومثيرة الى حد الازعاج . واذا ادركنا ان مسؤولية وصلاحية الكاتب ثانوية جدا بالنسبة الى محرري الصحيفة ، وان السيد هوجكين غير ملتزم وغير مدين بالولاء لاي من الجانبين في الشرق الاوسط وهو الخبير المتمرس في شؤون المنطقة ، فعلينا اذن قبول اقواله بـدلا من هؤلاء الذين يناقضونه وهم المتحيزون جدا . الا ان رد الفعل الاولى جاء من بعض القادة المناصرين لاسرائيل ومنهم اعضاء في البرلمان وحتى وزراء سابقين في المملكة كانوا مسعورين وقساة وحشيين الى حد مؤلم . واحد منهم كان السيد جوليان سنو ، احد اعضاء البرلمان الذي عقب في مجلس العموم حول مقالة السيد هوجكين قائلا « لست مستغربا ، فالصحيفة التي كانت صديقة للحكومة النازية وشرورها الفاسدة هي الآن معادية للسامية بشكل مزعج وملائمة لنشر مقالة مثل هذه » . وعندما احتج احد اعضاء المجلس بما وصفه « هجوم مفتري على باحث معروف ومتميز جدا بشؤون الشرق الاوسط وشخص ذي موضوعية كبيرة». اتهم هو ايضا بانه معاد للسامية من قبل السيد امانوئيل شينول احد اعضاء البرلمان (الذي اصبح فيما بعد اللورد شينول) .

عندما رد محرر التايمز مجيبا عن هذا النقد في مقال افتتاحي في 1 تشرين ثاني (نوفمبر) 1969 كان تاثيره على عكس المتوقع . فقد بدأ تعقيبه في المقال ذاكرا الحقيقة « في الحرب الكبرى بين اسرائيل والعرب كانت التايمز اساسا مناصرة لاسرائيل » الا انه (المحرر) وجد نفسه ومحرر الشؤون الخارجية تحت طائلة الهجوم المحموم بسبب مقالة واحدة ناقدة لاسرائيل وهي في نفس الوقت مدعمة بالوثائق بشكل جيد وقد عرض الكاتب الاستنتاجات باعتدال صحفي وله سمعة طيبة وكفاءات لا يتطرق اليها الشك . ان هذه الحادثة العرضية كانت منورة بطرق عدة والاهم انها حفزت المحرر ان يشـرح لقرائه بعض المشاكل التي تجابه اي صحيفة تحاول ان تعرض وجهات نظر الجانبين في صراع الشرق الاوسط . ان بعض تعليقاته التي رد فيها على مقالة السيد هوجكين جديرة بالاستشهاد . فهي تمثل المازق الذي يفرضه المتسلط ويواجه كل زملائه في ذلك الوقت وهم بلا شك ليسوا احرارا اليوم .

« أشياء عديدة يمكن قولها حول رد الفعل هذا . فهو وبلا شك هستيري . فلو نوقش التقرير عن اوضاع الشعب العربي في الارض المحتلة بهدوء وعودل مع معاداة السامية من قبل النازيين فلن يُسمح ابدا لاي شخص عدا الاعلامي الاسرائيلي المجاهر ان يرفع صوتـه ويناقش الدولة الاسرائيلية . ان السيد شينول يستعمل دائما لغة المبالغة الى حد السخف وعدم العدل ولغته بعد ان اصبح رجلا كبير السن لم تختلف عن لغته الافترائية عندما كان شابا . ولكن من سـوء الحظ ان السيدين شينول وسنو يمثلان رد فعل يجب على اي شخص مواجهته عندما ينشر اي نقد واقعي حقيقي وهام عن اي جزء في الموقع الاسرائيلي » .

« ان هذا لا يؤذينا كثيرا . فصحيفة التايمز مثلها كمثل اعضاء مجلس العموم مهمتهم مناقشة السياسة العامة . ونحن نتوقع ان تضرب بعنف بين الحين والآخر ، وعموما فاننا مسرورون بذلك وليس العكس . الا اننا لا نحب ان نتهم بمعاداة السامية لان ذلك بعيد كل البعد عنا . وعلى كل حال فان ذلك مضر وبشكل جلي لمصالح الدولة الاسرائيلية . فمن المؤذي لاسـرائيل اظهارها بالدولة ذات النوع الخاص المتميز التي لا تقوم بخطأ واذا قامت به فيجب عدم نقدهـا بسبب ما تحفظه الذاكرة من الاخطاء التي تعرض لهـا اليهود من قبل الامم الاخرى » .

هذه كلمات شجاعة جدا وانا اتفق مع معظم ما جاء فيها من كل قلبي . الا ان اللا مبالاة الظاهرة للمحرر لا تكاد تغطي قلقه الحقيقي وهو عندما قال ذلك بسبب ارتباطه وزملائه في مناقشة الشـؤون العامة وانهم « يتوقعون ان يضربوا بعنف بين الحين والآخـر وانهم عموما مسرورون بذلك وليس العكس » ، هذه الكلمات و «عموما» عبرت عن مغزى خاص أكد المحرر معناه عندما استمر قائلا « .. اننا لا نحب ان نتهم بمعاداة السامية .. » . يوجد في الواقع فرق شاسع جدا بين « توقع الضرب بعنف » تقال بطريقة هازلة قليلا او حتى بعنف الى حد ما بسبب الافكار التي يحملها الشخص حول سياسة التمييز العنصري او الاصلاح الجزائي او السوق المشتركة وبين تعـرض الشخص بسبب تجرئه ونقده لاسرائيل الى هجوم وحشي من رجـال متحيزين وبتهمة غير صحيحة ومؤذية بشكل مهول . وهذا صحيح بالنسبة للمواطن الاعتيادي كما هو للمحرر في اي صحيفة وطنية ولاي شخص معروف في الحياة العامة . فالاذى غير المشروع والقذف يُحدث تأثيرا دائميا ويصل الى مدى بعيد ، ومما يثير العجب ان الكل يعرف ذلك ومعرفته تؤهل استخدام هذا السلاح الحاد دون التاكد اطلاقا من شرعية استعماله . وليس مثيرا للعجب ان يتفادى جرحه كل من السياسي والمحرر او اي شخص آخر تتعرض حياته الى اضواء الجماهير وعليه ان يكبت نفسه ويسيطر على كل معلوماته ويمتنع عن النقـد العادل لاسرائيل .

واكرر شكوكي في صحة اقوال المحرر على هذا النوع من الهجمات التي شنها نيابة عن اسرائيل ضد التايمز كل من السيد سنو والسيد شينول قد سبب قليلا من الاذى الى الصحيفة وكثيرا منه الى اسرائيل نفسها بل على العكس من ذلك وقياسا على ما حدث بعد ذلك فانـا اعتقد بل اكاد اؤكد ان رد الفعل العنيف لمقالة السيد هوجكين ساعد على خنق ولبعض الوقت اي نوع من انواع النقد المشابهة التي عبر عنها والتي من المحتمل ان تسبب اصداء واسعة في ارجاء اخرى (اذ ان عددا كبيرا من الناس يعتقدون الآن ان ما كتب السيد هوجكيـن صحيح تماما) فيما لو لم يحدث هذا التردد من التوبيخ القاسي الذي وجه الى التايمز بسبب نشرها هذه المقالة الوحيدة .

اما فيما يتعلق بالاشخاص المعنيين فان كلا من السيد سـنو والسيد شينول قد رُفع بناءا على توصية من السيد ولسن الى مجلس اللوردات ورغم نقص تجربة السيد شينول في المنطقة وتحيزه العنصري الى اسرائيل فقد استمرت شركة البث البريطانية على اعتباره الاختيار الملائم والخاص كلما احتاجت الى تعليق « موضوعي » في شؤون الشرق الاوسط . من جهة ثانية اختفى السيد هوجكين من الحياة العامة عندما توقف عن عمله كمحرر للشؤون الخارجية في صحيفة التـايمز بعد سنة مما حدث .

يبدو مثيرا للاستغراب جدا ان تبقى الصحافة البريطانية في معظم الاحيان خلال السنة التي تلت نشر مقالة السيد هوجكين صامتة حول استمرار الادعاءات بسوء المعاملة التي يقوم بها الاسرائيليون في الاراضي المحتلة . ويبدو غريبا جدا ما حدث خلال تلك السنة حيث تم نشر عدد من التقارير اعطى فيها عدد من المراقبين تاكيدات جديدة خاصة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومتميزة ومفضلة عن صحة الادعاءات ، حيث قدمت منظمة العفو الدولية في نيسان (ابريل) 1970 « تقريرا عن معاملة السجناء تحت الاستجواب في اسرائيل » اعترفت بعدم كماله الا انه « وضع لاول وهلة دلائل كافية لاثبات الوقائع عن سوء المعاملة الخطيرة للسجناءالعرب» . بعد ذلك بفترة قليلة تبنت لجنة القدس المؤسسة في لندن نشر تقرير مؤرخ في آذار (مارس) 1970 ظهر بعد تقرير منظمة العفو الدولية تناول موضوعا خاصا جدا يتعلق ب « تعذيب العرب تحت الحكم الاسرائيلي » وفي ايلول (سبتمبر) 1970 اتخذت منظمة الصليب الاحمر الدولية خطوة استثنائية ونشرت احصائيات عن نشاطها نيابة عن « الاشخاص المحميين » وتعني بذلك جماهير المدنيين في المنطقة تحت الاحتلال الاسرائيلي .

مما يلفت النظر ان ايا من هذه الوثائق لم تلق الاهتمام الكافي الذي توقعه مؤلفوها وبسبب محتوياتها . فتقرير لجنة العفو الدولية أثار المناقشات لسبب وحيد هو ان السفارة الاسرائيلية في لندن غضبت وانفعلت للطريقة التي تم بها نشره ولطبيعة محتوياته . وقد نشرت بعض اجهزة الاعلام المناقشة ولكن لم يعط اي منهم اهتماما كبيرا الى محتوى التقرير ابدا . اما مشاهدات لجنة القدس فقد اهملت تماما بحجة صغر حجم اللجنة وقلة المعلومات المعروفة عنها ، مع العلم ان تقريرها كان مفصلا جدا بشكل غير اعتيادي ومتسما بالمثابرة وبذل الجهد ومحتويا على معلومات محققة ومؤكدة . وفيما يتعلق بتقرير الصليب الاحمر فقد كان اكثرها اهمية من جميع النواحي ويتعذر ايجاد تعليل او تفسير ورد لمحتواه .

وقد اعلنت اولا لجنة الصليب الاحمر الدولية مشاهداتها وابتعدت بهذا الاجراء عن ممارستها الاعتيادية في كشف مشاهداتها الى الحكومات المعنيةمحاولة بهذه الطريقة جعل المسؤولين الاسرائيليين الاذعان الى مقررات مؤتمر جنيف العالمي . ان تقديم هذا التقرير بهذه الطريقة المذكورة قد وضح وبشكل جلي ان اتخاذ هذه الخطوة الاستثنائية قد تم بسبب عدم قدرة الصليب الاحمر الدولي التغلب على الرفض الاسرائيلي الاعتراف بأن مقررات المؤتمر الرابع تنطبق على مئات الآلاف من المدنيين في الاراضي المحتلة . وهكذا وبناءا عليه بيّن التقرير مرة اخرى ان مقررات المؤتمر قد تكرر تجاوزها من قبل الاسرائيليين بطرق متعددة منها طرد المدنيين واعتقالهم دون محاكمة وهدم وازالة بيوت الافراد المواطنين وفي حالات متعددة اخرى ازالة قرى باكملها والعقوبات الجماعية ، كل هذه اعتبرها المؤتمر الرابع وبشكل خاص مخالفات قانونية وعموما لم يعترض الاسرائيليون على الحقائق التي ذكرها التقرير وهم الذين هيأوا لبعض منها ان تكون امام اعين الصليب الاحمر . ولكن النقطة الاساسية في هذا الخصوص هي ادعاء سلطات الاحتلال بقانونية الاجراءات التعسفية التي تقوم بها ضد الاهالي المدنيين في الارض المحتلة . وقد درس التقرير المظاهر التقنية لهذه القضية(9) . وما يثير الاهتمام ايضا انه رغم جاذبية محتوى التقرير ومضمونه الذي يعالج مصالح آلاف المدنيين العزل الذين يعيشون تحت الاحتلال العسكري ورغم الدوافع البديهيةالمعروفة للصليب الاحمر واتخاذه اجراءات استثنائية للتعريف بهذه الحقائق واعطائها اكبر مجال اعلامي فقد اهملته جميع الصحف البريطانيةفيما عدا واحدة والاستثناء هو صحيفة ساندي تايمز حيث نشرته في 11 تشرين الاول (اكتوبر) 1970 وقدمت عنه دراسة وافية دقيقة قدمها كل من السيد فيليب نايتلي والسيد الان ماكجريجر تحت عنوان « الصليب الاحمر يقول : اسرائيل مذنبة لتجاوزها مقررات جنيف » . وقد وصفت مقالتهما التقرير بانه « عمل تاريخي مشهود للصليب الاحمر الدولي » . وشرحا اسباب نشره بقولهما : « ذكر متحدثباسم الصليب الاحمر في الاسبوع الماضي وبعد مرور سنتين من الاحتجاج على عدم استطاعته الحصول على رد فعل مقنع من الحكومةالاسرائيلية عن موقفها من المؤتمر الرابع » .

ليس هناك مجال للشك ابدا لو ان تقريرا من هذا النوع قدمه للصليب الاحمر وتعرض الى دراسة مستفيضة تناولت تجاوزات مشابهة لمؤتمر جنيف في فيتنام او جنوب افريقيا او في سوريا او في اليونان اوتركيا او تشيلي او ارلندا لنشرته الصحف البريطانية على صفحاتها الاولى وطالبت بدعمه عالميا وبقوة عارمة او على الاقل بتحقيق عالمي للتأكد من صحة الادعاءات . ان لجنة العفو الدولية طالبت بتحقيق من هذا النوع وثبتته مرة اخرى الامم المتحدة بواسطة لجنة خاصة للتحقيق في الممارسات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة . لكن الحكومة الاسرائيلية رفضت التعاون مع هذه اللجنة او اي محقق آخر ورفضت الاعتراف بصلاحيتها وفي النهاية رفضت ادلتها التي اثبتت بشكل جازم كل ما بينته اللجنة العالمية للصليب الاحمر .

ومن المستحيل الآن معرفة ما اذا كانت هناك صحيفة اخرى تحاول ان تحذو حذو صحيفة ساندي تايمز دون الشعور بالفزع من الهجوم الضاري الذي شنه اللوبي الصهيوني على صحيفة التايمز حول مقال السيد هوجكين قبل اشهر قليلة . من الجائز في اعتقادي وهو ما يثير الاهتمام ايضا ان الصحيفة الوحيدة التي نشرت تقرير الصليبالاحمر الدولي كانت ساندي تايمز التي جعلتها قوتها المالية في موقع اقوى بكثير من قرينتها صحيفة الاوبزرفر او اي صحيفة يومية جادة اخرى في ذلك الوقت للوقوف في وجه ضغوط اصحاب الاعلانات .

والآن توفرت معلومات كثيرة حول هذه الموضوعات والمظاهر الاخرى في الصراع العربي الاسرائيلي وارتفعت اصوات في مختلف الاتجاهات مطالبة مناقشة وضع الشرق الاوسط بموضوعية . ومن الضروري ذكر اول من رفع صوته بهذا الشأن وكان صوت الشجاع الدكتور اسرائيل شاهاك رئيس الرابطة الاسرائيلية للحقوق المدنية والانسانية الذي عمل اكثر من اي شخص آخر لتثبيت وتوثيق الحقائق عن الاحتلال الاسرائيلي ، وكان مجلسنا ، مجلس تنمية العلاقات العربية البريطانية فعالا ايضا في جمع معلومات من هذا النوع وتعميمها الى كل من يستطيع ان يعمل شيئا من اجلها . وبشكل عام فقداهملت الصحافة المعلومات دون نشر الدوافع الخفية لذلك حتى لو اتت من مصادر اسرائيلية او من افراد او منظمات داخل اسرائيل كما حدث للرابطة الاسرائيلية .

كما ارتفعت في بريطانيا اصوات اكثر تأثيرا محتجة ضد التحيز واخفاء الحقائق والتي كانت في ذلك الوقت صفة تميز التغطيةالصحفية لاخبار الشرق الاوسط .

قبل يومين من وفاته في شباط من عام 1970 بعث برتراند رسل رسالة الى المؤتمر العالمي للبريطانيين في القاهرة حثهم فيها على وضع نهاية للتوسع الاسرائيلي وقال :

« ان ماساة الشعب الفلسطيني هي ان وطنهم قد اعطته قوى اجنبية الى شعب آخر لانشاء دولة

جديدة . وكانت النتيجة تشريد مئات الآلاف من الناس الابرياء وجعلهم بلا وطن . ومع كل صراع جديد يزداد عددهم . فالى متى يرضى العالم بهذا المشهد ويتسامح مع قسوته المفرطة » .

وفي نفس المحتوى ثبت بروفيسور ارنولد توينبي ملاحظته في مقدمة كتابه عن القضية الفلسطينية(10) :

« ان الجيل الحالي من البشر حساس بشكل عام للآلام الانسانية في كل مكان من العالم – في نيجيريا وفيتنام مثلا . الا ان العالم قد اهمل آلام العرب وبنفس قسوة الاخطاء التي سببت الآلام. ولا يوجد اي مبرر لاهمال قضية العرب او لغفران الاجراءات الاسرائيلية . ان الخصوصية التي ميزت الصراع الفلسطيني هي ان العالم قد استمع للجانب المعتدي واعطى الضحايا اذنا صماء » .

ان مجيء حكومة المحافظين الى الحكم في بريطانيا في عام 1970 وضع – الى حد ما – حدا فاصلا فيما يتعلق بمواقف الحكومة البريطانية من قضايا الشرق الاوسط ورفعت زاوية صغيرة من حاجز اللا ادراك الذي بقيت مختفية وراءه حقائق الصراع العربي الاسرائيلي عن الراي العام . وتوقع الكثير من المحافظين سياسة في الشرق الاوسط ذات نكهة مريرة تركها طعم حرب السويس الا انهم استغربوا عندما قدم وزير الخارجية السير الك دوغلاس هيوم في اجتماع خاص للحزبيين في يورك شاير خطابه الذي اصبح فيما بعد مشهورا بخطاب هاروكيت ونعته انصار اسرائيل بالخطاب السيء الصيت . اكد الخطاب على اهمية الاستقرار السياسي في الشرق الاوسط الذي يأخذ بعين الاعتبار المصالح العادلة للفلسطينيين . والواقع ان الخطاب لم يأت بجديد لم يذكره من قبل الوزراء البريطانيون . لكن الذي اضفى عليه الاهمية هي حقيقة ان السير هيوم ذكر بالوضع السابق الذي اذعنت له تدريجيا الادارة العمالية السابقة نتيجة للاعتراضات الاسرائيلية . وقد ضجر اللوبي الصهيوني داخل وخارج البرلمان من تبيان هذه الحقيقة ووافقت عليها بتردد بعض الاقسام الصحفية التي بدات في هذه الفترة تعي المدى الذي يستعمله الاعلاميون انصار اسرائيل .

ومما لا شك فيه وجود الاستثناءات للقاعدة العامة في دعم اسرائيل . فان صحيفة الاوبزرفر في سياسة تحريرها كانت تتأرجح بين هذه الجهة والجهة الاخرى وان مراسلها الدبلوماسي روبرت ستيفينس خدمها جيدا وقدم بحوثا متوازنة التحليل بشكل دائم عن قضايا الشرق الاوسط خلال الفترة الصعبة. وصحيفة فاينانشال تايمز اضافة الى ما قدمته من تغطيتها الممتازة للشؤون الاقتصادية في المنطقة فانها اظهرت شكوكا اكثر من كل الصحف حول التحايل والادعاءات الاسرائيلية وابقت اعمدة مراسليها مفتوحة بشكل ملحوظ للتعبير عن وجهات النظر المختلفة . اما صحيفة ساندي تايمز فقد بقيت بعيدة الى الحد الذي جعلها تهمل جميع اخبار الشرق الاوسط لاشهر عديدة ، الا اننا لاحظنا انها نشرت في مناسبات مختلفة مواد وجدتها بعض الصحف ساخنة جدا للتناول . واخيرا فان هيئة تحرير صحيفة انسايت كانت أكثر مجازفة في تعريضها بالارهاب الاسرائيلي الذي كان السبب في اختطاف الطائرات والغارات التي شارك فيها الفلسطينيون في بداية السبعينات . وصحيفة تريبيون لديها مساحة صغيرة تحت تصرفها بينت بشكل منتظم اهتماما طيبا ومحترما للمظلومين وكانت اسرع الجميع للفهم والتعريف بالمظلوم في الشرق الاوسط ، واستطاعت صحيفة ديلي ميرر ان تجذب عدة مرات الاهتمام الى الحالة المأساوية للفلسطينيين وذلك من خلال التقارير الممتازة للسيد جون بيلكر .

وقد اهملت بشكل خاص صحيفة برايفيت آي راي الاكثرية ولم تقم بأي محاولة لاخفاء احتقارها وازدرائها عدم الاحساس والاجواء المساعدة لنمو الروح العسكرية التي ميزت فترة غولدا مائير في اسرائيل والتي اعجب بها كثيرا وبشكل لا محدود قادة حزب العمال البريطاني .

حاولت جميع الصحف على درجات مختلفة وليست ثابتة دائما ان تحفظ فيما يتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي بعضا من سمعة الصحف البريطانية في استقلالية الفكر وحرية التعقيب . وباستثناء صحيفتي تريبيون وبرايفيت آي فان جميعها اظهرت اهتماما سريعا جدا وغريزيا جدا في شؤون الاسرائيليين واليهود بشكل عام اكثر بكثير من الفلسطينيين او الشؤون العربية بشكل واسع . وقد مرت بعض الاوقات بدت جميعها باستثناء الصحيفتين اعلاه مستسلمة للاسرائيليين او تحت الضغوط التي يوجهها انصارهم وكانها تحت التنويم المغناطيسي . خلال هذه الفترة من 1967 الى نهاية 1970 كانت صعوبة نشر اي مقال في اية صحيفة بريطانية ينقل وجهة نظر العرب ناهيك عن راي الفلسطينيين كبيرة جدا ، في حين يتصدر اي مقال يعبر عن وجهة النظر الاسرائيلية او اليهودية . الا ان الصحف التي ذكرت ومنها الغارديان وبشكل اقل التايمز حاولت على الاقل في فترات متقطعة عرض وجهتي النظر في صراع الشرق الاوسط .

بعد عام 1970 زادت رغبة الصحف للقيام بذلك وقل تحفظها تدريجيا وبشكل متسارع وبدات التايمز اخيرا الاعتماد على السيد اريك مارسدن وهو انكليزي غير يهودي وعينته مراسلا لها في القدس ولم تسلك اي صحيفة اخرى سلوكها بل اتجهت الغارديان والاوبزرفر في الطريق المعاكس وابدلت اليهودي غير الصهيوني وولتر شوارتز بالسيد اريك سيلفر المراسل السابق لصحيفة جيروسيلم بوست في لندن والمعروف بحماسه واعجابه باسرائيل وجميع اعمالها . ورغم الانتقادات المتكررة فان شركة البث البريطانية احتفظت بمايل الكنز.

في ضوء تصميم الحكومة الاسرائيلية في الاستخفاف بالراي العام العالمي حول القدس والاستمرار في خططها المبنية على اسس سياسية مدروسة ومع نمو الادلة برغبة اسرائيل في الاحتفاظ باكثر او جميع الاراضي المحتلة وحيث ازداد يوما بعد آخر بناء المستعمرات وهي رموز لسياسة مائير – دايان عن « الاحتلال الزاحف » ابعدت كل هذه تدريجيا عددا من قادة انصار اسرائيل وازدادت صعوبة كبار الكتاب من انصار اسرائيل في مقاومة الاستنتاج بأن التصلب الاسرائيلي هو الذي منع الاستقرار المقبول في الشرق الاوسط . وحدثت صدمة للاسرائيليين عندما بعثرت حرب تشرين اول (اكتوبر) 1973 الاسس التي بنوا عليها جميع حساباتهم حول توازن القوى بينهم وبين العرب وصدموا مرة اخرى عندما عرفوا ان المناصرة العميقة التي فرضوها سابقا في الغرب قد تآكلت .

حتى بدأ اكثر انصارهم اخلاصا في تثبيت تحفظهم . فصحف امثال ديلي تلغراف وساندي تلغراف وديلي ميل والتى نادرا ما (او

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

على الاصح) لم تقدم هيئة التحرير فيها ابدا اي نقد جاد الى اعمال او سياسة اسرائيل او اعطت اي اهتمام جاد الى حقوق الفلسطينيين(11) بدات تشير الآن الى الضعف في تفكير المسؤولين الاسرائيليين وكانوا في بداية الامر مترددين وكان بامكان الشخص سماع صوت صرير العدد في ادارة الديلي ميل قبل ان يستجمع كاتب مؤثر شجاعته ويقول في اليوم الثالث من حرب تشرين الاول (اكتوبر) ان « ... لم نر ابدا شيئا اصعب من رفع صوت الشجب الواضح للاعتداءات المقترفة ضد العرب » او « في احد الايام عندما يشعرون بغطرسة انهم سادة الموقف ولديهم القدرة على لكم كل عربي تقع عليه انظارهم فان عليهم (اليهود - كذا) ان يقوموا بالمقامرة في مبادلة الاراضي لكسب اعتراف العرب ... »(12) . اما صحيفة الديلي تلغراف التي دعمت اسرائيل في رفضها الخفيف والمتشدد للبدء في اي مفاوضات عادلة مع اعدائها فانها فضلت محو وازالة جميع السياسة الماضية لهيئة التحرير فيها وسمحت « لمراسل خاص » مجهول الى الشرق الاوسط ان يقوم بذلك في نصف دزينة من الاسطر وكتبت « ان التوازن العسكري لا يزال جزئيا في صالح اسرائيل والعرب مستعدون لصنع السلام واذا انتظر الاسرائيليون الى ان يميل التوازن الى جانب العرب فانهم (الاسرائيليون) قد لا يستطيعون ان يختاروا السلام .. اذ لا يوجد ما يسمى الضمانة العسكرية المطلقة والاستمرار في طلبها سيكون السبب في دمار دولتهم »(13) .

انني اعتقد ان اعادة صياغة ما كتبت في الغارديان في حزيران (يونيه) عام 1967(14) هو اطراء غير مقصود لكل من الصحيفة ولي شخصيا . ولكن عطبا كبيرا قد حدث خلال السنوات التي تخللت احداث الدعم غير الناقد الذي اعطاه كتاب التحرير في صحيفة التلغراف او اي شخص آخر عمل نفس الشيء . فمآسي الفلسطينيين خلال هذه السنوات والمذابح التي حدثت في حرب تشرين اول (اكتوبر) ما كانت لتحدث لو ان اسرائيل اعيدت الى وعيها واوقفت عند حدها ويجب ان يشترك في تحمل مسؤولية مآسي الفلسطينيين جميع ناشري ومحرري الصحف والكتاب المؤثرين الذين شجعوا الاسرائيليين في الاستمرار في سياستهم التي ستقودهم الى تحطيم ذاتهم . والحقيقة ان هذه السياسات كانت شديدة الدمار للمصالح البريطانية وقادتنا جميعا وبشكل مباشر الى ازمة الطاقة والمضاعفات التي رافقتها . ولم تكن هذه الحالة ايضا مفيدة ابدا للصحافة البريطانية التي قامت بدور كبير في دعمها وتشجيعها .

ومن ناحية اخرى كرر بروفيسور توينبي اشارته قائلا :

« تسود العالم لعنة اقتراف وغفران السيئات . فقد غفر الخطيئة التي صنعتها الصهيونية ضد الفلسطينيين العرب فقد نهب وسلب وطرد بالقوة الفلسطينيون العرب والقوة التي اجبرتهم كانت بريطانية اولا وقبل ان يبني الاسرائيليون قوتهم العسكرية ليقوموا بعدها بالمعارك انفسهم مستعملين تجهيزات السلاح الامريكية وبالدعم السياسي والاقتصادي الامريكي . فان مسؤولية هذه الخطيئة التي تمت ضد الفلسطينيين واسعة الانتشار : والآن يجب ان تتحمل الامم والافراد على حد سواء واجبهم الحتمي في فهم واستيعاب طبيعة الصراع في الشرق الاوسط »(10) .

الهوامش :

(1) لا يختلف الاعلام في امريكا عنه في بريطانيا ، فاللوبي الصهيوني يسير الصحافة وشركات التلفزة .

(2) انظر مقالة كولن ولسون الموسومة Seeing for Oneself في Middle East International بتاريخ November 1974

(3) كان الدكتور اسرائيل شاهاك رئيس الرابطة الاسرائيلية للحقوق المدنية والانسانية قد ثبت بالوثائق والبراهين تعذيب الفلسطينيين منذ عام 1967 . وقد قدم هذه الدلائل ووضعها تحت تصرف الصحافة البريطانية وحاضر بها في ثلاث لقاءات عامة في لندن . الا ان الصحف البريطانية قابلت احتجاجاته ببرود واهملتها كليا (B B C) شركة البث البريطانية .

(4) ان الوضع ليس افضل كثيرا من السابق فيما عدا صحيفة التايمس عينت لها مراسلا اجنبيا في القدس وهو الانكليزي السيد اريك مارسدن والذي قام بجهد ملحوظ لتغطية وجهتي النظر .
ومن الجدير بالذكر هنا ان هذه الصحيفة قد توقفت عن الصدور منذ اشهر قليلة .

(5) مقالة بقلم السيد هارولد جاكسون في الغارديان في 4 حزيران (يونيه) 1968 .

(6) يسعدني ان اذكر انه غير موقفه فيما بعد .

(7) نص الرسالة موجود في ملاحق الكتاب . اما المساهمون فهم ايان جيلمور وكريستوفر مايهو وباسل عقل وجيفري فورلونك ومايكل آدامز وانتوني نايتنك .

(8) الغارديان في 26 تشرين اول (اكتوبر) 1969 .

(9) International Review of the Red Cross, Nos. 113 and 114, published by the International Committee of the Red Cross, Geneva, August - Septamber, 1970.

(10) The Transformation of Palestine, edited by Professor Ibrahim Abu-Lughod, Northwestern University Press Evanston, Illinois, 1970.

(11) بالرغم من الحقيقة ان جون بولوخ في صحيفة التلغراف قد عين مراسلا اجنبيا في الشرق الاوسط معروف بنظرته البعيدة وموضوعيته .

(12) ديلي ميل ، 8 تشرين اول (اكتوبر) 1973 .

(13) ديلي تلغراف ، 8 تشرين ثاني (نوفمبر) 1973 .

(14) ذكرنا ذلك في القسم الرابع الذي نشرته آفاق عربية في عددها 9 ، ايار 1979 ، ص 64 .
وكانت الغارديان قد نشرت الرسالة في 15 حزيران (يونيه) 1967 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حكاية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قديمة

محمد العيد الخطابي

قرعت الطبول في الساحة الكبرى بالبلدة والناس نائمون الا قلة من نساك الليل وعشاق الظلام وبعض العسس الذين يعيشون من مهنة السهر ، وبعد دقات الطبول ارتفعت انغام المزامير وكانت الديكة ما تزال تحلم بالغسق، وما هو الا ان بدا السكان يشعلون القناديل او الشموع في بيوتهم ويتساءلون عما يحدث في الخارج ، فقد كان مما تعودوه ان يسمعوا الطبول والمزامير تصدح في واضحة النهار حينما يكون والي البلدة في حاجة الى التسلية ، اما مثل هذا المهرجان الليلي فلم يكن مالوفا لديهم .

كان (حمادي) اول الخارجين الى الشارع يريد أن يستجلي حقيقة ما يحدث ، وقد حمل معه فانوسه وانطلق وهو يفرك عينيه متجها الى حيث يقوده سمعه ، وفي الطريق الى الساحة اصطدم حمادي باحد عشاق الليل وكان سكان البلدة يلقبونه بـ(الوطواط) دون ان يهتموا بمعرفة اسمه الحقيقي . ساله حمادي عما يحدث في هذه الساعة المتاخرة من الليل فهز الوطواط كتفيه واعرض عن سائله بعد ان تمتم بالفاظ مبهمة ثم سار في طريقه وهو يتحسس بعكازته الارض كعادته وكانه يبحث عن شيء سقط من بعض المارة في غفلة منهم .

اما حمادي فانه واصل السير في اتجاه الساحة حاملا عبء الفضول فوق راسه ، وما زال ماشيا حتى وجد قوما من اتباع الوالي يطبلون ويزمرون بحمية وكانهم يحيون عرسا لصديق عزيز عليهم . وكان حمادي يعرف من بين الزمارين شخصا اسمه عمسور فحاول ان يساله بالاشارة والايماء عن الداعي الى هذا الاحتفال . وعبثا حاول عمسور ان يوضح الامر لصاحبه والمزمار بين شفتيه ينفخ فيه فتجحظ عيناه ويتمدد جفناه وينتفخ حنكه ويحمر معظم وجهه .

وحينما لم يفهم حمادي شيئا عن صاحبه قال في نفسه : لعل احد سكان البلدة يعتزم اقامة وليمة في الصباح احتفالا بحادث سعيد طرا عليه في اول الليل !

وقد استحسن حمادي هذه الخاطرة فراى ان الحزم يدعوه الى التوجه فورا الى دكانه كي يفتح ابوابه استعدادا للطوارىء لا سيما وهو يحتكر بيع السكر والشاي في بلدته والسكان كلهم يتزودون من عنده ويدفعون الثمن الذي يحدده البائع بموافقة الوالي الذي يتقاضى نصيبه من الارباح دون ان يكون شريكا في التجارة براسمال معلوم .

وما كاد حمادي يمضي الى دكانه حتى تجمهر حول الساحة خلق كثير وكل يحمل فانوسه ويطرح في الهواء سؤالا لا يتلقى عنه جوابا . وكانت الطبول تزداد قرعا والمزامير تتجاوب معها لحنا وايقاعا ، وما هو الا ان طربت النفوس واهتزت المشاعر واحس بعض الكهول برغبة عارمة في ولوج الحلقة فأخذ بعضهم يرقص والبعض الآخر يصفق على ايقاع الطبول ، وقد لبثوا على هذه الحال حتى تبين الصبح لذي عينين واتضحت ملامح الوجوه الموسومة بعلامات السؤال والتعجب وبآثار السهر ، وحينئذ دلف الى وسط الحلقة أحد اعوان الوالي فاومأ بحركة من يده الى الطبالين والزمارين ان اسكتوا فسكتوا واشرأبت الاعناق وشخصت العيون وارهفت الاسماع ، فقال عون الوالي :

— « ان الوالي ابا عياد اصابه في هذه الليلة ارق طويل واحس بمغص شديد في معدته والتواء في امعائه فامر ان تقرع الطبول وتصدح

المزامير كي يستيقظ اهل البلدة ويتجمعوا في هذه الساحة فيشاطروه ارقه واوجاعه ، وها هو الآن قد بدأ يشعر بتحسن ملموس والنوم يداعب جفنيه فانطلقوا الى اعمالكم سالمين غانمين » .

وبعد سماع هذا الكلام ظهرت على وجوه الناس الساهرين امارات الاستغراب اذ انهم لمسوا تغيرا ملموسا في عوائد الوالي ، فهو لم يكن ابدا يصاب بالمغص في امعائه ليلا بل في الظهيرة ، فقد كان من تقاليده الراسخة الا يتناول وجبته الدسمة المنوعة الا في الغداء ، يلتهم فرخين من الدجاج وشواء من لحم الضان وقصعة من طعام الشعير المجلل بالخضر الطرية واليابسة ثم يعقب على ذلك باصناف منوعة من الحلوى المسلة المحشوة باللوز وعدة اكواب من الشاي الاخضر المنعنع ، وما يكاد يستقر كل ذلك في معدته حتى يحس بتراخ في عضلاته وتبلد في حواسه وتضعضع عام في جسمه وسرعان ما يداهمه، بسبب هذه التخمة المقصودة لذاتها ، مغص موجع في المعدة واضطراب مجلجل في الامعاء فيعلو صراخه ويشتد شهيقه وزفيره فيصيح وهو يتقلب على الارض ويرسل الوانا من الشتائم في اتجاه الخدم والاعوان المحيطين به فلا يهدأ روعه الا مع غروب الشمس .

كان ذلك دأبه كل يوم بعد الزوال اما في الليل فلم يحدث هذا قط اذ كان ابو عياد يقتصر في عشائه على حساء من دقيق البر وحبات من التين الجاف او التمر ثم ينصرف الى اللهو والخلاعة فيسهر مع رهط من اتباعه على دقات الدفوف والاهازيج الماجنة تغنيها جوقة من الشيخات ذوات السمعة القبيحة في كل القبائل المجاورة وفي البلدة نفسها ، ولا تنتهي السهرة الا في الهزيع الاخير من الليل ، وفي اليوم التالي يستيقظ الوالي من نومه قبل الزوال بقليل فيجلس من توه للفصل بين الخصوم وهو في حالة من الانهيار النفسي والبدني تجعله لا يفتر عن كيل الشتائم الغليظة لكل من في مجلسه من اعوان ومتقاضين وطلاب الحقوق بعد ان يكون قد اخذ من الجميع مبالغ مقدرة من النقود على سبيل الرشوة .

وقد علم اهل البلدة فيما بعد ان ابا عياد لم يصبه المغص والارق في تلك الليلة بسبب التخمة بل من جراء دواء اعده له احد المتطببين من اعشاب برية مخلوطة بتوابل هندية واجنحة بعض الحشرات الطبية النادرة مدعيا ان هذا المخلوط مجرب في اثارة الشهية وتسهيل الهضم . ولم يعلم السكان بنتائج هذا الدواء الا حينما بلغهم ان الوالي قد مد المتطبب للسوط وجلده فلم يتركه حتى اقسم على انه سوف يتخلى عن مزاولة هذه المهنة ويحترف اخرى اكثر ملاءمة لمواهبه وقدراته .

ونعود الى صاحبنا حمادي ، بائع الشاي والسكر ، فنقول انه لم يخنه حدسه فبدأ يومه بداية طيبة اذ كان من الاعراف المتبعة في البلدة ان يحمل كل مكلف عاقل من ذوي العيال قالبا من السكر ووزنا معلوما من الشاي الى بيت الوالي كلما قرعت الطبول في الساحة الكبرى ، وما كان لاهل البلدة ان يستمتعوا بحفل مباغت كالذي ذكرناه دون ان يؤدوا عنه ثمنا ، وكان السكر هو العملة الرائجة التي تدفع للوالي في كل مناسبة سعيدة تعرفها البلدة ، ولاهمية السكر في حياة سكانها كانت الرشوة التي تدفع للوالي نقدا وعدا تسمى عندهم في الاصطلاح المحلي « سكرا » وذلك على خلاف البلدة القريبة من تلك حيث اصطلح سكانها على تسمية الرشوة « صابونا » حتى حينما يدفعونها نقدا من حر مالهم ، ولعل السبب في ذلك هو قيمة الصابون عند هؤلاء وندرته بينهم . أما في بعض المدن الكبرى ، حيث يسود الترف بين الاعيان وتجار الجملة ، فان الرشوة تعرف عند اهلها باسم « الحلاوة » او « القهوة » حسب مستوى العيش في كل مدينة .

وما دمنا قد تحدثنا عن الوالي الذي يصاب بتخمة متعبة بعد كل غداء ، في الاغلب الاعم ، فانه يجمل بنا ان نقول شيئا عن سكان تلك البلدة . انهم ينقسمون الى ثلاث فئات رئيسية من الناس : التجار والوسطاء – وهؤلاء جميعا يعملون لحساب الوالي ويقاسمونه الارباح دون ان يكون شريكا معهم في رأس المال ، وفئة المأجورين الذين يعملون في ضيعات الوالي ورهطه مقابل طعام يأكلون بعضه ويحملون بقيته الى اولادهم ، وهو في الغالب طعام غث هزيل ، وفئة ثالثة تتألف من البطالين الذين يزاولون احيانا بعض الاشغال الطارئة كحمل الاثقال وكي البهائم ويحترفون في اوقات فراغهم التسول او السرقة الخفيفة.

وقد تعمدنا الا نذكر من بين هؤلاء معلم الصبيان بسبب صعوبة تصنيفه في احدى تلك الفئات ، فهو – نظريا – يتقاضى اجرته من ناظر الاوقاف الا انه – عمليا – يكتفي بفضل من طعام يحمله اليه آباء الصبيان بالتناوب . وقد تغافلنا ايضا عن ذكر ناظر الاوقاف وقاضي البلدة وثلة من جلساء الوالي ، وجلهم من قرابته : من الاخوال او الاعمام او الاصهار ، وقد نقول بأن هؤلاء جميعا يؤلفون زمرة الاعيان.

واذا جاز لنا ان نتجاهل تصنيف المدعو « علال الحسوني » في احدى تلك الفئات لكونه يقضي معظم وقته في السجن اذا لم يكن في حالة فرار او عصيان فاننا مع ذلك نرى – من باب التندر وتجزية الوقت – ان نتعرض لبعض مغامراته دون ان نهتم بمكانته الاجتماعية في البلدة.

فالحسوني هذا رجل عنيد ، كما يقال عنه ، اشتهر بكثرة المشاكسة واللدد وسخونة الراس . واصل هذه الشهرة المكينة انه كان يعمل مزارعا في ضيعة صغيرة يملكها في اطراف البلدة ورثها عن ابيه، وكان يغرس فيها الخضر المختلفة ويسقيها بمياه البئر ، كما انه كان يملك بضع رؤوس من الاغنام والابقار وحمارا وبغلا يحمل عليهما البواكير الى السوق .

وذات يوم من ايام الصيف اعرب الحاج الكبير الهدار – وهو من اخوال الوالي – عن رغبته في اقتناء ضيعة الحسوني ليضمها الى املاكه الواسعة فبدأ يراوده في شأنها ويهاوده في ثمنها مؤكدا له انه لا جدوى من احتفاظه بهذه المزرعة التي تجر عليه اتعابا مضنية وانه من مصلحته ان يتخلص منها ، الا ان الحسوني لم يبد اي اقتناع بعرض الحاج الهدار فرفض ان يبيع ضيعته لكونها مورد عيشه وقوت اولاده فضلا عن انه كان فخورا بخدمتها والعناية بها معتزا بنتاجها الجيد من الخضر واللبن والزبدة .

وحينما عجز الحاج الهدار عن اقناع الحسوني العنيد بتفويت مزرعته لجأ الى التهديد والوعيد مستعينا في ذلك بالوالي الذي بدأ يفرض جبايات على الحسوني وجعل يضيق عليه الخناق كلما دخل البلدة لبيع نتاج مزرعته في سوقها . ولقي الحسوني من ذلك عنتا شديدا حتى اضطر الى حمل بضاعته الى بلدة اخرى لبيعها جملة لاحد تجار الغلال هناك . وقد اعتبر الوالي ابو عياد هذا الفعل تحديا لسلطانه ، اذ كيف يتجرأ الحسوني على بيع غلاله في بلدة اخرى ؟ ولهذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدأ الوالي يطارد صاحبنا ويلفق ضده الوانا من التهم مدعيا ، مثلا ، ان الحسوني يستخدم الجان للحصول على غلال جيدة وانه يقرض بعض تجار المدينة أموالا بفائدة ربوية .

وقد انتهى الامر بالوالي الى الزج بالحسوني في السجن ثم تفرغ الى تزوير عقد تم بموجبه تفويت المزرعة الى خاله الحاج الكبير الهدار بثمن بخس احتفظ به الوالي ضمانة عنده .

قضى الحسوني مدة طويلة في السجن وحينما خرج منه وجد ان مزرعته قد بيعت زورا وغبنا وان زوجته واولاده قد انتقلوا الى بيت صهره الحاج العابد ولد سيدي احميدو ، تاجر الاقمشة ، وقد حاول الحسوني عبثا اثبات حقه في المزرعة طمعا في استرجاعها . وحينما يئس من ذلك تجرأ فادعى بمجلس قاضي البلدة ان البيع تم بطريق التزوير والغصب في غيابه فما هو الا ان اعيد الى السجن جزاء لعلى جراته وطول لسانه ، وبعد ان قضى بين القضبان مدة اخرى اطلق سراحه بفضل شفاعة صهره الحاج العابد الذي قدم للوالي بضع قطع من الاقمشة الفاخرة .

وبمجرد خروج الحسوني من السجن جاءه احد اعوان الوالي ونصحه بأن يقتني كمية من السكر والشاي ويقدمها هدية لابي عياد على سبيل عرفان الجميل ، الا ان الحسوني ، الذي لم يعد يملك شيئا ، ابى ان يعمل بهذه النصيحة ، بل انه طرد العون وعنفه ووصل به الغيظ الى حد القذف في حق الوالي اذ نبزه بلقب « كرش الحرام ».

وما لبث ان راج خبر هذا القذف بين الاهالي ، ذلك ان الوالي حينما وصلته انباء عما فاه به الحسوني في حقه خرج عن طوره وذهب يصيح في الطريق العام وهو يردد : « انا كرش الحرام .. ؟ سوف يرى ذلك الكلب .. » وكانت هذه الوسيلة كافية لاذاعة الخبر في الناس صغيرهم وكبيرهم ، وقد جعل كل واحد يتوقع نزول اقسى العقوبات على راس الحسوني ، الا ان الغريب في الامر هو ان اهل البلدة بدأوا منذ تلك اللحظة يضمرون اعجابا بهذا الرجل الجسور المقدام الذي تجرأ على الوالي ونعته ، جهارا ، بأوصاف قبيحة لم يكن لاحد من سكان البلدة ان ينطق بها على رؤوس الملأ والشهود ، والحقيقة ان معظم هؤلاء السكان كانوا ينعتون الوالي في سرهم بأبشع النعوت ويكرهون شكله ورائحته .

وبعد هذه الحادثة اخذ (الوطواط) المتسكع يبدي اهتماما خاصا بأمر الحسوني فلم يعد يركز بصره في الارض بحثا عن شيء مفقود بل انه رفع راسه وبلغت به النشوة مبلغا جعلته ينظم بعض الازجال في ذم الوالي وذكر مثالبه ويغنيها حينما يخلو الى نفسه .

وعبثا حاول الوالي ان يعثر على مقر الحسوني الذي اختفى كما لو كانت الارض قد بلعته او السماء قد رفعته . وقد فتشوا عنه في بيت صهره وفي ضواحي البلدة وخرائبها فلم يعثروا له على اثر .

وبدأ السكان يتهامسون : لعله ان يكون صعد الى جبل الزيتون واختفى في مغارة هناك او لعله سافر الى مدينة اخرى ليدبر فيها مؤامرة ضد الوالي ، بل ان بعض السذج من الناس ذهبت بهم الاخيلة كل مذهب فظنوا ان الحسوني يمتلك قدرة سحرية مكنته من الاختفاء عن الانظار ، وجزم بعضهم انه شاهده ليلا في شوارع البلدة فرآه اشبه ما يكون بالطيف يظهر ويختفي بين الاشجار والمنازل فلا يظهر منه الا بريق عينيه .

وقد صادف ان شب حريق في حظيرة الحاج الهدار فساد بين الناس اعتقاد جازم بأن الحسوني هو صاحب هذه الفعلة ، والحقيقة ان احد خدام الحاج الهدار نام في العراء بسبب حرارة الطقس تاركا الشمعة مشتعلة في الحظيرة فاضرمت النار في القش .

والذي لم يخطر على بال احد هو ان الحسوني قد اختفى في كوخ (الوطواط) الكائن بالجبانة ، ذلك ان هذا المتسكع قد اعجب أيما اعجاب بجسارة الحسوني وتحديه الشجاع للوالي فآواه عنده واخفى امره على الناس ، والسبب في ذلك – وهذا ما يجهله اهل البلدة – هو ان الوطواط كان قد استهدف منذ زمن طويل لامتحان شبيه بالذي اجتازه الحسوني وذلك في القرية التي ولد فيها حيث كان يملك مزرعة ورؤوسا من البهائم يكتسب منها قوته وقوت عياله فسطا عليه شيخ القرية وانتزع منه كل ما يملك وجعل يضطهده ويطارده حتى ارغمه على الهجرة والتسكع بعد ان ضاقت به سبل العيش في قريته ، وقد استقر به المقام في بلدة الحسوني حيث بنى كوخا في الجبانة ، ولقبه السكان بالوطواط مع ان اسمه الحقيقي هو مسعود الكرمي ، وقد صار في عداد المتسكعين الذين لا هوية لهم بعد ان كان في قريته مزارعا ناجحا وشاعرا زجالا ينظم قصائد تفيض بعواطف الحب وعشق الطبيعة والحياة .

اما صاحبنا الحسوني فانه كان ، مدة اختفائه بكوخ الوطواط ، يتسلل ليلا فيقصد مزرعته التي اصبحت ملكا خالصا في حوزة الحاج الهدار ، وهناك يعمد الى اقتلاع المغروسات وهدم السواقي وافساد كل ما يجده في طريقه ، وبعد ذلك خطر له ان يوسع دائرة نشاطه فعاث فسادا في ضيعات الوالي ، ثم انه تطاول على بيت هذا الاخير وكتب على جدرانه ، في غفلة الحراس ، كلاما مشحونا بالقذف والتهديد .

وما لبث ان ذاعت هذه المغامرات الليلية بين اهل البلدة فتناقلها الناس وجعلوا يتندرون بها في مجالسهم الخاصة ، وقد ساد الاعتقاد بأن الحسوني يملك فعلا قدرة سحرية تمكنه من الاختفاء عن اعين الناس ، واخذت تروج بين السكان انواع من الشائعات الغريبة عن افعال الحسوني الخارقة ، ثم ان بعض البطالين اخذوا يتحدثون فيما بينهم جهارا عن الوالي فينعتونه بأبشع الالفاظ وينتقدون طغيانه ويندون بجشعه ويعددون مساوءه ، فتسبب كل ذلك في احداث بلبلة كبيرة بالبلدة ، وراجت بين سكانها ازجال نظمها الوطواط بالمناسبة يذم فيها الوالي واشباهه بكلمات مليئة بالالغاز والرموز .

وفي صباح يوم قارس البرد فوجيء سكان البلدة بخبر سرى بينهم كالبرق مفاده ان الوالي قد مات وانه سيدفن بعد العصر في الجبانة العمومية . واكدت بعض الشائعات انه مات غيظا وكمدا ، بينما قال بعضهم ان صغرى زوجاته الاربع دست له السم في حساء البر .

اما المصادر الموثوق بها والمقربة من الوالي فانها كانت ادرى بسبب وفاته : انها التخمة اللعينة ! لقد افرط الوالي في الاكل والشرب حتى انسدت منافذ الهواء في قفصه الصدري واصابه وجع شديد في البطن وتبلد في الراس . وما يزال يتقلب على الارض ويصرخ من شدة الالم حتى اسلم الروح .

●

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

الشواطىء

الى مصرنا العانية المستباحة وهي تستيقظ الان

« وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيهـا لمن خاف القِلَى متحوَّلُ »
وكيف وقد ضَلّ الدليلِ ولم يـزلْ
عَدُوّى يَغول النجمَ والقوم رُحّلُ
بكى القلبُ لمـا تراءى «مطارُ الجَميل»
وطوّف أطفالنا حول أسواره الكابيه
تسائلني عن ركود الظلال « منار »
وعن لهفتي . عن غيوم تخيّم فوق المكان
وأين البحيرة ؟ إن الشواطىء تمضي
كأنّ عيونا عليها تناءى حَزانى علينا
لقد كان فينا الفدائيّ يوما
يفجّرها بالحياة وبالموتِ ..

إن الشواطىء تنـأى علينا
ويغمرها الوغـدُ والمرتزقْ
ويسقط بين يدينـا نِثارُ مَحار
وقبضة نار
فتغمرنا أدمع الذكرياتْ
وتُضرَب أعناقنا تحت وهم انتصار
وطول انتظار
وتكبر كل المويجاتِ
تجتاح صُمَّ الصخور البحار
ويُفتح باب السماء جحيما
ليهمي المَطَر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هوامش تاريخية :

ـ المطلع ببت شعرمن التراث .

ـ منار : ابنة الشاعر .

ـ البحيرة : بحيرة البرلس شمال الدلتا المصرية ، وكانت مسرحا لاعمال الفدائيين في العدوان الثلاثي 1956 .

ـ مطار الجميل : مطار عسكري في الطريق الساحلي الى بور سعيد يوم كانت مصر في ظل نظام عربي ، وفيـه ايضا وقعت ملحمة للمصريين مع المعتدين المستعمرين القدامى والصهيونيين .

تستيقظين الآن

الى مدينتي

يسام بوق الحرس القديم دوره الرتيب
فيستخف بالجنود
ويحرق النشيد !!
يصحو على انينك الليلي والجراح
فيغمد السلاح
« الآن .. لا نواح !! »
اسمع ريح الموت والافعى
وشهقة المصباح
موتى بلا اوان
تناسلوا احياء في « جبانة الامام » !
ام انت الف مئذنة !!
والف عام !!
تناسخت عقارب الزمان ؟
مدينة الاشباح والاهرام
... ام قاهرة المعز ؟
... سيفه ام الذهب ؟
عروس هذا النيل ام لؤلؤة السلطان
... ام روما بلا رب ولا قيصر ؟
مفتوحة للبوم والخصيان
... والشيطان والازهر
موتى بلا اكفان !!
« روما لمن ؟ من يشترى ؟؟ »
يصيح بوق الحرس الرجيم
تستيقظين الآن من سباتك الطويل

مقهورة في الجب .. لا ركب ولا رحمان
وامراة العزيز في الزنار .. والتتار
تعانقوا .. والعاشقون افترقوا
تستيقظين الآن
على صدى العويل والمزمار
والثائرون احترقوا
« يا ليل نامت اعين الجبان
يا عين دق الطبل والصهيل »
تستيقظين الآن
تمردي
تمزقي .. واحترقي
او اشهدي وانتحري
طروادة البغي قادم جوادها
اليك في عباءة النجمة .. من وادي النجوم
يضاحك القواد والقراد والعميل
والشوك مضفور لراسك العجيب
... راس يوحنا الوديع
وكلها عليك موصده
مفتوحة الابواب للجحيم
كل الدروب
فاستيقظي
وانفجري
تمردي
واستشهدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د. حسن فتح الباب

وهران 26 مارس 1979

حركة أجور العمال العرب الفلسطينيين

عكس التطور الصناعي لفلسطين(*) نفسه على اجور العمال العرب في فلسطين طوال سني الانتداب البريطاني على فلسطين .

وبسبب افتقار العمال العرب الى التنظيم ، اندفعت اعدادهم الهائلة تتنافس على فرص العمل الشحيحة المتاحة ؛ مما دفع بالأجور الى مزيد من الهبوط .

وادى تدفق العمل مع تجاوز التوسع في مصادر البلد الطبيعية وطاقتها الانتاجية الى المنافسة بين العمل الوافد وبين قوة العمل . ونتج عن ذلك انهيار مستوى الأجور . وبيّن التقلب في مستوى الأجور الارتباط بمعدل الهجرة اليهودية الى فلسطين . وبدون حساب تدهور مستوى الأجور من خلال المنافسة بين العمل الوافد والعمل القائم ، فان المنحنيات في كلا القطاعين ، العربي واليهودي ، ظلت غير متوازية مع منحنى الهجرة . فقمتا كلا المنحنيين حدثتا في العامين 1934 و 1935 ، حين كانت الهجرة اليهودية في اعلى مستوى لها ، وحدث الحد الادنى في 1939/1936 ، بينما الهجرة اليهودية في اشد معدلاتها انخفاضا(1) .

وكان يوم العمل طويلا لأغلب العمال . أما عدد العمال الذين يشتغلون ثماني ساعات في اليوم فكان ، حتى أوائل الثلاثينات ، قليلا ، وهم العمال اليهود ، في الأصل . مقابل تلك الجماهير الغفيرة من العمال العرب التي ظلت تشتغل منذ شروق الشمس حتى غروبها(2) .

وحل الدفع عن قطعة العمل (بالقطعة) في نظام الأجر اليومي ، لأن أصحاب العمل كانوا يستفيدون من هذه الطريقة(3) .

اما عمال الدهان العرب ، فكانوا ، على لسان زميل لهم في مطلع الثلاثينات ، يشتغل الواحد منهم في فصل الصيف ، خمس عشرة ساعة او أكثر ، بأجر لا يزيد عن خمسة وعشرين قرشا لكل يوم متعب ، شاق ، محفوف بالمخاطر . هذا اذا كان مر على العامل ما يزيد عن خمسة عشر عاما وهو يعمل في الدهان ، أما العمال الذين لم يقضوا في المهنة مثل تلك المدة ، فاجرهم لم يكن يزيد عن 12 قرشا . مع أن هذا العامل ، ينهي من العمل – يوميا – ما يساوي جنيهين اثنين أو اكثر(4) .

وعزا لعمال في عكا تحدث واحد منهم ، داخل اجتماعات المؤتمر الاول للعمال العرب الفلسطينيين ، فاتهم صاحب العمل بحظر الكلام أثناء الشغل على العمال والعاملات ، وخصم جزاء نقدي من راتب كل من يخالف هذه التعليمات ! وتشغيل العمال ليلا ، في الوقت الذي لا يدفع للواحد منهم اكثر من قرش واحد ، أجرة لكل ساعة عمل من ساعات الليل(5) .

وظلت أجور العمال المهرة ثابتة في كل فروع تجارة المعادن تقريبا ، وجمعها – احيانا – تقليل في عدد ساعات العمل من تسعة الى ثمانية . وكانت الدرجات المدفوعة في تجارة المعادن ، في الأغلب ، للمستوطنين اليهود انفسهم وغير اليهود . ولكن يوم العمل بالنسبة لليهود كان أقصر عموما . وزاد التقدم في صناعة النسيج من أجور هذه الصناعة . كما زادت أجور عمال المعامل والماكولات . ورغم أن أجور العمل المدني غير الماهر لم تظهر تغيرا ملحوظا ، الا أنه حدث هبوط في بعض الانحاء ، في اجور عمال البناء ، وبشكل خاص بالنسبة لغير اليهود . وكانت اجور العامل الزراعي الماهر ثابتة ، وقد تقدمت تلك الأجور الخاصة بالعمل الزراعي بنسبة 10 – 12٪ ؛ بسبب الطلبات المتزايدة على العمال اليهود في المستوطنات الجديدة(6) .

وفي مطلع الثلاثينات انخفضت أجور الصناع المهرة والنجارين نحو 50٪ عما كانت عليه أواخر العشرينات ، وغدا الصانع الماهر يتقاضى ما بين 15 و 20 قرشا عن كل يوم عمل ، بينما يتقاضى العامل غير الماهر مابين 8 – 10 قروش يوميا(7) . وفي السنوات الثلاث الاولى من الثلاثينات ازدادت الأجور انخفاضا(8) ، بسبب الكساد والأزمة الاقتصادية العالمية، التي القت بظلها على فلسطين .

وفي العام 1930 كان عمال البناء « الفعلة » يتقاضى الواحد منهم من 7 – 14 قرشا يوميا ، أما عمال الفبارك والمعامل ، فيتقاضى أكثرهم من 3 – 10 قروش ، بينما تقاضى العمال أصحاب المهن من عشرة قروش فما فوق ، عن كل يوم عمل . وتقاضى عمال سكة الحديد أجورا تراوحت بين العشرة قروش والخمسة عشر قرشا للعامل الواحد ، عن كل يوم عمل . في حين تقاضى عمال الميناء ، والبلديات ، والحكومة من 10 – 12 قرشا في اليوم(9) . أما عمال الأفران في القدس فكانوا يشتغلون ثماني عشرة ساعة في اليوم ، ينتج العامل الواحد فيها ، في المتوسط ، خمسين قرشا ، يستولي منها رئيسه على أربعين ، ويترك له عشرة قروش فقط، وهي لا تكفيه شيئا ، وحين يسقط مريضا لا يجد من يعوله(10) .

وحتى العام 1921 كانت المصانع والمعامل تعطي اجازات على الوجه التالي : مصانع الأسمنت والكبريت والمصانع الكيماوية والمطابع واعمال النقل كانت تمنح اجازات سنوية قدرها سبعة أيام ، لكل من أمضى في العمل 12 شهرا متواصلا . أما المطاحن فكانت تمنح سبعة ايام لمن زاول العمل فيها ستة اشهر متواصلة ، ومصانع الحلويات ستة أيام لكل من عمل فيها 12 شهرا ، ومصانع الأحذية ثلاثة أيام ، لكل من عمل فيها ستة اشهر متواصلة(11) .

وهذه المعامل والمصانع كانت اقل تعسفا من ادارة سكة الحديد ، التي كانت تمنح عمالها ، في العام 1926 ، سبعة أيام اجازة سنوية ، بالاضافة الى الأعياد الرسمية ، الا أنها عادت والغت الاجازات والاعياد . وبعد طول احتجاج من جانب العمال ، أعادت الادارة العمل بالاجازات السنوية دون الاعياد ، وقررت خصم أجر الايام الثلاثة الاولى من العامل المصاب ، على أن تصرف له نصف الاجرة في الايام التالية(12) .

وحتى العام 1934 ، ظل العامل العربي يتقاضى من 7 – 13 قرشا لقاء يوم عمل واحد ، من 10 – 12 ساعة ، في البيارات أو البناء . وبالرغم من الارتفاع الشحيح في أجور العمال بالنسبة لما كانت عليه في عهد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حتى العام 1948

عبد القادر ياسين

الاتراك ، الا أن أسعار الضروريات وايجارات المساكن ارتفعت ارتفاعا يزيد في معدله كثيرا عن ارتفاع أجور العمال(13) .

وكانت شركة السجاير والتنباك تصرف، في آخر العام 1935 مبلغ 62 جنيها فلسطينيا أسبوعيا لعمالها المائتين وعشرة كأجور ، أي أن متوسط الأجر الاسبوعي للعامل في هذه الشركة كان 29 قرشا . وكان سائق الباص يعمل عشر ساعات في اليوم ، بدون راحة اسبوعية . أما عمال الميناء فكانوا يعملون ست عشرة ساعة يوميا ، لقاء حصة ضئيلة من دخل « الماعون » . ولم تكن المجالس البلدية تصرف للعامل فيها الا ما بين

6 – 9 قروش في اليوم الواحد(14) .

وفي نهاية العام 1935 كانت اجور نحو عشرين الف عامل عربي تقل عن ثلاثة جنيهات في الشهر للعامل الواحد(15) . وقفزت أجور العمال العرب في العام التالي . اذ لاحظت لجنة بيل الملكية البريطانية أن الأجر اليومي للعامل العربي الماهر ، قفز من 250 ملا الى 600 ملا ، وغير الماهر من 100 الى 180 ملا(15 مكرر) .

واختلفت الأجور بالنسبة للمكان ، فهي في الناصرة غيرها في مدينة يافا . وحسب احصاء حول أجور العمال أجرته جمعية العمال العرب مرتين ، أولاهما في أواخر العام 1935 ، والثانية في تشرين الثاني (نوفمبر) 1936 ، أشارت النتائج الى أن أجر العامل غير الفني في الناصرة ويافا تراوح ما بين 40 – 70 ملا ، في حين تراوح أجره ما بين 80 – 250 ملا في الناصرة ، و 80 – 320 ملا في يافا ، يوميا . وتراوحت أجور عمال البناء في يافا ما بين 200 – 400 ملا ، وفي الناصرة ما بين 100 – 250 ملا يوميا(16) .

وكان عامل البحر في يافا يتقاضى حصة من دخل «الماعون» الذي يعمل فيه ، بلغت حصة الواحد منهم في موسم تصدير البرتقال في العام 1935 ، نحو 180 ، 8 جنيها فلسطينيا . اما العامل بنصف حصة فحصته 4,090 جنيها ، لقاء 16 ساعة عمل . وفي غير مواسم تصدير البرتقال كان النقص في أجور عمال البحر يتراوح ما بين 30 و 40٪ .

وتراوحت أجور عمال البلدية بين 60 – 90 ملا في اليوم .
وعمال دائرة الاشغال العمومية بين 70 – 130 ملا في اليوم .
وعمال المحاجر بين 100 – 140 ملا في اليوم .

وبعد انتهاء الاضراب العام ، في 11 تشرين الاول (أكتوبر) 1936 ، نقصت الأجور بنسبة 25٪ ، بينما زادت ساعات العمل من 10 – 11 ساعة .

وأجرت جمعية العمال العرب استقصاء عن الف عامل ، في تشرين الثاني (نوفمبر) 1936 ، لتقدير دخل العامل في مدينة يافا ، فكانت النتائج التالية :

		ج	مل
– 570 عاملا	يقل دخل الفرد الشهري عن	2	570
– 245 عاملا	يقل دخل الفرد الشهري عن	4	250
– 120 عاملا	يقل دخل الفرد الشهري عن	6	000
– 45 عاملا	يقل دخل الفرد الشهري عن	10	000
– 15 عاملا	يقل دخل الفرد الشهري عن	12	000
– 5 (عمال فنيين خدمة 20 سنة)	يقل دخل الفرد الشهري عن	15	000

وكان 95٪ من العمال مديونين اما لأصحاب الاعمال او للمحلات . وتقاضى عمال المصابن أجورهم على « الطبخة » ، وتراوحت من 250 – 300 ملا ، واصبحت لا تزيد عن 120 ملا ، مقابل عمل في الليل والنهار .

ولأن متوسط ما تحتاجه العائلة الواحدة المؤلفة من خمسة اشخاص ، آنذاك ، كان يزيد قليلا عن أثنى عشر جنيها في الشهر ، فان 98٪ من العمال كانوا يعيشون دون المتوسط بكثير . لذلك اشتغل جميع أبناء العامل للتعاون في سد نفقات المعيشة ، واذ لم يكن ثمة من يساعد رب الاسرة ، عملت زوجه وأطفاله خدما في البيوت . وكانت أجرة المراة الشهرية من جنيه الى جنيهين ، والولد من 250 – 1000 مل .

وانتشرت الأمية بنسبة 93٪ في أوساط العمال العرب ، منهم 14٪ لا يستطيعون سوى كتابة اسمائهم فقط .

ويلاحظ بحث أجرى في أواخر الثلاثينات ان الطريقة الشائعة في فلسطين هي دفع الأجرة حسب الوقت ، مع ان الدفع حسب القطعة اصبح معتادا في عدد من الصناعات والحرف ، كما هو في معامل الحبك الكبرى ، على الآلات الميكانيكية ، ومعامل الكرتون ، والملابس ، والأحذية ، والأثاث، وقطع الأحجار ، وصناعة البناء ، كما شاع العمل حسب العقود بين العمال البنائين اليهود ، والى درجة قليلة بين العمال الصناعيين(17) .

وفي العامين 1936 و 1937 هبط الدخل الحقيقي ، أكثر مما تبينه الارقام القياسية بصدد الأجور اليومية ، وذلك بسبب مدد البطالة وتخفيض ساعات العمل . وليس ثمة معلومات يركن اليها عن التغيرات في حجم البطالة وساعات العمل في الاعمال الصناعية على حدة(18) .

وظلت ظروف العمل وشروطه ادنى من المستوى الذي كانت عليه في البلدان المتقدمة صناعيا . وان تحسنت كثيرا بالنسبة للعمال اليهود ، فانتظمت أجورهم حسب جداول تم تنسيقها بين نقابات العمال اليهودية واصحاب العمل ليصبح يوم العمل ثماني ساعات ، مع عطلة يوم واحد في الاسبوع ، وتامين ضد الحوادث ، واجازة سنوية بأجر ، وصندوق للعمال العاطلين تابع للهستدروت ، يغطي نفقات العمال العاطلين . أما أحوال العمال العرب فظلت على سوئها ، أجورهم تخضع للعرض والطلب، وساعات العمل تتراوح بين ثماني وعشر ساعات في اليوم ، بلا تامين ضد الحوادث ، ولا صناديق مرض او بطالة ، والمباني الصناعية القديمة التي يعملون بها غير صحية(19) .

وأثبتت لجنة الأجور أن اجور العمالالعرب الحقيقية ، في العام 1939

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انخفضت بنسبة 25٪ عما كانت عليه في العام 1934 ، في حين لم تنخفض اجور العمال اليهود الحقيقية ، في المدة نفسها ، سوى 16٪ فقط(20) .

ويقول ابن صاحب معمل نسيج في المجدل ، ان عامل النسيج العربي كان يتقاضى ، في الثلاثينات ، ما بين 5 – 7 قروش اسبوعيا . ولم يكن يتقاضى القروش السبعة الا العامل النشيط فقط ، الذي يعمل وقتا اضافيا ويسهر الليل . وقام غذاء العامل على الكسبة والمجوة والبندورة، وفي الشتاء على القصب والفسيخ الصغير الوارد من العريش . وكانت الوردية العادية للعامل تبدأ من شروق الشمس وتنتهي في المغيب . ولم يكن العامل يشتغل في النسيج فحسب ، بل ينظف بيت صاحب العمل ، ويحمل اطفاله ، ويروّح عنهم(21) .

وابان الحرب العالمية الثانية ، اشترت حكومة الانتداب البريطاني ، من المعامل والمصانع العربية واليهودية : المنسوجات ، ووحدت أسعارها وعرضتها على الجمهور للبيع باسم Utility . واشترطت الحكومة تسليمها المنسوجات لقاء منحها المصانع « الكوته » المحددة لها من الغزل. وهنا ارتفع اجر عامل النسيج العربي الى ما بين 3 – 4 جنيهات فلسطينية يوميا . وان كانت أسعار الحاجيات قد ارتفعت بنسبة تزيد على 300٪ ، عما كانت عليه قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية . وارتفع عدد مصانع النسيج وعدد عمالها بالتالي . وغدا في المجدل وحدها نحو 7000 – 8000 نول نسيج ، مقابل اقل من الف نول عشية نشوب الحرب المذكورة . واثناء الحرب ارتفع عدد عمال النسيج في المجدل بحيث شمل حوالي ثلثي عائلات البلدة ، والتي كانت تحوى آنئذ نحو 15000 ، في حين ظل نحو ثلث العائلات يعمل في الزراعة وبعض الحرف(22) .

والواقع ان ظروف الحرب العالمية الثانية قفزت بالأجور الى نحو ثلاثة أضعاف(23) .

ويعود ارتفاع الأجور هذا الى(24) :

1 – ارتفاع أسعار الجملة الى 313٫7٪ في تشرين الاول (اكتوبر) 1944 عما كانت عليه في بداية 1938 . كما ارتفعت تكاليف المعيشة بنسبة 252٪ في المدة نفسها .

2 – انعدام البطالة .

ومع ذلك لم تسد الأجور احتياجات العامل الرئيسية ، مما ضاعف سخط العمال ونشط حركتهم المطلبية والسياسية ، على السواء . ففي الوقت الذي كان الدخل الشهري للعامل يتراوح بين 4٫320 و 1٫250 ، فان مصروف أسرة العامل تراوح بين 8٫300 و 12٫380 جنيها فلسطينيا ، في الشهر .

وتبين من استقصاء ساعات العمل في 244 معمل عربي ، خلال العام 1944 ، ان ساعات العمل كانت على النحو التالي(25) :

– في اربعة معامل من 40 – 44٫9 ساعة اسبوعيا .

– في ثلاثة وستين معملا من 45 – 49٫9 ساعة اسبوعيا .

– في واحد وستين معملا من 50 – 59٫9 ساعة اسبوعيا .

– في ثلاثة وخمسين معملا من 60 – 64٫9 ساعة اسبوعيا .

– في ثمانية معامل من 65 – 69٫9 ساعة اسبوعيا .

– في تسعة معامل من 70 – 74٫9 ساعة اسبوعيا .

– في ستة عشر معملا من 75 ساعة فاكثر .

بمعنى ان عمال 250 معملا (أكثر من 98٪ من مجموع المعامل التي تم الاستقصاء فيها) كانوا يعملون أكثر من ثمانية واربعين ساعة اسبوعيا ، اي اكثر من الساعات المفروض ان يعملوها ، بواقع ثماني ساعات يوميا ، مع تعطيل يوم واحد كل أسبوع .

ويوضح الجدول رقم (1) مدى نهم اصحاب الاعمال وعمق الجور الذي يتعرض له العمال :

جدول رقم (1)

نسبة الاجور الى مجمل الانتاج في الصناعة(26)

	الانتاج (بآلاف الجنيهات)	النسبة المئوية لما ينفق على الأجور والمرتبات الى قيمة الانتاج
الصناعات اليهودية	11٫488	49
الصناعات العربية	1٫631	37
شركات الامتياز	1٫725	30

واذا كانت الصناعات اليهودية تصرف نسبة اعلى في الأجور من غيرها ، فلأن هذه الاجور تذهب للعمال اليهود ، دون غيرهم . أما شركات الامتياز فتدنت نسبة الأجور فيها ، كنتيجة حتمية لسياسة حكومة الانتداب القائمة على القهر .

وظل العمال العرب يعانون من التمييز الذي يمارسه الاستعمار البريطاني ضدهم ولحساب العمال اليهود ، كما عانوا – من جهة أخرى – من التمييز الذي مارسته الصهيونية ضدهم ، والذي ابتدأ بـ « **العمل العبري** » و « **احتلال العمل** » ، ولهذا مقال آخر .

استنتاجات

■ **تحولت اجور العمال العرب في فلسطين الى قضية مزمنة** ، طوال عهد الانتداب البريطاني على فلسطين . وازدادت هذه المشكلة حدة مع تطور واتساع متطلبات المعيشة ، واستفحال الغلاء ، والجموح المستمر في الأسعار . حيث ظلت الأجور على حالها ، تقريبا ، بينما اخذت الأسعار تجري في خط صاعد ابدا . الامر الذي ادى الى استفحال بؤس العمال وعائلاتهم . مما دفع بعض العمال الى القيام باعمال اضافية ، فزاد ذلك من استثمارهم الطبقي وارهقهم وأنهك صحتهم .

■ **بطء معدلات النمو الصناعي** في فلسطين – خاصة في القطاع العربي منها – اضافة الى **الاتساع النسبي لتدفق الأيدي العاملة** من الريف والبادية الى المدينة ، **وضعف المصادر الطبيعية** للبلاد ، ادى هذا كله الى **تدني مستوى اجور العمال العرب الفلسطينيين** ، طوال عهد الانتداب البريطاني .

■ لعبت **الهجرة اليهودية** المتدفقة الى فلسطين دورا مؤثرا في توسيع البطالة بين العمال العرب الفلسطينيين ، وفي خفض أجورهم .

■ في اغلب الورش والمعامل ، كان اصحاب العمل يدفعون للعامل اجرا يوميا لقاء قطعة العمل (**الأجر بالقطعة**) . وهي طريقة في صالح صاحب العمل ، عموما .

■ **ظلت اجور العمال العرب الفلسطينيين تخضع لقانون العرض والطلب .**

■ كلما اتجهنا من المدن الكبيرة الى المدن الأصغر فالقرية ، كلما ازدادت الاجور انخفاضا .

■ اضطرت زوجات وابناء بعض العمال العرب الفلسطينيين الى العمل كخدم في المنازل ، لمساعدة رب الأسرة على مواجهة التزامات المعيشة المتزايدة .

■ بسبب البطالة ـ بشكليها الظاهر والخفي ـ **هبط الدخل الحقيقي للعامل العربي** الفلسطيني عن تلك الارقام التي تنشرها سلطات الانتداب في هذا الصدد .

■ مع الانتعاش الاقتصادي المؤقت الذي عاشته فلسطين ابان الحرب العالمية الثانية (1939 ـ 1945) **قفزت معدلات الأجور الى نحو ثلاثة اضعاف** ما كانت عليه قبيل الحرب المذكورة لكن هذه الزيادة لم تعد بالفائدة على العامل العربي الفلسطيني ، بسبب **ارتفاع اسعار الحاجيات الضرورية** ، في المدة نفسها ، **اكثر من ثلاثة اضعاف اسعارها .** مما جعل العامل يتقاضى أجرا لا يفي بنصف الاحتياجات الضرورية لأسرته .

■ **حرمت اغلبية قطاعات العمال العرب الفلسطينيين من ابسط الحقوق** ، فلا اجازات اعتيادية او مرضية ، ولا تعويض عند الأصابة ، ولا حماية ضد الحوادث ، ولا تامين ، مع غياب صناديق المرضى ، وصناديق مساعدة العاطلين . اضافة الى أن اغلب البنايات التي يعمل فيها هؤلاء العمال كانت قديمة وتفتقر الى وسائل التهوية والادوات الصحية .

الهوامش

(*) راجع مقالنا عن « التطور الصناعي في فلسطين حتى 1948 » المنشور في العدد 80 من « **شؤون فلسطينية** » ، تموز (يوليو) 1978 .

(1) Jewish Agency for Palestine, Information Office; the Infuence Jewish Colonel Mimorandum, 1946, PP. 9 - 10.

2 ـ نقابة العمال العامة في فلسطين . **العامل** . كراسة تبحث في شؤون العمل والعمال ، القدس ، مطبعة ملول ، 1931 ، ص 8 .

3 ـ نفس المصدر .

4 ـ خطاب فضل غزاوي (انظر : **مؤتمر العمال العرب الاول** . حيفا ، 11 كانون الثاني 1930 ، المطبعة الاهلية التجارية ، 1930 ، ص 24) .

5 ـ خطاب حسني العامي ، **المصدر نفسه** ، ص 29 .

(6) Report by His Majesty's government in the United Kingdom of great Britain and Northern Ireland to the Council of the Laque of Nations on the administration of Palestine and Trans-Jorden For the Year 1929, London, 1930, PP. 126 - 127.

7 ـ جون هوب سمبسون . **فلسطين ، تقرير عن الهجرة ومشاريع الاسكان والعمران.** القدس ، مطبعة دار الايتام السورية ، 1930 ، ص 194 . بوليكاف وآخرون . **التاريخ المعاصر لبلدان العالم العربي** . موسكو ، الطبعة الروسية ، دار العلم للنشر ، 1968 ، ص 123 (مخطوط ترجمة حاتم الانصاري) .

8 ـ ف. لوتسكي . الامبريالية الانكليزية وثورة تشرين الاول في فلسطين . ترجمة ريلش يونس ، ص 22 (انظر : **المقاومة الفلسطينية الواقع والتوقعات** [مجموعة دراسات] ، بيروت ، دار الطليعة 1971) .

9 ـ خطاب محمد علي تليلات (انظر : **مؤتمر العمال العرب الاول** ، ص 14ـ15).

10ـ خطاب عبدالرحمن عبدالله (انظر : **المصدر نفسه** ، ص 41 ـ 42) .

11ـ **العامل ، مصدر سبق ذكره** ، ص 21 ـ 22 .

12ـ خطاب بولس فرح (انظر : **مؤتمر العمال العرب الاول** ، ص 19) .

13ـ جبرا نقولا ، **التنظيم المهني** . يافا ، مطبعة النور ، 1935 ، ص 11 ـ 14 .

14ـ جورج منصور . شهادته امام اللجنة الملكية 1937 (انظر : محمد توفيق جابا (جامع) . **الشهادات السياسية امام اللجنة الملكية في فلسطين** . دمشق ، 1937 ، ص 304 ـ 305 ، 309 .

15ـ مذكرة جمعية العمال العرب (انظر : عيسى السفري . **فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية** . يافا ، 1937 ، جـ2 ، ص 242) 0

15) مكرر)

J. A. for Palestine, Information office; the Influence of J. Colen Mimoradum 1946, P. 10.

16ـ **المصدر نفسه** ، ص 287 ـ 298 .

17ـ سعيد حمادة (محرر) . **النظام الاقتصادي في فلسطين** . بيروت ، الجامعة الاميركانية ، 1939 ، ص 372 .

18ـ **المصدر نفسه** ، ص 377 .

19ـ **المصدر نفسه** ، ص 377 ـ 378 .

20ـ المكتب العربي . **قضية فلسطين** . النشرة الثانية ، القدس ، 1946 ، ص 144 .

21ـ **خليل الخطيب** ، جلسة معه ، في 1974/4/24 .

22ـ **المصدر نفسه** .

(23) Government of Palestine; A Survey of Palestine. Jerusalem, 1946, Vol. II, P. 735.

(24) Government of Palestine; Statiscal Abstract of Palestine, 1944/1945, P. 140.

(25) Ibd.. P. 143.

26ـ عصبة التحرر الوطني بفلسطين . **طريق فلسطين الى الحرية** . يافا ، 1947 ، ص 51 ـ 52 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشيوعية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأوربية

تحليل من اعداد

جينو بيانكو من الحزب الأشتراكي الأيطالي للدولة الأشتراكية

ترجمة . صلاح البزاز

رغم القوة العامة لليسار الاشتراكي الديمقراطي فان قوة الشيوعيين في اوربا الغربية تجعل من الممكن ان يكون هناك وزراء شيوعيون في حكومات ايطاليا وفرنسا واسبانيا . واذا ماحدث ذلك فان اوربا الجنوبية قد تدخل عهدا جديدا تسوده تغيرات سياسية ذات تاثير كبير .

ان اليسار اللاشيوعي منقسم ومرتبك بصدد هذه المسالة . ففي كانون الثاني عام 1976 أدت مسالة امكانية تعاون الاشتراكيين مع الشيوعيين الى اختلافات بين قادة الاحزاب الاشتراكية اثناء اجتماع ثماني عشرة دولة أوربية في الدنمارك . وبصورة عامة قسم الاشتراكيون على طول الخطوط الشمالية الجنوبية وذلك بجعل جمهورية المانيا الاتحادية وبريطانيا العظمى معارضين للتحالف السياسي مع الشيوعيين وفي فرنسا وايطاليا واسبانيا بصورة عامة مؤيدين. وقد برز مستشار المانيا الاتحادية (هيلموت شمت) والزعيم الاشتراكي الفرنسي (فرانسوا متران) كناطقين رئيسيين لكلا الموقفين المتضاربين .

وقد اعرب رئيس الوزراء السويدي السابق (اولوف پالم) عن وجهة نظر مسهبة حينما قال « انني لأجد من الصعوبة بمكان ان افهم أولئك الذين لايملكون سوى عدم الثقة في اعادة النظر بالتقييمات الآيديولوجية الجارية داخل الاحزاب الشيوعية ولعله من المفيد اذا ماباشرت هذه الاحزاب بالافصاح عن اعتقادها بالحريات والحقوق الديمقراطية اذا مارغبت في الدفاع عن الحقوق الاساسية او اذا ما بدأت في جعل قوة الأصلاح قادرة على تغيير المجتمع » .

غير انه في الفترة الاخيره كان لمستشار النمسا (برونو كرايسكي) وجهة نظر أكثر شكا بصدد (التحريفية) الشيوعية الغربية . فقد قال « اذا اراد الشيوعيون حقا ان يكونوا ديمقراطيين فعليهم نبذ المفهوم البسيط لدكتاتورية الپروليتارية . واذا ماتحقق ذلك فان اعتقادا سياسيا كاملا سوف يندثر . هذا وانه سوف لا يكون هناك شيء محدد للشيوعية وسوف يصبحون ديمقراطيين اجتماعيين ولكن بلغة اكثر ثورية الى حد ما » .

في مايس عام 1977 واثناء انعقاد قمة الاحزاب الاوربية الجنوبية والتي حضرها كل من (ميتران ، كرايسكي ، كراكسي ، گونزالش ، سواريش) اعلن القادة الاشتراكيون « اننا نحترم الشيوعية الاوربية اذ انها اهم تيار أيديولوجي ظهر في اوربا منذ الحرب العالمية الثانية » وهكذا فان التباعد القائم بين الاحزاب الاوربية الاشتراكية يشكل عائقا امام استجابة فعالة من قبل لاشتراكية الدولية لتحديات الشيوعية الاوربية .

ان مصطلح (الشيوعية الاوربية) هو مصطلح غير دقيق وذلك لوجود احزاب شيوعية في أوربا مثل فنلندا ، بريطانيا ، السويد ، هولندا ، ايسلندا ، البرتغال ، بلجيكا ، اليونان بعيدة ومتباينة بصورة تامة من حيث الطريق التي تسير عليها ، حتى انه لاتجتمع فيما بينها نفس وجهة النظر أو العقائدية السياسية . ومع ذلك ففي السويد على سبيل المثال ، قد يترتب على الانشقاق الاخير في الحزب الشيوعي الصغير نتائج سياسية خطيرة . وفي فنلندا فان النمو الداخلي للحزب الشيوعي الأكثر اهمية ، المنظم ضمن التحالف الحكومي برئاسة (كالڤي سورسا) قد اكتسب مضامين سياسية ذات علاقة بذلك .

غير انه اذا كان المقصود من الشيوعية الاوربية هو وجهة النظر الايطالية والاسبانية والفرنسية الحالية او الى اهميتها السياسية الكبيرة فان لذلك أهمية معينة ولا يعني ذلك ان هذه الاحزاب تتفق على كل شيء لان هناك اختلافات تاريخية ايديولوجية وسياسية بين باريس وروما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومدريد .

ومما يعقد المسالة هو وجهة النظر السائدة في اوربا الغربية التي تقول انه من الممكن ان تكون الاحزاب الشيوعية الغربية بمثابة جسر كامن بين اوربا الشرقية والغربية . اضافة الى ذلك فان « فايروس » الشيوعية الاوربية قد يلحق العدوى بالاحزاب الشيوعية في اوربا الشرقية وذلك يشكل علاقة بين موسكو وبقية اعضاء حلف وارشو . ان انتعاش الحصن السياسي للشيوعية الاوربية من الممكن اعتباره تهديدا للاستقرار في كل من اوربا الشرقية والغربية وهذا بدوره سوف يعرض الوفاق الدولي الى الخطر . وفي ضوء هذا التفسير قد تشارك الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بمصلحة مشتركة في معارضة الحركات الشيوعية الوطنية في اوربا الغربية . ومن ناحية اخرى ثمة مجادلة في بعض الاحيان تقول ان الوفاق الدولي كان عاملا مساهما في مسالة تقبل الراي العام الاوربي الغربي للاحزاب الشيوعية الغربية . غير انه خلافا لوجهة النظر هذه ثمة مدرسة فكرية مختلفة اخرى تقول ان نمو الشيوعية الاوربية الغربية جنبا الى جنب مع اشتراكية الجناح اليساري هي ظاهرة اصيلة وان نتائجها المحتملة سوف تضر (بقوة التكتل الضروري من اجل الوفاق):

ثمة منظوران متشعبان من الناحية الاساسية ضمن الحركة الاشتراكية برزا في تحليل ظاهرة الشيوعية الاوربية : المنظور الاول هو الذي ينظر اليه المحلل بتفاؤل على انه منحدر باتجاه تحول اساسي للاحزاب الشيوعية نحو التنظيمات الديمقراطية الاصيلة متماشيا مع التقليد التاريخي السائد لهذه الدول (يقصد فرنسا وايطاليا واسبانيا) . والمنظور الثاني هو من الناحية الاساسية قائم على الشك بالفكرة التي تقول ان التحول لم يكن مثل التحول الذي حدث في اوائل هذا القرن في الاحزاب الاشتراكية التي كانت تتغير من كونها احزابا ثورية الى تنظيمات اصلاحية وبالتالي توحدت ضمن التركيب الديمقراطي لهذه الدول .

ومن الواضح ان نقطة البداية للشيوعية الاوربية هي اللينينية وهذه هي حقيقة اساسية اذ انه اذا ما سال المرء نفسه فان الطريق الممكن لتنمية هذه الاحزاب من الناحية الجوهرية لم يكن موجودا في بداية عملية متوازية اثرت في الاحزاب الاشتراكية ، وبالتحديد قضية التنظيم الحزبي بالنسبة للينينية والتي بالتالي اصبحت نقطة البداية للشيوعية . واذا ماتحدث أحد عن نمو الشيوعية فانه سيتحدث عن نمو اللينينية وليس فقط عن قهر الستالينية . فالشيوعية لم تبدأ بستالين وانما ب (لينين) وعليه يجب على المرء أن يسال نفسه عما سيحدث للمنظور اللينيني وللميزات اللينينية في قاعدة التنظيم وكذلك تحول هذه الاحزاب التابعة للشيوعيين الاوربيين .

ومن ناحية اخرى ، هناك أناس ينظرون ببساطة الى مسالة التصريحات التي يدلي بها قادة الحزب الشيوعي معلنين عن ايمان ديمقراطي جديد ،وهناك من ينتابهم الخوف الغريزي من الشيوعية ولهذا السبب يقولون ان ذلك هو نوع من التحول التكتيكي الذي لايغير الصفة الاساسية للشيوعية . ويترتب على ذلك الآن مسالة اخلاص هذه التصريحات التي تصدر عن الشيوعيين الاوربيين وزعمائهم في اعطاء الشيوعية الاوربية هذه الصفة الجديدة .

قال (فيليب كونزالش) : « أنا لست بكاهن ولا استطيع اخذ الاعترافات لكي أكتشف فيما اذا كان الشيوعيون مخلصين » .وفي معرض الحديث عن تنبؤآت الايمان الديمقراطي للشيوعيين الايطاليين (المصلحين) الذي يقول عنه زعيم الحزب الاشتراكي (ماريو سواريش) مناقضا بشكل حاد للحزب الماركسي (الستاليني) في بلاده ويقول « الاخلاص مسالة ثانوية في الوقت الحاضر والمهم هو العمل بشان هذه التصريحات على انها صحيحة وعندها تبدأ دانيماكية سياسية معينة وسيجبرهم الشعب على الايفاء بوعودهم » .

واستنادا الى (ليو لابدز) وهو خبير مشهور بالشؤون الشيوعية يقول ان ذلك اطار خاطيء للتطرق لمسالة الشيوعية الاوربية ، اضافة الى ان ذلك ليس مسالة اخلاص على الاطلاق لأن السياسيين نادرا مايكونون مخلصين سواءا كانوا شيوعيين أم لا . وعلى أية حال ، ان التحليل السياسي القائم ببساطة على التحقيق في مدى الاخلاص بالتصريحات السياسية سوف لن ياخذنا بعيدا كثيرا لأن الذي يهمنا هو ليس الاخلاص فقط ... وقد يكون مخلصا وما يزال خاطئا بقدر تعلق الأمر باهمية نمو الاحزاب الشيوعية .. اذ لم ترد التصريحات الا من فصائل الاحزاب الشيوعية وليس من قادتها . ان الاخلاص هو نتيجة لمثل هذه العملية وليس البداية..أي بعبارة أخرى عندما نعلم نتائج هذه العملية سوف نكون قادرين على ان نقول بان تلك عملية اصيلة تكون فيها هذه الافكار المعلنة حديثا هي في الواقع مماثلة للموقف الاساسي للأحزاب في المستقبل وفي الوقت الحاضر . وانه من الواضح ان تلك العملية نادرا ما تدخل فيها مسالة الاخلاص اذ ربما ان الاخلاص يتضمن درجة من الوضوح في المواقف وان النقص في الغموض يكون منعدما بصورة تامة في هذه العملية . وعليه فان المشكلة الحقيقية : ماهي العوامل التي هي فعلا تؤثر والى حد ما تقرر شخصية العملية وما هي النتائج المتوقعة من هذه العملية ؟؟(1) .

التحريفية والمنظور المثالي (يوتوبيا) :

ان القفزة النوعية التي تم الاعراب عنها على سبيل المثال في البيان المشترك للحزبين الشيوعيين الفرنسي والايطالي تكمن في تاكيد اشتراكية المجتمع الذي يجب أن يدمج وينمي ليس فقط ثمار التغيرات الاشتراكية في القرن العشرين وحسب بل ايضا منجزات « ثورات الديمقراطية البورجوازية العظيمة » في القرن التاسع عشر وبايجاز لم يعد شيوعيو أوربا الغربية يستبعدون حقوق وحريات الديمقراطية البورجوازية على انها ديمقراطية بالاسم فقط ، فهم الآن يعترفون بهذه الحقوق والحريات على ان لها قيمة اساسية ايضا في المجتمعات الاشتراكية .

واذا كانت احزاب الشيوعية الاوربية تؤكد على الديمقراطية فانهم أيضا يصرون على ان الديمقراطية لايمكن اقتصارها على المجال السياسي وهكذا ففي بيانهم المشترك المشار اليه اعلاه ، ان الاحزاب الشيوعية الايطالية والفرنسية تؤكد على انها « تعير اهمية جوهرية بشان تطور الديمقراطية في ميدان العمل حيث تسمح للعمال المشاركة بادارة شركاتهم اضافة الى حقوق حقيقية وصلاحيات واسعة في اتخاذ القرارات » . ان مسالة كم سيؤيد الحزب الشيوعي الايطالي استقلالية العمال الذاتية في الصناعة هي على اية حال غير واضحة الى حد ما !

ان أحزاب الشيوعية الاوربية رغم معارضتها ايديولوجيا للحكومة البرلمانية فقد أصبحت المدافع القوي لها . اذ ان الجانب الايطالي مقتنع بالموقف الذي سمح بموجبه ممارسة تاثير كبير في مسائل دستورية وكثيرة وكذلك التعاون من وراء الكواليس لأصدار تشريعات في اللجنة البرلمانية في الوقت الذي تحتفظ بموقفها المعارض الصريح علنا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل ان الاحزاب الشيوعية قد ضمت فعلا الى شخصيتها الخاصة الآن مبادىء الحكومة الدستورية ؟ فهذا كما يعلق هادلي آركس(2) هو قبل كل شيء مايجب ان نعرفه قبل السؤال عما اذا كان الشيوعيون سيقبلون نهائيا على انهم شركاء في حكومة ديمقراطية . وهنالك طالب آخر اسمه رونالد تايرسكي يدرس المسالة بشكل افضل عندما يشير الى التجربة الفرنسية في كون « قبول الاغلبية السياسية هي حقيقة واقعة لأن الحزب من غير المحتمل ان يكون قويا بحيث يستطيع تحقيق هدفه لوحده » . وهذه الحقيقة تقترح ان يكون الالتزام للحكومة الدستورية راسخا وبشكل لايتعدى قراءة في التحالف الحالي للقوة السياسية ، وهو تقييم تكتيكي أكثر من كونه التزاما مبدئيا . وقام الفرنسيون باستبدال فكرة «دكتاتورية البروليتارية» بفكرة جديدة هي(سيطرة الطبقة العاملة)، ويؤكد الايطاليون على اهمية فكرة (كرامشي)حول(سيطرة الطبقة العاملة) اذ قد يستوجب ذلك جهودا مضاعفة (كما أشار الى ذلك وولتر لكوير) في فرز هذه المميزات ، كما عبر الايطاليون ايضا عن التزامهم بهذه الاكثرية . وفوق كل ذلك فقد أكد الشيوعيون الغربيون بقوة التزامهم بالقيم الديمقراطية . يقول (جورج مارشيه) : انه لايمكن ان تكون هناك ديمقراطية او حرية بدون الاجماع السياسي وحرية الراي .

أما بالنسبة ل (رينيه اندرو) عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ورئيس تحرير صحيفة (لومانتيه) فيقول : ان الفكرة المركزية للسياسة الشيوعية تكمن في أن على فرنسا لكي تجد لها مخرجا من الازمة وجوب ان تاخذ على عاتقها بالتغيير الديمقراطي في تركيباتها التنظيمية كونها الامتداد للديمقراطية التي تقود البلاد الى الاشتراكية ـ التي يجب ان تكون نفسها ـ ديمقراطية سليمة . وقد خرج المؤتمر الاخير للحزب الشيوعي بالاحترام الكامل للمعاناة الشاملة ، مهما كان قرار الحكم ، في سبيل صيانة وتوسيع الحريات المتحققة والاحترام للاجماع وللأحزاب السياسية التي تضم بطبيعة الحال احزاب المعارضة ايضا . وخرج المؤتمر المذكور بتوصياته ـ بالاجماع عن التربية معارضا لأية فلسفةقائمةعلى انها مبدأ رسمي ثابت . وقرر ايضا نبذ فكرة دكتاتورية البروليتارية التي اعتبرت قانونا للحركة الشيوعية وشرطا لتحقيق الاشتراكية . وعليه فاذا ما اضفت بقية افراد الشعب (غير المقتنع) فانك ستربح الانتخاب ، ولكنك سوف لن تستطيع الوصول الى الحكم . اما (روجيه غارودي) عضو المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي لسنوات طوال قبل اقصائه وطرده ، فينتقد الحزب حاليا ، « بسبب نبذ الحزب لهذه الايديولوجية واتباعه تكتيكات انتهازية » .أما (كاريللو) زعيم الحزب الشيوعي الاسباني في كتابه الذي نشر بعنوان (الشيوعية الاوربية والدولة) فيوضح ان سياسته هي طويلة الأمد ، ويدافع فيه عن نوع من (اشتراكية اقليمية اوربية غربية) يرتبط الشيوعيون من خلالها بالاحزاب الاخرى بائتلافات واسعة هي اقرب الى (مصالحة طبقية)من ان تكون صراعا طبقيا . وفي مبادرات (كاريللو) الكثير من العناصر التي طرحها مؤسس الحزب الشيوعي الايطالي (كرامشي) لتحقيق (الارادة الشعبية) و (الجماعية الوطنية) التي من شانها ان تؤجج فكرة الاشتراكية بين طبقات الشعب . وان قبوله باجماع الاحزاب السياسية ،يعني محليا ، ان الحزب الاسباني قد حاول بشدة وبنجاح ان يبقى في ظل المظلة الرئيسية للمنظمات المعارضة التي تستهدف اقامة ديمقراطية على طراز غربي . واخيرا وكما يقول (مانيويل اسكراتي) عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسباني : ان الشخص يستطيع ان يكون شيوعيا وكاثوليكيا ، وان الرأسمالية تستطيع العيش الى جانب الاشتراكية .

ان البرامج الاقتصادية والاجتماعية للاحزاب الشيوعية الغربية تكون كل شيء الا ان تكون ثورية ، فالحزب الشيوعي الايطالي يرفض فكرة السيطرة التامة وبيروقراطية الدولة في الميدان الاقتصادي وأعلن عن مساندته للاقتصاد المختلط الذي من شانه ان يتجنب العديد من المشاكل التي ظهرت في الاتحاد السوفياتي واوربا الشرقية في ظل مركزية النظام الشديدة . ويقول الحزب ان الطبقة العاملة والطبقة الوسطى المنتجة لهما منافع مشتركة في القضاء على الذهنية الطفيلية في الاجهزة البيرقراطية . وؤكد برنامج الحزب على اهداف مثل اصلاح نظام الضريبة وتاميم الصناعات (لكي تحظى بدعم البرلمان) وكذلك قضية البيروقراطية . ويؤكد برنامج الحزب على أهداف مثل اصلاح نظام الضريبة وتاميم ويرى (الفابيون) كما يشير الى ذلك تقرير لحزب العمال حول الحزب الشيوعي انه ليس هناك أمرا استثنائيا فيما يتعلق بهذه القضايا . وفي الواقع يرحب هؤلاء (الفابيون) بالحزب الشيوعي على انهم المصوتون الجدد لسياسة التغلغل والانتشار ، أما بالنسبة للحزب الشيوعي الاسباني يقول (كاريللو) زعيم الحزب ان الشيوعيين في الحكومة سوف لن يسعوا من اجل التامين الشامل ، ولكنهم سيحاولون ، من خلال وجود القطاع الشعبي الاسباني ، التاثير على السياسات الاستثمارية والائتمانية للبنوك والمؤسسات المالية الخاصة . ويقول (راموند تاميز) المتخصص الاقتصادي : « ان التاثير القوي لخط الاغلبية في اللجان العمالية التي تسيطر حاليا على الحزب الشيوعي لوحظ عليه ، اتخاذ موقف معتدل نسبيا حول النزاعات الصناعية ، في المرحلة السابقة » اما في فرنسا فان البرنامج الاقتصادي للشيوعيين هو بالتاكيد اكثر تطرفا الا انه اقل تاثيرا من الناحية العملية ، والشيوعيون يتجنبون الخوض في المشاكل التي تخلقها التغيرات التركيبية الاساسية ،وما تزال هناك دلائل تشير للعملية التحريفية التي يتورط بها الحزب الشيوعي الفرنسي كونها مازالت غير كاملة ، هذا وأن نبذ الحزب لفكرة دكتاتورية البروليتارية ستؤدي بالتالي الى رفض مضامين الوقفة الايجابية في الحلقة المفرغة للتازمات الناشئة . ونتيجة لذلك سوف تؤدي قوة الصراع الطبقي الى احداث حلول متقدمة وتؤدي أيضا الى عملية فاشستية . هذا وبالرغم من البرنامج الأصلاحي فان أحزاب الشيوعية الأوربية مازالت تعتمد المنظور المثالي والذي يعتبر عاملا اساسيا وعلى المدى الطويل للمنظور الأهم . واذا ما تظاهرت احزاب الشيوعية الاوربية بأنها قد نبذت المنظور المثالي، فليس هناك اية اشارة لأعادة الصوفية المثالية للحزب وللأيديولوجية الماركسية اللينينية . ويجمع الخبراء أن هناك ارتباطا تاريخيا بين الصوفية المثالية والثورة من جهة وبين الصوفية المثالية والاستبدادية من جهة أخرى والتي يترتب عليها منطقيا موقف سياسي معين يتخذ الحزب منه منظوره وتقليده . ان هذا التحليل ينطوي على اسباب سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة ، كما ان اي منظور واقعي للتطور الايطالي والاسباني والفرنسي لابد له أن يصطدم مع تلك الصوفية اللينينية الطويلة المدى .

التركيب الحالي والتقليد التاريخي للاحزاب : ـ

ان في تبرير المركزية الديمقراطية (حرمان الفئات من الكفاح الفعلي بين الاتجاهات المختلفة ، والرقابة) لايوجد اي تغيير جوهري في السمة اللينينية للحزب فلا بد اذن التغلب على ذلك ، والسؤال هو : هل ان هذا التركيب كاف من حيث المرونة او ضعيف لحد يصعب التغلب عليه؟ والراي السائد الذي يؤكده الشيوعيون الاوربيون هو أن استحداث

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

الديمقراطية الداخلية يعني ان اضعاف الحزب هو ليس بجواب ، اكثر من كونه وجهة نظر واقعية بسيطة .

ومما لاينكر ان الاحزاب الشيوعية الاوربية الغربية قد اصبحت اكثر حداثة وواقعية في توجهها غير أنه لم تتحول لتصبح اكثر ديمقراطية . وقد سئل (كاريللو) مؤخرا : ماهي ، في ضوء التغيرات المبدئية ، تلك الاختلافات المتبقية بين الشيوعيين والديمقراطيين الاجتماعيين ؟ فأجاب : ان التحليل النهائي هو ان حزبه لينيني . وفي معرض تعليقه على التركيب الداخلي للحزب الشيوعي الاسباني قال الزعيم الاشتراكي الاسباني (كونزالش) « لابد ان يكون هناك تلاحم بين تركيبات الحزب الداخلية وبين التركيبات الديمقراطية التي يقترحونها للمجتمع اذا ما اراد الآخرون ان يعتقدوا بانهم ديمقراطيون . ولا أعتقد ان هذا التلاحم موجود في الحزب الآن » . وقال (بيرلنكيور) نفس الشيء في مقابلة أجرتها معه صحيفة « التايمز » اللندنية في شباط 1976 « ان الاستقلال عن موسكو والتمسك بنظام ديمقراطي يجب ان لا يعني اننا نرغب ان نكون ديمقراطيين اجتماعيين » .

ولو انه لم يلغ جوهر الممارسة اللينينية ابدا رسميا ، فان الحزب الشيوعي الايطالي من الناحية الاساسية حزب جماهيري وليس حزب كوادر ، وقد أخذ الحزب يذبل في حين ازدهرت الاطراف المجاورة للتنظيمات البلدية والاقليمية . وتشجع القيادة درجة معينة من اللامركزية في اتخاذ القرارات داخل الحزب وكذلك المناقشة الداخلية . ان حجم تنظيماته التي يبلغ عدد أفرادها حوالي (2) مليون اضافة الى العديد من التنظيمات الثانوية التي يتمتع اكثرها بقواعد مالية قوية مما يجعل الادارة صعبة على الحزب الشيوعي الايطالي لأن يكون حزبا طلائعيا كلاسيكيا . وقد اشار خبير بريطاني بالسياسة الايطالية انه« بما ان جهاز الحزب بيد الشعب الذي تعتمد حياته على فترة حياة الحزب فان من السهل رؤية سيطرة قيادة الحزب على أجهزته » .

واعلن الحزب الشيوعي الايطالي نتيجة اسباب عديدة عن التزامه وتمسكه بالاجماع وان الحكومة الدستورية يجب أن لا يتم استبعادها وذلك :

1 ـ لأن هذا الالتزام جاء أمام عامة الشعب وفي فترة ما .

2 ـ ولأن القيادة قد تعرضت للعديد من التغيرات الاساسية .

هذا بالاضافة الى ترك بعض المناضلين للفترة ما قبل الحرب ... وان الذين يقودون الحزب في الوقت الحاضر اغلبهم مدراء اداريون ومشرعون قانونيون وشخصيات عامة وهم في الغالب يلعبون دورا (اصلاحيا) ضمن الاطار القائم للمؤسسة القانونية .

وضمن هذه التطورات المتوفرة للحزب الشيوعي الايطالي فقد اشار طالب يدرس الشيوعية الغربية (نيل ملكنز) « من الواضح ان الحزب تحول من الحزب اللينيني بخلاياه الى حزب عادي بمجاميعه التاسيسية ، اي بعبارة اخرى تحول من حزب قائم على الطابع العسكري الى حزب قائم على الصفة الانتخابية (3) » .

وعلى النقيض مع نمو الحزب الشيوعي الايطالي فان ميزات وخواص حزب الكوادر اللينيني ماتزال تنطبق في بعض النواحي المهمة على الحزب الشيوعي الفرنسي . ويركز التاكيد على عمله التنظيمي في تاسيس خلايا في الصناعة ، ومعارضته بقوة ، مساعي ومحاولات الاشتراكيين في التنافس مع الشيوعيين في الميدان الصناعي وذلك عن طريق تاسيس خلاياهم الخاصة التي من شانها أن تضعف الاوراق الاعتمادية التي يبني عليها الشيوعيون ادعاءاتهم بالقيادة على أنهم حزب الطبقة العاملة .

وهكذا فان العملية الداخلية لخلق الديمقراطية ضمن الاحزاب الشيوعية تبقى محدودة بفعل تمسكها المستمر « بالمركزية الديمقراطية » على اعتبار ان ذلك نظام تسيطر عليه طريقة اتخاذ القرار حسب المراتب المتسلسلة .

اما بالنسبة ل (اولوف بالمي) فيقول « استطيع ان أقول ان الشيوعيين الاوربيين الجنوبيين يقترحون من نقطة يكونون فيها في بداية مناقشة المبدأ الثالث الرئيسي للشيوعية وهو (المركزية الديمقراطية)، ويضيف متسائلا : هل ان الشيوعيين يستطيعون في مساعيهم طرح انفسهم على انهم ديمقراطيون ؟ وهذا الأمر مايزال ايضا مرتبطا بمبدأ صراع مباشر مع الاتجاهات الاخرى في المجتمعات الصناعية الغربية ؟ واشير في ذلك الى لامركزية القوة وممارسة التاثير على كافة مستويات طبقات المجتمع . وهل ان في وسعهم تاكيد المبدأ اللينيني ذي الدرجة من العلمية والمقدرة الكلية في حكمته في قيادته للشعب على الطريق الصحيح ؟ وهذا مالا أعتقده !،،

غير ان ثمة وجهة نظر مختلفة عبر عنها مراقبون آخرون منها ماقاله (نيل مكلنز) « اذا كانت أمثلة من التفرقة تستغني عن خرافة الحزب الشيوعي فانهم لاينوون دعم الخرافة الاخرى بشان الليبرالية التقدمية للحزب اللينيني . ولاتوجد نزعة دنيوية باتجاه تصفية اللينينية للأحزاب الغربية . ويطرح المنشقون اليساريون مطاليب من أجل«ديمقراطية أكثر» داخل الاحزاب وهم غير مقتنعين بحلول الوسط المطروحة من قبل زعمائهم بشان الديمقراطية الاجتماعية . وهذا هو اذن التناقض الموهم للستالينية عن الشيوعية الغربية . ويدافع البيرقراطيون الحزبيون عن التصلب اللينيني وهم قلقون بشان البقاء ضمن خط موسكو في الوقت الذي يسعون من أجل ادارة محلية عن طريق التحالف مع الاشتراكية .

ومن ناحية اخرى ، يطالب اليساريون بديمقراطية اكثر وهم يرفضون ذلك التوحيد بالديمقراطية الغربية ويكرهون الزعماء الاشتراكيين ، اذ بالنسبة لهم ان « ليبرالية الحزب لاتعني (ديمقراطية اجتماعية) وانما تطرفه . وباختصار فان الستالينية داخل الحزب تتجه برغبة حادة من أجل التحالفات الاصلاحية وهم يصرخون من اجل ديمقراطية اكثر في داخل الحزب عن طريق الثوريين اليساريين .

« وهناك قوة تعمل من أجل تخفيف الضبط اللينيني وفي الوقت نفسه هناك قوة على النقيض من ذلك . فان الذين يسيطرون على جهاز الحزب يدركون ان « بديمقراطية الحزب » سوف يغامرون بفقدان تأييد موسكو وبدون التاكد من الحصول على دعم انتخابي جديد او أفراد جدد . واضافة الى ذلك فان الاشتراكية الديمقراطية تقوم في تنظيمها على انها حزب في معظم الاقطار الغربية الاوربية وان الحركة الشيوعية قد سعت دائما من أجل تمييز نفسها عنها . ولأجل هذا الهدف يشكل الضبط بالنسبة للحزب اللينيني وخرافة وحدته فائدة ايجابية ،، (4) .

وعلى نقيض من الاحزاب الشيوعية المنتظمة والملتزمة بضبطها الجيد مع طبيعة الفئات المنقسمة فيما بينها من الاحزاب الاخرى ، كما يفعل الايطاليون والفرنسيون والاسبان بطريقة تجنبهم المشكلة . ومن الناحية الفعلية فانهم يقولون « لانتخلى عن اللينينية لأنها تمنحنا هذا السلاح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التنظيمي » ومع ذلك فليس هناك نقطة ما لمناقشة التركيب الديمقراطي للحزب وهذه طبعا نقطة حاسمة جدا .

عوامل داخلية وخارجية :

وترتبط العوامل الداخلية بالعلاقات مع الاحزاب الاخرى ، أما العوامل الخارجية فتتصل جوهريا بمنظور علاقات الشرق والغرب ، أي بعبارة أخرى علاقات الحزب الشيوعي بالاتحاد السوفيتي والقوى الاخرى، وقوى حلف شمال الاطلسي أو مع الاحزاب الشيوعية الاخرى ولكنه ليس ضمن المنظور بعيد المدى وانما ضمن المناورة السياسية قصيرة المدى وكذلك العمل تجاه القوى الاخرى .

ا ـ التطور الداخلي :

من الواضح ولابد للمرء ان يسأل نفسه ليس عما سيحدث في الغد ولكن في الأقل بعد غد اذ انه قد يكون هناك حلا وسطا تاريخيا في ايطاليا او في فترة من الفترات خلال السنة لعل الشيوعيين والاشتراكيين يحققون نصرا في الانتخابات الفرنسية . والآن ماذا سيحدث فيما بعد ؟ الجميع متفائلون ، وان الذي يعتقد بالتحول الجوهري للشيوعية نحو شيوعية اوربية ديمقراطية يفترض ان ذلك سيساهم بطريقة ما من أجل حل المشكلة التي تواجهها هذه الاقطار وبخاصة ايطاليا التي تجابه اصعب البرامج ، التلاحم الاجتماعي والازمة الاقتصادية وغيرها من المشاكل . ولعله من الجيد ان يقوم الشيوعيون بمساهمة من اجل حل بعض المشاكل الحادة جدا وخاصة المشاكل الاقتصادية من خلال خطة استقرار (وهم فعلا يساندون الحكومة الايطالية ويلعبون دورا معتدلا) ومع كل ذلك يبقون (حيوانا ديمقراطيا مبهما وحزبا لتنظيم لينيني) .أما بشأن تطور الاحزاب الشيوعية نحو تنظيمات ديمقراطية يمكن القول انه ما ان تستلم زمام السلطة فان الضرورات الناشئة عن الموقف المنطقي آنئذ تشير كلها باتجاه عكسي لعملية التحول الى الديمقراطية لأن القوة نادرا ما تمنح أي تحفيز او دفع لعملية التحول الى الديمقراطية . في الواقع تتضمن القوة تنفيذ جملة أشياء ، وهذا أمر صعب جدا ولهذا فان الاغراء ينشأ من السعي في أخذ طفرات قصيرة ومن ثم السير باتجاه عملية التنفيذ مع ادنى التداخلات الممكنة من جانب المؤسسات الدمقراطية وبخاصة الاحزاب التي لا تمتلك جذورا ايديولوجية في هذه المؤسسات .

ومن ناحية اخرى يشير مراقبون عديدون الى ان الشيوعيين الايطاليين والفرنسيين والاسبان الذين يمثلون قطاعات سياسية كبيرة من ابناء الشعب الأجراء في بلدانهم يمكنهم ان يساهموا بشكل فعال باتجاه تحقيق شيء ما عجزت القوى المحافظة على انجازه كتحديث التركيبات الاقتصادية والادارية للدول المعنية من خلال انماط حديثة جدا في التخطيط والمشاركة، وكذلك التغيير الذي سيساعد ، على الاقل ، في احداث تغيير اقتصادي واجتماعي للجناح الغربي الجنوبي من المجموعة الاوربية الغربية .

وخلافا للموقف الايطالي فان علاقات القوى في فرنسا هي مختلفة الى حد مثير فمن ناحية هناك مستقبل فوز الاشتراكيين في انتخابات قادمة ، غير ان الشيوعيين الفرنسيين هم الشريك الاصغر في التحالف على عكس مانلاحظه في الشيوعيين الايطاليين الذين لم يتمكنوا من كسر قطاع الطبقة العاملة وقد هبطت مساهمتهم في الانتخابات من نسبة 28٪ في عام 1946 الى 20٪ ولربما اقل في حين ان الحزب الاشتراكي حقق انتعاشا مدهشا في السنين الاخيرة . غير ان الاشتراكيين غير ملتحمين وملتزمين بالضبط الملاحظ على الشيوعيين وان انتماءهم الى الجناح المتطرف الراديكالي الى الديمقراطية البرلمانية أمر لاشك فيه ، وهناك دائما فرصة للانشقاق مع أقلية الاشتراكيين الذين ينضمون مع قوى الشيوعيين اضافة الى ذلك فان الشيوعيين الفرنسيين يرسمون لأنفسهم برنامجا يؤكدون من خلاله ان التغييرات الرديكالية يتم تنفيذها ، وهذه المواقف تشير باتجاه استراتيجية مجابهة في مجتمع متطابق الى حد كبير أكثر من ان يكون موقفا باتجاه النضال الطبقي الذي يحاول الحزب الشيوعي الايطالي جعله عنصرا اساسيا لفلسفته بشأن الشيوعية الاوربية .

ثمة وجهة نظر هادئة يحملها (روجيه غارودي) حين يقول « لاتسأل ان كانوا مخلصين وانما اسأل عن الموقف الذي هم فيه .ان هامش المناورة صغير جدا في الازمات الاقتصادية والسياسية في اوربا هذا اليوم بحيث يتواجد العائق في كل مكان » .

وفي ايطاليا ، مشكلة (اينركو بيرلنكيور) هي ليست تخليص البلاد من الازمة الاقتصادية وانما الشيء الوحيد الذي يستطيع القيام به في الحكومة هو محاولة تجنب وقوع كارثة . وفي اسبانيا مشكلة (كاريللو) هي ان تكون اسبانيا حرة . وفي فرنسا واذا ما فاز اليسار بالانتخابات القادمة فان مجال المناورة هو واحد بالمئة او أقل بالنسبة للبرامج الحالية. ان الأمر اذن هو تحديد ماذا يجب القيام به من أجل التأثير على الموقف الاجمالي » .

وضمن هذه الوضعية الخاصة الدستورية ، يعتقد العديد من المحللين ، أنها اكثر انفجارية من ناحية القوه في فرنسا عما هي عليه في ايطاليا . « ففوز اتحاد اليسار قد يؤدي الى ترسيب الازمة الاساسية ولأول مرة سوف تواجه الجمهورية الخامسة شبح المواجهة الطويلة بين الرئيس ورئيس الوزراء وبين الرئاسة والمجلس التشريعي »(5) .

ولعل (برونو كرايسكي) كان يحمل تلك الفكرة في ذهنه عندما اعرب عن قلقه بشأن الشيوعيين الفرنسيين عندما قال « ان لهم تقليدا ثوريا يمكن ان يطور أو يخلق ديناميكية خاصة بها في موقف معين والحزب لايتكون فقط من الاصوات التي تحتسب في الانتخابات وانما كذلك من درجة تنظيم افراده هذا وان الشيوعيين يتمتعون باعلى مستوى من التركيب التنظيمي الذي امتاز به كل حزب في فرنسا » .

وتشير التكهنات بخصوص مستقبل الشيوعيين الاسبان كونه الاكثر صعوبة وتعقيدا وذلك لأن كل شيء يعتمد حاليا على نتيجة الكفاح من أجل السلطة في تلك البلاد . ان الاعتدال الذي تظهره قيادة الحزب الشيوعي الاسباني كان ملحوظا غير ان المعتدلين في اسبانيا تتحداهم عناصر أكثر راديكالية وتطرفا وبخاصة في منطقة (كاتالونيا والباسك) .

وثمة دلالة كانت واضحة في اشارات (كاريللو) الخاصة ازاء الانتقادات الموجهة لسياسته أمام اللجنة المركزية غير ان مجموعة تضم خمسة من محاميي الحزب الشيوعي وكذلك من المنشقين عن حزب (Psuc) وغيرهم أعلنوا في رسالة عن القبول بشأن الملك والعَلَم . ان هذا الانتقاد والذي ياتي من لجان العمل حول (مارجلينو كماجو) يقول ان القيادة لاتستفيد من فترة التحول الهزيلة التي تمر بها اسبانيا . ان القاعدة الشعبية للشيوعية ماتزال ضيقه نسبيا غير ان الشيوعيين يسيطرون على

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نقابات العمال واستطاعوا ان يتغلغلوا بين اوساط المثقفين ووسائل الاعلام الى حد كبير .

وفي ايطاليا يميل الحزب الشيوعي الى تقسيم هدفيه التوامين وهما: دخول الحزب الى السلطة والتحول او الانتقال نحو الاشتراكية . ويقول قادة الحزب الشيوعي الايطالي انها بالضبط مسالة الازمة الاقتصادية التي تجعل القوى السياسية الديمقراطية اكثر ضرورية ولربما يكون ذلك سببا في رفض الحزب لأستراتيجية اليسار المتحد (الاشتراكي الشيوعي) على الطراز الفرنسي ، وان هذا الاعتقاد سوف يستقطب المجتمع الايطالي ويؤدي بالديمقراطيين المسيحيين الى جانب اليمين ، يدفع بحملات (عدم الاستقرار) الخارجية ويشجع على تشكيل جبهة عريضة ذات طابع فاشستي (6) .

وثمة وجهة نظر تقليدية نوعا ما بصدد تحليل اقتصادي اجتماعي يشير الى التحول نحو الشيوعية سوف لايؤدي الى خلق موقف راديكالي جديد وأنما الى تدهور أكثر للأزمة السياسية ولربما نحو ازالة الحريات التي تم في وقت سابق تقييدها . ان هذا التحليل يشير الى حقيقه ماتزال عملية في ايطاليا ، هي تلك الاتجاهات العميقة وكذلك سوق العمل الذي يتميز بصلابته القوية ، اضافة الى ذلك فان اغلب الاقتصاد قد تم تاميمه او وضع تحت سيطرة الأيدي الشعبية ، والبقية المتبقية تخضع للسيطرة والضغوط الحكومية . ولو ان المسؤولية الرئيسية تقع على عاتق الحزب الديمقراطي المسيحي بالطبع ، فان الشيوعيين لعبوا دورا ذا علاقه بالتاكيد في احداث الاوضاع القائمة حاليا . هذا وان اغلبية القوانين التي صادق عليها البرلمان في السنين العشرة الاخيرة جاءت نتيجة مفاوضات مع الحزب الشيوعي . وقد كشف تقرير صادر عن المجموعة البرلمانية للحزب الشيوعي الايطالي ان كافة الاجراءات التشريعية المهمة التي تمت المصادقة عليها في المجلس قد حظيت بدعم من النواب الشيوعيين . وقد دفع ذلك الحزب الاشتراكي الايطالي باعلان معارضته عندما قرر سحب تاييده في كانون الثاني 1976 . اضافة الى ذلك فقد استخدم الشيوعيون بصورة منتظمة النقابات لجعل الاقتصاد غير مستقر وان الضغط المستمر من قبل النقابات التي يسيطر عليها الحزب الشيوعي (تلك النقابات التي كانت تساعدها عادة النقابات الصغرى وحتى الاتحادات العدائية التي تشكلها الاحزاب الحكومية) كان امرا اساسيا في اندثار القطاع الخاص. وهكذا وخلافا للتحليل التقليدي فان عدم استقرار الاقتصاد الايطالي هو الذي خلق الحاجة الى دور جديد للشيوعيين في الحكومة هو الدور الذي منحه النظام الايطالي للشيوعيين والذي تسبب في عدم استقرار الاقتصاد » (7) .

وصحيح ايضا ان نقول ان الموقف الاقتصادي قد دخل مرحلة الآن بحيث تهدد كلا من الحكومة والشيوعيين .

واخيرا فان ائتلاف اليسار قد يضع تغييرات راديكالية معينة من شأنها ان تتمخض عن تحول كامل للمجتمع . وثمة رأي يقول ان حال دخول الشيوعيين الايطاليين الى الحكومة فسوف يتم امتصاصهم ايضا في معمعة المكائد الايطالية مثل الكثير من السياسيين حسني النية . ويقول (وولتر لاكير) : « ينصحون باختصار ان لاتعتمد كثيرا على الميزة الليبرالية والمعتدلة للشيوعية الاوربية بقدر التغيرات التي قد تطرأ اذا مالم يعد الحزب في موقع المعارض وانما جزء من النظام . وضمن هذه الحقائق عن الحياة الايطالية ، المستوى المتمدن من التعامل السياسي من ناحية ، والتاثير المتاكل جراء المكائد والفساد في معناه الواسع من ناحية

اخرى ، وهكذا يكون مثل هذا الاحتمال في موقع التصور بالتاكيد . غير ان فرص التطور وفق خطوط متشابهة في فرنسا او اسبانيا او اية بلاد اوربية اخرى تبقى ضئيلة تماما » (8) .

ب ـ التطور الخارجي :

ان التكهن بالعامل الخارجي يتم على اساس ميزان القوى الحالي . ولسنا هنا بصدد مسالة ارتباط الاحزاب الشيوعية الاوربية الى غموض الاتحاد السوفيتي الذي يبقى قليلا جدا منه بعد خطاب (خروشيف) . وفي الحقيقة من الممكن القول ان ذلك وفي عداد الآثار . وفي ضوء الملاحظات عن مواقف الشيوعيين الاوربيين ، لم يبق الا شيئا قليلا ولربما يكون ذلك في القمة على الاقل ، أما في القاع فما يزال هناك شيئا من السر والغموض ولربما بين اوساط العمال النقابية الساذجة والمواقف المثالية غير ان اناسا قلائل يظنون ان داخل القيادة باستثناء بعض السياسيين الشباب الطموحين جدا أو بعض الستالينيين القدماء الذين لايستطيعون تحرير انفسهم لأسباب عاطفية وحنين للوطن ـ ان هناك تعاطفا قليلا جدا مع الاتحاد السوفيتي وفي الواقع فقد تبخر الى حد كبير السر والغموض الذي كان سائدا قبل انعقاد المؤتمر العشرين .

وبخصوص العلاقات الخارجية فان الشيوعيين الايطاليين والاسبان والفرنسيين لا يعارضون السوق الاوربية المشتركة وقد قاموا فعلا بتحوير موقفهم تجاه (حلف شمال الاطلسي) . ففي نيسان سحب (جورج مارشيه) فجاة المعارضة الصريحة للبرلمان الفرنسي آنئذ ليوجه الانتخاب نحو البرلمان الاوربي . وقبل بضع سنوات فقط اتخذ الشيوعيون موقفا كان على حلف شمال الاطلسي ان يكافح من اجله لكي يحرر اوربا من هيمنة الولايات المتحدة . وقد اشار مؤخرا ان حل تكتلات السلطة والقوة يمكن ان يتحقق فقط من خلال الوفاق الدولي وفي الوقت نفسه يجب ان لا يكون تحالفا غير معكوس . فقد قال (كاريللو) : « سيترك الامريكيون اسبانيا ذات يوم ، ولكن لابد ان نتوقع حدوث ذلك فقط حينما ينسحب الروس من جيكوسلوفاكيا » وقد سئل مرة عن الصيغة التي يقترحها لتاصيل العاطفة الشيوعية فقال : « انا لست مع حلف شمال الاطلسي أكثر مما أؤيد حلف وارشو اذ ان كليهما يكلفان الناس العاديين كثيرا ، هذا وان البيروقراطيين العسكريين هم الذين يحتكرون ويسيطرون على المال واني اعتقد بتوحيد اوربا ولكن اظن ان القواعد الامريكية يجب ان تبقى في اسبانيا حتى يتم ازالة كافة القواعد الاجنبية من اوربا » .

ويقول (جورج مارشيه) ان موسكو في علاقاتها الخارجية تتبنى « موقفا انتهازيا » غير منسجم مع الدولية البروليتارية . والمواقف الاكثر ازعاجا موقف الشيوعيين الاوربيين تجاه السياسة الروسية الخارجية في العالم الثالث . فقد لخص (جي . آري) وهو شيوعي سابق يدرس حاليا في جامعة (بيزا) الايطالية ، موقف الحزب الشيوعي الايطالي تجاه الاتجاه السوفيتي في قوله : « في صحافة الحزب الشيوعي الايطالي ،لايجد المرء قضية واحده تكون فيها المبادرة او الخطوه او خطة سياسة الاتحاد السوفيتي او بالتحديد (سياسة الاتحاد السوفيتي تجاه الاقطار خارج كتلته) في صراع مع الوفاق أو تكون خطيرة مهددة وعدائية أو حتى منتقدة من اية ناحية كانت » .

ومن ناحية اخرى ترفض احزاب الشيوعية الاوربية الاعتراف بمصالح موسكو الحالية على انها مطابقه لمصالح الحركة الشيوعية الاوربية

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.co

باجمعها ، وتعني الدولية بالنسبة لهم العمل من أجل تضامن حقيقي مع الشعوب والحركات المضطهدة والأخذ بنظر الاعتبار مباشرة مصالح كافة المساهمين في (النضال ضد الامبريالية) وليس فقط مصالح كافة الدول الاشتراكية وانما ايضا مصالح الشيوعيين في الاقطار الغربية ومصالح حركات التحرير الوطنية في العالم الثالث . فبالنسبة للأحزاب الشيوعية الغربية الكبيرة فان السمة المميزة ل (التضامن الدولي) هي ليست الولاء للاتحاد السوفيتي وانما في امكانية « قيادة الكفاح في بلادنا نحن » على حد تعبير (كاريللو) .

ومع ان الكلمات التي القاها قادة الحزب الشيوعي الايطالي والاسباني والفرنسي كانت متفائلة فانهم توقفوا عن خدمة علاقاتهم مع الاتحاد السوفيتي اذ انهم في بعض تصريحاتهم اتخذوا لهم موقفا مؤكدين ارتباطهم بالحركة الشيوعية . ولهذا السببب حتى اذا ما اعتمدنا القادة الشيوعيين في أيطاليا وفرنسا واسبانيا على نواياهم المخلصة جدا فان الحقيقة التي يصعب التهرب منها هي ان مجيأهم للسلطة سوف يعني فقط على انه علامة لديناميكية جديدة في نشاطهم في لوربا وفي بقية انحاء العالم أيضا . ومما لاشك فيه انه ليس ل (مارشيه) او (بيرلنكوير)اية رغبة خاصة لأن يكون (دوبشك) فرنسا . فان (بيرلنكوير) يتحدث عن قيمه الحفاظ على Nato غير ان تعليقاته بشان هذا الحلف ك (غطاء حماية) انتقدتها صحيفة (يونيتا) الايطالية وقد غفلت عن المدى الذي قد لايستطيع مؤلفو الاحداث السيطرة عليه او من الضغوط التي تحركها باتجاه النهاية التي اعلنوا بانفسهم عن عدم الرغبة في اختيارها . اذن يكون السؤال الحقيقي كما يقول بعض المراقبين هو هل انهم سينظرون الى الموقف الدولي ويكونوا مستعدين الى اي حل وسط مع الاتحاد السوفيتي ليس لكونها قوه شيوعية كبرى وانما لمجرد كونها قوة كبرى ؟

وان هذه العملية قد تؤدي الى تشديد الحياد الاوربي وتضر بميزان القوة الحالي الذي يستقر من الناحية الجوهرية على العلاقة مع (حلف شمال الاطلسي والاتحاد السوفيتي) ولهذا اذن توجد المخاوف التي اعرب عنها مراقبون كثيرون بصدد « جعل اوربا الغربية فنلنديه » .

وليس هناك مايؤيد ان يكون هذا التطور فرصة او تحديا للشرق او للغرب على حد سواء . فبالنسبة للشرق قد يتوقع قادة السوفيت مساهمة شيوعية نهائية في حكومات اوربا الغربية ليس عن طريق التمتع بتاثير من شانه تمزيق التحالف الغربي وانما يقدم كذلك فرصا افضل لممارسة التاثير السوفيتي في اوربا الغربية ومع ذلك وفي نفس الوقت عليهم ان يخشوا من ان ظهور ذلك النمط الاجماعي من الاشتراكية المندمجة مع الحريات الاساسية قد يكون له عواقب كبيرة في الاقطار الاشتراكية .وهذا بالتالي سوف يكون له بالضرورة تاثيرا من شانه ازالة الاستقرار في اوربا الغربية « حجر الزاوية بالنسبة للموقع الدولي للقوة السوفيتية » .

ومنذ ربيع (براغ) فقد ساهم الشيوعيون الاوربيون في الكفاح من اجل الحقوق الانسانية والديمقراطية في الكتلة الشرقية وان مساعيهم قد اصبحت اكثر علنية في اوربا الشرقية في الاشهر الاخيرة . وقد منحوا الدعم والتاييد للجنة البولندية للدفاع عن العمال والمشكلة في (وارشو) لحماية العمال السجناء ، وقد احتفظوا باتصالاتهم مع المؤيدين السابقين ل (دوبشك) المنفيين في الغرب . وقد استجابوا ايجابيا لنداءات من جماعة (الميثاق 77) من المنشقين الجيكوسلوفاك .

ان انظمة الكتلة السوفيتية قد استجابت برد فعل غاضب تجاه الدعم الشيوعي الغربي لحقوق الانسان لشعوبهم . اضافة الى ذلك فان أعمال ومباديء الشيوعيين الاوربيين قد شكلت حافزا ومصدرا مشجعا للشيوعيين والاشتراكيين المعارضين في الكتلة السوفيتية . ويقول عضو أللجنة المركزية للحزب الشيوعي الايطالي (لومباردو راديجي) : « ان من المحتم ان يترابط الاشتراكيون المعارضون بالحكومات الاشتراكية في الشرق على الاقل من الناحية الايديولوجية مع الشيوعية الاوربية . . وكذلك فانه من المحتم ان (النموذج الايطالي او الفرنسي او الاسباني) سوف يصبح مسالة سياسة للأحزاب الشيوعية الحاكمة في اوربا الشرقية » .

والسيد (لومباردو) كان يتحدث عن أبعاد الشيوعية الاوربية فاضاف قائلا ان ما وراء بلدانهم او مستقبل مجتمعات اوربا الغربية ، يعمل الشيوعيون الاوربيون بحزم ضد الانظمة الصعبة لدول حلف وارشو . وان آخر رد فعل قوي عن سلطات جيكوسلوفاكيا لسياسة الحزب الشيوعي الايطالي التحريفية كان يقوم أساسا على ادعاء وهو ان التحالف يتطور وينمو بين أحزاب الشيوعية الاوربية والمنشقين السياسيين في جيكوسلوفاكيا وبولندا والمانيا الشرقية والاتحاد السوفيتي .غير ان مستشار النمسا (برونو كرايسكي) لايعتقد ان حركة المنشقين في اوربا الشرقية قد تاثرت بالشيوعيين الاوربيين . وبالنسبة له فان الخيار الوحيد لأولئك الذين يناضلون من أجل الاشتراكية بطاقة بشرية في الشرق ، هو الاشتراكية الديمقراطية . وهو يستشهد هنا بما قاله (اولبرخت) ذلك الرجل الذي عرف جيدا كيف يتكلم عندما قال ان العدو هو الديمقراطية الاجتماعية .

وقد بدأ الشيوعيون الايطاليون والفرنسيون والاسبان انشغالهم في تحليل نقدي لنمو الشيوعية في اوربا الشرقية وذلك منذ عهد(ستالين) وحتى الوقت الحاضر ، وكذلك عن اسباب (الستالينيه) ونتائج ذلك ليس فقط على المجتمع السوفيتي وانما لمنظور الاشتراكية في الاقطار الغربية ايضا . ونتائج هذا التحليل بدورها تؤثر في اعادة تقييمهم للديمقراطية السياسية وانهم يعتقدون ان « المركزية والدكتاتورية » اللتين ظهرتا في الاتحاد السوفيتي قد يكون لهما مايبررهما في السنين الاولى من الحكم السوفيتي ، غير انهما الآن قد اصبحتا عذرا لديمومة ذاتية للطبقة السوفيتية الحاكمة . وقد قال بعض النقاد الشيوعيين الاوربيين ان النظام السوفيتي قد تحول الى « راسمالية الدولة » والبعض الآخر يصفه على انه « اشتراكية الدولة » ويقولون ان « الدفاع عن نظام اشتراكية الدولة قد اصبح مصلحة معهودة بالقيادة السوفيتية او جهاز الموظفين من الحزب » . وقد اشار (ازكراتي) من الحزب الشيوعي الاسباني الى المسالة بكلمات اكثر حدة فقال : « ليس الاتحاد السوفيتي مثالا للاشتراكية كي يحتذى به ، واذا وضعنا جانبا الاسباب التاريخية التي ادت الى الوضع الحالي وثمة جوانب معينة نرفضها وهي اولا وقبل كل شيء تركيبات الحزب ، وافتقار الاتحاد السوفيتي للحرية السياسية اضافة الى الحريات الثقافية ومساهمة الجماهير في عملية اتخاذ القرارات » .

وفي معرض نقد الاتحاد السوفيتي يقول (كاريللو) ان الاتحاد السوفيتي ليس بلدا اشتراكيا وانما « دكتاتورية لطبقة معينة في البلاد مهيمنة على البلاد بأسرها » ويضيف سكرتير الحزب الشيوعي الاسباني الذي تحدث لمجلة المانية مؤخرا عن موقفه تجاه الاتحاد السوفيتي فيقول ان « الستالينية كانت بمثابة توحيد لشخصية ستالين الذي هو طاغية ومهووس بالظروف التي شجعته . ومن هذه الظروف كون البلاد متخلفة .. تلك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البلاد التي سعت من أجل القفز مباشرة من الاقطاعية الآسيوية تقريبا الى الاشتراكية » .

وأخيرا وكما يقول (لومباردو راديجي) فان « الادارة الذاتية » وهي توزيع أشمل للقوه والمساهمة أكثر من ان تكون اشتراكية الدولة ، وثمة اصلاحات معينة لابد منها في اوربا الشرقية .

وقد يكون هناك أكثر من حزب واحد .. او حتى اذا كان سائدا نظام الحزب الواحد فسوف يكون هناك مجال لمناقشة على نطاق واسع داخل الحزب ، وسوف تسود الديمقراطية الداخلية . وفي روسيا واوربا الشرقية فان الديمقراطيين الاجتماعيين لابد لهم أيضا أن يكونوا أحرارا كي يضعوا افكارهم موضع التنفيذ ضمن تفسيراتهم المتضاربة للاشتراكية الدولية (9) .

وما تزال هناك أيضا قضايا كثيرة غامضة ومهمة وانصاف حقائق ومفاهيم ذات مستوى مزدوج ولم يتم التوصل الى خلاصات واستنتاجات واضحة بخصوص الطبيعة البيروقراطية والاستبدادية لنظام « راسمالية الدولة في الاقطار الشرقية » . ولم يستطع الشيوعيون الاوربيون أيضا لحد الآن صياغة سياسة خارجية تجاه اوربا الشرقية . ولعل اعلانات وتصريحات الاستقلال عن موسكو قد تكون غير مترابطة اذ انه في الوقت نفسه تعرب أحزاب الشيوعية الاوربية عن تضامنها مع الاستراتيجية العامة للمعسكر الاشتراكي ضد الامبريالية الغربية . هذا وان دعم حركة المنشقين قد تتحول الى ممارسة دبلوماسية مالم يكن الشيوعيون الاوربيون مستعدين للاستفهام في مسالة التركيبات الاساسية للقوة السوفيتية .

وفي خضم هذه المجابهة مع ازمة دولية رئيسية « ذلك الصراع بين الناتو وحلف وارشو » او ما يرتبط بالخضوع لضبط خطير من قبل الاتحاد السوفيتي ، وهو يبرز السؤال التالي :

ماذا يمكن ان تكون استجابة احزاب الشيوعية الاوربية ؟ ان مثل هذا الحدث وكيف تتم مواجهته سوف يخلق بالطبع مشكلة للشيوعيين الاوربيين وهي : هل أنه يجب مجابهته بسياسة (عدم انحياز زائدا حياد اوربي) أم أحداث تصدع حاسم ومقنع في الحركة الشيوعية أم السير قدما مع خطوط الصين التي تتطلع الى الارتباطات الاوربية الغربية والامريكية والى كافة التركيبات التي توفر القوة المضادة للتوسع السوفيتي ؟ .. ومن الناحية التاريخية فان كل هذه الاختيارات ممكنه غير انه لايمكن اعطاء اجابة نهائية مقنعة لمثل هذا السؤال !

الخلاصة او الخاتمة :

لابد من الحكم على العلاقة بين الديمقراطية الاجتماعية والشيوعية على أنها قائمة على اساس الظروف المتوفرة في كل بلد . ومن الواضح ان الموقف يختلف في الاقطار التي يقوم الشيوعيون بتنظيم جزء حقيقي من الطبقة العاملة . وعليه وكما يقول (اولوف بالمي) مرة اخرى « ان الديمقراطيين الاجتماعيين في كل بلد يجب أن يقرروا لانفسهم الموقف الذي يتخذونه ، اذ ان القاء المحاضرات لافائدة فيها » . جاء التأكيد على وجهة النظر هذه في اجتماع للدولية الاشتراكية في عام 1972 و 1974 وكذلك في كانون الثاني 1976 في اجتماع (هلسنكي) .

ان اهمية الشيوعية الاوربية هي ان الانتخابات يجب أن تفوز وان الانتخابات عادة ماتفوز بقضايا قوية . وفي الوقت نفسه يدرك الشيوعيون الاوربيون انهم في المرحلة التاريخية الراهنة بحاجة الى **هوية جديدة** . وهذه مسالة حقيقية بالنسبة للأحزاب بصورة خاصة مثل الاحزاب الايطالية والفرنسية والاسبانية التي قد تشعر بفقدانها لشرعيتها .

ان مطالبتهم بالاستقلال عن موسكو لاتكشف فقط الى اي مدى هم بعيدون عن زمان (تولياتي) الذي كان فخورا بتلك « الاواصر الحديدية » التي وصف بها علاقة حزبه مع روسيا في الخمسينات وحسب ، وانما تكشف أيضا عن ادراك أن الاتحاد السوفيتي والاشتراكية البيرقراطية المتواجدة في الاقطار الشرقية هي عائق حاسم لنمو الاشتراكية في الاقطار الغربية . وهكذا فان موقفهم يواجه طريقا طويلا ابتداء من « القضاء على مشاكل النضال من أجل الاشتراكية في الاقطار الشيوعية » وحتى استعمال كلمات (ال . كولاكوفسكي) .

ومن ناحية اخرى وفي الوقت الذي تتفتت الايديولوجية الشيوعية ، فان ظهور التحريفية الشيوعية الاوربية يكشف عن قوة متنامية واهتمام متزايد بالنسبة للاشتراكية الديمقراطية وهذا ، بشكل خاص ، يقوم على أساس هذه الاعتبارات وكذلك على حقيقة كون ممارسة الاحزاب الشيوعية الاوربية هي ممارسة انتخابية برلمانية وتحريفية ... وان المراقبين الاشتراكيين رغم كونهم هادئين ومتزنين في تقييمهم للأحزاب الشيوعية يميلون الى النزول الى جانب اولئك الذين ينتهزون الفرصة ويقرون بأن الشيوعيين لابد ان تكون لهم حصة في المسؤولية .

ففي ايطاليا ثمة تحول في الميزان السياسي الصعب الذي ظهر منذ انتخابات حزيران الماضي ، ثمة تحول يأخذ مجراه في الوقت الحاضر وذلك بخروج الشيوعيين من موقع المعارضين الى الامتناع والآن الى حل وسط مصغر مع الحزب الحاكم ، الحزب الديمقراطي المسيحي .

يقول زعيم الحزب الاشتراكي الايطالي (بتينو كراكسي) ان المناقشات بشأن برنامج حكومي جديد ، لاتكفي ضمن الوضع الحالي للأزمة العميقة في البلاد بأسرها ، رغم كون المناقشة ضرورية من أجل الحصول على التزام في المسؤولية المشتركة من قبل الحزب الشيوعي في كافة القرارات الاساسية والاختيارات .

ويقول (أنتونيو جيوليتي) انه « من الطبيعي لابد اذن للحزب الشيوعي الايطالي ان يوافق على دفع الثمن بشأن مسالة الالتحام ، غير ان المشكلة الايطالية تشمل اليوم الحزب الشيوعي في عملية التقدم الديمقراطي وليس الدفاع عن الديمقراطية ازاء الحزب الشيوعي » .

أما بالنسبة للشيوعيين الفرنسيين ، ليس ثمة ما يقال سوى أنهم لم يعودوا مهتمين بدور ثانوي اذا تسلم الاشتراكيون السلطة ، وان كافة مساعيهم في المجال السياسي او الدعائي تهدف الى تثبيت أنفسهم على انهم أنشط المدافعين عن مصالح الطبقة العاملة .

يقول (جيليه مارتنيه) ان الحزب الشيوعي الفرنسي في الوقت الذي يحتفظ بتركيبه اللينيني وضمن الظروف الداخلية والدولية المتوفرة ، لديه القدرة على التحرك في سياسته المرنة الحالية نحو سياسة أكثر تصلبا ، بحيث يقللون من الكلفة بقدر تعلق الأمر بالمسائل السياسية والانتخابية . وفي عام 1974 أعلن (مارشيه) أنه من الضروري احلال اتحاد الشعب محل اتحاد اليمين لتشكيل جبهة أوسع ، وقد قال ذلك في خطابه الذي القاه مباشرة للديغوليين . وما ان يأخذ زمام المبادرة

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

أكثر الاحزاب دانيماكية وتزداد قوته فان الحزب الشيوعي الفرنسي « يميل الى اليسار » ففي الفترة من تشرين الاول 1974 وحتى نهاية عام 1975 شكل هجوما حيويا ضد « اصلاحية » الاشتراكيين ورفض « مناهضة السوفيتية » ومنح بثبات دعمه لسياسة (كونهال) في البرتغال . وفي اواخر عام 1975 كان هناك طريق متعرج تكتيكي نما في 1976 لأن يكون تحولا استراتيجيا رئيسيا مع « اتحاد شعب فرنسا ». هذا وان استراتيجيتهم وتكتيكاتهم لم تكن فقط قائمة على أساس الحسابات الانتخابية (10) وانما اعتمدوا على قوتهم التنظيمية المتفوقة وعلى امكانيتهم في استغلال الموقف السياسي بوسائل برلمانية اضافية عند الضرورة ، وهم بحاجة الى كسب الاحترام السياسي والخروج من العزلة لكي يصبحوا مقبولين على انهم حزب حاكم ، غير انهم في شك عميق من حيث أمكانية « خيانة » الاشتراكيين ، وهم يعبرون عن ذلك باستمرار وبصراحة . ومع ذلك فليس لهم اي خيار اذ عليهم ان يوازنوا اعتباراتهم المعارضة ضمن استراتيجيتهم وتكتيكاتهم .

وفي كلمة القاها في برلين الشرقية قال (مارشيه) أنه « من المؤسف جدا ان يمارس القادة الديمقراطيون الاجتماعيون سياسة يصعب تمييزها من نظام الاستغلال القديم . وأكد مرة اخرى على انه رغم ان الحزب الشيوعي الفرنسي لايطمح الى « الاحتكار في الحركة الديمقراطية اليوم أو في المجتمع الديمقراطي غدا » الا انه يريد كما يعتقد (مارشيه) شيئا مختلفا تماما « ألا وهو ان يلعب دورا طليعيا في التقدم الانساني والاجتماعي » . ومن الواضح اذن ورغم « دكتاتورية البروليتاريه (وهذا تعبير لم يستعمله الحزب الشيوعي الفرنسي منذ 1966) لم يسقطها رسميا (مارشيه) منذ كانون الثاني 1976 ، فقد احتفظ الحزب بالفكرة على أنه « طليعي » وله « دور توجيهي وتسييري ».

ويدرك الحزب الشيوعي في اسبانيا انه سوف لن يكون سهلا تحقيق كسب من قبل السياسات المشتركة مع (الحزب الاشتراكي العمالي الاسباني) Psoe أو مع قوات التحرير لحركة الطبقة العاملة الاسبانية ومع ذلك ومن خلال السياسة الداخلية والخارجية من المحتمل الآن لا بل أكثر في المستقبل ان يحصل الميل باتجاه خلق يسار اسباني متحد.

ان التحالف بين الاحزاب الشيوعية في ايطاليا وفرنسا واسبانيا سوف يؤدي بشكل واضح الى فوائد معينة للشيوعيين رغم بعض «المخاطر الاستراتيجية » لهم ايضا . ففي ايطاليا ان تصاعد نضال الطبقة العاملة خارج نطاق نشاط نقابات العمال أو الحركة الطلابية قد يجعل الحزب الشيوعي بدون فصائل دعم ضخمة في البلاد .

وعلى الاحزاب الشيوعية الاوربية ان تستجمع مصالح الطبقات المتشعبة والمتنافسة والجماعات الاجتماعية ، وهذا حتما سيمنحها النهوض بالنسبة للتوترات الداخلية ويمحي دانيماكية منظمتها ويقلل من امكانيتها في خلق برامج راديكالية ويخفض من مدى اختياراتها .

وتساعد سياسة الائتلاف على التأثير في هذه التوترات الداخلية وفي طبيعة الاحزاب الشيوعية وتحاول ان تقتطعها . وقد اشار بعض المراقبين الى امكانية « كسر قبضة هذه الاحزاب للطبقتين العاملتين الفرنسية والايطالية وقد يفوز الاشتراكيون بنسبة كبيرة من الاصوات الشيوعية ».

غير انه لابد للمرء ان يعترف ان العملية المذكورة قد تترتب عليها نتائج معاكسة خاصة اذا استطاع الشيوعيون الظهور لان يكونوا مقبولين بدرجة اكبر كحزب حاكم من خلال مساهمة قادتهم في الحكومة. والشيوعيون هم أكثر التحاما وارتباطا من الاشتراكيين بتوابعهم الذين يظهرون التزاما بصورة عامة اأكثر من توابع بقية الاحزاب ، ولعله يكون مبكرا جدا القول ان الاشتراكيين قد « نجحوا » في الحصول على تأييد الشيوعيين . وهذا كثيرا ما يتوقف على المهارة التي تستطيع من خلالها الاحزاب الاشتراكية استغلال حساسيات الشيوعيين ومن ناحية اخرى من المحتمل ان تكون هذه السياسة هي الطريق الوحيد لتشديد عملية النقد الذاتي والتحريفية داخل الاحزاب الشيوعية الاوربية التي تواصل احداث التغييرات رغم المواقف المبدئية والطائفية الداخلية . ففي الاحزاب الشيوعية الاوربية تكمن في الحقيقة أزمة عميقة وراء تراكيبها الاحادي الظاهري . اضافة الى ذلك ، ثمة نقطة اخرى لابد من الاشارة اليها وهي ان الشيوعيين الاوربيين أدنى من ان يكونوا واضحين صافين بما يتظاهرون به بخصوص نتائج أعمالهم او فيما يتعلق بالشيوعيين الايطاليين (وهو يعتبر الحزب القائد للشيوعية الاوربية) يشك الكثير من المراقبين ان « نظام المبدأ » سيؤدي الى انهاء الفوضى في ايطاليا ان لم تكن هي جزء من هذه الفوضى وعلى كل حال ، اذا كان ذلك في ايطاليا أو فرنسا أو اسبانيا فان على الاشتراكيين ان يتجنبوا اغراء وضع الشيوعيين في جانب اليسار وذلك بأتباع سياسات شعبية مهما كانت قوة الاغراء هذه ، لأن ذلك من شانه ان يساهم في زيادة عناصر عدم الاستقرار التي هي حاليا جزء من الموقف السياسي والاقتصادي وينمي أعمال المجموعات المتطرفة . على العكس من ذلك يجب ان يكونوا حزبا قويا قادرا على ان يضع خطوطا قوية للأصلاح ويؤدي تدريجيا من خلال العملية الديمقراطية الى التغيير الاجتماعي .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراجع والمصادر المعتمدة :

1 ـ (ليو لابيدز Leo Labedz)من خلال مناقشة مع كاتب التقرير .

2 ـ (هادلي آركيز Hadley Arkes)«الديمقراطية والشيوعية الاوربية» (تعليق) مايس 1976 .

3 ـ (نيل ماكلنز Neil McInnes) « الاحزاب الشيوعية لدول اوربا الغربية » 1975 .

4 ـ نفس المصدر .

5 ـ (جيمس . دوكيرتلي ، وياني) « تقرير خاص » عن الشيوعية الاوربية وتحالف الاطلسي يناير (كانون الثاني) 1971 .

6 ـ الدائرة الدولية لحزب العمال البريطاني : الحزب الشيوعي الايطالي والسياسات الايطالية . (كامبرج ـ كانون الثاني 1976).

7 ـ ميشيل ليدن Miehael Leeden ـ ملورو لوجنيتني « الشيوعية الايطالية في الداخل والخارج » ـ نوفمبر تشرين الثاني 1976 .

8 ـ وولتر لاكوير Walter Lagueur ـ تعليق /آب 1976 .

9 ـ جورج ايربن George Urban في مقابلة مع (لوجيولومباردو راديجي) مايس 1977 .

10 ـ (دونالد بلاكمير) و (سدني تاررو) : « الشيوعية في ايطاليا وفرنسا » ـ 1975 .

ذكريات

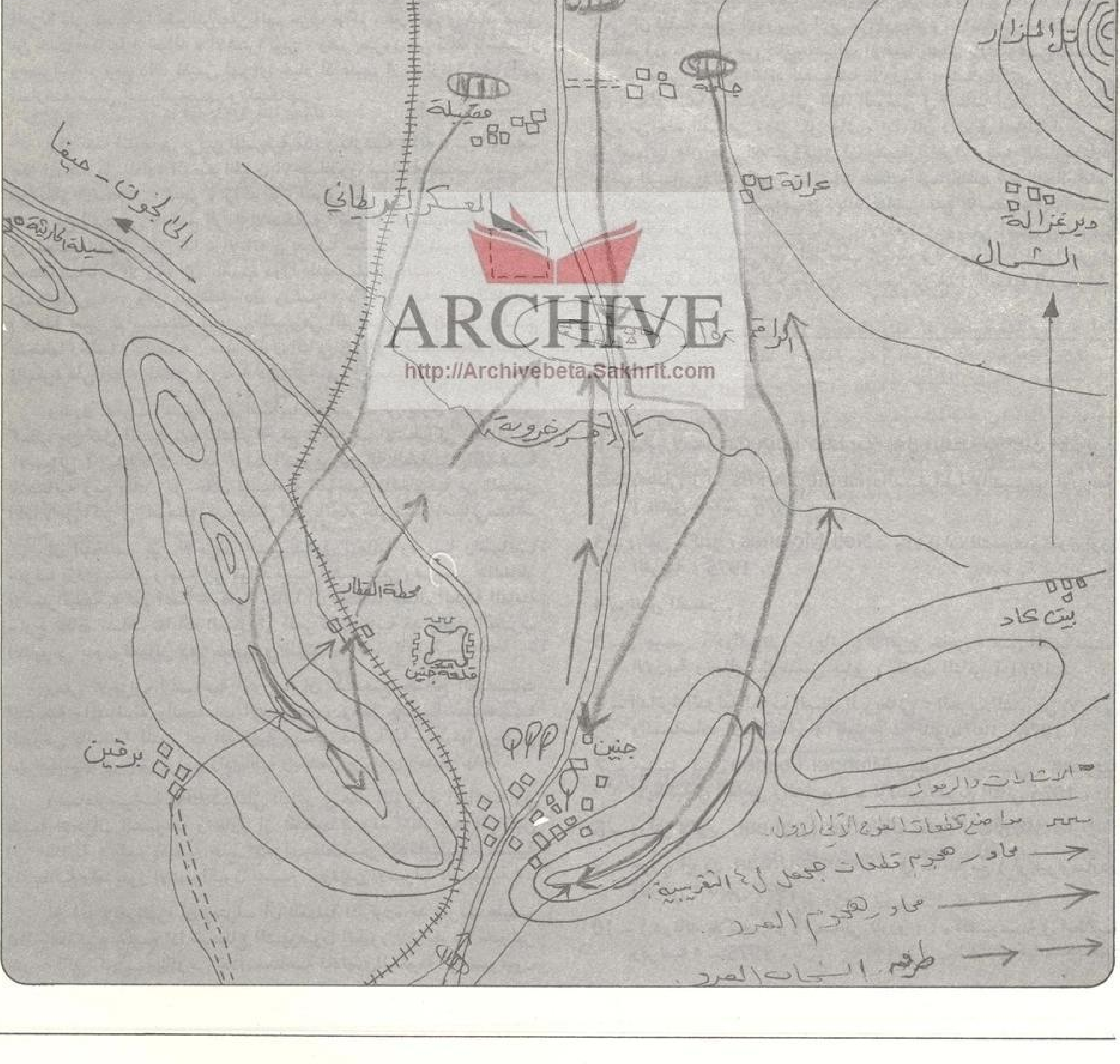

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عن معركة جنين سنة 1948

● / الفريق المتقاعد سعيد حمو

1 ـ تمهيد

كنت قد دونت بعض الملحوظات عن معركة جنين التي جرت بين قطعاتنا من جهة وبين قطعات العدو الاسرائيلي من جهة ثانية في منطقة مدينة جنين خلال الايام 2 و 3 و 4 حزيران 1948 ورايت من المناسب ان أكتب عن تلك المعركة بشيء من الاسهاب ليطلع عليها القراء .

2 ـ معركة جنين 3 و 1948/6/4 .

راجع المخطط وامر حركات الجيش الاسرائيلي ...

سأتحدث عن معركة جنين من وجهة نظر القوة العراقية التي طوقتها القوات الاسرائيلية انذاك وكنت احد منتسبي القــوة المطوقة اذ كنت نائب مساعد الفوج الآلي الاول وكنت برتبة ملازم اول وسأتناول شرح المعركة المذكورة بشيء من التفصيل وذلك اتماما للفائدة أما بالنســبة لحركات جح ل 4 فاني سأتطرق اليها بايجاز وبقدر علاقتها بمعركة القوة العراقية المطوقة .

3 ـ الموقـف

قبل ان ابدا بسرد تفاصيل المعركة ارى من المفيـد ان القـي بعض الضوء على الموقف الذي كان سائدا في منطقة مدينة جنين انذاك فكـان كما يلي :ـ

أ ـ كانت المنطقة خالية من اية قطعات اردنية او غيرها عدا وجود بعض افراد من الشرطة المحلية في كل مخفر من مخافر المنطقة وكان هؤلاء الافراد تابعين لحكومة الانتداب البريطانية التي أنتهى عهدها في 15 مايس سنة 1948 .

ب ـ كان يتواجد في مدينة جنين وفي قراها عدد من الفلسطينيين المسلحين بالبنادق القديمة الذين كانوا يتبادلون اطلاق النار مع الاسرائيليين بين الفينة والفينة .

جـ ـ اخذ اكثر السكان ينزحون من قراهم المجاورة للمناطق التي يسيطر الاسرائيليون عليها الى مدينة جنين خوفا من بطشهم .

د ـ وصلت قطعاتنا القادمة من منطقة كيشر وجسر المجامع الى منطقة دير شرف الواقعة الى الشمال الغربي من نابلس بحوالي 5 كم خلال النصف الثاني من شهر مايس سنة 1948 .

هـ ـ قررت القيادة العراقية ارسال قوة مناسبة الى مدينة جنين لحمايتها.

و ـ قمنا باستطلاع منطقة جنين وقرية زرعين يوم 1948/5/25 تمهيدا للقيام بغارة على مدينة عفولة الواقعة الى شمالها فوجدنا ان سكان القرية المذكورة قد نزحوا منها عدا المسلحين منهم اذ كانوا لا يزالون فيها وكانوا قد اقاموا بعض التحكيمات البسيطة وحفروا الخنادق فيها للدفاع عنها ثم عدنا الى معسكر دير شرف بنفس اليوم .

4 ـ تاليف قوة جنين

أ ـ تالفت قوة جنين من القطعات التالية :ـ

مقر الفــوج الآلي الاول (ناقصا سريتين) كان الفــوج منقولا بالسيارات .

فصيل مدفعية 25 رطل .

سرية مدرعات (7 مدرعات) .

4 بنادق ضد الدبابات .

فصيل هندسة من سرية الهندسة الآلية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ب ـ اسم القوة

سميت القوة برتل اسد واصبح آمر الفوج الآلي (المقدم الركن نوح الجلبي ـ توفي فيما بعد برتبة عقيد رحمه الله) آمرا للرتل .

ج ـ الواجب

كان واجب الرتل كما يلي :ـ

اولا ـ حماية مدينة جنين .

ثانيا ـ حماية قلعة جنين .

ثالثا ـ القيام بغارات على مراكز العدو مع ملاحظة عدم التورط بمعارك حاسمة تتطلب نجدات .

د ـ حركة رتل اسد

تحرك الرتل من دير شرف الى جنين يوم 1948/5/27 فوصلها بدون حادث واتخذ من قلعة جنين قاعدة له وقضينا الساعات الباقية من هذا اليوم ويوم 28 منه بالاستطلاعات والاستحضارات اللازمة للغارات .

5 ـ الحركات يوم 1948/5/29

ا ـ في فجر يوم 5/29 تحرك الرتل (ناقصا فصيل مشاة ورعيل مدرعات) على طريق جنين ـ عفولة للقيام بغارة على مدينة عفولة وعند وصولنا الى جنوب قرية زرعين بنحو ميل شاهدنا العدو قد دخل القرية المذكورة وكان قائما بنسف وتخريب ابنيتها كما شاهدنا نحو 25 عجلة آلية منتشرة في القرية وفي جوارها ولهذا السبب فان الغارة جرت على العدو في زرعين بدلا من عفولة ثم عاد الرتل مساء الى معسكره في قلعة جنين بدون خسائر .

ب ـ في الوقت الذي تحركت قوة الغارة باتجاه عفولة تحركت دورية قوامها فصيل مشاة ورعيل مدرعات باتجاه قرية لجون على طريق جنين ـ حيفا للاستطلاع والمراقبة ثم عادت مساء .

ج ـ عقد آمر الرتل مؤتمرا مساء أوضح فيه ملحوظاته عن غارة اليوم (1948/5/29) كما اصدر أمر حركات الغارة التالية .

6 ـ الحركات يوم 5/30

ا ـ تحركت قوة الغارة والدورية كما في اليوم السابق وكانت الغارة تستهدف قرية زرعين وعندما وصلت الى جنوب قرية صندله وجدنا ان العدو يقوم بنسف وتدمير ابنية القرية الاخيرة فكان لابد من توجيه قوة الغارة على قرية صندله (كان سكانها العرب قد نزحوا منها في الليلة السابقة) بدلا من زرعين ثم عادت القوة الى جنين مساء .

ب ـ في هذا اليوم اعيد جحفل السرية الاولى الى أمرة فوجه والتحق به حيث كان قائما بواجب خاص ومرتبطا بالقيادة العراقية مباشرة انذاك وبهذا اصبح لدينا سريتان .

ج ـ التحقت بطرية مدفعية 3/7 جبلية بالرتل قادمة من نابلس واعيد فصيل المدفعية 25 رطل الى نابلس .

د ـ كتب آمر الرتل تقريرا الى مقر القوة الآلية (المرجع الاعلى للرتل انذاك) الذي كان في منطقة دير شرف أوضح فيه الموقف في منطقة جنين وبين كيف ان السكان اخذوا ينزحون من قراهم خوفا من القوات الاسرائيلية الغادرة التي اخذت تقترب من جنين يوما بعد يوم واقترح ارسال قوات كافية الى منطقة القرى العربية المهددة لتقوية معنويات سكانها والوقوف بوجه القوات المعادية الا انه لم ترسل قوة ما .

هـ ـ وردت برقية من افراد الشرطة الفلسطينية الموجودين في مخفر لجون (قلعة لجون) تفيد بان القوات الاسرائيلية قد حاصرتهم في المخفر المذكور وانهم سوف يسلمون القلعة اليها اذا لم ترسل قوات عراقية لفك الحصار عنهم .

و ـ عقد آمر الرتل مؤتمرا ليلا مع مرؤسيه واوضح لهم خطة الغارة لليوم التالي على قلعة لجون .

7 ـ حركات يوم 1948/6/1 (الغارة على قلعة لجون)

ا ـ تقدمت قوة الغارة المؤلفة من مقر الرتل زائدا جح سرية ورعيل مدرعات وبطرية مدفعية باتجاه لجون وعند وصولنا الى مسافة 2 كم من القلعة علمنا بان الشرطة الفلسطينية قد سلمت القلعة الى العدو في الليلة السابقة ، لذا عادت قوة الغارة الى قاعدتها بعد ان قصفت قلعة لجون بالمدفعية والهاون .

ب ـ في صباح هذا اليوم ارسلت دورية مؤلفة من رعيل مدرعات وفصيل مشاة على طريق جنين ـ عفولة باتجاه صندله وعادت مساء بدون حادث .

ج ـ عقد آمر الرتل مؤتمره المسائي التقليدي مع مرؤوسيه واوضح ملحوظاته عن غارة هذا اليوم ثم اصدر اوامره لغارة اليوم التالي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

8 – حركات يوم 1948/6/2

أ – تقدم الرتل (ناقصا الدورية المرسلة على طريق جنين – حيفا) على طريق جنين – عفوله مستهدفا القيام بغارة على العدو في قرية صندله وعند وصولنا الى جنوب قريتي جلمة ومقيبلة وجدنا ان العدو قد احتلها ، لذا فان الغارة وقعت عليهما بدلا من صندله .

ب – لقد قدر آمر الرتل الموقف فوجد ان الخطر اصبح قريبا من مدينة جنين وقلعتها واصبحت ضمن مدى هاونات العدو ، لذا خصص جح سرية للقيام بواجب الحجاب على الراقم 152 نظرا لاهميته التعبوية فانه يسيطر على جنين وقلعتها وعلى الاراضي الواقعة الى شماله ويبعد الراقم عن جنين حوالي 2كم وهكذا قامت قوة الحجاب باحتلال مواقعها في الراقم وبدأت بتحكيمها بمساعدة فصيل الهندسة بلدة جنين بكتيبة اخرى بينما تهجم كتيبة ثالثة من الصاعقة والقوة الشائكه وقيام العدو بمشاغلة القطعات بمدافع الهاون . لقد ارسل آمر الحجاب مفرزة مؤلفة من رشاشة برين بأمرة الجندي الاول محسن ... مع 4 جنود آخرين الى القنطرة المسماة جسر خروبة الواقعة الى جنوب الراقم 152 بحوالي ½ كم .

ج – انسحبت قوة الغارة (ناقصا قوة الحجاب) قبيل الظلام الى القلعة.

د – في صباح هذا اليوم ارسلت دورية بقوة رعيل مدرعات وفصيل مشاة على طريق جنين – حيفا وعادت الى قلعة جنين مساء بدون حادث .

هـ – كان منتسبو الرتل في مساء هذا اليوم في حالة لا يحسدون عليها بسبب التعب والسهر الذي كان قد اصابهم كما ان موقف المدرعات كان لا يبعث الى الارتياح بسبب العطب الذي اصاب اكثرها ولقلة عتادها وذلك من جراء الغارات المتواصلة ولعدم اعطائها فترة للادامة في الايام السابقة .

و – ارسلنا دورية ثابتة بقوة فصيل الى شمال القلعة بمسافة حوالي 1 كم .

ز – توزعت القوة الباقية من الرتل داخل القلعة وخارجها في الخنادق المحيطة بها وكانت العجلات الالية منتشرة في الساحة الواقعة في غرب القلعة مباشرة .

ح – حوالي الساعة 2000 قصفت طائرة معادية مدينة جنين وقلعتها بدون خسائر .

9 – معركة جنين يوم 3 و 1948/6/4

أ – حوالي الساعة 2130 من يوم 6/2 هجم العدو على الحجاب بقطعات تسمى القوة الضاربة وقوة الصاعقة وعدد من المدرعات واستخدم الهاونات والرمانات اليدوية وعلى أثر ذلك استطاع أن يحتل مواقعه الدفاعية الواقعة الى غرب الطريق العام اذ انسحب المراتب بسبب سماعهم أمرا ينادى بصوت عال (انسحب – انسحب) لانهم اعتقدوا ان هذا الامر صادر من ضباطهم والواقع كان مصدر هذا الامر هو العدو وهكذا سيطروا على القسم الغربي من الراقم بينما لم ينسحب الحجاب من مواضعه في شرق الطريق العام وبقي يقاتل حتى حوالي الساعة (0030) من يوم 1948/6/3 ثم اضطر على الانسحاب خوفا من التطويق وكانت قوته ضعيفه اذ كانت اقل من فصيلين .

ب – حوالي الساعة 2300 من نفس اليوم (1948/6/2) انقطعت المواصلات اللاسلكية بين مقر الرتل وبين الحجاب واعتبارا من هذا الوقت بدأ منتسبو قوة الحجاب الذين انسحبوا من الراقم يصلون القلعة تباعا .

ج – هجم العدو وبقطعات كبيرة متفوقة معززة بقطعات من الصاعقة وكانت الخطة العامة له هي احتلال سلسلة التلول الكائنة الى غرب بلدة جنين بكتيبة واحدة واحتلال سلسلة التلول الكائنة الى شرق غير انها لم تتمكن من تحكيمها جيدا بسبب ضيق الوقت وقلة الاسلاك الضاربة على جنين والقلعة وتقضي على القوة العراقية فيها تمهيدا لهجومهم على نابلس حسب الخطة للصفحة الثانية (كما جاء في أمر حركات القوات الاسرائيلية المرفق والذي وجد بحوزة أحد ضباطهم القتلى) وتمكن العدو من احتلال اهداف الصفحة الثانية (لم يحتل مدينة جنين كاملة وانما احتل القسم الشمالي منها فقط).

د – استطاعت مفرزة جسر خروبة (مفرزة رشاشة برين و 4 بندقيات) من أيقاف الكتيبة الاسرائيلية التي كانت تتقدم لاحتلال جنين الامر الذي اضطرت معه الى تغيير طريق تقدمها .

10– حركات يوم 1948/6/3

أ – بعد ان انسحبت قوة الحجاب من الراقم 152 ليلة $\frac{2}{3}$ واحتله العدو اصبح الرتل في موقف حرج ، لذا قرر آمره ان يقوم بهجوم مقابل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في صباح يوم 6/3 لاسترجاع الراقم فبدأت السرية الاولى تتجمع مع الضياء الاول جوار القلعة تمهيدا للهجوم وفي هذا الوقت فتح العدو نيران رشاشاته على القلعة من سلاسل التلول المحيطة بمدينة جنين وقلعة جنين والتي كان قد احتلها خلال ليلة $\frac{2}{3}$ /6 وتحصن فيها بدون ان نشعر به ، لذا اصبح كل هجوم مقابل لاسترجاع الراقم عملا عقيما لا فائدة منه لذلك اضطر آمر الرتل ان يقبل الحصار مرغما .

ب ـ كان مقر الرتل باتصال لاسلكي دائم مع مقر القوة الآلية وكان يعلمه بالموقف منذ ابتداء الهجوم في الليلة السابقة .

جـ ـ حوالي الساعة 0730 يوم 1948/6/3 اعلمنا مقر القوة الآلية بأن جحفل ل 4 الذي كان قد تألف انذاك من ف 1 ل 4 وف 2 ل 5 (كان آمر جحفل ل 4 العقيد الركن صالح زكي توفيق توفي برتبة لواء رحمه الله اما آمرو الوحدات فكانوا على التوالي ـ المقدم الركن سيد صادق توفي برتبة عقيد رحمه الله ـ المقدم شليمون تقاعد برتبة عقيد أو عميد ـ المقدم عمر علي توفي بعد احالته على التقاعد برتبة لواء رحمه الله) في طريقه الينا لانقاذ الموقف .

د ـ حاول آمر رتل اسد كسر الطوق الذي ضربه اليهود على جنين وذلك بهجوم مقابل قامت به قوة من الرتل ولكن لم يكتب لذلك الهجوم النجاح .

هـ ـ حوالي الساعة 1100 بدأنا نسمع اصوات رمي رشاشات الفيكرس ومدافع 25 رطل (أسلحة أسناد ف 2 ل 5) من اتجاه قرية برقين حيث كان الفوج قائما بالهجوم على العدو من هذا الاتجاه بينما كان ف 2 ل 4 يهجم عليه من الجنوب باتجاه التلول الشرقية لمدينة جنين على ما اعتقد وبقي ف 1 ل 4 احتياطا في المنطقة الواقعة الى شمال قباطية .

و ـ في هذا الوقت كان العدو يشدد الخناق علينا ويزيد من نيرانه كثيرا ولا سيما نيران مدافع الهاون فكانت شديدة الى درجة ان منتسبي البطرية 3/7 لم يستطيعوا الرمي في الموضع واضطروا الى ادخال المدافع الى داخل القلعة وبدأو بالرمي من داخلها .

ز ـ كان جحفل ل 4 مستمرا بالهجوم وخاصة ف 2 ل 5 اذ كان مشتركا بمعركة ضارية وقد ابلى هذا الفوج بلاء حسنا وحقق نصرا مبينا واستمرت المعركة بين ل 4 وبين العدو كما استمر تبادل أطلاق النار بين قوتنا المطوقة وبين العدو بشدة وحوالي الساعة 1600 شاهدنا منتسبي ف 2 ل 5 على سلسلة التلول الغربية حيث استطاع الفوج المذكور ان يكسر الطوق الاسرائيلي ويدق اسفينا في مواضع العدو (سلسلة التلول الواقعة الى غرب قلعة جنين) .

ان الانتصار الذي أحرزته قوة الانقاذ (جحفل ل 4) هذا اليوم لم يكن مشجعا بالنسبة لنا بالرغم من انه كان رائعا لاننا كنا ننتظر منها فك الحصار نهائيا وطرد العدو من السلاسل التلولية كلها .

ح ـ أتصل آمر الرتل بمقر القوة الآلية ولوضح لهم الموقف فاقترح المقر المذكور ان يسحب قوته ويلتحق بالفوج الثاني ل 5 وقد ترك له الخيار في اتباع هذا المسلك غير انه رفض ذلك حرصا منه على المدافع والآليات والعتاد من أنها تصبح غنيمة باردة للعدو وفضل الدفاع في القلعة حتى صباح يوم 6/4 .

ط ـ أستمر تبادل اطلاق النار بين رتلنا وبين العدو طوال النهار بشدة اذ تعطلت 3 مدافع 3/7 عن الرمي ولم يبق في البطرية سوى 19 طلقة على ما أذكر ومدفع واحد صالح للرمي كما اننا تكبدنا عددا من الخسائر لا يستهان بها ومن ضمنهم خمسة من قداحي البطرية 3/7 ومع ذلك فان البطرية قامت بواجبها خير قيام .

ى ـ قضينا ليلة $\frac{3}{4}$ /6 في القلعة بحذر ويقظة شديدين بينما كان التعب والسهر وظروف المعركة الاخرى قد أثرت علينا تأثيرا كبيرا وانهكتنا انهاكا شديدا .

ك ـ لقد اقترب الاسرائيليون ليلة $\frac{4}{3}$ من قلعة جنين ورموها بصواريخ فاصابوا احدى زواياها اصابة مباشرة وقاموا بعدها بهجوم على القلعة الا انهم ردوا على اعقابهم .

11 ـ معركة جنين يوم 6/4

أ ـ في فجر يوم 6/4 استانف جح ل 4 وخاصة ف 2 ل 5 هجومه على القوات الاسرائيلية واصبحت في موقف حرج جدا فاللواء يهاجمها من الخلف (ف 2 ل 5 من الغرب وف 2 ل 4 من جنوب السلسلة الشرقية) وتنصب نيراننا عليها من الامام ولم يبق امامها سوى التسليم او الهزيمة وكان بديهيا انها تختار طريق الهزيمة لذلك بدأت بالهزيمة وهي فاقدة رشدها من شدة الضربة .

ب ـ عندما كانت القوات الاسرائيلية قائمة بالانسحاب امام ف2 ل5 باتجاه الراقم 152 انطلق جنودنا لمطاردتها الا انه سرعان ما أرسل العدو رعيل مدرعات من الراقم باتجاه محطة قطار جنين لستر انسحاب قواته . وبالنظر لعطب مدرعاتنا ولنفاد عتادها فلم تستطيع التصدي للمدرعات المعادية وكان عتاد بنادق الدبابات قد نفد ايضا لذلك فقد خلى الجو لمدرعات العدو لتقوم بستر انسحاب جنوده المهزومين وبالرغم من ذلك فقد استطاع جنودنا اللحاق بهم وقتل عدد منهم والحصول على الغنائم واسر 3 منهم احدهم ضابط .

لابد لي ان اصف هنا موقف العدو وبعد ان اشتد عليه هجوم فـ2ل5 فان المنظر الذي شاهدته آنذاك لن انساه ما حييت فكان جنود العدو يهربون امام الفوج الكاسح باتجاه الشرق فتنصب عليهم نيراننا من القلعة خاصة نيران المدافع والهواوين فيعودون وينهزمون مرة اخرى باتجاه فـ2ل5 وبعد ان يذيقهم الفوج عذاب نيرانه فانهم يكررون هزيمتهم شرقا فتصليهم نيراننا من القلعة ثم يصدون ويستمرون بالهزيمة باتجاهات مختلفة وعلى غير هدى فكان هذا يشبه حال قطعان الاغنام التي تهرب امام الذئاب المفترسه .

جـ ـ استطاع جحفل اللواء الرابع ان يطهر كافة سلاسل التلول التي كانت محتله من قبل القوات المعادية واسترجع مدينة جنين غير ان

العدو تمركز في الراقم 152 والى هنا انتهت معركة جنين .

د ـ في الساعة 1630 جرى تبديل رتلنا بسرية من فـ2ل4 وانسحبنا نحن الى نابلس بينما بقي جحفل ل4 مرابطا في جنين .

12 ـ الخسائر

ا ـ تكبد رتل اسد عددا من الخسائر بين شهيد وجريح خلال يومي 3 و 1948/4 .

ب ـ اما خسائر العدو فقد افاد الاسرى الذين استنطقناهم بان خسائرهم كانت حوالي (300) بين قتيل وجريح ومفقود .

13 ـ الغنائم

استولى جحفل ل4 خاصة فـ2ل5 على غنائم كثيرة (اسلحة . اعتدة . عفش .. الخ)

14 ـ الدروس المستنبطة

ا ـ اسلوب الدفاع

كثر النقاش في حينه عن اسلوب دفاع رتل اسد عن قلعة جنين فيقول البعض كان عليه ان يدافع داخل القلعة اي ان الرتل برمته يدافع داخلها بينما فضل ضباط آخرون ترك القلعة والدفاع خارجها في الاراضي المحيطة بها وقسم آخر ارتأى ضرورة احتلال مواضع دفاعية على سلسلة التلول الغربية مع ترك قوة صغيرة داخل القلعة .

ويمكن مناقشة تلك الاراء كما يلي : ـ

ان ترك القلعة نهائيا واحتلال مواضع دفاعية خارجها (في الاراضي المجاورة لها مباشرة) ليس بالأمر المعقول لأن سلاسل التلول تشرف اشرافا كليا على القلعة والمدينة فتكون القطعات تحت رحمة نيران العدو بينما توفر القلعة حماية جيدة لها . كما ان حشد كافة قطعات الرتل في داخل القلعة لايوجد مايبرره خاصة انها لاتكفي لها لصغرها اما احتلال السلسلة الغربية وترك قوة صغيرة في القلعة فان محاذير ذلك هي تشتيت هذه القوة الصغيرة واضعافها فيصعب عليها الدفاع باتجاه الهجوم النهاري او الليلي الموجه على هذه السلسلة الطويلة وتضطر بحكم طبيعة الارض ان تبتعد عن القلعة والمدينة بينما كان واجبها الرسمي يحتم عليها الاحتفاظ بهما . كما ان العجلات الآلية للرتل البالغ عددها نحو ستين عجلة ستبقى منعزلة وبدون حماية تقريبا وعلى كل حال فقد قرر آمر الرتل الدفاع داخل القلعة وخارجها وارسل دورية ثابتة على السلسلة الغربية بينما احتل الراقم 152 بجحفل سرية (الحجاب) .

ب ـ تناسب القوة مع الواجب

لم تكن الواجبات التي انيطت برتل اسد متناسبة مع قوته حيث طلب منه الاحتفاظ بكل من مدينة جنين وقلعتها ثم القيام بغارات على مراكز العدو على ان لايشترك بمعارك يحتاج معها الى تقويات بينما كانت قوته عند وصوله الى بلدة جنين جحفل سرية بقيادة مقر الفوج الآلي زائدا سرية مدرعات ثم التحق جحفل سرية آخر وبالنظر لضعف قوة الرتل فلم يكن بامكانه القيام بواجبات واسعة، لذا يجب ان يكون الواجب المطلوب من قوة ما متناسبا مع حجم تلك القوة .

ج ـ اهمية المعلومات

لم تتيسر معلومات لدينا عن حركات العدو الهجومية لذلك استطاع تطويقنا دون ان نشعر به ومن جهة ثانية يبدو ان العدو هو الآخر لم تتيسر لديه معلومات عن وجود جحفل ل4 الذي كان قد وصل الى فلسطين حديثا .

وهكذا فان الخطة التي لاتبنى على ادق المعلومات قلما يكتب لها النجـاح .

د ـ المدرعات

لم نستطيع استخدام المدرعات في مقاتلة المدرعات المعادية التي قامت بستر انسحاب العدو يوم 6/4 بسبب العطب الذي اصاب اكثرها من جراء عدم اجراء الادامة لها لانشغالها بالاستطلاع والقتال خلال الايام السابقة للهجوم ولنفاد عتاد اكثرها ووقود البعض منها .

وهكذا تبرز اهمية الادامة اليومية وضرورة الاحتفاظ بكمية من العتاد والوقود الاحتياطي فلو كانت المدرعات صالحة ومكتفية بالعتاد والوقود لكان بالامكان اسر ماتبقى من الكتيبة الاسرائيلية المنسحبة وتكبيدها خسائر اكثر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هـ ـ المباغته

استطاعت القوات الاسرائيلية ان تباغتنا في جنين باحتلالها سلاسل التلول المحيطة بالبلدة من الجهة الغربية والشرقية وبذلك قطعت علينا طريق الانسحاب والادامة وتم عزلنا ومن جهة ثانية فان جحفل ل4 استطاع ان يباغت القوات الاسرائيلية الامر الذي ادى الى فشل الهجوم الاسرائيلي وتكبيدهم خسائر فادحه وان ذلك يدل على ان لسلاح المباغته تأثيرا عظيما في نتيجة المعركة .

و ـ سلاح مقاومة الدبابات

لم تكن هناك اسلحة لمقاومة الدبابات آنذاك عدا اربع بندقيات لمقاومة الدبابات والتي كانت ايضا بدون عتاد لنفاده في معركة ليلة 2/3 ـ 6

ولو تيسرت مدافع مقاومة الدبابات في ذلك الوقت لكان بالامكان القضاء على مدرعات العدو واسر المئات من جنوده المهزومين .

ز ـ العزم والشجاعة

ان مفرزة الجندي الاول محسن المؤلفة من الجندي الاول المذكور واربعة آخرين (كانو مسلحين برشاشة واربع بندقيات) والتي كانت مسؤولة عن حماية القنطرة (جسر خروبة) تمكنت هذه المفرزة الصغيرة من ايقاف فوج صاعقة اسرائيلي منقول بالسيارات ومنعته من التقدم لأحتلال مدينة جنين ولكن من سوء الحظ كان الوادي ملائما لعبور العجلات في كثير من اقسامه ، لذا تمكن الفوج الاسرائيلي من اجتيازه بعيدا عن المفرزة والتقدم الى جنين واحتلالها فجرا . ان العمل البطولي الذي قامت به هذه المفرزة الصغيرة تجاه فـوج صاعقة اسرائيلي لجدير بالاكبار والتقدير اذ تمكنت من الصمود بوجه قوة لا مجال للمقارنة بينهما واجبرتها على التوقف اكثر من ساعتين ومنعتها من العبور على القنطرة المذكورة واخيرا اضطرت القوة المعادية على تغيير طريقها ـ ان شجاعة افراد هذه المفرزة

الصغيرة وتضحيتهم واستبسالهم لاشك انها تدل على صفاء معدن الجندي العربي واصالته .

15 ـ الخاتمة

أ ـ لئن كانت معركة جنين قد كشفت الجندي الاسرائيلي على حقيقته فانها اظهرت الجندي العراقي على حقيقته ايضا ، فقد تجلت فيها شجاعته لأنه ضرب اروع الامثله في البطولة والتضحية والفداء سواء بالنسبة لمنتسبي وحدات ل4 وخاصة فـ2 ل5 أو بالنسبة لمفرزة الجندي الاول محسن فان هؤلاء الابطال قاموا باعمال بطولية رائعة وابدوا شجاعة منقطعة النظير .

ب ـ ان الانتصار اللامع الذي حققته القطعات العراقية في معركة جنين خلال يومي 3 و 4 /1948/6 يعتبر مفخرة من اعظم مفاخر جيشنا العظيم وستبقى هذه المعركة خالدة لأنها حققت مايلي : ـ

اولا ـ انقاذ القوة العراقية المطوقة وتكبيد العدو الاسرائيلي خسائر كبيرة جـدا .

ثانيا ـ لقن الجيش العراقي فيها عدوه الجيش الاسرائيلي درسا حقيقيا في الشجاعة والتضحية والتفاني واثبت كيف ان الجندي العراقي يسترخص حياته في سبيل دينه ووطنه وامته .

ثالثا ـ لقد اثرت هذه المعركة على العدو الاسرائيلي وجعلته يعتقد بان الجيش العراقي ليس من الجيوش الاعتيادية بل انه جيش مقاتل من الطراز الاول وان منتسبيه يحبون الموت كما يحب هو الحياة .

رابعا ـ ان انتصار قطعاتنا على القطعات الاسرائيلية في هذه المعركة وهزيمتها شر هزيمة قضى على آمالها في تطبيق خطتها التي كانت تستهدف احتلال المثلث العربي ـ جنين ـ طول كرم ـ نابلس .

ج ـ وقبل ان انهي هذه الملحوظات لابد لي ان اقول والالم يعصر قلبي وقلب كل جندي شريف هو ان هذه الاراضي العربية الطيبة الطاهرة التي قدمنا الكثير من الشهداء في سبيل الحفاظ عليها في معارك سنة 1948 وسنة 1949 اصبحت فيما بعد غنيمة باردة للعدو الاسرائيلي واحتلها منذ حرب 1967 ولايزال يرتع ويمرح فيها وسيبقى فيها طالما ان الوحدة السياسية والعسكرية بين الدول العربية لم تتحقق . . .

امر حركات الهجوم الاسرائيلي

ص 1   سري   الحملة الثانية

التاريخ 21/مايو 1948

اوامر الهجوم الاول (صفحة الاولى

للايام التالية من 30/5 الى 6/2

الجبهة الشمالية . للكتائب 22/21/13

ليلة 31/30 مايو

كتيبة 21   تتساعد مع كتيبة دونل للاعمال والتوزيعات التالية :

قسم واحد (عشرون) جندي من جنود الالغام تكون في محطة سكة حديد جنين .

قسم واحد (عشرون) جندي من جنود الالغام تكون في محطة تل اسمر .

قسم للاحتياط . = ... في عين منسي .

قسم الالغام . . . . (لجون) .

ليلة 5/31

6/1

ـــ كتيبة 13   1 . تاشير الطرق المؤدية لقرية صندله والمقيبلة .

2 . احتلال (جلامه) و (آرنه) .

واجب المدفعية ـ ان واجب المدفعية للاسناد في صفحات الهجوم التالية

(1) للكتيبة 21

أ ـ في هجومها على (ام الفحمة)

ب ـ في تقدمها للوصول الى جنين من الجهة الشرقية المتسلطة على جنين .

(2) للكتيبة 22 . ج تمهيد الطريق للوصول الى جنين من الجهة الغربية .

ليلة 6/2/1

كتيبة 21 و 22/احتلال جنين

كتيبة 13/   (1) احتياط للقوة ويقوم بنقل النجدات والامدادات والاسلحة . للحركات العسكرية للكتيبتين عند قيامهم بالواجب .

(2) تطويق الاماكن التالية بيت قاد ـ دير غزالة

الحركات العسكرية في ليلة 30/ـــ 5/ على جنين وام الفحمة 31

الحركات العسكرية في ليلة ـــ 5/31

1 /6 على جنين وام الفحمة و (سيلة الحارثية)

الحركات العسكرية في ليلة 1/ـــ 6/ على جنين ، يعبد ، قباطية . 2

التوقيـع
كرملي قائد
الحملة رقم (2)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سري للغايـة

الاوامر للهجوم للصفحة الثانية

القوة المخصصة

كتيبة 13 – 22 – 21 . والاحتياط

1 . المعلومات

ا . العــدو

عدد كبير يقدر ما لا يقل عن (5000) رجـل محصن بالمثلث الخطر هو جنين . طولكرم . نابلس(شحيم) ويوجد لدينا معلومات عن العدو بجنين وام الفحم والمقيبلة .

ب . قطعاتنــا

الفرقة (2) المؤلفة من الكتائب الآتية ،

22 / 21 / 13

والقوة الضاربة وفوج احتياط واسلحـة وامدادات ومخابـرة وجنود الغام .

2 . المقصد (الاتجاهات)

ا . الهجوم على جنين واحتلالها بقصد قتل العدو وابادته واسلحته وصفعه حتى نتحصن في مواضعه .

ب . أحتلال القرى التالية / جلمة / آرنة / المقيبلة .

3 . الاسلـوب

ا . **هدف الكتيبة 13** . احتلال المقيبلة والمعسكر البريطاني واحتلال (آرنة) وجلمة ويجب أن لا يتاخر هذا عن الساعة 2330 مـن يوم 6/1

ب . **هدف كتيبة 21** . احتلال المنطقة المسلطة على جنين من الجهة الغربية ويتحصن بها بالساعة 230 . من تاريخ 6/2 .

ج . **كتيبة 22** . هدفها احتلال المنطقة المسيطرة على جنين من الجهة الشرقية ويحصن بها قبل الساعة 0320 من تاريخ 6/2

د . القوة الضاربة وقوة الصاعقة

تهجمان على بلدة جنين من جهة الطريق العام (زرعين/جنين) وتقفز في جوف المدينة (جنين) بالساعة 0330 من يوم 6/2 .

هـ . الاسلحة والامدادات

سياتي تفصيلها في الملحق 15 فيما يتعلق بكيفية الاستعمال وفق جدول الاوقـات .

و . القوة الجويـة

1 . تقصف جنين وام الفحم في 5/31 و 6/1

2 . تقصف جنين وام الفحـم وقباطيـة ونابلس ليلة 6/1 و 6/2 .

ز . تكون قوة الاحتياط باتصال دائم مع قائد الحملةفي تلك المناطق.

ح . الهندسـة

للكتيبة 13/واجبها لغم الطرقات

ا . جنين / بيت قاد

ب . جنين / كفاردان

للكتيبة 21 / واجبها

ا . لغم طريق جنين / برقين في النقطة / حدائيـة (17643080)

للكتيبة 22 / واجبها

ا . لغم طريق جنين وجنوبها في النقطـة احدائيـة (17832060)

4 . الاداريـة

1 . الخط الثاني ونقلية كتيبة 21 يكـون في زرعين حتى يؤمـر بالتقـدم .

2 . الخط الثاني ونقلية كتيبة 22 يكون في زرعين حتى يؤمـر التقـدم .

3 . الخط الثاني ونقلية كتيبة 13 يكون في كفار حسقيل حتى يؤمر بالتقـدم .

الخدمات الطبية

يجب اخلاء المجاريح الى العفولة بموجب التعليمات الصـادرة من الطبيب المختص الى اطباء الكتائب .

5 . المواصلات والارتبـاط

ا ـ يفتح المقر الساعة 2230 من يوم 6/1 بزرعين

ب ـ الارتباط / بموجب الملحق

ج ـ اطلب ارسال التقرير عن التقدم فيما لايقل عن كل نصف ساعة.

ملحوظـات

1 . يتغير جدول الاوقات وفقا لنشاط الوحدات .

2 . واجب الانضباط يكون لتعليمات القيادة .

3 . يجب احضار (الحاخام) بتاريخ 6/1 في تل موند لكي يعطي التعليمات .

4 . التحضيرات والاستعدادات لحالة هجوم مفاجيء .

التوقيـع

كرملي

قائد الحملة رقم (2)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نظرية الشعر بين لونجينوس والجرجاني

عمود الشعر العربي بين النقـاد العرب

لا بد ان المرء يدهش الى ابعد الحدود حين يجـد ان عناصر عمود الشعر ، كما اوردها القاضي ابو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجـــاني (392 هـ) في كتابه « الوساطة » وتابعه من جاء بعده من النقـاد العرب ، تتشابه الى حد التطابق تقريبا مع ما اورده في القرن الثالث للميلاد ، كاسيوس لونجينوس ، الفيلسوف والبلاغي العربي التـدمري ، في مقالته الخالدة : « في السمو ـ Peri Hupsus » التي كتبهـا باللاتينية في روما بعد ان أسرت زنوبيا ملكـة تدمر ، ونفيت مع حاشيتها ومستشاريها الى روما .

هذا التطابق المدهش ، دفعنا الى وضع مقولة فريدة ، مفادها ان نظرية « عمود الشعر » هي مفهوم عربي (سامي) ، يلخص تجربة العرق العربي (او الاقوام السامية) في التعبير الفني .

وفي مقابل ذلك يقوم « كتاب الشعر » لارسطو بتلخيص تجربة الشعوب الغربية (الآرية) في التعبير الفني ، كما يتصوره على شـكل ملحمة او مأساة او ملهاة . وهو يختلف كل الاختلاف عن الشـعر العربي في شكله الفني الذي نجده في « المعلقات » مثلا ، او فيما وصلنا من اشـعار العبرانيين والفراعنة والبابليين والفينيقيين والآراميين الذي يكاد ان يتطابق مع الشعر العربي ويتشابه معه حتى في وجوه اختلافه مع الشعر الآري .

في هذا المقال سوف نستعرض نظرية العرب في الشعر وتشابهها مع نظرية لونجينوس ، وفي المقـال الثاني سوف نبين اثر المفهوم العربي ـ السامي للشعر في تغيير مناحي الشعر الاوربي منذ العصور القديمة الى اليوم .

يحدد لونجينوس مصادر السمو بخمسة عناصر هي :

1 ـ قوة صياغة المفهومات العظيمة .

2 ـ العاطفة الملهمة المتقـدة .

3 ـ صياغة الصور والمجازات .

4 ـ الاسلوب الجزل .

5 ـ التاليف الرفيع الجليل .

ويحدد الجرجاني عمود الشعر على الشكل التالي :

« وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن: بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر امثاله ، وشوارد أبياته ».

« ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقـة ، ولا تحفل بالابداع والاستعارة ، اذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » .

ويمكن ابراز الموازاة بين النظريتين بوضع جدول للعناصر التي تتضمنها على الشكل التالي :

لونجينوس (السامي)	الجرجاني (عمود الشعر)
1 ـ قوة صياغة المفهومات العظيمة	1 ـ شرف المعنى وصحته
2 ـ الاسلوب الجزل	2 ـ جزالة اللفظ واستقامته
3 ـ صياغة الصور والمجازات	3 ـ الاصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه
4 ـ العاطفة الملهمة المتقدة	4 ـ غزارة البديهة
5 ـ التاليف الرفيع الجليل	5 ـ الامثال السائرة والابيات الشاردة

وقد يبدو للوهلة الاولى أن بعض عناصر النظريتين تشذ عـن الاخرى أو تند عن الموازاة المفترضة . غـير ان تحليلا متعمقا بعض الشيء يظهر أن هذه الانحرافات اقل مما يخطر على البال .

فكلتا النظريتين تحـدد الشعر بعنـاصر تكوينية ، وعناصر جمالية ، وعناصر انتاجية . هذه العناصر تبلورت في التـراث خلال مئات السنين حتى غدت تقليدا متوارثا لا يمكن التخلي عنه الا بالتخلي عن الذوق الرفيع . والروح العظيمة ، وسورة الطرب .

ا ـ العناصر التكوينية

1 ـ شرف المعنى :

وهو سمو المعنى ولياقته بحسب مناسبته لمقتضى الحال .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محي الدين صبحي

ان الجرجاني لا يشرح المصطلح على النحو الذي أوردناه لكنه يمكننا من استنتاجه خلال استعراضه لعيوب المعاني . فهو ينتقد معاني أبي نواس بالغثاثة وسقط المعنى (1) ، وينتقد أبا تمام بأنه « يجعل الممدوح تارة دلوا ، وتارة محرابا ، ومرة رشاء ، واخرى تنينا وشيطانا رجيما » ، وبما يماثل ذلك في مواضيع شتى(2) . كذلك ينتقد المتنبي بسخف المعنى وبرده (3) .

2 ـ صحة المعنى :

أي اشتماله على الصحة المنطقية ، اضافة الى تمشيه مع مبدأ شرف المعنى . ونحن نعرف ذلك ايضا بالاستناد الى ما يورده الجرجاني من عيوب المعاني ، نحو : عدم انطباقها على المشاهدة ، والرواية ، والغلط ، والفساد ، والاحالة .

والجدير بالذكر ان ابا علي احمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ـ 421 هـ) في شرحه لعمود الشعر في مقدمة كتابه « شرح الحماسة » ، لم يفرق بين شرف المعنى وصحته ، فقال :

« فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب ، فاذا انعطف عليه جنبتا القبول والاصطفاء ، مستأنسا بقرائنه ، خرج وافيا ، والا انتقص بمقدار شوبه ووحشته »

وهذا ايضا اقتصار على عرض المعنى على العقل والمنطق ، دون النظر الى شرف المعنى في سموه ولياقته ومناسبته لمقتضى الحال .

3 ـ جزالة اللفظ :

الجزالة صفة تغلب على قوة الاسلوب ، وهي النمط الاوسط الذي حدده الجرجاني بأنه « ما ارتفع عن الساقط السوقي ، وانحط عن البدوي الوحشي » .

فمتانة الاسلوب يجب ان تقترن بالفة مع الاسماع ، فلا يكون غريبا عنها ولا بعيدا ، مع مراعاة عدم تنافر الالفاظ لئلا تقع في المعاظلة ، وعدم اساءة ترتيب الجمل لئلا يغيب المعنى .

4 ـ استقامة اللفظ :

وتعني دقته في اداء المعنى ، وايحاءه وسهولته وافادته بحيث يضيف معنى ولا يكون حشوا في البيت ـ كل ذلك لينسجم مع الجزالة المطلوبة . كما تعني استقامة اللفظ انسياقه مع القواعد القياسية في الاعراب والصرف ، اضافة الى وضوح معناه لئلا يلتبس ـ كما تبين من انتقادات الجرجاني لعيوب اللفظ .

والخلاصة انه اذا كانت جزالة اللفظ تخص الاسلوب او النسيج الشعري ، فان استقامة اللفظ تتعلق بوظيفته في هذا النسيج .

واخيرا نلاحظ ان عنصري المعنى يتقابلان مع عنصري المبنى : فجزالة الاسلوب تقابل شرف المعنى ، واستقامة اللفظ توازي صحة اداء المعنى .

اما المرزوقي فقد خلط بين جزالة اللفظ واستقامته ، فقال : « وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال ، فما سلم مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم » .

ب ـ العناصر الجمالية

1 ـ الاصابة في الوصف :

الوصف في عرف النقاد محاكاة وتمثيل لفظي للشيء الموصوف ، بايراد اكثر معانيه وعرض معظم وجوهه وجوانبه ، لكي يتمثل للقاريء وكأنه باد للعيان .

هذا فيما يتعلق بالوصف الخارجي ، كوصف البحتري للطبيعة او المتنبي للاسد . اما وصف المشاعر والاحاسيس فانه اكثر قدرة على عدوى القاريء ، اذ :

« ترى رقة الشعر اكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فان اتفقت لك الدماثة والصبابة ، وانضاف الطبع الى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من اطرافها » .

وهذا رجوع الى المقياس النفسي اكثر منه اعتمادا على المقياس الحسي . وقد تأثر به المرزوقي اكثر مما تأثر بتعريف قدامة بن جعفر (ـ 337 هـ) ، فتراه يقول :

« وعيار الاصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز ، فما وجداه صادقا في العلوق ممازجا في اللصوق ، يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه ، فذاك سيماء الاصابة فيه . ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال في زهير : « كان لا يمدح الرجل الا بما يكون للرجال » ، فتأمل هذا الكلام فان تفسيره ما ذكرناه » .

فالاستشهاد بقول الخليفة عمر بن الخطاب موجود في « باب نعت المديح » في كتاب قدامة بن جعفر « نقد الشعر » ، مما يدل على ان اعتماد المرزوقي على قدامة اكبر من اعتماد الجرجاني .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2 ـ المقاربة في التشبيه :

التشبيه لمح صلة بين امرين حسيين او متخيلين في النفس ، مع تداخل يجعل السامع يحس بما احس المتكلم ، فهو دلالة فنية تقوي المعنى المجرد الذي يتكلم عنه الشاعر بأن ينقله من العقل الى الاحساس ، ومن الفكر الى الحدس .

الجرجاني يدمج الوصف بالتشبيه ويسميه « المعنى » في حديثه عن السرق في الشعر . فكان الجرجاني يفهم التشبيه والاستعارة على انهما مرحلة انتقالية بين المعنى المجرد والنسيج اللفظي . ويفرق بين المعنى التمثيلي الذي يفيده التشبيه وبين المعنى المجرد ، او الصريح ، كما يسميه .

الناحية الثالثة المهمة ان الجرجاني في نزوعه الى النقد النفسي، يحيل على قضية الايحاء في الشعر ، فتجده لا يهتم بالتفاصيل الحسية او الدقيقة في التشبيه ، فيقول : « وليس على الشاعر اذا بالغ في وصف أن ينتهي الى الغاية ، ولا يترك في الافراط مذهبا » . على ان الجرجاني لا يترك قضية الايحاء دون ضوابط ، وهو يستمد هذه الضوابط من قصد الشاعر اولا ، والى ما تصححه المشاهدة وتبينه العلة ثانيا . ويمكن النظر الى ضوابط التشبيه التي اوردها الجرجاني على انها تتمة وتوضيح وتحديد لمقاييس الاصابة في الوصف والمقارنة في التشبيه . وهذا كله مفقود عند المرزوقي ، اذ نجده يقول :

« وعيار المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير ، فاصدقه ما لا ينتقض عند العكس ، واحسنه ما اوقع بين شيئين اشتراكهما

في الصفات اكثر من انفرادهما ليبين وجه التشبيه بلا كلفة ، الا أن يكون المطلوب من التشبيه اشهر صفات المشبه به واملكها له ، لانه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس . وقد قيل : اقسام الشعر ثلاثة : مثل سائر ، وتشبيه نادر ، واستعارة قريبة».

ج ـ العناصر الانتاجية

1 ـ البديهة الغزيرة :

اذا كانت العناصر التكوينية والجمالية دليل الشاعرية فان العناصر الانتاجية دليل الفحولة . وهي صفة لا تطلق الا على شاعر بارع في التصرف بفنون الشعر المعدودة جميعها ، فلا « يكون في النسيب ابرع منه في الرثاء ، ولا في المديح انفذ منه في الهجاء ، ولا في الافتخار ابلغ منه في الاعتذار ، ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتا في سائرها .. » .

هذا ما حدده ابن رشيق في « العمدة » ، حين تحدث عن مفهوم الفحولة والشاعر الفحل . ذلك ان غزارة البديهة تدل على قوة الشاعرية ، او على سرعة رد الفعل الشعري تجاه المؤثرات الخارجية .

هذا التفسير لمعنى « البديهية » يخالف ما هو شائع ومعروف من قول الناس : «فقال على البديهة» ، ويعنون بذلك انه قال ارتجالا. وكان اول من نبه الى ذلك ابن رشيق في « باب البديهة والارتجال » من كتابه « العمدة » ، فقال :

« البديهة عند كثير من الموسومين بعلم هذه الصناعة في بلدنا او من اهل عصرنا هي الارتجال ، وليست به ، لان البديهة فيها الفكرة والتأيد ، والارتجال ما كان انهمارا وتدفقا لا يتوقف فيه قائله » .

ونحن في هذا المعنى نذهب مذهب ابن رشيق في مخالفة المرزوقي الذي يقول :

« انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة في الوصف ـ ومن اجتماع هذه الاسباب الثلاثة كثرت سوائر الامثال وشوارد الابيات » .

وسبب رفضنا لتفسير المرزوقي هو ان الفحولة مقياس كمي وليس نوعيا ، في حين ان المرزوقي ضل عن الصواب حين جعل المقاييس النوعية تنقلب الى كم . لان أصل مصطلح الفحولة ، كما وضعه الاصمعي ، وفسره احسان عباس في تاريخه للنقد الادبي ، يدل على :

« ا ـ غلبة صفة الشعر على كل صفات اخرى في المرء .

ب ـ عدد غير معين من القصائد الجيدة » .

والجرجاني يستخدم هذا المفهوم بالذات ، حين يصر على المقياس الانتاجي في دفاعه عن شعر المتنبي ، فيقول : « ثم لك بكل سيئة عشر حسنات ، وبكل نقيصة عشر فضائل » .

وقد توسعنا في تفسير مفهوم البديهة لالتباسه مع الارتجال من جهة ، وللدور الكبير الذي يلعبه في تقويم الناقد لمكانة الشاعر . ذلك ان غزارة البديهة تدل على قوة الشاعرية ، او على سرعة رد الفعل الشعري تجاه المؤثرات الخارجية . كان يتأثر الشاعر بالحب والموت والشهامة والهزيمة والشماتة .. الخ. فيسعفه طبعه في التعبير عن ذلك كله بمستوى متقارب في الجودة ، خال من التفاوت والتكلف . فاذا توفرت للشاعر غزارة البديهة تعددت الموضوعات التي يعالجها ، وتعددت بالتالي ابياته الشاردة (الفريدة) ، وامثاله السائرة التي تتركز فيها التجربة بعبارة مطبوعة تجلو المعنى في احسن معرض .

2 ـ الفرادة :

آثرنا ان نستعمل هذا المصطلح الحديث « الفرادة » للدلالة على كثرة الامثال السائرة والابيات الشاردة في المقياس الكمي في النقد العربي ، ولا سيما ان الجرجاني ذاته استعمله خلال الكتاب كله ، وعقد فصلا خاصا به ، جعله كالمقدمة من بحثه في عمود الشعر .

فاول ما يطالعنا مفهوم الفرادة في تعليق الجرجاني على بيت عدي :

وسنان ايقظه النعاس فرنقت

في عينه سنة ، وليس بنائم

« .. فقد زاد به على كل من تقدم ، وسبق بفضله جميع من تأخر ، ولو قلت : اقتطع هذا المعنى فصار له ، وحظر على الشعراء ادعاء الشرك فيه ، لم ارني بعدت عن الحق ولا جانبت الصدق » .

ثم يستعمل الجرجاني هذا المفهوم في معالجة مطالع المتنبي ، ويشهد لبعضها بالفرادة ، فيقول عن هذا المطلع :

« اثراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

فانه ابتداء ما سمع مثله ، ومعنى انفرد باختراعه » .

ويقول عن ابيات للمتنبي :

« وهذه افراد ابيات ، منها امثال سائرة ، ومنها معان مستوفاة ، لم تجد في اخواتها ، وجارات جنبها ، ما يصلح لمصاحبتها . ولعل اكثرها او معظم ما أثبت منها ، وكثير مما ذكر في درج ما تقدمها من اللمع المختارة ، مختارة المعاني مفترعة المذاهب » .

وهكذا تكون الفرادة من حيث الصورة اختصاصا يضع فيه الشاعر طابعه على البيت ، بحيث تدل الصورة على صاحبها ان استعملها غيره . مثلما هي اختراع لم يسبق اليه احد ، كما يدل تعليقاه على بيتي عدي والمتنبي . فصورة عدي تؤبد لحظة جمالية التقطها الشاعر من بيئته في لحظة من لحظات الذهول بالجمال ، في حين ان صورة المتنبي تكاد تكون كشفا انتجه التامل لحالة من حالات الصيرورة التي فات المليحة ان تلحظها فحسبتها خلقة وليس تحولا عن الخلقة الاصلية . وفي المرتين فاز الشاعر بالفرادة المنشودة .

اما الفرادة في المعنى فحدها عند المؤلف ان تكون مثلا سائرا ، او معنى تاما ، يعبر عنه البيت الواحد تعبيرا مستقلا يختزل المعنى والتجربة ، ولا يتعلق بغيره ، حفاظا على الومضة الشعرية أن تتحول في السياق الى جدل فكري او مناقشة عقلية .

شرط الفرادة في المعنى ان تأتي في بيت واحد يقلق عما يسبقه ويتباعد عما يتلوه ، ويتجافى عما يجاوره ، فكأنه فريد في غرضه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومكـانه معا .

والجرجاني يستمسك بهذا الشرط دون كثير مناقشة ، كـان الاصل في البيت الفريد ان يكون واحدا ، فان لم يكن احتـاج الامر الى تعليل .

واخيرا ثمة نوع من الفرادة الجزئية لا يغفل عنه الناقدالمنصف، وقد بحثها الجرجاني في باب السرق حين ذكر ان الجماعة من الشعراء قد « تشترك في الشيء المتداول ، وينفرد احدهم بلفظة تستعذب .. الخ » . هذه الفرادة الجزئية يحسبها الناقد للشاعر في باب الابتكار ، ويجعل « صاحبها بالتفضيل أحق ، وبالمدح والتزكية أولى » .

ومع ذلك فالفرادة كالسرق ، يصعب اثباتها ، فحتى لو تحققت الشروط الفنية كلها ، من الخير للناقد الا يجزم بفرادة البيت ، لان مثل هذا الجزم يحتاج الى احاطة في الاطلاع والحفظ ، والناقـد انسان يقع في السهو والغفلة . يضاف الى ذلك « كثرة الشعراء ، واختلاف الحظوظ ، وخمول اكثر ما قيل ، وضياع جل ما نقل » . فقد يسوغ شاعر لنفسه انتحال بيت لشاعر خامل او منقطع في الصحراء لم يسمع به النقاد . لذلك يتحرج الجرجاني من الحكم بالفرادة تحرجه من الحكم بالسرق .

« وليس لك ان تلزمني تمييز ذلك وافراده والتنبيه عليه باعيانه كما فعله كثير ممن استهدف للالسن ، ولم يحترز من جناية التهجم ، فقال : معنى فرد ، وبيت بديع ، ولم يسبق فلان الى كذا ، وانفرد فلان بكذا ، لاني لم ادع الاحاطة بشعر الاوائل والاواخر، بل لم ازعم اني نصفته سماعا وقراءة ، فدع الحفظ والرواية . ولعل المعنى الذي اسمه بهذه السمة ، والبيت الـذي اضيفه الى هذه الجملة في صدر ديوان لم اتصفحه ، أو تصفحته ولم اعثر بذلك السطر منه ، أو عساني أن اكون رويته ثم نسيته ، أو حفظتـه لكني اغفلت وجه الاخذ منه ، وطريقة الاحتذاء به .

وانما اجسر في الوقت بعد الوقت فاقدم على هذا الحكم انقيادا للظن ، واستنامة الى ما يغلب على النفس ، فأمـا اليقين الثقة ، والعلم والاحاطة فمعاذ الله أن ادعيه ! ولو ادعيته لوجب الا تقبله ، مع علمك بكثرة الشعراء واختلاف الحظوظ .. » .

وبهذه الاحتياطات يكون الجرجاني قد اقترب من المنهج التحليلي التاريخي دون ان يتخلى عند اصدار الحكم عن المنهج الانطباعي .

ما يمتحن بالطبع لا بالفكر

ولكن يكفل جودة الشعر توفر عنـاصر عمود الشعر فيه ؟ وبعبارة اخرى ، هل تكون القصيدة جيدة لمجرد انها تقيدت بشروط عمود الشعر ؟ اي هل يتوصل الشاعر الذي يتقيد بالقواعد البيانية الى انتاج شعر جيد ؟

ان الجرجاني يفرق بين القصيدة الجيدة والقصيدة الحلوة . فالقصيدة الجيدة قد تتضمن شعرا « يعد في اول مراتـب الجودة ، ويتبين فيه أثر الاحتفال » ، أما القصيدة الحلوة فتكون مما قـالـه الشاعر « عن هفو خاطره وأول فكرته » فتحدث في القاريء « من سورة الطرب وارتياح النفس » ما لا تحدثه القصيدة الفخمة .

فما هو مقياس الناقد حين يجد قصيدتين تخلوان من العيب، واحداهما اقل تقيدا بالقواعد المفروضة من الاخرى ، فيختارهـا ويترك القصيدة التي تمتثل لقواعد النقد ؟

الجرجاني يجيب بأن الناقد حر في اختيـاره ، وغير مطالب بتعليل . وحين يصل الناقد الى منطقة « انعـدام التعليل » فانما يواجه حالة تخرج عن المألوف .

فالشعر المطرب برهانه في ذاته – أو – برهانه انما يكون بحسب انعكاسه في نفس الناقد الجيد ، لان مقاييس الاتقان في الشعر هـي مقاييس الاغراء والجاذبية فيه :

« والشعر لا يحبب الى النفوس بالنظر والمحاجـة ، ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة ، وانما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها الرونق والحلاوة ، وقـد يكون الشيء متقنا محكما ، ولا يكون حلوا مقبولا ، ويكون جيدا وثيقا ، وان لم يكن لطيفـا رشـيقا » .

وربما لان مقاييس الاتقان تظل عقلية الى حد ما ، بادية للعيـان والفكر الى حد ما . اما جاذبيـة الشعر واغراؤه – أو « الرونق والحلاوة » – فتستأنفان مباشرة الى القلب والنفس . والجرجانـي في بحثه عن الشعر يزيل الحجب منه واحـدا اثر الاخر ، ولا ينى يوغل في مجاهيله حتى يبلغ اليه مكانه فاذا به قائم في قلب الشاعر والناقد في صورة واحدة ولحظة واحدة بلا وسيلة اتصال بينهما .

ولكي يوضح فكرته عن هذه المفارقة في أن يكون « الشيء متقنا محكما ، ولا يكون حلوا مقبولا » لا يجـد غير التمثيل للقصيدة بالصورة البشرية ، وبخلقة الانسان التي قد تكون تامة القسمات ثم لا تقع من القلوب موقع ما هو اقل منها اكتمالا . فيتمم قوله على أثر ذلك بأن قلب الناقد :

« قد يجد الصورة الحسنة والخلقة التامـة مقلية ممقوتة ، واخرى دونها مستحلاة موموقة ، ولكل صناعة اهل يرجع اليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها » .

مرة اخرى اعادنا الجرجاني الى الذوق المثقف وحكمه المطلق غير المطالب بتعليل ، فتخليص جيد الشعر من رديئه ليس مشكلة . المشكلة الحقيقية هي في تفضيل جيد على جيـد ، بناء على اختيار شخصي يبدو لاول وهلة خاليا من كل ضابط أو تعليل . وقد نجد ناقدين معدودين في الطبقة الاولى من اصحاب الطبع المهذب ، ولا يرقى الى نزاهتهما في الحكم شك ثم يختار كل منهما قصيدة بيـن اثنتين جيدتين ، هي غير التي اختارها رفيقه وصنوه .

مشكلة التفضيل هذه من اكبر مشكلات النقد المستعصية على الحل في كل العصور. ويجيد الجرجاني تسميتها باسم يحدد ما فيها من غموض وتعطيل للتعليل ، فيطلق عليها اسم « ما يمتحن بالطبع لا بالفكر » . فروعة الشعرليست وقفا على القواعد المقررة والمحاسن الظاهرة ، بل ان في الشعر « ما يمتحن بالطبع لا بالفكر ، ومن القسم الذي لا حظ فيه للمحاجة ولا طريق لـه الى المحاكمـة » ، ويمضي الجرجاني في عرض مشكلة التفضيل بين الجيد والجيد عرضا رشيقا شيقا بأسلوبه المتين المرهف ، مستأنفا الى مماثلة القصيدة بالصورة البشرية :

« وانت قـد ترى الصورة تستكمل شـرائط الحسن ، وتستوفى أوصاف الكمـال ، وتذهب في الانفس كـل مذهب

ARCHIVE

وتقف من التمـام بكل طريق ، ثـم تجـد اخرى دونها في انتظـام المحاسن ، والتئـام الخلقـة ، وتناصف الاجزاء ، وتقابل الاقسام ، وهي احظى بالحلاوة ، وادنى الى القبول ، واعلق بالنفس ، واسرع ممازجة للقلب ، ثم لا تعلم ـ وان قايست واعتبرت، ونظرت وفكرت ـ لهذه المزية سببا ، ولما خصت به مقتضيا » .

بحسب هذا العرض تبلورت المسألة على النحو التالي : ثمـة صورة تتماشى تماما مع قوانين الجمال او التعبيـر الفني المتعارف عليها ، وثمة صورة اخرى اقل تلبية لتلك القوانين لكنها اكثر تأثيرا في النفس . تلك المفارقة بين الانصياع لقوانين الجمال وبين الاستجابة لما هو اقل نزولا على مقتضيات القانون يصورها الجرجاني بصـورة حوار بين انصار القانون الظاهر وانصار الجمال الباطني ، وقـد اجاد الجرجاني في نقل هذا الجدال بان عرض الاجراء النقدي الذي يعتمده كل من الطرفين عند اصدار الحكم :

« ولو قيل لك : كيف صارت هذه الصورة ، وهي مقصورة عن الاولى في الاحكام والصنعة ، وفي الترتيب والصيغة ، وفيما يجمـع اوصاف الكمال ، وينتظم اسباب الاختيـار احلى وارشق واحظى واوقع ؟ لاقمت السائل مقام المتعنت المتجانف ، ورددته رد المستبهم الجاهل ! ولكان اقصى ما في وسعك ، وغاية ما عنـدك ان تقول : موقعه في القلب الطف ، وهو بالطبع اليق ، ولم تعدم مع هذه الحال معارضا يقول لك : فما عبت من هذه الاخرى ؟ واي وجه عدل بـك عنها ؟ الم يجتمع لها كيت وكيت !! وتتكامل فيها ذيه وذيه !! وهل للطاعن اليها طريق ! وهل فيها لغامز مغمز يحاجك بظاهر تحسنه النواظر ، وانت تحيله على باطن تحصله الضمائر ! » .

ها نحن قد بلغنا بالشعر الى ما تحسه الضمائر وتحيط بـه السرائر ، مخلفين وراءنا القوانين الجمالية المتبعة .

فكيف تتمثل للضمير القصيدة الحلوة المتمردة على القانون ؟ الجرجاني يجيب بانها تتمثل على صورة شعور بالارتياح ، سورة من الطرب ، وصبوة تتصور تلقاء ناظرك .

يقول في نهاية مختارات اوردها من شعر البحتري :

« ثم تأمل كيف تجد نفسك عند انشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ويستخفك من الطرب اذا سمعته ، وتـذكر صبوة ان كانت لك تراها ممثلة لضميرك ومصورة تلقاء ناظرك » .

واذن فان الاثر الفني الحق يملك نوعا من القدرة على التجسد في النفس ، والتجلي في الضمير ، والاستحضار لصبوة الروح امام النواظر .

واذن ايضا ، فلم يكن كلام الجرجاني السابق مقـارنة بين صورتين بشريتين مثلا ، وانما كان حـديثا عن صورتي قصيدتين تتمثلان في النفوس وتتجليان في الخواطر والضمائر .

واذن ، فكل حديث الجرجاني السابق عن ان الافراط والاحالة والغموض وكل امر جـديد في الشعر انما « يميز بقبول النفس ونفورها ، وينتقد بسكون القلب ونبوه » ـ كان يعتمد على مقـدرة القصيدة بان تتجسد في النفس وتستحضر صبوتها . وبالتالي فـان ما استقراناه من احساس الجرجاني بوحدة القصيدة وبوحدة الشخصية الفنية انما كان ماثلا في نفسه ومتجليا في ضميره ـ ليس وحده ، بل في ضمير كل ناقد مطبوع :

« ولست اعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قـد صقله الادب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنـة ، والهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور امثلة الحسن والقبح » .

لقد اعدنا اقتباس هذا النص لنفهمه الآن على نحو جديد ، هو ان تصور الصبوة ، او تصور امثلة الحسن والقبح ليس عملية تخيل مجانية ، لكنما هي اجراء نقدي دقيق وصعب ، عليه يعتمد النـاقـد عند اصدار الحكم . فمن جهة نجد ان الاثر الفني يملك القدرة على التجلي والاستحضار دلالة على أن له وجودا قائما بذاته ، ومن جهة اخرى فان نفس المتلقي (ذات الطبع المصقول بالآثار الفنية السابقة) لديها القدرة هي الاخرى على تحويل المعاني والايقاعـات وتناسب الابيات وتساوق التشبيهات الى صورة تتصف بالحسن او الشناعة، على مقدار اسراع القلب اليها واقبال النفس عليها . ويبدو أن تبلور مفهوم الشعر والنقد لديه على هذا النحو اصبح بمثابة البدهية التي لا تحتاج الى اقناع ، فتجده يقول : « وانما الكلام اصوات محلهـا من الاسماع محل النواظر من الابصار » . جاء هذا في مطلع بحثـه عما يمتحن بالطبع لا بالفكر ، وهو ينهي هذا الحديث بطرحه بصيغة نقدية تطبيقية ، فيقول :

« كذلك الكلام : منثوره ومنظومه ، ومجمله ومفصله ، تجـد منه المحكم الوثيق والجزل القوي ، والمصنع المحكم ، والمنمق الموشح ، قد هذب كل التهذيب ، وثقف غاية التثقيف ، وجهـد فيه الفكر ، واتعب لاجله الخاطر ، حتى احتمى ببراءته عن المعائب ، واحتجز بصحته عن المطاعن ، ثم تجد لفؤادك عنـه نبوة ، وترى بينه وبين ضميرك فجوة ، فان خلص اليهما فبان يسهل بعض الوسائل اذنه ، ويمهد عندهما حاله ، فأما بنفسه وجوهره ، وبمكانه وموقعه ، فلا. هذا قولي فيما صفا وخلص ، وهذب ونقح ، فلم يوجد في معنـاه خلل ، ولا في لفظه دخل » .

لعل الجرجاني ، بعد ان اجاد طرح هذه القضية المربكة وجـلاء غوامضها ، كان يريد ان يفتح فرجة يمكن أن يتسـرب منها الابداع والنقد وراء الباب الذي يسده القانون الجمالي السائد . فالقصيدة الحلوة التي تدخل الى قلب الناقد المهذب الطبع ، هي قصيدة خالفت التقاليد الشعرية المألوفة لتخترع لنفسها توازنا جديدا يتلقاه الناقد بصدر مفتوح لانه يرى فيه نمطا اوسط جديدا يجبل التراث القـديم والفنون المستحدثة بنسب جديدة ، كما فعل المتنبي بتراث المحدثين والجاهليين حين ابدع شعره العظيم المبتكر . وبذلك يكون الجرجاني قد حفظ للتراث حقه ، ومنح المحدثين اعترافه بجهودهم للتجاوب مع التغير الحضاري الذي طرأ على المجتمع فعكسوه في شعرهم ،وترك المجال مفتوحا للمواهب العظيمة ـ كعبقرية المتنبي ـ في ان تعيـد سبك الموروث الشعري حسب ما تمليه عليها رؤاها وشاعريتها ، وحمل النقد مسؤولية تبني الشـاعر العظيم بالرغم من سقطاته وتجاوزاته لاعراف عصره.وجعل النقاد سدنة في معبد الشعر يحافظون على التراث ويوسعون مفهوماته لتستوعب كل جديد اصيل ، كما فعل الجرجاني نفسه حين الحق بعمود الشعر العربي اضافات المحدثين ، وقفى على هذه الاضافات بأن زاد عليها ابتكارات شاعره العظيم ابي الطيب المتنبي .

وبذلك ينقلب المنهج الاعتذاري الدفاعي من منهـج سلفي اتباعي ، الى منهج هجومي ابتداعي يطور كل التراث بحسـب آخر الاضافات الاصيلة اليه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مثل هذا الموقف الاصيل ذي القدم الراسخة في التراث والنظرة المستشرفة للمستقبل المبدع لم يوجد في تاريخ الادب العالمي سوى مرتين : المرة الاولى قبل الجرجاني ظهر الى الوجدد على يدي البلاغي العربي التدمري لونجينوس في نهاية القرن الثالث الميلادي حين وضع مقالته الخالدة : « في السامي ــ Peri Hupsous . وفيها عرض حوار الصم ذاك الذي شاهدناه بين اتباع قانون الجمال الظاهر واتباع التدفق الطبيعي للروح العظيمة التي تتمرد على كل قيد ، حيث يقول :

« ... انني اعلم علم اليقين بأن العبقرية العظيمة بعيدة اشد البعد عن الكمال ، لان الصحة الدائمة تقع في خطر التفاهة ، وفي السامي ، كما في كل عظيمة ، لا بد من وجود شيء نتجاوز عنه .

ولعل من ضرورات الامور أن تظل الطبائع الدنيا والمتوسطة ــ كقاعدة عامة ــ بعيدة عن الاخفاق ، وقائمة على اكبر مقدار من السلامة ، لانها لا تجازف ابدا ، ولا تسعى الى ارتقاء الاعالي ، في حين ان المواهب العظيمة تثبت انها غير مأمونة بسبب عظمتها ذاتها .

وهل يبدو اراتو ستين في « اريغون » [قصيدة صغيرة خالية من العيوب] شاعرا اعظم من ارخيلوخس بالتدفق الفياض والفوضوي الذي ينبجس في تفكيره وبتفجر تلك الروح الالهية فيه مما يصعب معه أن يخضع لقواعد القانون ؟ » .

ترى هل كان احساس الجرجاني « بالتدفق الفياض والفوضوي» الذي يتفجر في شعر المتنبي مصدر سلوك الجرجاني الاعتذاري عن سقطات شعره ؟

وهل كان حديثه في مقدمة « الوساطة » من « حسد الافاضل وانتقاص الاماثل » اشارة الى ما كان يحس هو بما في نفس المتنبي من سمو ؟ ان ما يلفت النظر في كتاب « الوساطة » ان المؤلف لم يتعرض بكلمة واحدة الى سيرة شاعره ، مع قرب العهد به . فكأنه يؤمن بأن قصائد الشاعر قادرة على أن تتمثل في نفس الناقد بكل عظمتها ، ودون حاجة الى ترجمة لسيرته .

مفهوم « السامي » في النقد العربي

بينا في المقالة الماضية مواطن التشابه بين نظرية الشعر عند لونجينوس والقاضي الجرجاني . ثم افضنا في شرح عناصر عمود الشعر بين النقاد العرب .

في هذه المقالة نعود الى لونجينوس فنتتبع تأثيره الهائل في تغيير مفهوم الشعوب الغربية للشعر ، بحيث يصح القول ان تطور الشعر الغربي ، منذ عصر النهضة الى اليوم مدين للونجينوس بخلاصه من اسر ارسطو كما حدد مفهوم الشعر في كتاباته . فقد استطاع تأثير هذا الناقد العربي أن يسقط الاشكال التقليدية للبناء الشعري المعروف ، الملحمة والمأساة والملهاة ، بحيث اختص المسرح بمفهوم فني منعزل عن الشعر ــ وبذلك استطاع الشعر الغربي أن يستقل ويتطور ليقدم الينا قصائده الغنائية بشكلها المعروف منذ منتصف القرن الماضي الى اليوم .

وقد اخذ الغرب من لونجينوس وافلوطين مفهوم السامي ، كما اخذ مفهوم ان الشعر العظيم لا يخضع للقواعد المقررة (وهو ما عبر عنه الجرجاني بانه « ما يمتحن بالطبع لا بالفكر) » ، واخيرا مفهوم الفرادة ، كما شرحناها في مقالتنا السابقة .

في هذه المقالة سوف نتتبع تأثير المفهومات السابقة في تطوير الادب والنقد الغربيين منذ عصر النهضة الى اليوم ــ في اكبر مثال واجوده على تفاعل الحضارات ، وقدرة الوجدان العربي على الاسهام في صياغة وجدان الانسانية خلال التاريخ البشري كله .

السامي في النقد الغربي

في بداية العصر الاوغسطي ، القرن الاول للميلاد ، لم تعد الحاجة ماسة الى خطب قوية لتقرير القضايا السياسية في الامبراطورية الرومانية ، وانما كان يحتاج الى قصائد رقيقة لتمجيد عظمة الاجداد والنشوة بالسلم والازدهار ، وقد قامت مدرسة الاسكندرية في الحضارة الهلينية بفضل الاهتمام بالتراث الارسطي على يدي قادة المذهب الابيقوري والمذهب الرواقي .

في هذه البيئة نشأ الشاعر الروماني هوراس . وفي النصف الثاني من هذا القرن وضع كتابه المشهور « فن الشعر » (65ــ68م) وجعله يدور حول مبداين : القيمة المعيارية « للانواع » الادبية كما حددها ارسطو من ملحمة ومأساة وملهاة ثم ما اضيف اليها من انواع اخرى رومانية كالقصائد الغنائية والريفية والرثائية والحكمية ــ والمبدأ الثاني هو القيمة المعيارية لمصطلح « اللياقة » كما ورد في النقد الارسطي ، بمعنى « موافقة الكلام لمقتضى الحال » ولما كان هوراس يتحدث ولديه تراث يمتد من هومر الى فيرجيل ، فقد انزلق من « المحاكاة » الارسطية للطبيعة الى نوع من المحاكاة التقليدية والكلاسية تماما : محاكاة النماذج على اعتبار ان الموضوعات الاولية للمحاكاة الادبية قد تمت محاكاتها قبلا ، وهذا ادى بدوره الى الاهتمام بالاسلوب والاهتمام بالجمهور والاهتمام بالشاعر ، فطرح قضيته على الشكل التالي :

« يحب الناس ان يتساءلوا عما اذا كانت القصيدة الجيدة تأتي بشكل طبيعي أم انها نتاج المهارة . وبحسب علمي ، فما من شخص يستطيع ان يتعلم من الكتب دون شيء من الالهام ، كما ان العبقرية غير المصقولة لا تستطيع ان تنتج شيئا ذا قيمة بالغة » .

السامي في النقد الكلاسي :

في القرن الثالث ظهر كاسيوس لونجينوس ، الفيلسوف والبلاغي ، صديق افلوطين والمستشار السيء الطالع لزنوبيا الثائرة ملكة تدمر . وقد وصلتنا من آثاره مقالة واحدة بعنوان « في السمو» Peri Hupsous اهتم فيها بالاستجابة الانفعالية التي يبديها جمهور الشعر حين يميز بين البلاغة والشعر :

« ان تأثير اللغة الرفيعة على الجمهور ليس في الاقناع وانما في نشوة الطرب » . يحدد الكاتب مصادر السمو بانها خمسة هي :

1 ــ قوة صياغة المفهومات العظيمة .

2 ــ العاطفة الملهمة المتقدة .

3 ــ صياغة الصور والمجازات .

4 ــ الاسلوب النبيل .

5 ــ التأليف الرفيع والجليل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

احد الفروق بين هوراس ولونجينوس هو الفرق بين العهد الاوغسطي الوطني والاخلاقي الذي عاش فيه هوراس ، وبين الفترات اللاحقة الفاسدة والمثبطة ، واليها يرجع لونجينوس في الفصل الختامي لمقالته انحطاط الفصاحة والقوة الشعرية :

« من غير الممكن ان ينتج رجال لهم افكار وضيعة مستعبدة شيئا معجبا يستحق الخلود » .

هذا المنحى في تفسير اسباب انحطاط الشعر دفع الكاتب الى الاهتمام بتثقيف روح الشاعر وتهذيبها كطريق للسمو :

« ان هومر يدخل في اعمال ابطاله السامية .. فهو يشارك في كامل احتدام الصدام » . فما ارتضى هوراس بفهمه على انه محاكاة تقنية للنماذج الكلاسية غدا عند لونجينوس امرا اكثر اثارة ، هو اثارة والهام قويان يتمتع بهما المرء من خلال الخضوع للمعلمين الاقدمين . فما نصيب القصيدة من عبقرية الشاعر الفطرية ومن جهده المدروس في اكتساب التقنيات وممارستها ؟ ان لونجينوس يعطينا جوابا مراوغا: « يكون الفن كاملا حين يبدو انه طبيعة ، والطبيعة تكتشف الاشارة حين تشتمل على الفن وهو مخبأ فيها » .

ولكن هل تؤدي قواعد الفن الى ان تجعل اعمال الطبيعة تضعف او تذوى ؟ ان لونجينوس حريص تماما على الدفاع عن الفن تجاه جموح الطبيعة :

« في حين ان الطبيعة ــ كقاعدة عامة ــ حرة ومستقلة في امور العاطفة والسمو ، فانها مع ذلك لا تنزع الى التصرف بصورة عشوائية خالية تماما من اي نظام . اضف الى ذلك ان الطبيعة هي المبدا الاصلي والحيوي المستـ في كل الحالات ، غير ان النظام يقدر على ان يضع الحدود والظرو الملائمة ، ويستطيع ايضا ان يقدم اضمن القواعد للاستعمال والممارسة » .

ان لونجينوس بلاغي يفوق المالوف من حيث انه يحاول ان يجمع طرفي المشكلة معا : طرف الصنعات والتعريفات البلاغية السائدة ، وطرفا يقوم على احساسه بشيء غير قابل للتعريف ، يدعوه هو « السمو » ، ويحاول ان يحدده تحديدا نوعيا خارج اجواء البلاغة ، وهو الاحساس بالروح العظيمة وما يملؤها من افكار وعواطف . غير ان الميزان يفلت من يديه حين يجابه تعارضا قويا بين التقنية الصحيحة (النظام او الصنعة) وبين عظمة الروح التي تتابى على النظام ، فتقع في الاهمال :

« انني اعلم حق العلم بان العبقرية الرفيعة بعيدة اشد البعد عن الكمال ، لان الصحة الدائمة تقع في خطر التفاهة ، وفي السامي ، كما في كل امر عظيم لا بد من وجود شيء نتجاوز عنه .

ولعل من ضرورات الامور ان تظل الطبائع الدنيا والمتوسطة ــ كقاعدة عامة ــ بعيدة عن الاخفاق وقائمة على اكبر مقدار من السلامة لانها لا تجازف ابدا ولا تسعى الى ارتقاء الاعالي في حين ان المواهب العظيمة تثبت انها غير مامونة بسبب عظمتها ذاتها » .

ويبدو ان الصنعة تلازم الفن في راي لونجينوس مثلما تلازم العظمة الطبيعية : « في الرد على الكاتب الذي يصر على ان التمثال المعاب بضخامة حجمه Colossus ليس افضل من الرماح الذي نحته بوليكليتوس ، من السهل ان نسجل ان ما نعجب به في الفن هو اقصى حد من الصحة ، غير اننا نعجب بالعظمة في اعمال الطبيعة ».

لونجينوس يرى بان الفن والصحة يقفان ضد العظمة والطبيعة، وان كبار الكتاب يحتقرون المواظبة على الصحة ، ويعلق ويمزات بان:

« هناك امكانين لم يبحثا بحثا كافيا : الاول ان الكاتب الوسطي قد يقع في كثير من الاخطاء ، فيكون كاتبا وسطا بسبب اخطائه . والامكان الثاني هو ان الكاتب العظيم قد لا يرتكب اخطاء او ان عظمته قد تتناسب مع قلة اخطائه ــ ويبدو ان لونجينوس يرجع الامكان الاول حيث يشير الى ان ليسياس ادنى منزلة من افلاطون بسبب اخطائه لا بسبب قلة مواهبه » .

واخيرا فان اعجاب لونجينوس بجموح الطبيعة وخروجها على قواعد الفن يجعله يضع السمو المادي في مكان مناظر للسمو النفسي فيتحدث حديثا خالدا عن مكان الانسان في الكون وهو يحاول ان يضع القواعد للبنيان الادبي :

« لم تخلقنا الطبيعة ، نحن البشر ، لنكون بهائم دنيئة او سافلة، غير انها حين ادخلتنا الى هذا الكون الشاسع وكاننا ندخل في اجتماع حاشد لنكون شهودا على القدرة الكلية ، واشد الطامحين لهفة الى الشرف ، وغرست في ارواحنا فورا حبا لا يتلاشى لكل ما هو اسمى منا واقدس .

لهذا لا يكفي الكون اجمع تفكيرنا وتاملنا اللذين في متناول عقلنا البشري ، لان مخيلاتنا غالبا تتجاوز ما وراء قيود المكان ، واذا فتشنا في كل جانب من جوانب حياتنا وراينا الى اي حد نرتبط من كل ناحية بما هو مدهش وعظيم وجميل ، فسرعان ما سنتبين هدف مولدنا . وهذا هو السبب في اننا ، بنوع من الحافز الفطري ، لا نعجب بالجداول الصغيرة وان كانت مفيدة ورقراقة ، وانما نعجب بالنيل او الدانوب او الرين ، ونعجب اكثر ، بالمحيط . كما اننا لا ننظر الى اللهب الرقيق في مصباحنا (ونحن نراعي نقاء ذبالته دائما) برهبة اكبر من رهبتنا تجاه النيران السماوية ولو كان الظلام يحجبها غالبا ، ولا نعتقد ان هذا اللهيب اعجب من لهيب بركان إتنا الذي يقذف في انفجاراته حجارة من الاعماق وصخورا كبيرة ويصب في احيان اخرى انهارا من النار النقية المنبثقة من تحت الارض ، في كل هذه الامور نستطيع القول بان الناس يعتبرون كل ما هو مفيد او ضروري مبتذلا في حين يحتفظون باعجابهم لكل ما هو مدهش وصاعق » .

هذه الفقرة التي كتبت في اوائل القرن الثالث الميلادي كان عليها ان تنتظر خمسة عشر قرنا حتى يوقظها من سباتها « كانت » في كتابه « نقد الحكم » الذي الفه عام (1790) .

هذا ولا يكتمل مشهد السامي في النقد الكلاسي القديم ، دون الحديث عن اكبر فيلسوف صوفي جمالي في العصر القديم ، هو افلوطين . وفد افلوطين الى روما من مدرسة الاسكندرية سنة 244 وتوفي في روما سنة 270م. ويقول كروتشه عن فلسفته بعد ان رفض ما قبلها من فلسفات « انها شيء اكثر من جمالي ، فهي (ذهول) صوفي او (عروج) الى غير المحدود ، وراء النقد » (!) ومثلما يفيض العالم عن الواحد الاحد عند افلوطين كذلك تنبثق الموجودات عن الوحدة :

« بفضل الوحدة صارت الكائنات كائنات .. فالبيت واحد والسفينة واحدة : حين تذهب الوحدة لا يبقى شيء » .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

التاسوعة (6)

والجمال ينبثق عن توحد الاجزاء بعضها مع البعض الآخر :

« المركب فقط يستطيع ان يكون جميلا ، وليس أي شيء خاليا من الاجزاء الكل فقط . الاجزاء المتعددة جمال ، لا في ذاتها ، وانما فقط حين تعمل معا لتعطي مجموعا حسنا » .

التاسوعة الاولى

فالجميل عند افلوطين يعبر عن درجةعالية من التمايز الداخلي، اي عن الوحدة العضوية كما في وحدة الجسد الحي . هذا من الناحية البنيوية ، اما من الناحية الانطولوجية فانه يختلف عن افلاطون في نظرته الى الفن اختلافا جذريا على الرغم من وحدة النظرة الميتافيزيقية بينهما ، الا ان افلاطون يجعل الفن محاكاة من الدرجة الثالثةللحقيقة الجوهرية اما افلوطين فانه يسلم بحقيقة متعالية لكنه لا يجعل الفنانين يقلدون انعكاسها في عالم الظواهر ، وانما يرى انهم يتصلون راسا بها لانهم يتمتعون عمليا بمقدار اكثر من الاشعاع العادي للعقل الالهي . يقول افلوطين :

« ومع ذلك فلا يجوز ازدراء الفنون على اساس انها تبدع عن طريق محاكاة الموضوعات الطبيعية لان الموضوعات الطبيعية ـ بادىء ذي بدء ـ هي ذاتها تقليدات ، ومن ثم فعلينا ان نعترف بان الفنون لا تقدم مجرد اعادة انتاج للشيء المرئي ، بل تعود الى « الافكار » التي استقت منها الطبيعة ، اضف الى ذلك أن معظم الاعمال الفنية خاصة بالفنون ذاتها ، فالفنون صائغات للجمال ، وهي تضيف حيث انقصت الطبيعة . ولهذا فان فيدياس لم يصنع زيوس وفق نموذج بين الاشياء التي تدركها الحواس ، ولكن وفق ادراك الصورة التي قد يتخذها زيوس ان اختار ان يغدو متجليا للنظر » .

التاسوعة الخامسة

وهنا ، علينا ايضا ، ان نقفز اربعة عشر قرنا حتى نصل الى ما يماثل هذه الفكرة لدى الاخوين شليغل في المانيا او كولريدج وشلي في انكلترا .

على ان البحث في نظرة افلوطين الى الجمال لا تكتمل قبل ان نعرّج على حجر افلوطين الشهير . فهو يميز في التاسوعة الاولى بين الجمال الفني والجمال الطبيعي :

« هناك الجمال الذي يحصل بمهارة الصنعة كجمال البيت كله بكل اجزائه وهناك الجمال الذي قد تعطيه صفة طبيعية لحجر من الاحجار » .

ثم يطور فكرته في التاسوعة الخامسة التي كتبها فياواخر حياته تطويرا يرسخ مكانة الفن والفنان من هذا الكون :

« لنفرض ان كتلتين من الحجر مرصوفتان جنبا الى جنب ، الاولى على الطبيعة لم يمسها الفن ، والثانية نحتتها نحتا متقنا ايدٍ صناعٌ فجعلتها تمثالا لاله او انسان ، لامراة او الهة ، وان كانت تمثالا لانسان فهي ليست تخطيطا لوجهه بل هي ابداع وضع فيه فن المثال كل الجمال .

والآن يجب ان نفهم ان الحجر الذي اوصلته يد الفنان الىجمال الصورة ليس جميلا لانه حجر ـ لان الحجر الخام لو كان كذلك لكان في مثل امتاعه ـ ولكن بفضل الصورة او الفكرة التي ادخلها الفن . هذه الصورة ليست في المادة ، انها في الصانع قبل ان تدخل الحجر» .

السامي في الكلاسية الجديدة :

يغيب السامي عن المشهد الادبي طيلة العصور الوسطى ، ولا يعاود الظهور الا في مطلع القرن السابع عشر في الدفاع عن المأساة البطولية حين تستعمل الخوارق لتدوخ وتصعق ، وذلك بحسب مقاييس بوالو الذي ترجمه في فرنسا سنة 1674 او مليتون في انكلترا كما ان بن جونسون ودرايدن استشهدا به للسبب ذاته :

« لتبرير التسامح في ادخال عناصر خارقة (من اشباح واشارات سماوية) للتوصل الى الغاية الرئيسية وهي ان تجعل الشَعر ينصب هلعا » .

في اوائل القرن الثامن عشر برزت الفلسفة التجريبية الحسية وجرّ هوبز ولوك وهيوم المنظرين الادبيين وراءهم وكان ابرز هؤلاء المنظرين جوزيف اديسون الذي عرف المتع الاولية بانها المتع التي تختبرها الحواس مباشرة حين تتصل بالطبيعة ، اما المتع « الثانوية » فاننا نختبرها حين نرى تمثيلات جيدة للموضوعات الطبيعية .والمتع الثانوية هي متع المخيلة ، وهي ليست في غلظ متع الحواس ولا في رهافة متع الفهم . ان هذا الاعتماد على الحواس في تمييز الجمال بواسطة اسباب خارجية ثابتة دفع بيرك في كتابه « استقصاء فلسفي في افكارنا عن السامي والجميل » (1757) الى التعريف التالي :

« الموضوعات الجميلة صغيرة ، ناعمة ، ذات حنيات لطيفة ، رقيقة ، نظيفة وظريفة » .

وبالطريقة ذاتها يحدد السامي :

« ان ضوضاء الانهيارات الكبرى او العواصف المدوية او الرعود او قصف المدفعية ، توقظ في العقل احساسا مخيفا وعظيما » .

ولعل فلسفة الجمال بحسب اسبابها الخارجية الموثوقة قد تعرضت لتلخيص مجحف بنكتة اطلقها شليغل صاحب المذهب العضوي ضد المدرسة البريطانية بأسرها فقال :

« يرى بيرك ان الجميل عاهرة جذابة مرغوبة ، وان السامي عملاق كث الشاربين » ذلك ان المدرسة البريطانية في التجريبية الحسية تفسر الاحساس بالجمال تفسيرا ميكانيكيا مباشرا فيرى بيرك « ان الجمال في القسم الاعظم منه ، صفة تفعل فعلا ميكانيكيا في العقل البشري ، عن طريق تدخل الحواس » .

ويرى لورد كيمس في كتابه « عناصر النقد » (1762) :

« اننا لا نرجع في الانفعالات (الجمالية) الى سبب سوى مجرد حضور الموضوع »

ويقول اديسون :

« ما هو الا ان تطرف العين حتى يدخل المنظر ، فنحن نصعق بدون ان نعرف كيف يتناسق ما نرى ، ونعترف فورا بجمال الموضوع دون ان نتقصى اسبابه ومناسباته الخاصة به » .

(الرصدة 411)

ويقول بيرك :

« ان ظهور الجمال يثير فينا درجة من الحب لها من الفعالية مثلما اننا حين نضع الثلج او النار تنتج لدينا افكار عن الحرارة أو البرودة » .

هذه الافكار خطيرة على بساطتها لانها تبعد الشعر عن مجـال الحقيقة العقلانية التي يدعيها العلم نفسه، وتفضي بالشعر الى مناطق الشعور والانفعال ، بعد تفريغه وتنقيته من موضوعات المعرفـة التي كانت تعتبر اساسا لهما فيما سبق . فمادام الجمال يلامس مشاعرنا دون واسطة فكذلك الشعر وبقية الفنون ، وبـذلك يكون الحدس والالهام الزم للشاعر من سعة الاطلاع والجهد المعرفي ، ان هذا الموقف يعود به التجريبيون الانكليز الى لونجينوس الذي ركز معظم هـذه الافكار في الروح والانفعالات العظيمة لدى الشاعر نفسه. لقد ترجم بوالو مقالة لونجينوس « في السامي » الى الفرنسية عـام (1674) وكتب لترجمته مقدمة خالف فيها من سبقه من بلغاء العصر الوسيط في تفسيرهم للسامي . كـان مصطلحهم للسامي يطبق على القول الشعري Poetic Diction وكان يعني في عرفهم التكلف والصنعة او الميل الميتافيزيقي نحو تجويد الاسلوب فجادل بوالو بان السـامي لا يستكن في تجويد العبارات بل في عظمة الادراك ـ وهي عظمة لا يعبر عنها بالاسلوب المنمق بل بالاسلوب القوي الـــذي يستطيع التعبير بكلمات قليلة . يقول بوالو :

« لم يقصد لونجينوس بصفة (السامي) مـا يدعوه الخطباء (الاسلوب السامي) بل قصدالعنصر الفائق في الكلام، العنصرالمدهش، الصاعق ، ذلك العنصر الـــذي بفضله يفتننا الاثر الادبي ويسلبنا ويذهلنا : (الاسلوب السامي) يحتاج الى لغة رفيعة ولكن « السامي » قد يظهر في فكرة او جملة او استعارة ، ففي قولنا : « ان سـيد الطبيعة المطلق ابدع النور بكلمة واحدة » نجد ان هذا هو الاسلوب السامي ، اما قوله : « وقال الله ليكن نور فكان نور » فهو تعبيـر معجز . انه سام بطبيعته وفيه شيء الهي » .

استفاد النقاد الانكليز من « السامي » لدى بوالو امرين :

1 ـ انهم استخرجوا نظرية للموضوعات الخارجيـة الجليلة او السامية ـ وهي الضخم ، الشاذ المفاجيء المفزع ـ بالاستناد الـى حديث لونجينوس في الفصل (35) عن النيل والـــدانوب والرين والمحيط وبركان إتنا وحممه . وهي نظرية تلخصها جملة اديسون : « الضخامة الخطرة » .

2 ـ المحرض الحسي الخارجي القـابل للتعريف في الضخامة والخطر الطبيعيين ، ادى الى النظر الى روح العبقري على انها تبدي ملامح الضراوة والتشعث او التقحم الفوطي ، ان فلسفـة العبقري العظيم الذي لا يكبح جماحه ، تنحدر مباشرة من لونجينوس .ولعلنا نذكر ان لونجينوس قد حقر صفات « الكمـال » و « الضبط » و « الانتظام » في العمل الفني وفي نفس العبقري على السـواء .

ان اديسون لا يخفي تشيعه للونجينوس في راي الاخـيـر بان العبقري لا يخضع لقواعد الفن :

« لا بد من ان الاحظ ـ بالاتفاق مع لونجينوس ـ بان مؤلفات العبقري العظيم ، بما فيها من سهو وزلل ، تفضل اطلاقا مؤلفـات كاتب من نوع ادنى تكون صحيحة وموافقة لقواعد الكتابة الصحيحة بشكل يدعو الى الحيرة » الرصدة (291) .

اما ماكولي فيخطو خطوة ابعد في هذا الاتجاه :

« ماذا نعني بالصحة او الصواب في الشعر ؟ ان كـان المعنى الخضوع للقواعد التي لها اساس في الحقيقة ومبادىء الطبيعةالبشرية فيكون الصواب اسما آخر للامتياز وان كان المقصود بالصواب الامتثال الحتمي للقواعد القطعية فالصواب ليـــس سوى اسم آخر للبلادة والسخف » .

وبهذا التصريح وامثاله يتم وضع اسس الترخيص بكل خروج على القواعد الكلاسية الموروثـة في التراث ، كمـا يسمح للعبقري بالتحليق الحر فوق عوائق القواعـد ، في اي اتجاه تسوقه اليـه انفعالاته . والتعبير الانفعالي تعبير عاطفي بطبيعته ينفلت ، بطبيعته ايضا ، من التقيد بمحاكاة الطبيعة او محاكاة آثار الاقدمين ، ويسعى الى تعبير شخصي ـ مشخص عن حالة معينة ـ لان العاطفة تزيد في وحدة تفكيرنا .

والخلاصة كما يعرفها صموئيل مونك في كتـابه « السامي » هـي انـه :

ما من تعريف واحد لكلمة السامي يشترك فيه اي عدد من الكتاب في عصر من العصور وان كـانت الكلمة تعبر عن الاعجاب الشديد . وتتضمن في العادة اثرا انفعاليا قويا ، انقلب في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر الى التعبير عن الفزع .

ومن الناحية الجمالية نجد ان المصطلح غامض ايضـا ، بالرغم من انه ينحو الى الاحاطة بكل العناصر الفنية التي ضيقت عليهـا الجمالية الديكارتية الخناق او اهملتها . ولعل اجل خدمة قدمهـا السامي للتامل الجمالي هو صرف الانتباه في الفن الى اهميـة غير الجميل والالم بالمعايير العادية كما صرف انتباهنا كذلك الى النشوة والذهول . ان تتبع مسيرة السامي ليبين كيف نمـا الفن الانكليزي نموا بطيئا وغير محسوس فابتعد عن الحديقة المنظمة للعصر الاوغسطي الى حقول الفترة الرومانتية .

فصل بوالو السامي عن اعتبـارات الاسلوب الجزل ، وصرف اهتمامه الى تاثيره الانفعالي فلما حاول دنيس ان يقيم الشعر السامي على الانفعال الحماسي لم يكن يعلم بانه بدأ نمطا من الترجيح قديتحول الى قوة معادية للذوق الحسن في عصـره ، لانه يردد قول جنسون « للحماسة قواعدها » . وعند منتصف القرن الثامن عشر ، حين كان سقوط الكلاسية الجديدة وشيكا ، تحالفت الانفعـــالات السامية ـ وقد كان العصر الاوغسطي يجربها قليـــلا لكي يتسنى لـه ان يناقشها ـ مع العبقرية الاصيلة والخروج على القواعد ـ وذلك تحت سلطة لونجينوس ـ وبين مقالة في النقد لبوب و « استقصاء » بيرك انشطرت التجربة الجمالية الى مقولتي الجميل والسامي ، وعلى حين ظلت الاولى وفية لذوق الكلاسية الجـديدة ارتبطت الثانية تدريجيا بجوانب من العالم الخارجي قد لا يصادق عليها الذوق السائد ، وان كان الجيل الجديد قد صمم على الاستمتاع بها ، كما غـدا السامي ايضا مرتبطا بالشجي Pathetie الذي ما يزال محترما لان اصلـه يرجع الى لونجينوس . ان التعارض بين السامي والجميل يرمز الى التعارض بين فن عصر التنوير وفن منتصف القرن الثامن عشر الذي ينحو الى تجنب الشكلية وتقييد الكلاسية الجديدة ، والذي اتجـه بعد ذلك في النظرية والتطبيق نحو الرومانتية .

ان تصريح لونجينوس بان السامي يقع وراء متناول القواعد مهد الطريق الى انحياز السامي الى صف العبقرية الاصيلة ، وقد صادق على ذلك كل نقاد الكلاسية الجديدة . ولم يبق سوى ان يستدل من هذه الفرضية . ان القواعد لا تنسجم مع الفن العظيم .

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وما ان ابرز بوب عظمة القدماء حتى بدات القواعد تبدو غير كافية ، اما الطبيعة فلم تعد تعني الحقائق المرتبة العقلية التي اقرها عصر التنوير ، وانما غدت تعني الحقيقة التي كتبها هيرد ، وما ان صار القرن يعني بالانفعال اكثر من عنايته بالفكر وبالحماسة العفوية اكثر من الانتظام المتمدن — حتى غدا السامي بماله من احترام طويل في الماضي مفهوما جماليا ونقديا عظيم الاهمية .

في اثناء ذلك غدا السامي كمفهوم جمالي سريع الانتشار . وقد قام اديسون وهيوم ولوك بأبحاث نفسية لتوضيح المتع التي يقدمها الفن ، وقد نوقشت تحت مقولة السامي موضوعات وافكار وعواطف كانت الكلاسية الجديدة قد اعترفت بها ولكنها القتها في القاع . ان تزايد شعبية سامي الفزع والجبال والعواصف والفضاء ، وقرن ارفع فن بالآثار غير التقليدية للعبقرية الاصيلة قد وضعا وضعا حادا في مقدمة المتع الجمالية التي سيأتيها نمطها اكثر مما غبر .

ادركت هذه العملية اول تركيب لها في « استقصاء » بيرك الذي اسس جمالية الفزع والالم ، ووجدت توضيحا ماديا للتجربة الجمالية فخرجت الى حد ما عن قوانين الفن الاوغسطي وفتحت الطريق للمناقشات الجمالية الموسعة في نصف القرن الثاني ، وقد تهددت صراحة الكلاسية الجديدة لاول مرة في 1760 بظهور موجة المذهب الانفعالي والتذوق الجديد للفن القوطي والساميات الطبيعية .

ان السامي في الكلاسية الجديدة جزء من محاولتها لتعيين نوع الحقيقة الواقعية المعطاة في الفن ، وهي محاولة ان تصل بل وتطابق الواقعي مع المثالي ، او الطبيعة ضد الفن ويتفرّع عن هذا الاعتقاد : الخاص ضد الكلي والواقع ضد المثال ، ومن الواضح ان السامي قد انحاز باستمرار الى جانب الطبيعي ، مما جعل دوره اكبر في العصر الرومانتي الذي تلا مباشرة عصر الكلاسية الجديدة وتولد عنها .

السامي في النقد الرومانتي والحديث :

يمكن رد الاتجاهات الادبية السالفة الذكر ، الى الاتجاهات التحليلية والتجريبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد كانت تلك الاتجاهات اعادة بناء رومانتية ، بعبارات متعالية ، لعالم تجرده وتفرقه بلا انقطاع التحليلات الديكارتية والتجريبية . وكانت الرومانتية الالمانية ردا على النزعة العلمية ، وبرنامجا شعريا لاعادة تاسيس ما فككه التحليل من انسجام بين الانسان والطبيعة وبين اجزاء الانسان ووعيه .

السامي عند كانت :

كان « كانت » قد ربط بالفهم العالم المادي المشروط بالزمان والمكان والمدرك بحدسنا الحسي والموحد بفضل مخيلتنا ، كما أخضع اختياراتنا الحرة للامر الخلقي القطعي ، اما القيمتان الجماليتان للجميل والسامي فقد جعلهما ذاتيتين . وحدد السامي بانه اكثر ذاتية من الجميل لان للجميل ضابطا « بدون تصور » كما انه نظر الى السامي على انه صورة تتسامى قبليا لصدورها عن مشاعر الرهبة (بحضور الاجرام الضخمة) وعن مشاعر تهنئة الذات (بالسلامة من الفزع من طاقة طبيعية هائجة) . وهذان النوعان من السامي دفعاه الى التفريق بين (السامي الرياضي) وهو ما يوحيه الجرم الهائل ، و (السامي الديناميكي) وهو ما توحيه الطاقة المنفلتة من الطبيعة . ولكي تكون على بينة من تحديد « كانت » للسامي وتمييزه له عن الجميل سنقتطف من « نقد الحكم » فقرات تبين طريقة « كانت » .

1 — في تعيين السامي بالمقارنة مع الجميل :

« غير ان التمييز الداخلي والاكثر اهمية بين السامي والجميل هو بكل تأكيد كما يلي : (هنا كما يتوجب علينا ان نفعل ، لن نضع موضع الاعتبار في الوهلة الاولى سوى السامي في الموضوعات الطبيعية لان السامي في الفن محدود دائما بشروط التوافق مع الطبيعة) . الجمال الطبيعي (وهو شيء قائم بذاته) يجلب معه هدفيه في صورته يبدو معها الموضوع وكأنه متلائم مسبقا مع حكمنا ، وبذلك يشكل بذاته موضوعا للاشباع ، ومن ناحية أخرى ، فان ما يثيره فينا ، دون اي تعليل متعلق به سوى مجرد شموله الشعور بالسامي ، قد يظهر من ناحية صورته وكأنه ينتهك الهدف من ناحية الحكم ، وكأنه لا يلائم ملكة التقبل فينا ، وكأنه يقتحم مخيلتنا قسرا ومع ذلك يحكم له على انه هو وحده السامي اكثر من غيره » .

2 — في تعيين شعورنا نحو كل من السامي والجميل :

« فالعقل يشعر بنفسه « محركا » لدى تمثيل السامي في الطبيعة ، بينما يكون في « راحة » تأملية حين يصدر احكامه الجمالية عن الجميل ، هذه الحركة يمكن ان تقارن — وخاصة في بدايتها — بحركة الذبذبة اي بالمناوحة السريعة بين الانجذاب الى الموضوع ذاته والانصراف عنه » .

3 — في تعيين السامي وتعليل شعورنا نحوه :

« فالصخور المتدلية ، الهاجمة ، وكأنها تهدد ، والسحب المتراكمة في السماء تتحرك والبرق يومض والرعد يقصف ، والبراكين بكل عنفها الهدام ، والاعاصير بمسارها المدمر ، والمحيط غير المحدود في حالة هيجانه ، والشلال العالي من نهر زاخر ، وما شابه ذلك — كل ذلك يعرض قدرتنا على المقاومة ، وهي قدرة ضئيلة بلا معنى ، ان قورنت بتلك القوى الجبارة . على ان منظرها يكون اكثر جاذبية كلما كانت اكثر افزاعا ، فضلا عن اننا آمنون ، وسرعان ما نسمي هذه الموضوعات « سامية » لانها ترفع طاقات الروح الى أعلى من ذراها المعتادة ، وتكشف فينا عن قدرة على المقاومة هي قدرة من نوع آخر تمنحنا الشجاعة لنقيس انفسنا تجاه قوة طبيعية قاهرة وظاهرة » .

السامي عند كولريدج :

اصدر كانت « نقد الحكم » في عام (1790) وفي عام 1815 نشر ورد زورث ديوانه « اغان شعبية » وابتدأ سيرة طويلة من الاتفاق والخلاف مع خدينه كولريدج . على اننا نلحظ انه كلما كانت المخيلة موضوعا للنقاش فان الاثنين يتفقان على وضع السامي او مكوناته — الانفعالي والهائل — في موضع قريب من مركز الصفات التي بها يتم تعريف المخيلة ومن ثم الشعر :

« ليكون قادرا على الاحتفاظ بعميق المشاعر التي تنتمي — بما يشبه ان يكون حقها الطبيعي — الى تلك الافكار الغامضة الضرورية للكمال الخلقي عن الانسان . واكرر ، ليكون [الشعر] قادرا على الاحتفاظ بهذه المشاعر تجاه موضوعات يجعلها سموها ذاته لا نهائية كما ان لا نهائيتها تجعلها سامية : واخص بالذكر افكار الوجود والصورة والعقل وقانون الضمير والحرية والخلود والله » .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان فكرة القرن الثامن عشر عن السمو بوصفه تجربة ذاتيـة للعبقري قد تماشت مع مبدأ الترابط عن طريق التطابق الانفعالي . ان ورد زورث في مقدمته لعام (1800) تحدث عن « التـدفق العفوي للمشاعر القوية » ثم اضاف اليها جملته المعدلة الشهيرة بان الشعر « انفعال يستذكر بهدوء » .

السامي عند « بو » :

تأثر « بو » بالتجربة الشعرية عند كولريدج وبالعناصر الجمالية في نسق « كانت » . الا انه حاول ان يمزج السـامي بالجميل ، ليجعلهما معا روح الشعر ، فهو يقول في الكتاب الذي نشر بعد موته بعنوان « المبدأ الشعري » (1850) :

« لا يمكننا الا بعد تأمل الجمـال بلوغ ذلك السمو القابل للاستمتاع ، او الاثارة الروحيةالتي نعرفها بانها «الوجدان الشعري» ولذلك فانني اجعل الجمال مجال القصيدة مستعملا كلمة الجمال على انها تتضمن السمو » .

قد يخطر لبال المرء ان يتساءل : ولكن اين السمو : ان « بو » يشايع اسلافه حين يراه في التجربة الداخلية ذاتها ، وان ينفرد عنهم حين يجعله متضمنا في الجمال :

« حين يتحدث الناس عن الجمال فانهم بالضبط ، لا يعنون صفة بل تأثـيرا — انهم يشيرون فقط الى ذلك السمو الروحي المكثف والصافي .. الذي يختبرونه عقب تأمل الجميل » .

ثمة تمازج او ترابط في مواد الموضوع : فالجميل والشجي اذا ابدعا ابداعا متوافقا انتج مزيجهما في القاريء متعة السمو الروحي التي يعرفها « بو » بانها الجمال :

« يتم دائما تجلي المبدأ الجمالي في الاثارة الساميـة للروح — بمعزل عن العاطفة التي تخنق القلب او الحقيقة التي ترضي العقل » .

المأساة والملهاة تجاه السامي :

قامت المأساة في النظرية الكلاسية على الادعـاء بان متعتنا في مشاهدة الاحداث المؤلمة في المأساة انما تنشأ من استخدامنا لعقولنا كي نتعلم ، ومن استخدامنا لارادتنا في المصادقة على نمط اخلاقي سموه « العدالة الشعرية » غير ان التبرير الجمالي في المأساة اصعب من التبرير الاخلاقي فكيف حدث ان وجد العقل متعته في تأمـل المعاناة واستحضار الانفعالات المؤلمة ؟ هناك اجابة كلاسية ثالثة تدور حول المحاكاة — وهي ان متعتنا في محاكـاة موضوع منفر او مؤلم (كالمزبلة ، او جريمة قتل — كما يقترح اديسون في الرصدة 414) تنشأ من مجرد المهارة في المحاكاة ومن تدريب عقولنـا على رؤية التشابه .

في القرن السابع عشر نشأت نظرية تهنئة الـذات ، فقال اديسون « ان متعة المأساة تأتي من احساسنا باننا سالمون » وقـال ادوارد يونغ في كتابه « حدوس » INTUTIONS « حين نكـون سالمين فاننا نحب ان نكون تعساء دون ان يلحقنا اذى » ان لهـذه الفكرة جذورها في نظرية زيادة الثقة بالنفس واتساع مدى الروح في حضور السامي ، كما اوردها بيرك ثم نقحها كانت باسم « السامي الديناميكي » كما ان للنظرية مصدرا آخر في فقرة كتبها لوقريطس ، وقال فيها :

« ثمة متعة في التطلع الى المحيط العظيم على مداه حين يجتاحه الاعصار ونرى فيه مركبا في محنة ، لاننا سالمون على الشط . ثمة متعة في مراقبة جيشين يتقاتلان على ارض المعركة — ما دمنا نحن خارج منطقة الخطر » .

وكان ديكارت يرى ان الالم الحسي شيء يضغط من الداخل على نشاطنا الروحي ، اما الانفعال فحركة الى الخارج لذيذة وصحيـة ما دامت الانطباعات المؤلمة ليست من القوة بحيثتصرعنا وتسحقنا. ان متع السوداوية ومتع الشفقة ومتع المأساة ، ومتع المؤلم ومتع المنفر — هي المفارقات التي تتكرر في النظرية الجمالية في القرن الثامن عشر . فعندما يربط الانفعال بحوافز مبسطة جـدا او حينما يقطع عن الحوافز المشخصة ، فانها تغدو انفعالات على جـانب عظيم من النقاء والكثافة ، كما انها ستميل الى ان تكون مظلمة بدلا من انتكون مشرقة ، ومؤلمة وان كانت في الوقت ذاته مدعاة للذة .

بعد « كانت » ظهر السامي مقلوبـا في النظرية الرومانتية الالمانية . فقد حاولت هذه ان تعلل الهزلي حين غـدت الصلة بين المأساة والملهاة هامة ، ومعها الميلالى الاعلاء من شأن الهزلي ،فتحدث الناقد جان بول عن التعارض بين غباء الفعل الهزلي والادراكالانساني الطبيعي الذي يسقطه المشاهد على الشخصية الهزليـة مما يؤلف « انعدام تطابق غير محدود » .

فينشأ لدينا حرية اختيار واحدة من ثلاث سلاسل للافكار : ادراكنا والادراك الفني للشخصية الهزلية ، وذلك الجـانب من بصيرتنا الذي نسقطه على المشهد . ان عقلنا يلهو بهذه الاحتمالات الثلاثة وينتقل بينها بمنتهى الحرية والجـذل ، فالانسان وحـده يتساخف ، والانسان وحده يدرك سخافاته ، غير ان جان بوليرفع القضية الى مستوى ارفع فيغدو المزاح شكلا مقلوبـا من اشكال المضحك في السامي ، ومقياسا للمحدود ضد اللامحدود :

« لو ان رجلا اطل من العالم الآخر — كمـا تحدثنا حكايات اللاهوت على هذه الارض لوجدها صغيرة وسخيفة ، فاذا قـاس العالم اللا محدود بهذا العالم الصغير كمـا يفعل المزّاح ، وربط احدهما بالآخر ، فان الضحك سينشأ حيثما وجد الحزن والعظمة» . والخلاصة فان النقد الرومانتي تجاه سمو الظواهر الطبيعية المهددة والمفزعة وملامحالتعبيرات الانفعالية قد ربط ربطا شاملا كلا منجمالية الاحساس وجمالية الانفعـال مستندا الى اثارة سوابق كلاسية [illegible] في معالجة الانفعال — النشوة عند لونجينوس والتطهير عند ارسطو .

مراجع البحث :

1 — « السامي » تأليف صموئيل منك .
2 — « النقد الادبي — تاريخ موجز » — اربعة اجزاء من تأليف ويليـام ويمزات وكلينيث بروكس ، ترجمة محيي‌الدين صبحي .
3 — « الوساطة » للقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني .
4 — « العمدة » لابن رشيق .
5 — « شرح الحماسة » للمرزوقي .
6 — « تاريخ النقد الادبي » لاحسان عباس .
7 — « نظرية الادب » ، رينيه ويليك واوستن وارين ترجمة محيي‌الدين صبحي .

الخط الكوفي وأثره في الزخرفة العربية

عبد الحسين الشمري

صفحة من مصحف تمثل الخط الكوفي الجاف والمستقيم الحروف وترى النقط تحت الحروف كتب على الرق من القرن 3 هـ وجد في الروضة العباسية ـ كربلاء

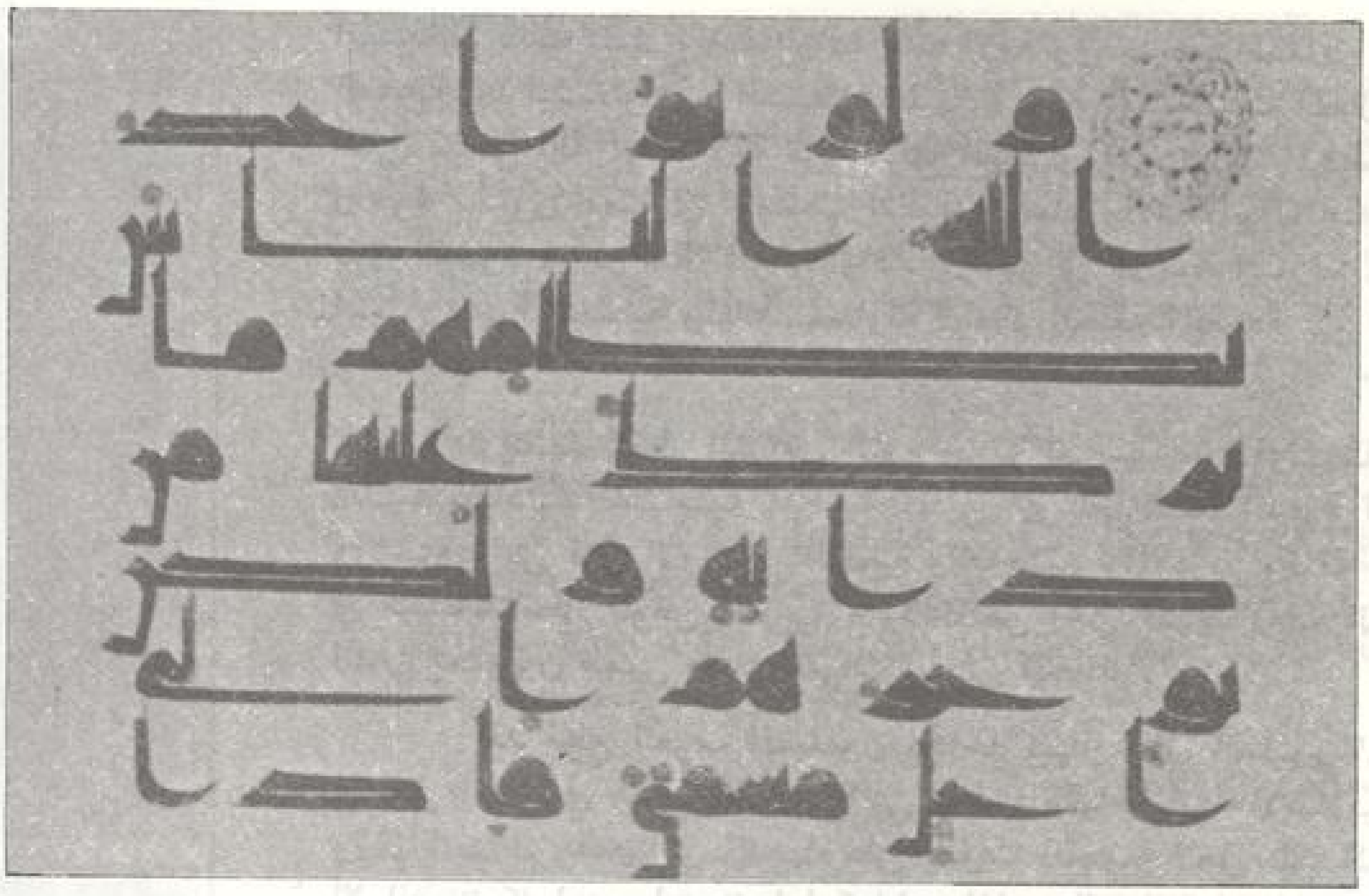

لا نريد هنا ان نفصل الحديث عن اصل الخط العربي وتطوره عبر العصور المختلفة حتى عصرنا الحاضر ،فقد كتبت فيه بحوثا اخرى ، وحسبنا ان نشير الى ان الخط العربي كان معروفا منذ عصر ما قبل الاسلام ، فقد توصل العلماء على ضوء اكتشافهم للنقوش الحجرية كنقش النمارة(1) ونقش زبد(2) ونقش حران(3) ، الى ان الخط العربي القديم اشتق من الخط النبطي(4) المتاخر والذي اشتق بدوره من الخط الآرامي . ويروى عن ابن عباس : ان الخط انتشر من الحيرة(5) الى الانبار(6) ومنها الى الحجاز ، وذلك بسبب ما كان بين عرب جنوب العراق والقبائل الحجازية من علاقات تجارية وادبية خاصة مكة والمدينة .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

وقد أولى العرب المسلمون الخط عناية كبيرة وذلك لورود ذكره في القرآن الكريم :ـ

«إقرا باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . إقرا وربك الاكرم . الذي علّم بالقلم . علّم الانسان ما لم يعلم » . وقد اقسم الله بالقلم في قوله : «ن والقلم وما يسطرون» . كما شجع الرسول الأعظم (ص) الكتابة والقراءة وعمل على نشرهما بين المسلمين، فجعل فدية من يكتب من اسرى قريش في موقعة بدر ممن لايستطيع ان يفدي نفسه بالمال تعليم الكتابة لعشرة من مسلمي المدينة(7) .

كما اهتم الخلفاء والسلاطين المسلمون والحكام بالخط العربي عبر العصور الاسلامية المختلفة ، وسبب ذلك يعود الى كون الخط العربي كان وحده اداة لكتابة القرآن الذي نزل باللغة العربية «إنا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون»(8) . ويروى عن المأمون انه قال : (لو فاخرتنا الملوك الاعاجم بأمثالها لفخرناها بمالنا من انواع الخط يقرأ بكل مكان ويترجم بكل لسان ويوجد في كل زمان)(9) .

وبعد القضاء على الردة الجاهلية وثبوت نواة التوحيد الروحي والثقافي اصبح الدين عقيدة آمن بها معظم ابناء الجزيرة العربية ، وبذلك تطابق معنى العروبة والاسلام . هذا مع ادراكنا من كون الدعوة الاسلامية عالمية في أساسها ومبدئها وهكذا صارت اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ هي اللغة السائدة بدل اللهجات العربية المتعددة وبهذه الصورة ايضا تم توحيد العرب ضمن الدولة العربية الاسلامية خلال حكم الرسول(ص) والخلفاء الراشدين من بعده .

شاهد قبر عليه كتابة بالخط الكوفي البسيط مؤرخ سنة 31 هـ

ثم بدات الفتوحات العربية الاسلامية للدول المجاورة واستطاع العرب اخضاع أملاك ومناطق نفوذ الدولتين الساسانية والبيزنطية ، اللتين كانتا تحكمان في الشرق الادنى وحوض البحر الابيض المتوسط ، فكونوا دولة واسعة الارجاء ، امتدت من الهند وآسيا الوسطى شرقا الى الاندلس والمغرب الاقصى غربا ومن اقليم القوقاز وصقلية وجبال البرانس شمالا حتى بحر العرب والمحيط الهندي جنوبا .

ولما استقرت اركان الدولة العربية الاسلامية ، نادى الاسلام بنبذ العصبية القبلية ، وبذلك صار معنى العروبة اوسع ، يقوم في الاساس على اللغة والثقافة فأصبحت اللغة العربية ، هي اللغة الرسمية في البلاط والدواوين وبقية دوائر الدولة ، وهنا بدات حركة جديدة نستطيع ان نطلق عليها ـ حركة التعريب ـ . ولابد لي ان اشير هنا الى ان الحضارة العربية قد وصلت اوج عظمتها خلال القرون الوسطى من القرن 6-8هـ (12-14م) ، ولكن حلت بالامة العربية والاسلامية كارثة مروعة يندر نظيرها في تاريخ العرب والاسلام السياسي والاجتماعي ، تلك هي غزو المغول لبغداد عام 656هـ (1258م) ، والتي كانت عاصمة العالم العربي والاسلامي مدة تزيد على خمسة قرون 145-656هـ (750-1258م) ، ثم اعقب ذلك الغزو حروب وغزوات اجنبية وانتكاسات ادت الى ركود مختلف العلوم والآداب استمر ذلك حتى بداية القرن العشرين الميلادي ، وقد استغل المستعمرون حالة السبات ، والتأخر هذه فراحوا يهربون المخطوطات العلمية والادبية والمخلفات الاثرية الى بلدانهم محاولين بذلك قطع الصلة بين حاضر الامة العربية وماضيها ، غرضهم من ذلك تشويه تاريخنا من اجل استخدام ذلك كسلاح ضد ارادة هذه الامة وفي سبيل اضعاف الروح المعنوية لها ليتمكنوا من السيطرة عليها ، وقد استمرت الحال هذه حتى قيض الله لهذه الامة من ابنائها الغيارى على تراثنا المجيد من راحوا يبذلون قصارى جهدهم لدعوة العلماء والادباء والكتاب الى بذل الجهود في دراسة التراث واعادة النظر في دراسة التاريخ وفق أسس علمية منهجية وذلك كمحاولة لايجاد الحلقة المفقودة بين الماضي والحاضر .

ويشهد القطر العراقي اليوم حركة تعريب جديدة ونشطة وفق تعليمات قيادتنا السياسية الواعية آملين ان تلقى هذه الدعوة التأييد والتجاوب من قبل الاوساط العلمية والباحثين والمفكرين وكافة الاقلام في مختلف انحاء الوطن العربي ، وذلك من اجل كشف زيف الدعاة الذين يحاولون طمس معالم التراث العربي الخالد .

لقد نجح العرب المسلمون نجاحا كبيرا خلال العصور الماضية في نشر لغتهم في معظم الاقاليم التي تألفت منها الدولة الاسلامية ، ورغم انهم لم يفلحوا في القضاء على اللغات القومية لأهل تلك البلاد ، الا انهم تمكنوا من ان يحولوا كتابات لغات تلك البلدان الى الخط العربي(10) ، وبهذه الصورة انتشر الخط العربي بانواعه المختلفة في كافة انحاء الدول العربية والاسلامية ، ومن بين هذه الخطوط العربية النسخ والثلث والكوفي والرقعة والديواني والريحاني والمغربي وغيرها. لذلك نرى الشعوب التي اعتنقت الدين الاسلامي من غير العرب تبذل جهودها في تعلم اللغة العربية ، وسبب ذلك يعود لكون اللغة العربية أصبحت الصلة الوثيقة التي ربطت العالم الاسلامي بعضه ببعض .

ان اهتمام العرب المسلمين من سلاطين وملوك وامراء وحكام وعامة الناس بالخط العربي جعل للخطاط مكانة مرموقة ومركزا ممتازا في المجتمع ، حيث اخذ ينافس مركز بعض الحكام المسلمين من الذين شاركوه في هذا الميدان الفني ، خاصة اولئك الذين كانوا يكتبون بأيديهم نسخا من القرآن الكريم .

لقد لعب الخط العربي بأنواعه المختلفة دورا بارزا في تزيين العمائر الشاخصة والتحف المنقولة ، بحيث لم يصل الى مكانته فن آخر من الفنون الاسلامية المختلفة وذلك يعود الى اهتمام العرب ـ بصورة خاصة ـ والمسلمين بصورة عامة به ، فقد أعار الخلفاء والسلاطين والحكام اهتمامهم بالخط العربي لأهميته كما ذكرنا سابقا، هذا بالاضافة الى انصراف معظم الفنانين المسلمين عن تصوير الكائنات الحية(11) ، مما اظهر عبقريتهم في الزخارف الكتابية حتى اصبحت هذه الزخارف من مميزات الفن الاسلامي ، اشتركت فيه معظم الامم الاسلامية بسبب العقيدة الاسلامية التي تطلبت الكتابة والقراءة بالخط العربي .

ومع ذلك فان المسلمين لم يكونوا أول من استعمل الكتابة في زخرفة العمائر وسائر التحف المنقولة ، فقد عرفه كذلك اهل الشرق الاقصى ، كما عرفه الغربيون ، ولكن لايوجد فن استخدم الزخرفة في الخط بقدر ما استخدم في الفن الاسلامي ولا غرو في ذلك فاننا ـ اذا استثنينا الخط الصيني ، وهو نوع قائم بذاته ـ لا نجد خطا أوفق للزخرفة من الخط العربي ، فحروفه اصلح من غيرها لهذا الغرض بما فيها من استقامة وانبساط وتقوس ، كما ان حروف الخط العربي العمودية والافقية يسهل وصلها مع بعضها بالرسوم والزخارف المتنوعة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نموذج كتابة كوفية متاخرة نصها عبارة التوحيد

كتابة بالخط الكوفي الهندسي المربع

كتابة كوفية نقشت على صحن من الخزف

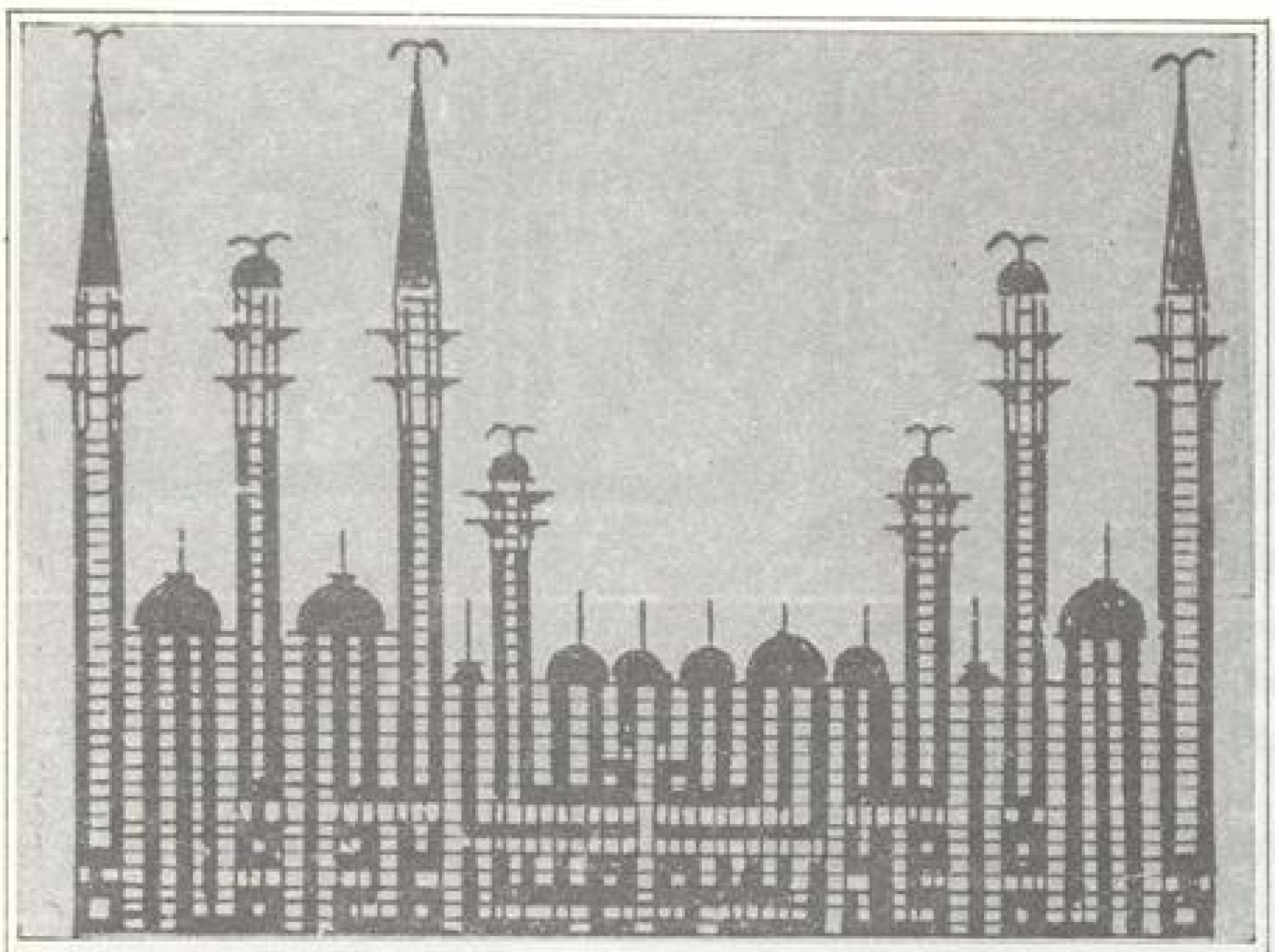

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد زين الخطاطون كتاباتهم بالزخارف المختلفة النباتية والهندسية ، وكانت هذه الكتابات بصيغة آيات قرآنية ودعائية ومديح ورثاء لما وراءها من خير وبركة ، لذلك لانجد فنا ينافس الخط العربي المزخرف ، وبما ان للقرآن قدسيته العظيمة ومكانته العالية باعتباره كتاب الله وآخر الكتب السماوية لذلك نقلت آيات كاملة منه بل سور كاملة على جدران المساجد والاضرحة والمدارس وبعض التحف المنقولة .

من كل ماتقدم يتضح لنا اهمية الخط العربي واثره في الزخرفة العربية ، لذلك عرف الفن الاسلامي عند الغربيين بانه يفزع من الفراغ(12) ، لما لهذا الفن من تشكيلات جميلة ذات صيغ فنية رائعة تبهر الناظرين وتأخذ بألباب المشاهدين ولكونه ذا صور جمالية حسية بعضها يفيض بالقوة وبعضها تطغى عليه الرقة والاناقة .

الخط الكوفي المزخرف :

لا يمكن ان نتصور ان الزخارف ظهرت فجأة في الخط الكوفي وانما هي مثل كل الفنون خضعت لسنن التطور وناموس التدرج ، فقد سار الخط الكوفي سيرا بطيئا مهما استبدت به عوامل السرعة واخذ يخطو في تطوره خطوة خطوة ، كما تؤكد على ذلك المخلفات الكتابية التي وصلتنا من العصور الاسلامية المختلفة حتى بلغ أوج عظمته خلال العصر العباسي ووصل الى الكمال الفني .

لقد صرف الكتاب عنايتهم الى تحسين الخط الكوفي وادخال الرسم في كتابته ووجدوا الطريق معبدا امامهم فاطلقوا العنان لاقلامهم، وتفننوا في طرق التحسين ، فنشأ عن ذلك تعدد الاقلام وتنوع الكتابات ، ولعل سبب ذلك ان الفنان ادرك ما في الحروف مما يصلح لأن يكون اساسا للزخارف الجميلة ، فرؤوس الحروف وسيقانها واقواسها ومداتها وخطوطها الراسية والافقية اوحت له بعناصر زخرفية شتى ما كاد يرسمها حتى بعثت في نفسه شعورا من ارتياح المتفنن الى اثره الجميل ، فاندفع في هذا التيار يبتكر الزخارف الخطية غير عابىء بما تفرضه عليه اصول الخط من مستلزمات ولا معنى لما يسببه للقارىء في بعض الاحيان من صعوبات بل كان همه الوحيد هو ان يرضي فنه .

ان طبيعة الزخارف التي تلحق الكتابات الكوفية ، تتكون من عنصرين اساسيين : العنصر الخطي البحت ، والعنصر الزخرفي النباتي والهندسي ، وهذا النوع من الكتابات في اكثر صوره ازدحاما بالزخارف النباتية أو الهندسية يقوم بدوره في زخرفة المساحات التي تكون بطبيعتها خالية من الحروف الابجدية ،وهي لذلك تشغل عادة المساحات التي بين القوائم وفوق الحروف التي لاتعلو كثيرا عن مستوى تسطيح الكتابة ، دون ان تختلط بالعنصر الكتابي البحت فتقلل من وضوحه في كثير من الاحيان ، وتتنوع هذه الزخارف النباتية فتكون اشبه شيء بالوريقات الناجمة عن الحروف ، كما قد تكون فروعا نباتية قصيرة تخرج من قمم بعض الحروف او تنبعث من نهاية العروق ، كما قد تكون فروعا كثيرة الالتواء ، وتخرج منها اوراق او فروع لولبية مورقة تستقر الكتابة فوقها ، وفي بعض الأحيان يلحق هذه الكتابات زخارف هندسية وهذا مما يجعل قراءة الكتابة اعقد وتعد هذه الزخارف طبيعية بالنسبة للخط الكوفي(13) .

ان الخط الكوفي كان في بداية امره بسيطا خاليا من الزخرفة وحسب سنن التطور والتدرج اخذ يخطو خطوات واسعة حتى بلغ أوج كماله الفني وقد كان القسم الشرقي من العالم الاسلامي بوجه عام أخصب من القسم الغربي في هذا الميدان ، ومن اجمل الامثلة لاتقان الزخارف الكتابية الكوفية مانجده في مدينة ديار بكر(14) .

ومنذ نهاية القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) بدأت المحاولات الزخرفية الاولى في الكتابات التذكارية في مصر واقدمها وابسطها الاستمداد ذو التقويس ، يظهر لنا ذلك في نقش يعود الى سنة 190هـ ، ومن الزخارف المبكرة التشجير محاولة زخرفية لزخرفة نهاية الحروف القائمة والمستقيمة بما يشبه الفروع النباتية عند اول خروجها من السيقان كما هو واضح على نقش يعود لسنة 191هـ ، ومن الزخارف التي تتكرر تلك الزخرفة التي تخرج من نهاية الحروف القائمة والمتجاورة التي قوامها اوراق فصية والتي يصطلح عليها اسم (التفطيح) المعرق كما هو واضح في نقش يعود الى سنة 236هـ.

ويشهد القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي ـ اروع انواع الزخارف وهي الزخرفة الورقية المتطورة الى زخرفة فصية ،ويختتم هذا القرن نوع جديد من الزخارف هو في عراقات النون والراء والواو، ثم مد هذه الحروف بشكل فرع نباتي او رفعها الى الاعلى على شكل ثني مضاد جهة اليسار ، وتسود هذه الظاهرة نقوش القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديان) ، كما نشاهد نقوش هذين القرنين تتميز بظاهرة خاصة هي توريق العراقات(15).

ثم بدأ الخط الكوفي في الرشاقة منذ القرن الخامس الهجري

نموذج بسملة بخط كوفي زخرفي من تركيا

كتابة بسملة بالخط الكوفي البسيط المتطور

كتابة بسملة بخط كوفي زخرفي من الطراز الفاطمي بمصر

الكوفي الشطرنجي ـ لفنان مغربي

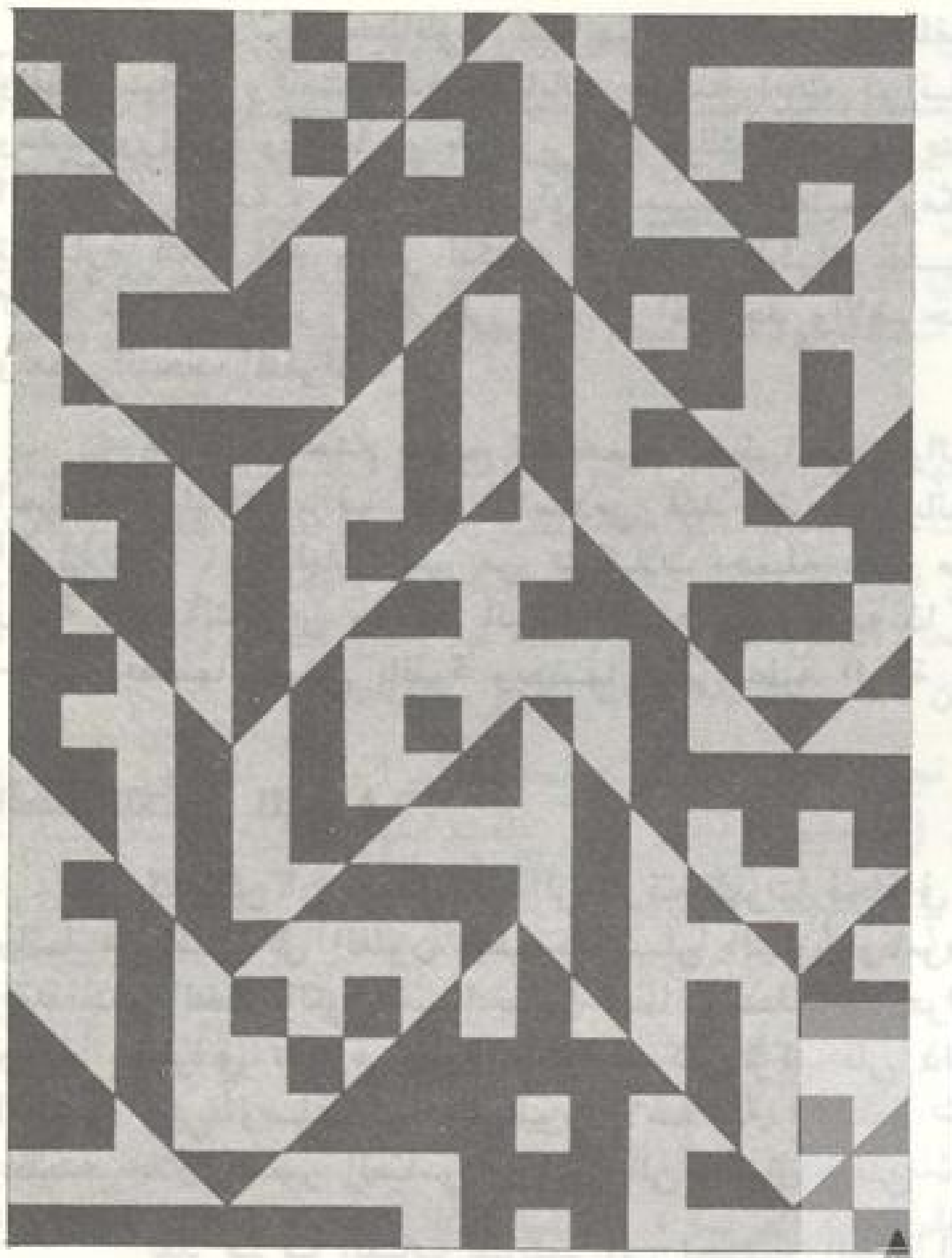

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(الحادي عشر الميلادي) ، وقد زاد دقة وجمالا في العصر السلجوقي على ان الايرانيين لم يقبلوا على استخدام الكتابة في الزخرفة قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، والزخارف الكتابية النسخية التي ترجع الى هذا التاريخ نادرة جدا في ايران وكلها بالخط الكوفي ، والواقع ان الكتابة الكوفية كانت تلائم الطراز الزخرفي في ذلك العصر، وكانت الزخارف الكوفية يختلف بعضها عن بعض في هيئة الحروف من حيث الدقة والاناقة واتساع الحروف وحسن توزيعها ، وذلك بحسب مهارة الصناع والفنانين ، وان معظم الزخارف الكوفية عند الايرانيين لم يكن لها طابع خاص ، ولم يكن الفرق كبيرا بينها وبين الزخارف الكوفية في سائر الاقاليم الاسلامية الاخرى . ومن القرن الخامس الهجري (11م) وصلنا نقش مؤرخ في سنة 412هـ محفوظ الآن في متحف الفن الاسلامي في القاهرة وتبدو عليه الزخارف النباتية والتي قوامها فروع تخرج من مواضع لم تكن مألوفة من قبل .

وتعتبر مرحلة الانتقال من الخط الكوفي المتطور الى المورق مرحلة طبيعية ، اذ ان الخطاط لاحظ بأن اطراف بعض الحروف تنحدر الى الاسفل ، وان رؤوس البعض الآخر لاترتفع الى نهاية اطراف الالف مثل حرف الكاف ، وان بين هذه وتلك فراغات واسعة في الكلمات وتتطلب سلاسة الرسم بأن تقوم تلك الحروف بتقصير المنحدر منها والصعود باطرافه ثم ثني رؤوس الحروف القائمة وتدويرها .

اما مرحلة الانتقال من الخط الكوفي المورق الى الكوفي المزهر فهي كذلك مرحلة طبيعية ، اذ ان الخط المزهر بدأ تطوره بتحوير نهايات بعض الحروف فيه مثل الواو والراء والنون بحيث تبدو الورقة النباتية كأنها منشقة مباشرة من نهاية الحرف اذ انها متصلة معه بفصن رفيع وكانت التطورات متتابعة اذ امتد الغصن وطال (كنصل الورقة) ثم انشقت من الغصن ورقتان ثم ثلاث ورقات واستدار الفصن وانعطف ، وهكذا حقق التزهير في الخط الكوفي خطوات كبيرة في التقدم وكانت متمشية مع التطور العام في الزخرفة ، وكان الخطاط دائما ملازما للمزوق .

وهكذا نجد مهارة الخطاط واضحة في الخط الكوفي ، ولم يكتف الخطاط باضافة الزخارف النباتية للخط الكوفي ، انما راح يصوغ اشكال حروف الخط بشكل هندسي فظهرت انواع هندسية مختلفة منها الخط الكوفي المربع والمثلث والمخمس والمثمن والمستطيل وذو الاطار الهندسي وغيرها .

وكان من اسباب التطور الزخرفي في الخط الكوفي ما يعود الى ما في الآيات القرآنية الكريمة من مفعول سحري ، كان يدفع الخطاط الى ابراز هذه الكلمات والجمل والاهتمام الكبير بزخرفتها ، ولا شك ان تسجيل الآيات القرآنية كان يثير همة الخطاط ويدفعه الى تجميل الخط وتزويقه هذا اضافة الى ماذكرته سابقا .

وهكذا اندفع الفنان في هذا الميدان فاخذ يبتكر النقوش والزخارف الكتابية ولم يعتمد على اصول الخط ولم يأبه بما يسببه للقارىء من تعب وارهاق في القراءة ، بل كان همه الوحيد هو الفن، لذلك نراه يتلاعب برؤوس وسيقان واقواس ومدات الحروف بعناصر زخرفية متنوعة ، ففي بعض الاحيان نراه يجعل الحروف كأنها ذات اغصان بديعة نثرها بحيث تظهر للرائي كأنها موزعة في بستان ، وتارة اخرى نجده لايترك مجالا حول الكتابات الا وملأه بزخارف من التوريق العربي ، وبسبب ذلك كله استحق هذا الفنان المبدع الاعجاب والتقدير حيث اقر علماء الفنون والباحثون بعبقريته في هذا الميدان الهام من

نموذج للخط الكوفي الهندسي والزخرفي الشكل

نموذج كتابة بخط كوفي زخرفي

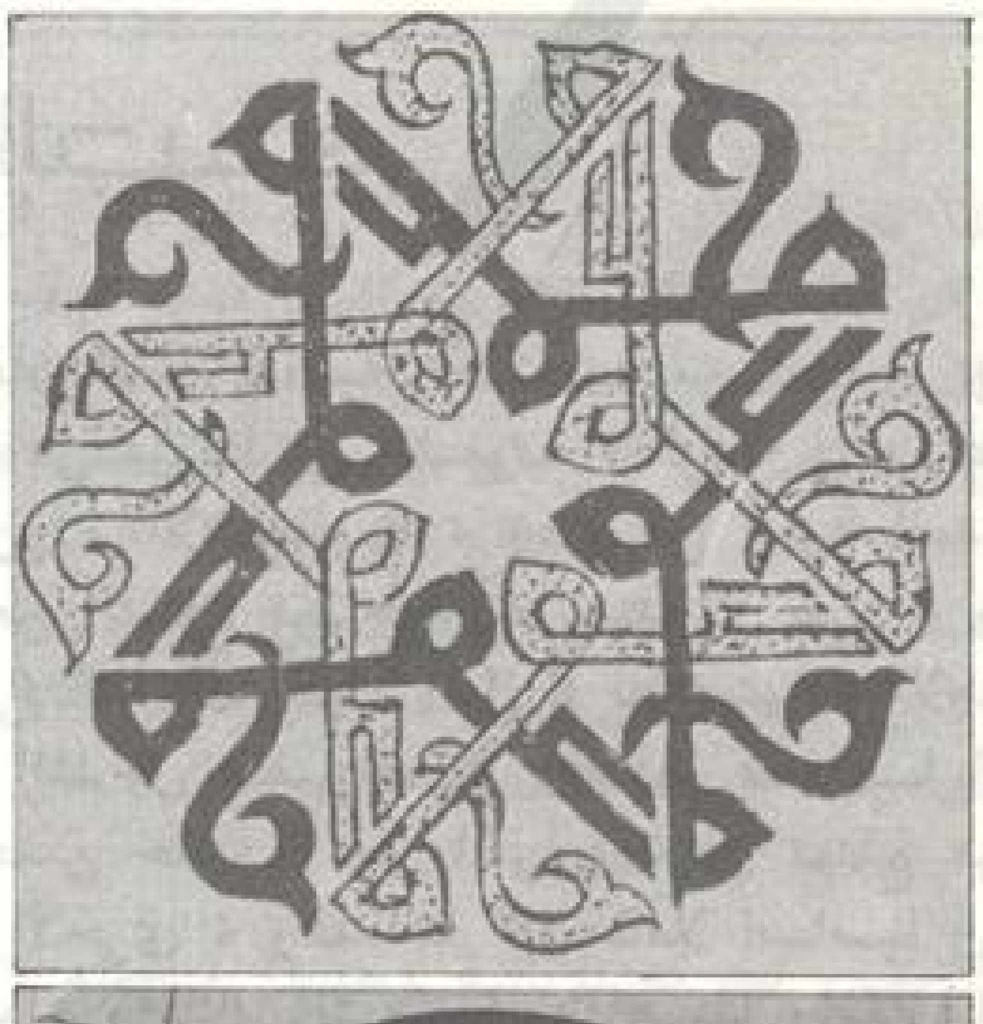

ميادين الفن العربي الاسلامي .

وختاما يمكن القول ان الخطاط العربي هو فنان ماهر وساحر لانه يخلب الالباب ويسيطر على القلوب ، وما تلاعبه بالحروف بهذا الشكل الزخرفي البحت الا لنزعة تعبيرية تصميمية تنميقية ، وهكذا قدر لهذا الفنان ان ينقل هذه الحروف الصماء ليجعل منها اقوى صورة حية للتعبير عن مبدأ الحقيقة واستطاع ان يوازن في الصيغ الفنية الجمالية للخط وجعلها وكأنها اشكال حقيقية تتحرك في اطار خيالي ، وان عمل هذا الخطاط يمثل روحية تبلغ اقصى درجات العمق والرقة ، فقد عمل جاهدا لارضاء الذوق الفني لطبقات المجتمع المختلفة من سلاطين ووزراء وامراء وقواد الى فقراء واناس بسطاء ، لذلك فهو يعتبر بحق انجع الفنانين في العصور الاسلامية المختلفة في تلبية مطاليب الكتاب المقدس باضفائه صبغة روحية على الاتجاه الكتابي ، ويمكن القول بمزيد من الثقة ، ان الخط الكوفي المزخرف سيظل يحمل طابعا فنيا مقدسا في كل زمان ومكان بين فنون العالم ..

الهوامش :

(1) نقش قديم دون عام 328م ، وينسب الى النمارة ، وهو قصر صغير للروم يقع في الحرة الشرقية شيد من قبل الدروز .

(2) وهو نقش مدون بثلاث لغات : العربية والسريانية واليونانية ، وينسب الى زبد ، وهي خربة بين قنسرين ونهر الفرات .

(3) نسبة الى حران ، وهي تقع في المنطقة الشمالية من جبل الدروز .

(4) نسبة الى الانباط ـ النبط ـ ، وهم شعب عربي عرف عند اليونان باسم (Nabataei) ، سكنوا في بادية الشام وجنوب سوريا في القرن السادس ق.م تقريبا ، وكانت عاصمتهم «البتراء» .

(5) الحيرة : مدينة كانت على بعد ثلاثة اميال من الكوفة بالعراق ، وتوجد في الحيرة آثار كثيرة منها قصر الخورنق وقصر السدير وغيره ، وكانت مسكن ملوك العرب قبل الاسلام منذ زمن نصر ثم من زمن لخم النعمان وآبائه .

(6) الانبار : مدينة تقع على نهر الفرات غربي بغداد ، فتحت في ايام ابي بكر الصديق (رض) سنة 12هـ على يد خالد بن الوليد ، ثم جددها ابو العباس السفاح اول خلفاء بني العباس وشيد بها قصورا واقام بها الى ان مات وينسب اليها خلق كثير من اهل العلم والكتابة وغيرهم .

(7) القلقشندي : صبح الاعشى جـ3 ص 14 ، البلاذري : فتوح البلدان ص 479 .

(8) سورة يوسف آية 2 . كما اكد القرآن الكريم على الاتجاه العربي في عدة مواضع . انظر : سورة فصلت آية 2 ، وسورة النحل : آية 103 ، وسورة الشعراء آية : 193-195 .

(9) سهيلة الجبوري : الخط العربي وتطوره في العصور العباسية ص 3 .

(10) د. زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص 234 .

(11) عبدالحسين الشمري : حول الفنون في العراق اثناء العهد المغولي : مجلة آفاق عربية العدد 3 السنة 1977 ، د. زكي محمد حسن : مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي ص 5 ، محمد رشيد رضا : تاريخ الامام الشيخ محمد عبده جـ2 ص 499-501 .

Isa, Salman, Dr.: Islam and Figurative Arab (in Sumer, xxv, pp. 59-99), 1969.

(12) عبدالحسين الشمري : التحف المعدنية المغولية ، دراسة اثرية فنية «رسالة ماجستير» جـ1 ص 132-156 ، 1975 ، د. زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص 248-257 ، 1948 .

Dimand, M.S.,Studies in Islamic ornament (in Arts Islamica, iv, pp. 293-337), 1937.

Herzfeld,E: Arabes que (Article dans l' Encyclopédie de L'islam).

Kratchkovskya, V.A: Ornamental Naskhi Inscriptions (in Asurvey of Persian Art,11,) 1939.

(13) د. ابراهيم جمعة : دراسة في تطور الكتابات الكوفية ص 286 .

(14) نسبة الى قبيلة بكر العربية التي جاءت من الجزيرة العربية واستوطنت تلك البقاع قبل ظهور الاسلام بحوالي قرن ، وكانت تسمى قديما «آمد» و «قره آمد» ، وتقع المدينة على الشاطىء الايسر من نهر دجلة ، وقد افتتحها العرب بقيادة عياض بن غنيم الفهري سنة 640م ، وما لبث العثمانيون ان استولوا عليها سنة 1515م .

(15) د. ابراهيم جمعة : المصدر السابق ص 279 .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخطاب الثالث عشر

شرح الخواطر السابقة

د. سامي الجندي

ان كثيرا من الافكار الفارغة والنظريات الغريبة المتعلقة بمصالح الشعوب تروج بيننا فتدفع الالمان عن ان يكونوا لهم فكرة صحيحة عن الوضع الحالي ، مطابقة لطبعهم الوطني . وهو ما قلناه في الخطاب السالف . وبما ان بعضهم يحاول اليوم في ان يملي هذه النظريات الوهمية في حماسة على قدر الجهد المبذول لسد الفراغات الحاصلة من انهيار مؤسسات كثيرة ، يبدو لنا ضروريا اخضاع هذه النظريات الى فحص اعمق مما تستحقه اهميتها .

ولنلاحظ اولا هذه الواقعة : ان حدود الدول الاولى البدائية والطبيعية حقا ، هي ولا شك ، الحدود الداخلية . ان الذين يتكلمون نفس اللغة ، هم تبعا لقوانين الطبيعة نفسها ، وقبل اي تدخل بشري ، مرتبط بعضهم الى بعض باسباب عديدة . ويفهم كما يستطيع التفاهم بعضهم مع بعض اوضح فاوضح ، يمتلك كل منهم الآخرين ويكونون كلا طبيعيا لا ينفصم . مثل هذا الشعب لا يقدر ان يضم اليه اي شعب من اصل او لغة غريبة او ان يختلط به ، دون ان يفقد اصالته ويزعج بعيدا تقدم ثقافته المتجانس . هذا الحد الداخلي ، الذي خطته طبيعة الانسان الداخلية ، هو الذي يتأتى عنه تحديد مسكنه الخارجي ، والبشر لا يكونون شعبا لانهم يقطنون ارضا تحدها هذه او تلك الجبال ، او هذه او تلك الانهار ، وانما على العكس ، لانهم يعيشون معا وهم عندما يشاء لهم الحظ ، تحميهم جبال وانهار . لانهم كونوا قبل ذلك شعبا منذ البدء تبعا لقانون طبيعي اسمى من كل النواحي .

وهكذا فان الامة الالمانية ، المتحدة من الجذور بمجتمع اللغة والفكر البعيدة عن غيرها من الشعوب ، كونت في وسط اوربا جدارا يعزلها عن العروق اللامتجانسة ، وهي من وفرة العدد والشجاعة بحيث تتمكن من الدفاع عن حدودها ضد اي غزو ، وما كانت تعتمد الا على نفسها ، كما انها قليلة الميل ، بطبيعتها ، للاهتمام بالشعوب المجاورة ، او التدخل بقضاياها او اقلاقها فدفعها الى العدوان . لقد نجحت لحسن حظها ، عبر القرون ، ان تمتنع عن الاشتراك في نهب الشعوب الاخرى ، وهذا ما كان عاملا اساسيا في تطور التاريخ الكوني الحديث ، واقدار الشعوب ومفاهيمها وافكارها . بعد هذا الحدث انقسمت اوربا المسيحية ، ولو انها بقيت حتى ئذ موحدة ، دون شعور واضح منها ، وعبرت عن وحدتها بمشاريع مشتركة ، انقسمت الى قطاعات متباينة ، ووجد الناس انفسهم امام فريسة اثارت جشعهم جميعا لان كلا منهم كان يستطيع استغلالها مثلما يفعل سواه ، ويرى اليها في حسد بين يدي جاره ، هذا هو اصل العداء الخفي والنزوع الى الصراع من كل ضد الكل . وجدت ، في هذه الفترة ، بعض الشعوب مصلحتها في ضم شعوب مختلفة الاصل واللغة اليها غزوا ، او حين يستحيل ذلك ، باحلاف فتدعم نفسها بقوى جديدة . ان شعبا ظل وفيا لطبيعته يستطيع اذا ضاقت ارضه عليه ، ان يوسعها بغزو ارض الجار وطرد سكانها الاصليين منها ، وقد يريد تبديل ارض قاسية المناخ تربتها مجدبة بمنطقة الطقس واسخى ، وفي هذه الحال يطرد منها ، ايضا قاطنيها السالفين ، وقد يعمد حين يمر بمرحلة الانحلال ، الى حملات نهب وقطع طرق ، لا من اجل ان يستولي على الارض او يحتل مكان اصحابها الطبيعيين وانما كي يمتلك كل ما يمكن استخدامه ، ثم يعود الى وطنه ، وبوسعه اخيرا ان يستخدم سكان البلاد المحتلة كاشياء وان يوزعهم كعبيد ، ولو انه لا مصلحة له في ضم شعب برمته اليه ، كما لن تستبد به الرغبة لذلك . لكن عندما يتعلق الامر بانتزاع فريسة ، من ند على مثل قوته وربما اقوى ، تغرى كلا الخصمين فان الاشياء تختلف . ومهما كان موقف الشعب المغلوب منا ، فان قبضاته تفيدنا في صراع العدو الذي نريد تجريده ، ونقبل بمنتهى الترحيب كل من ينضم الينا كي يزيد في قوتنا العسكرية فاذا ما وقعت عين حكيم يتوق الى السلام والهدوء على هذه الحالة ، من اي عنصر يأتيها الهدوء ؟ انه ولا شك لا يستطيع ان يفرض حدودا طبيعية للجشع الانساني ، بالتاكيد ان الفائض لا يقيد احدا : هنالك فريسة تغري كل الناس ، وهو لا يستطيع ان يطلب من الارادة ان تفرض على نفسها حدودا ، ان من يحدد رغباته فيما يحاول كل امرىء ان يحتوي كل شيء انما يوقع على هلاكه . ان احدا لا يريد ان يشارك احدا في ما يمتلك وحده ، كل يريد ان يسلب الآخر ما يخصه ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا . فاذا هنأ احدهم فالسبب احساسه انه ليس على قوة تمكنه من خوض معركة ، ومتى احس بالقوة الكافية نهد اليها . وعليه لا تبقى غير وسيلة واحدة للحصول على السلام والمحافظة عليه: الا يكون احد على قوة تمكنه من انتهاكه وان يعلم كل بان قوة مقاومة الخصم تساوي قوته في الهجوم ، ويحل بالتالي توازن القوى ، وهو الوسيلة الوحيدة اذا لم يوجد سواها ، التي يستطيع معها كل امرىء ان يتمتع بما يمتلك في طمأنينة . ان نظام توازن القوى الاوروبية يعترف من جهة بفريسة ليست لاحد ادنى سلطة عليها ، ولو ان كلا يطمع بها بنفس القوة ، ومن جهة اخرى بضراوة حقيقية لا هم لها الا ان تشبع ، ومتى وافقنا على ذلك ، فان التوازن المومأ اليه يغدو بالواقع الوسيلة الوحيدة للحفاظ على السلم ، هذا اذا وجدت امكانية اقامة التوازن او بالاحرى جعله واقعا بدلا من ان يكون املا باطلا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فخـتة

ولمـــــاذا نعمم الشروط التي ذكرنا فنرفض ان تحوي بعض الاستثناءات ؟ الم تعرف الامة الالمانية الجد قوية كيف تقاوم فيوسط اوروبا اغراء النهب ورغبة المشاركة فيه ؟ او لم تبق بعيدة عن ادنى الانتماء الى كل هذا التفكير ؟ لو ان هذه الامة نجحت في الحفاظ على ارادة وقوة واحدة عامة ، لاستطاع الاوربيون الآخرون الذبح في كل مكان ، على البحر وفي كل الجزر وعلى كل الشطآن ، فيمـا منعهم السور المتين الذي كونه الالمان في وسط اوربا عن قتل بعضهم بعضا في القارة ، ولكنا راينا سيادة السلام ونعم الالمـــان ومعهم شعوب اوروبية كثيرة بالهدوء والرخاء .

غير ان الاجنبي تحركه الانانية وحدها فتجعله لا يقدر ســوى المنافع المباشرة ، لم يستطع احتمال سير الامور على هذه الصورة . لقد فكر في ان يستغل شجاعة الالماني في الحرب ، فيستعمل ذراع الجند الالمان لانتزاع الغنيمة المرجوة من انداده ، ومن اجل الوصول الى هذه الغاية ، لم تتاخر حيلة الاجنبي في الانتصـــــار على بساطة الالمان وطيبة قلوبهم . الاجنبي هو اول من ربح من التجزئـــة الاولى التي خلقتها بين الالمان الشقاقات الدينية فهدمت وحدة هذا البلد الحميمة وهو من مثل ، في حيز ، كل اوروبا المسيحية ، وانقسمت المانيا انقساما مصطنعا الى مناطق مختلفة ومستقلة ، كما انقسمت اوروبا بصورة طبيعية ، عند تعلق الامر بغنيمة مشتركة . وبعد ان خلق الاجنبي في قلبالامة الواحدة عدة دول لا عدو لها إلا"ه ولا مصلحة الا في ان تجابه بقواها المجتمعة اغراءاته وحيله ، نجح في اقنـــاع تلك الدول بان يخاصم بعضها بعضا كانها اعداء طبيعيون ، وان تظل كل منها حذرة من الاخرى ، فيما كان هو الحليف الذي يحميها اذا جاءها تهديد من ابناء وطنها ، لقد كان اهن حليف من يحقق له نصرا او يسبب في هزيمة ففدت اذن مصلحتها في دعمه في كل مشاريعه دعما عريضا . لقد غدت تبعا لهذه الحيل كل الخلافـاتالتي تثور حول موضوع ما في العالم القديم والحديث نزاعـات تدفع بالشعوب الالمانية احدها ضد الآخر ، وكلما انفجرت حرب لســبب او آخر دارت على الارض الالمانية وبالدم الالماني ، كل نتســائج اي خلل في التوازن كانت تقتضي رأبا في الامة الوحيدة التي لم تكن لها ادنىصلة في اصل الخلل ، وكانت الدول الالمانية وهي التي وجودها المنفصل ضد الطبيعة والعقل تكتفي كي تكون شيئا في اوربا بان تكون كميـة اضافية على الاوزان الرئيسية في ميزان التوازن الاوروبي تلحق في عمه وخضوع تصاريفه وتقلباته . في بعض البلدان الاجنبية يدل على المواطنين او يسمون تبعا لانتمائهم الى هذا او ذاك الحزب او حسب عطفهم على هذا او ذاك الحلف الاجنبي اما الــــذين ينتسبون الى الحزب الوطني فحسب فانهم دون تسمية خاصة ، ولقد عرف عن الالمان منذ زمن بعيد انهم لا يستطيعون الانتساب الا لحزب اجنبي ، وقلما وجد مواطن دافع عن حزب الالمــــان وفكرة ان افضل حلف يعقده هذا البلد هو الحلف مع ذاته .

هو ذا المنشأ الحقيقي ومعنى اثر نظـــام التوازن الشهير على المانيا والعالم وهو الواجب تثبيته مصطنعا بين الدول الاوروبيـــة الكبرى . لو ان اوروبا المسيحية بقيت واحدة ، كما كان ينبغي لها ، وكما كانت بفائيا ، ما كان ينشأ مثل هذا المشروع ، وما كان واحدا اعتمد على نفسه ، وحمل نفسه بنفسه ، وما انقسم ابدا الى قوى عدوة وجب العمل على توازنها . ان هـذه الفكرة لم تكتسب معنى ثقيل الوزن الا في اوروبا المنقسمة المبنية على الظلم . لكن المانيا لم تكن جزءاً من اوروبا هذه . ولو ان المانيا بقيت واحدة لاعتمدت على نفسها في مركز الارض المتحضرة كالشمس في مركز العالم ، كـانت تثبت السلم من اجلها ومن اجل جيرانها الاقربين ، وكانت تؤكـد ، دون اللجوء الى بدع مصطنعة ، توازن الجميع بوجودها وحده .لقد استطاع الاجنبي بالحيلة دون سواها ان يجرها الى دناءاته وخلافاته، وان يقدم لها التصور الخادع الذي لم يكن غير انجع وسيلة لايهامها بمصالحها وتثبيتها في هذا الوهم . ولقد تحقق هذا الهدف منذ زمن بعيد والاثر الذي بحث عنه الاجنبي هو امام عيوننا . اولا نستطيع ، اذا استحال علينا محو الاثر ، ان نجفف نبعه على الاقل في ذكائنـا نفسه ، وهو الشيء الوحيد تقريبا الذي ما زال لدينـــا عليه بعض السلطة ؟ ولماذا يجب ان يبقى دائما الحلم القـــديم قدام عيوننا ، ما دمنا ايقظنا من النوم الالم الذي نتعذب منه ؟ ولماذا لا نقبل اليوم بالحقيقة ونرى الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تنقذنا ، عل ابناءنـا يستطيعون الافادة مما لمحنا نحن فحسب ، تماما كما نتالم نحن لان آباءنا حلموا ؟ ولنعلم في وضوح ان فكرة التوازن الباقية اصطناعا قد تكون عند الاجنبي حلما اهلا لان يعزيه عن اخطائه وآلامه ،ولنقل ايضا ان هذه الفكرة ، ما دامت بدعة اجنبية ، ما كان لها ان ترسي جذورها في النفوس الالمانية ولا كان ينبغي للالمان ان يتصوروا هـذه الفكرة ، ولنعترف فوق ذلك بلا جدوى هذه الفكرة ولنتوافق على ان السلام الكوني ليس نتيجة لها ، لان وحدة كل الالمـان ، وحدها ، هي التي تمكن له .

ان الالمان غريبون ايضا على حرية البحار التي كثر فيها الحديث هذه الايام ، اكانت تعني الحرية الحقيقية ام حرية بعض في حرمان الاخرين منها . لقد اظهر الالمان عبر قرون انهم على غير استعداد للدخول في خصومات الامم التي تتنازع سيادة البحار . ولن يفعلوا في المستقبل لانهم ليسوا بحاجة لها . بلـدهم موفور الغنى وحبهم للعمل ييسر لهم كل ما يحتاجه الانسان المتحضـــر في معاشه ، ولا تنقصهم المهارة لاستغلال كل ما يجدونه في بلدهم ، اما عن إغتنـــاء المعارف العلمية المتعلقة بالارض وسكانها وهي المنفعة الوحيدة الحق التي تمنحنا اياها التجارة العالمية ، فانهم لن يعدموا استقاء وسائل تامينها من روحهم العملية . لو ان قدر الالمان حفظهم فقط عن بقية العالم من كل مساهمة غير مباشرة في الكفاح الغنيمة مثلما حفظهم من كل مساهمة مباشرة ! كم كانت تكون سعادتنـــا لو إن خفتنا ورغبتنا الباطلة في العيش بنفس الترف الانيق عند امم اخرى لـم تجعلا الكماليات التي تنتجها البلدان الاجنبية لا غنى لنا عنها ! امـا عن الاشياء التي لا نستطيع ابدا الاستغناء عنهـــا ، ليتنا طالبنا بان ينتجها مواطنونا الاحرار في شروط مقبولة ، بدلا من ان نستغلعرق عبد فقير مما وراء البحار يشتغل فيشروط لا انسانية : لو ان الامور سارت على ذلك ، لما كنا قدمنا الذريعة لوضعنا الحالي ، ولما قامت ضدنا حرب على اننا متهربون ولما حاولوا ان يهدموا بلدنا بحجة انـه سوق عالمي . منذ عشر سنوات ، قبل ان يستطاع التنبوء بالاحداث الحالية ، قدمت نصيحة للالمان بان يستقلوا عن التجارة العالمية وان يكونوا دولة مغلقة التجارة . غير ان هذه النصيحة كانت ضـــد عاداتنا وخاصة عبادتنا الوثنية للعملات المعدنية ، ولذلك حوربت ورفضت . ولقد اكرهنا منذئذ ، تحت ضغط دولة اجنبية كبرى ، وفي وضع مخل بشرفنا ، على ان نستغني عن اشياء كثيرة كنا تؤكد قبلا اننا لا نستطيع ان نستغني عنها دون المساس بحريتنا وشرفنا . فهل لنا ان نقبض على هذه الفرصة التي لا تعمينا فيها سهولةالتمتع بتلك الاشياء ، كي نعيد النظر نهائيا بافكارنا عن هـــذا الموضوع . ولنتعلم كيف نفهم ان كل النظريات المثيرة عن التجـــارة والصناعة العالميتين تلائم الاجانب وتخدمهم سلاحا لحربنا في كل زمان ، لكنها لا تجد اي تطبيق في المانيا ، فيما يؤلف الاستقلال التجاري والوحدة الداخلية وسيلة الخلاص الثانية لالمانيا وبالتالي لاوروبا .

ولنتجرا اخيرا علـى ادراك الكريه واللامعقول في هذا التصور الواهم للملكية الكونية التي يريدون ان يملوا الايمان على الراي العا.

فيحل محل التوازن الذي يخف الايمان به قليلا قليلا . ان الطبيعة الروحية لم تستطع تمثيل الطبائع الاساسية للانسانية الا بان تضفي عليها صورا مختلفة في الافراد والفرديات الاعم ، اي الشعوب . وبالقدر الذي تنمو فيه الامة وينمو في قلب تلك الامة الفرد وتكون في حرية كاملة حسب طبيعته ، وحسب فردية الجماعة ، بهذا القدر فحسب تنعكس صورة الله في الانسانية كما في مرآة خاصة بها ، ولا يجرؤ على مخالفة هذا القانون الاسمى للعالم الروحي غير جاهل للنظام الالهي والقوانين التي تحكم العالم وعدو له عنيد . خصائص الامة الخفية هذه ، الخبيئة على عيونها نفسها ، تكون العنصر الذي يربطها الى منابع الحياة الاصلية ، وفيها تكمن ضمانة جلالها ، وفضائلها وفعالها المقبلة ، فاذا فلت هذه الخصائص بالامتزاج او الاحتكاك فان النمطية التافهة التي تتلو تجر الى فصل بين الانسانية وطبيعتها الروحية ويجد الافراد انفسهم وقد ضاعوا في نفس الانحلال . وهل وجب علينا ان نصدق من يزعم من الكتاب انه يعزينا عن آلامنا حين يؤكد اننا مدعوون الى ان نصبح رعية هذه الملكية الكونية الجديدة . هل نصدقهم حين يزعمون أن فردا عزم على ان يخلط كل البذور الانسانية التي يكنها النوع الانساني فيذيب في بوتقة ما هذه العجينة الرخوة ؟ امكنة مثل هذه القسوة ، امكن مثل هذا الاحتقار للنوع الانساني في ايامنا ؟ وحتى لو عزمنا على الايمان بهذه الاشياء اللامعقولة كان لنا الحق في ان نسأل باية وسيلة يمكن ان تطبق مثل هذه الخطة ، وما يكون شكل الشعب الذي يستطيع القيام بغزو العالم لمصلحة ملك عالمي جديد ، في الوضع الحالي للثقافة الاوروبية ؟ لقد انقطعت شعوب اوروبا ، عن ان تكون منذ قرون ، متوحشة تخرب عن لذة فحسب . انها جميعا تبحث ، عبر الحرب والجهد والفوضى ، عن السلم والراحة والنظام ، انها ترغب جميعا في الهدوء وطمأنينة بيتية تتوج رسالتها . وقد تتحسس بعض الوقت للحرب اذا تراءت لها مصلحة وطنية ، اما اذا تكررت نفس الطلبات ، فان الحلم يختفي ومعه حمى القتال التي ايقظ ، وتعود الى الامل بالنظام والسلام وتنتهي الى التساؤل : اين الهدف ولماذا يجب ان احتمل كل هذا ؟ وعلى من يريد ان ينهد لغزو العالم ، في ايامنا ، ان يبدأ بخنق هذه العواطف وان يخلق بشتى الحيل شعبا من المتوحشين لان من طبيعة عصرنا ، الا يوجد فيه مثل هذا الشعب . شيء آخر : ان من تعود ، منذ شبابه على الا يرى ، غير ارض حسنة الزرع ، والرخاء والنظام يتغلغل فيه هذا المشهد رقيقا، حتى اذا حانت له الفرصة ، ذكره في عمق الحنين الحي فيه ، فتألم اذا اضطر ان يهدم كل هذا . ولهذا جرى البحث عما يوازن هذا الحدب الكامن في عمق الانسان المتمدن مثل الحزن الذي يكابده امام اضرار الحرب التي تنشر في عرض البلد المحتل ، فادى الى انه التحريض على النهب . اذا لم يكفر الجندي الا بان يجني كنزا ، اذا لم يحلم الا بتخريب البلاد المزدهرة ، واستغلال البؤس العام كان متوقعا منه ان يظل اصم على صوت الشفقة والعطف . ان الغازي، في ايامنا ينمي عند رفاقه عدا تلك القسوة الوحشية برودا وطمعا دون شفقة ، وبدلا من ان يعاقب الذين ينصرفون الى التجاوزات ، فانه يشجعهم . وهو مكره فوق ذلك على ان يستأصل الخجل الملازم لمثل هذه الحملات ، ويغدو النهب الدلالة المشرقة على الذكاء الاريب وعملا بطوليا يستحق كل الالقاب والمراتب . او هل توجد اليوم في اوروبا امة على حقارة تبيح لها الاستجابة لمثل هذه الدناءة ؟ ولنفترض ان الغازي نجح بمثل هذا الفساد ، فان الوسيلة التي يستخدمها للوصول الى هدفه لا يمكن الا وان تظهر غير ناجعة . ان مثل هذا الشعب لا يرى ، فيما يكتسح من البشر والبلاد والآثار الفنية غير نبع ثروة يلتهمها باسرع ما يمكن ، كي يذهب الى مكان آخر ، وراء كنوز اخرى ، ويعمل في سرعة ، لا يعنيه غير ملذات آنية ، دون اي هم بالمستقبل ، انه من اجل ان ينال الثمار يقطع الاشجار التي تحملها ، ووسائل الاقناع جميعا ، عند هؤلاء الجنود والاغراء والخداع عبث فاذا نظرت اليهم عن بعد ربما احدثوا بعض الوهم ، اما عن قرب فانهم يبدون على ما هم عليه : رجال قسوتهم حيوانية ، شراهتهم دون كابح ، وهم رعب النوع البشري الصارخ . ان الاناسي من هذا النوع هم اهل لتدمير الارض وتحويلها الى فوضى ضائعة ، وليسوا هم بالذين يستطيعون تنظيمها في ملكية كونية . هذه الافكار وكل ما شابهها لا تولد الا في فكر يلعب بذاته ، ويكتمل في هذيان خيالي ، وهي لا تليق بالطبع الالماني الصلب الجدي. اننا في ابعد حد نستطيع ان نرى في بعض هذه الافكار ، مثل فكرة التوازن الاوروبي السياسي، وسائل مساعدة ، مقبولة الى درجة ما ، تسمح بالاتجاه في اختلاف وتعدد الظواهر المختلط ، لكن الايمان بوجود طبيعي لهذه الاشياء او البحث عن تحقيقها ، هو كأننا نريد ان نجد او نرسم على الكرة الارضية القطبين ، والمستويات الزوالية ، والمدارين ، وباختصار نقط الارتكاز النظرية التي تسمح لنا بالاتجاه في جولاتنا على الارض. واننا لنرغب في الا تعد امتنا الفكر لعبة تمزج المعضلات ، دون ان تقلق كثيرا على النتيجة ، وانما ان تتعود على التأمل كما لو كانت كل فكرة هي التعبير عن الحقيقة وانها يجب ان تتحقق في الحياة ، ولا ضرورة عندئذ للتحذير من الاختراعات الخادعة لسياسة اصلها اجنبي ، لا قدرة لها الا على تضليل الشعب الالماني .

اننا منذ ان نكتسب هذا الطبع الجاد الصلب المتاني ، في طريقة تفكيرنا ، فاننا لا نفتأ الا وان يتجلى في افعال حياتنا . انحن المغلوبون ؟ بلى . او هل نريد فوق ذلك ان نحتقر عن حق ؟ هل نريد ، بعد ان فقدنا كل تلك الاشياء ، ان نفقد الشرف ايضا ؟ كل ذلك يتعلق بنا . لقد انتهت المعركة المسلحة . ومتى اردنا بدأت معركة اخرى : معركة المبادىء ، والعادات ، والطباع .

علهم يحملونه معهم الى وطنهم ، فانهم ذات يوم اليه عائدون ولنحاذر تمكينهم من اسباب تدفعهم لاحتقارنا ، وخيرها ان نخافهم اكثر مما يجوز او ان نتنكر لذاتنا كي نشبههم ولا اعني ان نسلك سلوكا فرديا مثيرا : وانه آخر ما يمكن ان انصح به . ولنتابع طريقنا كأننا فيما بيننا فلا نقيم اية صلة مما تمليه الضرورة حصرا ، وافضل الوسائل تقوم على ان يرضي كل منا بما يسمح له به من ملك وضع الوطن الحاضر ، فيحتمل العبء العام في حدود قوته وان يعتبر اية منحة تجيء من الاجنبي خزيا مهينا . ومن المؤسف ، ان تتبنى كل الشعوب الاوروبية تقريبا ، ومنهم الالمان سلوكا يحض ، حين يوضع المرء في مجال الاختيار ، على تفضيل التهرب بدلا من ان يملي نفسه وبوسعنا ان نلخص بهذا المبدأ كل نهج ادب السلوك الحديث. او ليس بوسعنا ، نحن الالمان ، ان نخل بهذا المبدأ ، بدلا من الاخلال بمبادىء اسمى منه ! اليس بوسعنا ، ولو انه خرق لهذا المبدأ ، ان نبقى على ما نحن ، وان نغدو ، ان امكن ما يجب ان نكون في قوة اكثر وشجاعة اكثر . ولا نأسف اذا عيب علينا نقصان في السرعة والخفة ، او اننا نبدو اكثر جدا ووقارا وثقلا مما ينبغي ، ولنجرب ان نستحق اكثر فاكثر هذا العيب . ومن اجل ان نثبت على هذا العزم ، سهل علينا ان نقتنع باننا مهما بذلنا من جهد لن ننجح بارضاء الآخرين ، الا اذا انقطعنا عن ان نكون انفسنا ، وهو ما يعدل ، في خلاصة القول ، اننا انقطعنا عن الوجود . وهنالك شعوب تحافظ على اصالتها وترغب في التكريم ، فلا تأبى على الشعوب الاخرى ان تحذو حذوها ، وتلك ولا جدل حال الالمان ، ولقد امتدت جذورهذه الصفة عميقا في ماضيهم وحاضرهم حتى ليظلمون انفسهم من شدة ارادتهم في ان يعدلوا تجاه الاجانب وجيرانهم او تجاه العصور القديمة . ومن جهة اخرى ، شعوب شغلتها نفسها حتى انعدمت

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

لديها حرية السلوك في هدوء موضوعي تجاه الاخرى ، ووصلت الى الاعتقاد الا طريقة لان يكون الانسان متمدنا الا الطريقة التي تمتلكها في الساعة الحاضرة ، وان ليس لما عداها من النوع الانساني من قدر الا ان يصبح شبيها لها ، وان يدين العالم لها بالجميل لانها كلفت نفسها عناء تنشئته على صورتها . عند الفصيلة الاولى من الشعوب تتم تنشئة الانسان بفضل التاثير المتبادل لثقافة وتربية كل منها ، ويحصل هذا الاختلاط النافع ، بحسن ارادة الجميع ، وبما يحفظ لكل فرديته . اما عن شعوب الفصيلة الثانية ، فانها غير قادرة على تنشئة كائن ما كان ، لانها غير اهل لاحتواء شيء في كونها الحاضر والحالي ، ولا تفكر الا بحذف كل ما هو موجود ، لخلق فراغ حولها، فلا تجد في كل مكان الا صورتها ذاتها ، انها عندما تظهر في البدء ، بعض الود لاعراف وعادات المغلوبين ، فليس ذلك غير تفضل ورأفة المربي بالتلميذ الضعيف ولو انه جد واعد ، ان وجوه العصور القديمة الكاملة نفسها لا تعجبها الا حين تلبسها لبوسها هي ، ولو انها استطاعت لنبشتها من قبورها كي تعيد تربيتها على طريقتها وانا بعيد عن نية نعت احدى الامم الموجودة بهذه الروح الضيقة او الحكم عليها كلها . ولنوافق هنا ايضا على ان الخيار هم الذين لا يظهرون ، اما اذا شئنا ان نحكم على الذين جاءوا الينا تبعا لتظاهرهم ، فاننا لا بد لنا من ان نصنفهم في هذه الفصيلة . مثل هذا التاكيد يتطلب اثباتا ، ولن اتوقف عند كل التظاهر الذي يعرفه الناس جميعا والذي هو بنفس الروح ، بل اذكر واقعة واحدة هي التالية : لقد حارب بعضنا بعضا ، وكنا المغلوبين وكانوا الغالبين ، ليس هنالك اصدق من هذا ، وكل الناس عليه متفقون ، وكان بوسع الغالبين ان يكتفوا بهذا الامر . اما اذا وجد بيننا اناس زعموا ان السبب كان من عندنا ، اننا استحققنا النصر ، وانه مؤسف اننا لم نحصل عليه : فاي ضرر في هذا ، ولماذا يعيبه علينا الاجانب ، مع انهم يستطيعون ان يفكروا كيف شاؤا ؟ طبعا لا ! علينا الا نفكر كذلك ، فهم يريدون ان نعترف دون تحفظ ان التفكير على غير ما يفكر الغالبون او مقاومتهم ظلم ، اننا يجب ان نرى في الهزيمة انفع حدث وقع لنا وان نبارك الغالبين ،لانهم افضل المحسنين الينا. ولا يمكن ان يكون الامر غير ذلك وهم يطلبون من عقلنا الاعتراف به . ولماذا اضيع وقتي بتكرار ما نجده حرفيا في حكايات تاسيت Tacite التي مضى عليها الفا سنة ؟ اذكر بخاصة ما يرويه تاسيت عن موقف الرومان تجاه البرابرة ، موقفكان تبريرا شكليا على الاقل وعذرا في قناعة الرومان ان مقاومتهم هي ثورة وتمرد ضد القوانين الالهية والانسانية وان السلاح الروماني لا يحمل للشعوب غير النعم وما القيود التي يكبلون بها المغلوبين غير شرف لهم . تلك هي الفكرة التي حملوها الآن عنا ويراد لنا في عطف كبير ان ندرجها في حسابنا كشيء طبيعي ، انا لا ازعم ان هذا الراي يعبر عن احتقار وقح ، اوافق على انه يوجد اناس من البلادة والزهو بانفسهم ما يحدو بهم لهذا التفكير ، وان ينعتوا ، مخلصين الخصم بهذهالفكرة، وافكر بان الرومان كانوا مؤمنين حقا بقناعاتهم ، لكني اسألكم اذاكان الالى من بيننا يحكمون انه مستحيل الموافقة على هذه الطريقة بالتفكير يستطيعون الامل باتفاق ما بينهم .

انا نصبح محتقرين بعين الاجنبي اذا القينا مسؤولية مصائبنا العامة على مواطنينا ، اكان ذلك على بعض الدول الالمانية ، او بعض الطبقات ، او بعض الافراد ، او عيّر بعضنا بعضا في مرارة وحدة . هذا وبعد ، فان الاتهامات من هذا النوع هي في غالب الاحيان ظالمة وواهية الاساس . ولقد بينا آنفا الاسباب التي ادت الى مصير المانيا الحالي ، انها موجودة منذ قرون في كل الدول الالمانية ، دون استثناء ، والاحداث الاخيرة ليست نتيجة هذا او ذاك الخطأ الذي ارتكبه هذا او ذاك الشعب او حكومته ، لقد نضجت منذ بعيد وكان يمكن ان تحدث في وقت آخر لو ان الامر لم يتعلق الا بالاسباب الكامنة فينا . لقد كانت جميعا ، من هذه الناحية ، مذنبة او بريئة ، ومن الصعب ان نتبين حصة كل منها . عندما وجدنا انفسنا في مواجهة المصيبة الاخيرة ، استطعنا ان نلاحظ ان الدول الالمانية لم تكن تعرف نفسها ولا قواها ولا وضعها الحقيقي ، كيف يستطيع امرؤ مهما كان غروره ان يخرج من ذاته فيوجه اتهاما نهائيا ، مبنيا على براهين لا ترد ؟

لنسلم بان في كل الشعوب من منشأ الماني طبقة اجتماعية استحقت لوما مبررا ، لا لانها لم تحسن الرؤية افضل من سواها او لانها لم تكن اهلا لعمل الضروري ، وانما لانها زينت للناس انها انفذ بصيرة واقوى ولانها اقصت الطبقات الاخرى عن حكم الدول . قلت ، لنسلم ، ان هذا اللوم مبرر : من يعرب عنه ، وما يفيد الاعراب عنه اليوم بقوة اكثر من اي زمن مضى ، وجعله موضوع مناقشة عامة ؟ اننا نرى بعض الكتاب يفعلون ذلك. لو انهم عبروا عن رأيهم بهذه الطريقة في الحقبة التي كانت تتمتع تلك الطبقة الاجتماعية فيها بالقوة واحترام الناس وموافقة اكثرية النوع الانساني الصامتة ، لما عاب احد عليهم خطابهم القديم فما فعلت التجربة الا انها ايدته . نعرف ايضا انهم يريدون تقديم فلان او فلان من الشخصيات ممن يذكرون اسماءهم الى المحكمة الشعبية ، لانهم كانوا على راس الشؤون كي يعروا عجزهم ، وكسلهم ، وسوء نيتهم ، وان يبينوا ان الحال الحاضرة هي النتيجة الحتمية لرذائلهم ونقائصهم لكن هل رأى المتهمون فاعلنوا ، من قبل ، حين كان المتهمون يمسكون بالسلطة وكان ممكنا تفادي الشرور الناجمة عنها ، ما يتعرفون عليه ويعلنون اليوم ؟ هل عبروا في السابق عن اتهامهم بنفس الوضوح ، او لم يهملوا اية وسيلة لانقاذ الوطن بانتزاع السلطة من ايدي اولئك الحاكمين ، ثم هل كان ذنبهم الوحيد ان الناس لم يصغوا اليهم ؟ اذا كان نعم فلهم الحق بان يذكروا بتحذيراتهم السالفة . اما اذا كانت حكمتهم ناجمة فحسب عن النتائج الحالية الظاهرة لكل الشعب : فلماذا يصرون الآن على قول ما يعرفه الناس جميعا مثلهم ؟ اما اذا كانوا مالقوا لمصلحة او صمتوا عن خوف من الطبقات الاجتماعية نفسها ونفس الاشخاص الذين يقذفونهم ، منذ ان فقدوا السلطة ، بالاتهامات الصاخبة ، فلعلهم لا ينسون في المستقبل ، عندما يتكلمون عن مصائبنا ، الا يتهموا النبلاء والوزراء والجنرالات غير الاكفاء فحسب ، وانما الكتاب السياسيون ايضا الذين لا يعرفون ما كان يجب حدوثه الا بعده ، الذين مثلهم مثل السوقة يمالقون القابض على السلطة ثم ينهالون عليه ويشنعون بعد سقوطه .

او ربما يشهرون باخطاء الماضي (كما لو ان التشهير بها يجعلها غير موجودة) كي يدفعوها عن التكرار في المستقبل ؟ او هل تدفعهم رغبتهم وحدها في الحصول على تحسين جذري للشرط الانساني الى نسيان قواعد التعقل واللياقة ؟ ولكم كنا نود ان نعزو اليهم النيات الحسنة ، لو ان عمق نظراتهم ووضوح عقلهم مكناهم من الارادة الطيبة في مثل هذه القضية ، ان الآلام التي نتعذب منها ليست فعل افراد كانوا يحتلون صدفة المراكز الاولى بل نتيجة ترابط ، واشتراك اسباب جد معقدة : انها تنجم من روح العصر نفسها ، باخطائها ، وجهلها ، وطيشها وجبنها ، وهي نفسها اسباب الحيرة الكبرى في كل المشاريع ، ان اعراف عصرنا هي التي اغرقتنا في بؤسنا الحالي، وعلى هذا كان علينا ان نحمل على الاوضاع اكثر من حملتنا على الاشخاص ، وعلينا ان نسلم ، باننا لو احتللنا نفس المراكز لانجررنا حتما ، تحت ضغط البيئة ، الى الوقوع بنفس الاخطاء والوصول الى نفس النتائج . فلننقل من الكلام عن الخبث والخيانة عن سابق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تصور ! ان الغباء والتهاون يكادان يكفيـــان لتفسير الاحـداث ، وهما غلط لا يبرأ منهما اي منا الا بعد مراجعة جدية للضمير ، كما يجب ان يكون الفرد ، امام قوة المطالة الفظيعة عند الجماعة ، على قوة فاعلة خارقة كي يقهرها ، اذا كانت الاخطاء الفردية تبدو لنـا في جلاء فاضح ، فان هذا لا يفوضنا بان نرى ان هذه الاخطاء هـي سبب الشر الاساسي ، وليس تجنبهذه الاخطاء في المستقبل هـو الذي يمنع الشر من ان يعود . ان الرجال لا يستطيعون تجنب الخطأ والغلط ما داموا ضعافا ، وحين يتجنبون اخطـاء سلفهم ، فانهم واجدون في مكان الضعف الانساني اللانهائي اغلاطا جديدة تقترف . ان التحول الكامل، ان ولادة روح جديدة وحدها تستطيع انقاذنا . واذا اراد الكتاب ان يساهموا في قيام هذه الروح ، فاننا نعترف لهم طواعية بمجد تحليهم بالارادة الطيبة وبانهم يقيمون الدليل على الذكاء المستقيم النافع .

ان اللوم المتبادل ظالم وغير مجد ، وغبي ، لانه يحط منـا في عين الاجنبي وكاننا نقدم له حججا لاحتقارنا . اذا لم ننقطع عن التكرار امام الغالب الى اي حد كان كل شيء مختلطا وعبثا عندنا وكم كانت حكومتنا يرثى لها ، الا يؤول به الامر للاعتقاد ، ان سلوكـه تجاهنا كريم ، كيف كان ، وانه ليس قادرا على ان يصير اقسى مما يجب ؟ او لا يذهب به الظن الى اننا نقبل ،ما دمنا على ما نحن من ثقل وخرق ، في عرفان متواضع ، كل ما اعطانا ، وكل ما يتوخى ان يقترف من اجلنا ، في الغني من كنوز مؤسساته الحكومية والادارية والتشريعية ؟ او هل وجب علينا ان نغذي فيه هـذا الراي المتم لزهوه ، والضار بنا ؟ او لا نبرر هكـذا التصريحات المهينة من النوع التالي : لقد جئنا بوطن الى بلاد الالمان التي لم يكن لها شيء منه حتى الآن ؟ او : لقد الغينـا التبعية الاستعبادية التي كان عليها الالمان احدهم تجاه الآخر تبعية كانت عنـدهم مؤسسة شرعية ؟ هـذه التصريحات ليست اساسا الا تكرارا لما نقوله عن انفسنا ، املا في ممالقة الغالب ، ان الالمان على عار خاص بهم لا يشاركون فيه ايا من الشعوب الاوروبية ، التي كان لها قدر مشترك : منذ ان سيطرت علينا جيوش اجنبية سلكنا وكاننا ننتظرها منذ بعيد وعمدنا ، دون ان نضيع لحظة من التمتع بهذا الفضل ، الى اغداق الشتائم على كل ما له صلة بالوطن ، على حكوماتنا وحكامنا وكنا مالقناهم من قبل في حطة .

كيف نبريء انفسنا ، ونحن الابرياء وندع المذنبين وجها لوجه امام غلطتهم ؟ هنالك وسيلة . منذ هذه اللحظة نتوقف عن كتابة مؤلفات التشهير ، لاننا اقتنعنا بان هذه المؤلفات لا تجـد شارين وان مؤلفيها وناشريها لن يستطيعوا الاعتمـاد على قراء ما كانوا يبحثون الا عن ملء فراغهم ، باطلاع باطل ، وهوس بالثرثرة وفرح خبيث باهانة الذين كانوا يعانون من قبل تجاههم الاحترام . على كل الذين يعانون هذا العار ان يرموا بالاحتقار الذي يستحقه كـل مؤلف شائن اذا نصحهم بعض بقراءته ، ليقوموا بـذلك ، حتى ولو ظنوا انهم وحدهم يفعلون ، الى ان تغدو هذه الطريقة طريقة كـل الشرفاء ، هكذا ، ودون اللجوء الى مراقبة ظالمة ، تزيل هذا الجزء الدنيء من ادبنا .

ان ما يحط من قدرنا في عين الاجنبي ، هو ما نبذله من جهـد كي نتملقه . ان بعضا مناجعلوا انفسهم فيما خلا ، محتقرين اهـلا للسخر ، ومنفرين لانهم مالقوا في فظاظة تخرج على كل قواعد العقل والذوق والكياسة حكوماتنا الوطنية ، واستغلوا كل المناسبات كي يتغنوا بمدائحها ثم اختفت هذه العادة وحل محلهـا غالبا السباب والشتائم بحق الحكومات . غير اننا ، من اجل الا نفقد ، ولا شـك عادة التبخير ، وجهنا الآن دهان بخورنا وجهة اخرى : الى القابضين على السلطة حاليا ، في الحالة الاولى كان كل الماني رزين يتألم من رؤية هذا الملق ، طالما تبرره اية ضرورة ، ولو ان الامر كـان يبقى بيننـا . او هل نريد ان نشهد الاجنبي ايضا على هذا الهوس المنحط وعظم الغباء الذي ننزلق به اليه ؟ هل نريد ان نضخم الاحتقار الذي توحي به حطتنا بما توحي به بالضرورة خرافتنا ؟ اننا ينقصنا ، بمـا يخص الملق ، ما يعرضه الاجنبي من ظرف ، ونغدو في خشيتنا من الا نفهم ، منافيخ فنشبه ابطالنا بالالهة والنجوم ، يضاف الى ذلك اننا يبدو علينا ونحن نستسلم الى فيض الملق ، اننا نستجيب قبل كل شيء الى الخوف والخشية ، ولم ار ابعث للشفقة من خائف يمتدح ظرف وجمال من يعتبر ، في قرارة نفسه ، وحشـا يجرب تدجينه بملقه ، عله لا يمزقه .

ام تلك المدائح ليست ملقا ، وانما هي تعبير عما يعانون مـن عبادة واعجاب بالعبقرية العظيمة التي تقـود الشؤون الانسانية ؟ ما اقل اذن معرفتهم بمميزات العظمـة الحقيقية ! ان العظمة الحقيقية عند كل الامم وفي كل العصور متشابهة دائما مع نفسها في جهلها الغرور ، فيما عرف الغرور دائمـا بانه دليل على الصغار والحطة . ان العظمة الحقيقية التي تجد عناصرها في ذاتها ، لا تحب ما يقيمه المعاصرون من تماثيل ، ولا لقب « العظيم » ولا الهتافات الصاخبة ومدائح الجمهور ، انها ترفض هذه الاشياء بالاحتقار الذي تستحقه وتصغي لحكم وجدانها نفسه بانتظـار حكم الاجيال . ان ما يميز العظمة الحقيقية ، رعبها المقدس الذي يوحي به دولاب الحظ الدائر دون انقطاع فلا يسمح بتمجيدها كالقديسين قبل ان يكتمل كل شيء . وهكذا يتناقض حملة المباخر مع انفسهم ويصل بهم الامر الى ان يتحول محتوى كلامهم الى اكاذيب . اذا قدروا ان غرض عبادتهم المزعومة هو حقا عظيم ادركوا انه فوق تأييدهم ومدائحهم واكتفوا بعبـادته في صمت واحترام ، وهم بجعلهم تلك المدائح شغلهم ، يبينون انهم يجدونه في الواقع صغيرا وضيعا وعلى غرور يستطيب معه الملق ويعرفون بهذه الوسيلة تحويل شر ما او اغتنام منفعة مـا .

وما يعني ، حين تفحص عن قرب هـذا التعجب المتحمس : « اية عبقرية سامية ، اية حكمة عظيمة ، اية خطة هائلة ! » ؟ يعني التالي فحسب : هذه العبقرية من العظمة بحيث نفهمها تماما ، هذه الحكمة على عمق ننفذ اليه نحن ايضا نفوذا كاملا ، هـذه المشاريع هائلة حتى لنستطيع تكرارها كلها . انه يعني ايضا ان المـدوح هو تقريبا على مثل عظمة المتملق ، لا تماما طبعا ، ذلك ان هذا يفهمـه ويحيط به بحذافيره ، فهو اذن متفوق عليه : وحين يبـذل بعض الجهد ، يستطيع ان يصنع اشياء اعظم مما صنع ذاك . ولا بد ان يكون المرء ذا راي حسن بنفسه حين يعتقد ان بوسعه ان يغـازل نفسه بهذه الطريقة الممتعة ، وان يكون تقدير الممدوح لنفسه هينـا حتى يقبل راضيا هذا التكريم .

لا ، ايها الالمان والمواطنون البسطاء ، المتواضعون ، الجديون ، الرصينون اعملوا على الا يلطخ سوء الادراك هذا روحنا والا يقترب هذا الوسخ من لغتنا التي تكونت على التعبير عن الصـدق وحده ، ولندع للاجانب دور الاعجاب بظهور شخصية جـديدة ، لندعه يكتشف كل عشر سنوات مقياسا جديدا للعظمة ، وان يخلق آلهـة جديدة ويجدف على الآلهة من اجل تكريم البشر . ولتبق فكرتنا عن العظمة على ما هي عليه : عظيم فحسب من كان غنيا بالافكار الاهل لان تمكن لسعادة الشعوب ، والـذي يعرف كيف يتحمس لهذه الافكار ، اما عن الاحياء فلندع الحكم عليهم للاجيال .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخطاب الرابع عشر

خلاصة عامة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في « الخطابات » ، التي هذه خلاصتها ، اتجهت اليكم شفويا ، والى الامة الالمانية جميعا ، عبر اجتماعنا ، الى كل القادرين ، ممن يتكلمون اللغة الالمانية ، على الفهم كما لو كانوا مجتمعين في هـــذا الاطار ، الذي اراه امامي . اذا كنت نجحت في ان اوقد شرارة فـــي صدر احد الذين استمعوا الي وان اجعل الشرارة تغدو شعلة تنبثق في الحياة فتضيئها وتدفئها ، فانا لا اريد لهـــذه الشرارة ان تبقى منعزلة لكني اريد ان ارى على كل ارضنـــــا ولادة طرق في التفكير وقرارات مشابهة ، وهي ان انضمت لقراراتكم تنعش الشعلة حتى اذا انطلقت من هذا المركز ، اكتسحت كل الارض ، حتى ابعـــد حدودها ، وهي تثير في كل مكـــــان نفس التأجج الوطني . هذه « الخطابات » لم تعالج موضوع العصر الحـــالي من اجل تمضية اوقت ، او تسلية الآذان والعيون الكسلى ، واود ان اعرف ،والذين يفكرون مثلي يودون ايضا ان يعرفوا ، اذا كانت توجد خارج نطاقنا طريقة في التفكير قريبة منا . كل الماني ظل على الاعتقاد انه عضو في امة ، يقدر انها عظيمة ونبيلة ، مستعد لان يخـــاطر بكل شيء وان يتألم من اجلها ، يجب تثبيته على ايمانه ، يجب أن يرى في وضوح اهو على حق ام انه اهبل وحالم ، يجب ان يتبع منذ الآن طريقـــه في شعور ثابت وفرح ، او ان يرفض في حزم رجولي الوطن الارضي ، ويرضى بامل العزاء بوطن سماوي .

اليكم ، لا باعتباركم اشخاصا عاديين نقاسمهم الحياة اليومية المحدودة ، وانما كممثلين للامة ، كل الامـــة ، اليكم اتمسك بقول مـــا يلي :

منذ قرون لم تجتمعوا بمثل العدد الذي انتم اليوم عليه ، وفي فرصة على هذا الجلال ، والثقل والاهمية العامة ، بصفتكم امـــة والمانا . وهذا ما لم يحدث لكم ابدا . اذا كان انتباهكم شاردا ، اذا لم تعودوا الى نفوسكم ، او عددتم هـــذه الخطابات تجميع كلمات فارغة او دغدغة لآذانكم ، لا نتيجة لها ولا غد ، اثبتم ان احـــدا لا يستطيع الاعتماد عليكم . اصغوا اذن مرة واحدة على الاقل ، فكروا مرة واحدة على الاقل ، لا تغادروا المكان هذه المرة ، قبل ان تتخذوا

قرارا حازما ، وليتخذ كل من يستمعون الى صوتي هذا القرار في اعماق انفسهم كما لو كان كل منكم وحده ، مكره على ان يفعل كل شيء وحده . وفي اليوم الذي يتوصل فيه افراد كثيرون الى هـــذا الشيء ، لن يتأخر بهم الوقت حتى يؤلفوا كلا عظيما ، يمثل اعضاؤه المتحدون بشدة قوة واحدة . اما اذا تفرد كل منكم ، وما اعتمد الا على الآخرين ، فانه لن يكون هنالك آخرون ، وتبقى الاشياء على ما كانت عليه في الماضي .

اتخذوا ، فورا هذا القرار . لا تقولوا : دعونا نتنفس بعض الوقت ، ننام ونحلم في هدوء ، املا في ان يحصل التحسين من لدنه. انه لن يأتي من كونه . ان من فاته استدراك نفسه البارحة ، وكان بوسعه ان يفعل في سهولة ويأبى ان يستدرك اليوم ، يجد انه اقل قدرة في الغد . ان كل تأخير يجعلنا اكسل ويوغلنا ابعد في رضانا الحبيب بوضعنا البائس . ومن جهة ثانية فان العوامل الخارجية التي تدفعنا للتفكير لن تكون ابدا اشد واقوى الحـــاحا . ان من لا يحس ان حاضرنا يسخطه فقد الاحساس اكيدا . انتم مدعوون هنا الى ان تحزموا امركم ، الى قرار حاسم ، لا لكي تتلقوا امرا ، او تكلفوا بمهمة ، ولا كي تسدوا التشجيع للآخرين ، وانـــما كي تشجعوا انفسكم . يجب عليكم ان تتخذوا قرارات بحيث يقوم كل منكم بتنفيذها وبشخصه بالذات . والامر ليس القيـــام بمداولات تافهة ، او مرده الى القول اننا سوف نعمد الى ان نريد ذات يوم . ولنتجنب التواضع الكاذب الذي يؤجل عملنا الى اليوم الذي نصبح فيه افضل . لا ، ان ما يطلب اليكم ، هو قرار تمليه عليكم الحياة نفسها ، يكون بنفس الوقت فعلا داخليا ، قرار يثبت ولا يهتز ، حازم دائما ، حتى يتحقق الهدف النهائي .

او هل تهدم وجف فيكم النبع الذي يستطيع وحده ان يولد هـــذا القرار الحيوي ؟ او هل ضؤلت ، فاضمحلت طبيعتكم الى الدرجة التي اصبحت فيها وليست سوى ظل هش ، لا نسغ فيه ، لا قوة ، ولا عفوية ، حلم تعبره شتى الرؤى ، فيما يرتاح الجسم جامدا كجثة ؟ لقد قلنا كثيرا في هذا العصر وكررنا بمائة طريقة ، ان هـــذا هو ما نفكر به . وقد ظن الناطقون باسمه اننا نريد السخر منهم فحسب واعتقدوا انهم مضطرون للهزء بدورهم ، من الذين وجهوا لهم اللوم ، وقد ذهبوا ، الى ان في هـــذا ، ما يكفي لرد الامور الى نصابها الطبيعي . لولا انه استحال علينا ملاحظة ادنى تبديل ، ادنى تحسن . اما وان هذه الاحاديث سمعت ، فما كان لها من اثر الا ان تثبط همتكم ، لم يبق لديكم اذن الا ان تعطوا تكذيبا للذين يفكرون ويتحدثون هكذا عنكم . ليس لكم الا ان تظهروا للعـــالم كله انكم لستم كما يقولون وانهم كذابون . ربما حكموا عليكم بهـــذه القسوة في نية دفعكم لدحضهم ولانهم لم يروا من وسيلة اخرى لتحريضكم. انهم اذن ، يحملون عنكم فكرة افضل بما لا يقاس ، ويريدون لكم خيرا اكثر بما لا يقاس من الذين يمالقونكم ولا هدف لهم الا تثبيتكم على كسلكم الهادىء ، واستهتاركم الطائش .

انكم مهما كان ضعفكم ووهنكم ، سهل لكم اكثر من اي وقت مضى التفكير الصافي الهادىء . ان الذي خلق عندنا افكارا مختلطة عن وضعنا ، جعلنا ندلج في هذه الرعونة المميزة ، والتهاون الاعمى ، هو رضانا اللذيذ عن انفسنا وعن سلوكنا . اما وان الاشياء بقيت على ما هي في الحاضر ، فانه يبدو ، الا سبب يجعلها غير ما هي عليه في المستقبل ، ولقد واجهنا في فخار الذين دعونا الى التفكير ، لاننا لم تكن لدينا فكرة اخرى ، بواقعة ، اننا استطعنا العيش والدوام حتى الآن ، دون حاجة للتفكير بذلك . ولقد تم لنا هذا ، لاننا كنا ما مررنا بالتجربة فحسب . منذئذ ، مررنا جيدا بالتجربة . وبما اننا مررنا بها ، اما وجب علينا ان نبدد كل الاوهام ، والاشباح ،وكل التعازي الكاذبة ، التي لم تخدمنا حتى الآن الا بان نعطي الحياة مظهرا يقل او يزداد خداعا ؟ الم يحن الوقت كي نزيل الافكار السابقـــة الفطرية التي ، ايا كان نبعها ، نشرت علينا ما يشبه ضبابة طبيعية غطتنا بنفس الظلمات ؟ هذه الظلمات باتت لا تعني عيوننا ، وبالتالي لا يمكن ان نستشهد بها عذرا لنا . واليوم ، نحن هنا ، انقيـــاء ، تخلصنا وتجردنا من الاغلفة والاغطية ؟ وما نحن الا ما نحن عليــه . وبات علينا ان نبين الآن اذا كان اننا موجودا ام لا .

لقد وجب ان يقف احدكم فيسألني : « من ايـــن وممن اتتك بين الرجال والكتاب الالمان ، رسالة ، ودعوة ، وامتياز ، جمعنـــا وتحريضنا ؟ او لا يحق ذلك لاي كاتب الماني ؟ غير ان احدا سواك لم يستخدم هذا الحق ؟ » وعليه اجيب : « يقينا ، ان اي احـــد له الحق ، وانا الوحيد الذي فعلت ، وكنت صمت اكيدا لو ان احدا غيري قام به » . كانت تلك هي الخطوة الاولى على طريق التحسين، ولقد وجب ان يحزم احد ما امره عليها . وانا هذا الاحد الذي لمح اولا مثل تلك الضرورة الحيوية ، وعليه كنت اول من جابهها . بعد الخطوة الاولى ، تتبع خطوة اخرى ولكل احد الحق في ان يخطوها : غير ان واحدا سوف يفعل في الواقع . في كل امر يجب ان يوجـد الاول ، وعلى من يستطيع كونه ان يكونه !

تأملوا لحظة ، دون ان تشغلوا انفسكم بهذه الحادثة ، بالخاطرة التي اوحيت لكم بها قبلا ، فكروا كم كانت تحسد المانيا والعالم على وضعهما ، لو ان الاولى حظيت بسعادة استغلال وضعهـــا وعرفت كيف تميز مصلحتها . ادركوا كيف حال كليهما الآن ، المانيا والعالم، ودعوا يتغلغل فيكم الالم والغضب الذين يجب ان تعانيهما كل روح كريمة وبعد ذلك عودوا الى انفسكم : قولوا انكم انتم المدعوون لتحرير عصرنا من اخطاء الماضي ، وتبديد الضبابـــة التي تبلبل نظركم . يكفي ان تريدوا ذلك ، لانكم مدعوون من اي جيل لان تنسوا الماضي ، وتمحوا هذه الحقبة المعيبة من التاريخ الالماني .

استعرضوا مختلف الشروط التي يجب ان تنتقوا من بينها . اذا اصررتم على لا مبالاتكم وتهاونكم ، حاقت بكم كل آلام العبودية: الحرمان ، والاهانة ، واحتقار ووقاحة الغالب ، انكم تلفظون في كل مكان ، لانكم لن تكونوا انى حللتم في حال حسنة او موقع حسن ،الى اللحظة التي يتوصل فيها شعبكم ، بتضحية قوميته ولغته ، الـــى وضع صغير بائس ، فيه الموافقة على الانطفاء التدريجي . اذا ايقظت هذه الصورة فيكم شعورا بالثورة ، عشتم حياة افضل واشرف ، ورايتم حولكم جيلا يتفتح ، يضمن لكم ولكل الالمان صفحة مجد في التاريخ . هذا الجيل يجعل اسم الالماني لامعا بين الشعوب وتغـــدو من جديد امتنا محيية ومجددة للعالم .

ان مصيركم بين ايديكم : هل تريدون ان تكونوا نهاية ، آخر الممثلين لجيل غير اهل بالاحترام ، وربما محتقر اكثر مما يستحق ، جيل تاريخه (اذا افترضنا ان القول بالتاريخ ممكن، في حال البربرية التي بدائم) يسر الذين يأتون بعدنا ويكرمون عدالة مصيركم ؟ او ترغبون بان تكونوا بداية ونقطة انطلاق عصر عظيم ، يتجـــاوز كل آمالكم ويكون عند الاجيال بدء حقبة جديدة ؟ اعلموا انكم آخر من لديه القدرة على القيام بهذا التغيير . الم تسمعوا بالحديث عن الالمان ككل ، الا من دليل مرئي لديكم عن وحدتهم ، الم تروا او تسمعوا بامبراطورية او جامعة امبراطورية ؟ لقد ارتفعت من وقت الى وقت بينكم اصوات توحي بانقى حب للوطن . ان الآتين من بعـــدكم لن يتأخروا عن التعود على التمثيلات الجديدة ، وتبني صورة اجنبية وسلوك آخر في الحياة والشؤون ، وكم يدوم هذا ، ما دام لن يوجد احد راى المانا او سمع حديثا عن الالمان .

ARCHIVE
Archivebeta.Sakhrit.com

ان ما يطلب اليكم ليس شيئا كبيرا . انه لا يعدو نفوذه فيكم ، اعتكافكم قليلا من الزمن والتفكير بما يعرض مباشرة وعلنا لاعينكم . عنه يجب ان تكوّنوا لديكم فكرة ثابتة ، تكونون اوفياء لها ، تعلنونها لذي قرباكم المباشرين . افترض وانا قانع يقينا ان نتيجة هذا التفكير سوف تكون نفسها لديكم جميعا ، انكم حين تفكرون فعلا ، بـــدلا من المثابرة على اللامبالاة ، سوف تفكرون جميعا بنفس الطريقة ، انكم اذا لجائم الى روحكم ، بدلا من الاكتفاء بحياة بسيطة خاملة ، فان وحدة الارواح تقوم من كونها ويحل الوئام . وحينما نصل الى هنا ، تأتينا بقية كل ما نحن بحاجة اليه علاوة .

والحق ، ان هذا التفكير مطلوب من كل القادرين على التفكير بما امام عيونهم ، وعلى ان يفكروا به بانفسهم . ولديكم متسع من الوقت ، ولن تذعركم الاحداث او تفاجئكم ، وتظل خطاباتي تحـت تصرفكم . لا تجردوا انفسكم منها ، طالما لم تتخذوا قرارا ثابتا . استحلفكم ، لا تفقدوها التأثير ، بلجوئكـــم الى اخرى أو الى شيء خارج عنكم ، لا تدعوا حكمة العصر الكاذبة تخدعكم ، وهي القائلـة بان كل شيء يتعلق بقوة مجهولة وان الانسان لا دخل له . لم املّ في هذه « الخطابات » من التكرار انكم لا تستطيعون الاعتمـــاد على نجدة قوة خارجية ، وانكم وحدكم تعينون انفسكم ، واجد ضروريا ان اعيد الى آخر لحظة قول ما قلتمرات‌عديدة. يقينا ليس‌في قدرتنا انتاج المطر والندى ، او جعل المحاصيل غزيرة او ضئيلة : كل هذا يتعلق بمقدرة او قوى مجهولة منا ، امـــا عن الشؤون والشروط الانسانية الصرف ، فالانسان بغض النظر عن كل قوة خارجية ، هو صانعهـا ومبدعهـا . اما عندما يصيب العمـــه البشر ويترددون في الجهل فان هذه الشؤون والشروط تقع تحت سلطـــة تلك القوة المجهولة ، ومن الهام الا نكون عميانا او جهلة . لئن نكون اكثر او اقل شقاء ، متعلق جزئيا بتلك القوة المجهولة ، وغالبا بذكائنا وارادتنا. اما عن معرفة هل تؤول حالتنا ذات يوم للتحسن ، استطيع ان اقول لكم فقط ان هذا يتعلق بنا وحدنا ، وان الرفاه الوحيـــــد الذي لا نستطيع ابدا التمتع به هو الذي صنعناه نحن . ولهذا يجب ان تجتهدوا . وتناشدكم هذه « الخطابات » بالا تتأخروا .

تناشدكم ، انتم ، ايها الشباب ! انا ، الذي انقطعت منذ امـد بعيد عن الانتساب الى عمركم ، قانع ، ولقدقلته في هذه «الخطابات»، انكم الاحسن استعدادا لتقبل فكرة سامية ، اكثر الناس انفتاحـا على ما هو خير وشجاع لانكم بعمركم اقرب من الطفولة البريئـــة والطبيعة . ولو ان الاكبر عمرا من الناس يقيمون طبع الفتوة الرئيسي تقييما آخر . انهم يعيبون عليكم الاعتداد ، والحكم دون ترو ، فـي تحد ، من غير تقدير لقواكم ، انتم تزعمون انكم دائما على حق ، ان ما يعجبكم هو التغير والجدة . لكنهم يتحدثون عن نقائصكم جميعا بابتسامة رؤوف . انهم يذهبون الى انها تفسر بجهلكم العالم ، اي الفساد الانساني بوجه عام ، بانهم لا يرون شيئا آخر في العـالم . الذي يلزم لكم كي يمنحكم الشجاعة هو الاعتماد على رفاق يفكرون مثلكم ولا يصطدمون بمشاريعكم . عندما تنطفيء في خيالكم شعلـة الطفولة ، في وجود الانانية ، والكسل والقرف من الشغل وقـــد انتشرت كثيرا ، تأخذون عادة سلوك الطرق المطروقـــة ، وتفقدون الرغبة في ان تكونوا افضل واذكى من الآخرين . ان امل المتقدمين في العمر لا يجيئهم صدفة ، لان ما ينتظرونه منكم ، عانوه بانفسهم، ولهم فيه تجربة شخصية . انهم مضطرون للاعتراف بانهم في عهد شبابهم البريء حلموا هم ايضا ، بالمساهمة بتحسين العالم ، مثلما تفعلون انتم الآن ، غير انهم باتوا مع العمر ، على ما ترونهم سلسي القياد وهادئين . وانا اصدق بذلك . ان طول تجربتي يمكنني به : لقد رايت كثيرا من الشباب ، كانوا مترعين بالوعد في البدء ، ثـم آلوا الى تبرير انتظار العاقلين ، عنـــدما وصلوا الى سن الرشد . حذار ، ايها الشباب من تقليدهم ، لانكم لو فعلتم ما الذي يمكنـه ان يولد جيلا افضل ؟ يقينا سوف يضيع منكـم سحر الشباب ، وتنقطع نار الخيال عن ان تجد غذاءها في ذاتها . لكن اقبضوا على هذه الشعلة ، غذوهـــــا بوضوح تفكيركم ، تعوّدوا على فن الفكر الواضح ، تحصلون على علاوة هي ما يكون اجمل زينـة للانسان : الطبع . ان هذا الفكر الواضح هو ما يصبح نبع فتوة خالدة ، فيشيخ الجسد ، وتنحني الركبتان ، لكن روحكم تحتفظ ابدا بنضارتها ، ويظل طبعكم ثابتا وحازما . لا تتأخروا اذن باهتبال الفرصـــة التي تتقدم الآن اليكم ، فكروا بكل وضوح بالموضوع الذي نقدم لتأملاتكم، فمنذ ان يتجلى الوضوح على نقطة ، يمتد بالتدريج على الاخريات.

هذه « الخطابات » تتجه اليكم ايضا ، ايها الشيوخ . لقـــد عرفتم بما نفكر بكم ، ولا يزعجنا ان نقوله لكم ، ، والذي يتحدث اليكم يضيف ، من جهته ، انه ما خلا استثناءات غير قليلة ، وفـي هذا شرف اكبر لها ، يصدق ما نقوله عنكم على الاكثريـــة فيكم . عندما نستعرض تاريخ العشرين او الثلاث عشرات الاخيرة ، نلمس ان الرجال المتقدمين في العمر هم الذين اظهروا ، في غالبية الاحوال الكبرى ، انهم اقل اهلية واكثر انانية ، وهذا في كل فروع العلم ، بله كل حقول الحياة . كل منا يعرف ، وكل من بحث عن التحسين او الاتقان ان كان عليه ان يكافح ، لا ضد نقص الوضوح فيه ، وضد من حوله فحسب ، وانما وقبل اي شيء ، ضدكم انتم ، لقد عارضتم دائما قيام ما ليس من صنعكم ، كنتم ترون في كل فكر جديد مسبة لعقلكم فلم تهملوا اي سلاح كي تحرزوا النصر في المعركة ضد التقدم، ولقد كان النصر ، في الواقع دائما الى جانبكم . لقد كنتم القوة التي تقاوم كل التحسين الذي تمتاحه الطبيعة الكريمة من صدرها الفتي، حتى اليوم الذي تصبحون فيه كومة تراب لم تنقطعوا ابـــدا عن ان تكونوها ، والجيل الذي تلاكم وقاتلكم ، غدا بدوره ، شبيها لكـم فاخذ مهمتكم كي يتمها بنفس الروح . استمروا على صنع ما صنعتم حتى الآن وحافظوا على نفس الموقف تجـــاه مشاريع التحسين ، استمروا على التضحية بالصالح العام في سبيل الغرور الذي يزيـن لكم الا شيء بين الارض والسماء الا واكتشفتموه ، انها سوف تكون معركتكم الاخيرة التي سوف تعفيكم من كل ما عداها ، ويتفاقم كل شيء ، بدلا من ان يتحسن ، وانتم على فرحكم به العظيم .

لا تظنوا اني احتقر او ازدري الشيخوخة ، كشيخوخة . يكفي ان تعود بنا الحرية الى نبع الحياة الاصلية وتطورها حتى يغـــدو الوضوح اكثف وتزداد بنفس الوقت القوة التي تدعمنا ما عشنا . مثل هذه الحياة عيشها افضل ، تسقط فيها شيئا فشيئاكل شوائب الاصل الارضي ، وتساهم حياتنا في نبل الحياة الخالدة وترتفع اليها. هذه الشيخوخة تبعا للتجربة ، لا تهادن الشر ، لكنهـــا تعلمنا فن ووسائل النصر في صراعه . اذا تفاقمت الاشياء مع العمر ، فالخطأ خطأ عصرنا وحده ، والامر هو عينه في كل مجتمع يأكله الفساد .ان الطبيعة ليست هي التي تفسدنا ، وانما المجتمع ، لان الطبيعـــة تريدنا بريئين وتجعلنا نولد هكذا . ان من يدع نفسه لتأثير المجتمع يفسد اكثر فاكثر بدوره ، بالقدر الذي يدوم فيه هذا التأثير . ومن المفيد ان نفحص من وجهة النظر هذه تاريخ عصور اخرى مشابهة ، علنا نرى تحت حكم الاباطرة الرومان، مثلا اما اصبح السيء اشـــد سوءا مع الزمن .

اليكم اذن ، يا من تؤلفون استثناء بين اهل التجربة ، لتتجـه خاصة هذه « الخطابات » : عليكم ان تؤيدوا ، وتدعموا ، وترشدوا العالم الفتي الذي يلتفت بانظاره اليكم في احترام . امـــا الآخرون ، الذين هم القاعدة العامة ، فاني اطلب اليهـم ، الا يساعدونا ، الا

يزعجونا هذه المرة على الاقل ، الا يسدوا علينا الطريق ، كما فعلوا حتى الآن بحكمتهم ومخاوفهم . ان القضية التي نحن بصددها ، هي في غاية البساطة ، مثل كل ما هو معقول ، وهذا احد ما تجهلون من تفاصيل لا تحصى . لو ان حكمتكم تستطيع انقاذنا ، كانت انقذتنا منذ زمن طويل ، لانكم انتم الالى كنتم مستشارينا حتىالآن. لكننا نغفر لكم هذا كما غفرنا اشياء كثيرة ، ولن نعود اليها من بعد . تعلموا مرة فحسب ان تعرفوا انفسكم واصمتوا .

هذه « الخطابات » تتجه اليكم ايضا ، يا رجال الاعمال .لقد اظهرتم ، ما عدا بعض الاستثناءات ، انكم حتى الساعة مخلصون في عدائكم الى كل فكر مجرد ، يريد ان يكون شيئا بذاته ومن اجل ذاته ، ادى الى كل علم على انه علم ، كان يبدو عليكم انكم تعاملون كل هذا باحتقار كلي ، وكنتم تبعدون الناس المنقطعين الى هذه الاهتمامات ومشاريعهم ، والاعتراف الوحيد الذي اعتقدتم ان الواجب يقضي عليكم بالادلاء به هو في معاملتهم كمجانين اهل للحبس في دار المجاذيب . وما كان لهؤلاء الناس ان يتجرؤا على معاملتكم بنفس الصراحة ، لانهم في كنفكم . ولو ان هذا ما كان ليمنعهم من معرفة ما يكفيهم عنكم ، اي انكم ، ما عدا بعض الاستثناءات ، لستم الا ثرثارين سطحيين ، ادعياء مغرورين ، ارواحا ابتدائية ما فعلت غير ان عبرت بالمدرسة عدوا ، عميانا تعودتم الطرق المطروقة ، غير اهل للارادة والجهد . انتهزوا هذه الفرصة كي تكذبوهم بافعالكم ، اقلعوا عن احتقار التفكير الذي يذهب الى عمق الاشياء والعلم ، دعوا الآخرين ينيروكم ، اصغوا وتعلموا ما تجهلون ، فاذا لم تفعلوا، اشهدتم ان متهميكم على صواب .

هذه « الخطابات » تتجه اليكم ايضا ، ايها المفكرون والعلماء والكتاب ، الاهل بهذا الاسم . ان ما يأخذه عليكم رجال الاعمال له ما يبرره الى حد ما . انتم غالبا ما تسجنون انفسكم في دنيا الفكر الصرف ، فلا تهتمون بالعالم الواقعي ، ولا تنظرون الى ما حولكم ، ولا تتساءلون عن العلائق بين هذا العالم والفكر ، وما كنتم تصفون غير عالم خاص بكم ، فيما تهملون باحتقار وقرف عالم الواقع . يقينا ، يجب ان يستلهم نظام وتنظيم حياة الواقع من المبادىء السامية ، ولا يجوز ان ندعها تسلك الطرق المطروقة ، تلك حقيقة خالدة نستطيع ان نواجه بها كل الذين يجرؤون على التنطع بما يجهلون من اشياء فنعيدهم باسم الله الى التواضع . لكن توجد هوة بين الفكرة نفسها وادخالها في كل حياة خاصة.ان ملء هذه الهوة هو مهمة رجل الاعمال الذي يجب ان يبدأ بتعلم ما يكفيه كي يفهمكم ، وهو مهمتكم بمعنى ان عالم الفكر يجب الا ينسيكم حياة الواقع . وتلك يجب ان تكون نقطة التقائكم . وبدلا من ان ينظر بعضكم الى بعض شزرا من فوق الهوة ، ويرهقه بالاحتقار المتبادل، يحسن صنعا لو انه بحث عن ملء الهوة واتحدتم معا . واعلموا انكم لا غنى لبعضكم عن بعض ، مثلكم مثل الراس والذراع .

هذه « الخطابات » تتجه من نواح اخرى الى المفكرين والعلماء والكتاب الاهل بهذا الاسم . كل شكاواكم مما تشترك فيه الطبقات الاجتماعية جميعا من الميوعة الكونية ، والخفة ، وغياب الافكار وغرور الذكاء الكاذب ، واحتقار كل جدي وعميق ، لها مبررها ، فهي صحيحة في الواقع . لكن ما هي الطبقة الاجتماعية التي نشأت كل الطبقات الاخرى ، والتي احالت الى لعب عندها كل ما يتعلق بالعلم والتي جرتها منذ الشباب الى العجب والثرثرات ؟ ومن ذا يستمر على صفة مربي الاجيال بعد عهد المدرسة ؟ الا يأتي السبب الجلي للروح المحدودة التي تميز عصرنا من ان ناس اليوم قرؤا ، دون بحث عن الفهم الجيد ما كتبتم من مؤلفات ؟ لماذا تصرون دائما على الهاء الشعب المتبطل ، مع انه لم يدرس شيئا ولا يريد ان يتعلم. لماذا تكرمونه بتسميته جمهورا ، لماذا تمالقونه كحكم عليكم ، وتحرضونه ضد مزاحميكم ، وتبحثون عن كسب رضى الجمهور المختلط والاعمى ؟ انكم بما تصنعون ، تقدمون له ، في مقالاتكم وتقاريركم ، الاسباب والامثلة للاحكام المتسرعة . الا تجدون ان هذه الاحكام اللامتجانسة وقد كتبت على سرعة الريشة ، هي غالبا في مثل سخف آخر قرائكم ؟ اذا كنتم لا تفعلون جميعا هذا الشيء ، اذا كان بينكم من هم على عقلية افضل ، لماذا لا يتحدون كي ينهوا هذه الاوضاع المؤسفة ؟ فيما تعلق برجال الاعمال الذين تحدثت عنهم آنفا الا تقولون ، انتم ، انهم درسوا تحت ادارتكم ؟ لماذا لم تستفيدوا من مرورهم بالمدرسة ، كي توحوا اليهم على الاقل ببعض الاحترام للعلوم ، وكي تصححوا في الوقت المناسب ، بخاصة لدى شباب النبالة موقف العجب ، وكي تبينوا لهم ان الطبقة الاجتماعية والاصل لا يلعبان اي دور في ميدان الفكر ؟ اما اذا كنتم مالقتموهم وامتدحتموهم فوق الحد من اجل اصلهم ، ما بقي لكم الا ان تحتملوا نتائج ضعفكم .

هذه « الخطابات » تريد ان تجد لكم عذرا ، بافتراضها انكم لم تتبينوا اهمية رسالتكم ، وهي تناشدكم ان تنتبهوا ، دون تأخير ، الى هذه الاهمية ، بدلا من ممارسة وظيفتكم وكأنها حرفة عادية . تعلموا كيف تحترمون انفسكم ، واظهروه بافعالكم ، يحترمكم العالم بدوره . ولسوف نحصل على الدليل الاول مما يمنحكم اياه من تأثير قراركم ومن الطريقة التي تسلكون فيها بعده .

هذه « الخطابات » تتجه اليكم ايضا ، ايها الامراء الالمان . ان الذين يتصرفون تجاهكم ، وكأن احدا ليس له الحق ولا القدرة على خطابكم ، هم خداعون حقيرون ، ووشاة ادنياء : اطردوهم عنكم . والحق ، انكم ولدتم على نفس جهلنا نحن الآخرين ، وان كنتم تريدون الخروج من هذا الجهل ، فانتم بحاجة للاصغاءوالتعلم مثلنا نحن . لقد حددنا هنا في تحفظ وعدل قسطكم من الشقاء الذي عانيتم مع شعوبكم . ايها الامراء ، انكم لن تتبرموا بهذه الخطابات ، الا اذا اعرتم الاذن للممالقين ، واقصيتم الحقيقة . ولننس كل هذا ، نطلب اليكم ايضا ان ينسى نصيبنا من الغلطالعام. ان حياة جديدة سوف تبدأ عندكم وعندنا جميعا . عسى ان يستطيع صوتي الوصول اليكم ، عبر الحاشية التي تجعلكم لا يرقى اليكم ! يجب ان يقول لكم في فخر : انتم تحكمون شعوبا امينة طيعة، اهلا للسعادة ، شعوبا لم يحكم مثلها الامراء في اي عصر واية امة . انهم يحبون الحرية ، قادرون على التمتع بها ، ولقد تبعوكم الى الحرب الدامية ضد ما كانوا يعتبرونه الحرية ، لانكم اردتم ذلك . ولقد غير بعضكم افكاره فيما بعد ، وتبعوكم فيما قدروا انه حرب ابادة ضد احد آخر اوابد الاستقلال الالماني ، وهذا ايضا لانكم اردتموه . انهم منذئذ يتعأبون ويحتملون عبء الآلام العامة الثقيل ، ولو انهم ما انقطعوا عن الوفاء لكم ، والتعلق العميق بكم ، ومحبتكم على انكم حماتهم منحة من الله . لو انكم فقط تستطيعون مراقبتهم دون ان يروكم ! لو انكم تستطيعون التحرر فقط من حاشيتكم وهي التي لا تمثل جانب الانسانية الاجمل ، وتنزلون الى بيوت البورجوازيين ، واكواخ الفلاحين فتراقبون حياة الطبقات الاجتماعية الهادئة المجهولة حيث لجأ الوفاء على ما يبدو حين اصبح نادرا في الطبقات الاعلى ، وانا على يقين انكم تتخذون حينها القرار الحاسم بالتفكير في جد اكثر من اي وقت مضى ، بمد يد العون لهم . لقد حاولت في هذه « الخطابات » ان اقترحعليكم وسيلة تبدو لي حاسمة. اسألوا مستشاريكم اذا كانوا يوافقون على رأيي ام يعرفون آخر حسنا مثله . لكن يجب ، دون تأخير ، ان تعملوا شيئا حاسما وجذريا ، ولقد انقضى وقت انصاف الحلول والعلاجات المؤقتة ،

وتلك قناعة يجب ان تداخلكم ، قدر الامكان ، بثقة واستقامة .

هذه « الخطابات » انما تتجه اليكم جميعا ، ايها الالمان ، اية كانت الدرجة التي تحتلون في المجتمع ، او على الاقل للقادر منكم على الفكر والتفكير في الموضوع الذي نناقشه هنا ، عل كل منا ان يفعل وهو في وضعه الخاص ما في وسعه .

ان اجـــدادكم يشاركون في كلمي . اعلموا ان صوتي يمتزج باصوات الذين واجهوا باجسادهم سيطرة الرومان الكونية واكتسحوا مضحين بدمهم ، استقلال الجبال ، والسهول والانهار التي اصبحت حاليا فريسة الاجنبي . انهم يصيحون بكم : « حلوا محلنا ، انقلــوا ذكرانا للاجيال ، بان تحفظوها نقية شريفة بالقدر الذي اخذتموهــا فيه عنا فافتخرتم بها امام سلالتكم . كانت مقاومتنا حتى الآن نبيلة وعظيمة وحكيمة ، قيل عنا اننا اتصلنا بالارادة الالهية وانها اوحت الينا . اذا كان عرقنا ينتهي بكم ، فان شرفنــــا يتحول الى خزي وحكمتنا الى جنون . لانه لو كان حق على العرق الالماني ان يختفي، وان تمتصه الامبراطورية الرومانية ، لكان افضل له ان يفعل فــي الامبراطورية القديمة لا الحديثة . لقد غلبتنا الاولى ونحن نقاومها، نروض انفسنا ، فيما احالتكم الثانية الى تراب . وبما ان الاشياء هي على ما هي ، اقلعوا عن الامل بقهر اعدائكم باسلحـــة حقيقية : لا تجابهوهم بغير روحكم ، دافعوا عنهم ، امسكوا بهم جيدا . لقـد آلت في القسمة مهمة بناء ملك الروح والعقل العظيمـــة وان تنهوا ملك القوة الغاشمة الكوني . اذا صنعتم ذلك كنتم اهلا بنا » ، هذا ما تنادي به اصوات جدودكم الابعدين .

وتمتزج بهذه الاصوات اصوات جدودكم الاقرب منهم الـذين سقطوا في الحرب المقدسة من اجل الحرية الدينية وحرية المعتقد. انها تصيح بكم : « انقذوا شرفنا . اننا لم تكـــن نعرف في وضوح لماذا نقاتل : لقد كنا ، فيما عدا قرارنا المشروع في الا نـــدع قوة خارجية تهيمن على شؤون ضميرنا ، تهدينا روح اسمى ، لم تتجل ابدا في وضوح علينا . هذه الروح تود لو انها تكشف عن نفســها لكم ، اذا كنتم قادرين على لمح عالم الارواح والاتجاه فيه . عليكـم ان تتركوا ، مزيج الحوافز المادية والروحية المختلط الشاذ ، انهـا الروح ، الروح وحدها ، وقد تحررت من كل دافع مادي ، هي التي يجب ان تسود حماية المصالح الانسانية . لقد اهرقنا دمنا من اجل ان نمكن لهذه الروح من النمو والوصول الى وجود مستقل . اليكم يعود منح تضحيتنا كل المعنى والتبرير ، بتثبيت هـــذه الروح في الهيمنة الكونية التي يرجع الحق فيها اليها . والى ذلك مــآل تطور امتنا ، ولئن لم تصلوا اليه كانت معاركنا جميعا لا تعدو عروضا عسكرية ضاجة وعقيمة ، وتبقى حرية الفكر والضمير كلمة فارغــة من المعنى ، ومن المتوقع الا توجد بعد لا روح ولا ضمير » .

يناشدكم ايضا من لم يولد بعـــد من ابنائكم . يقولون لكم : « انتم فخورون بجدودكم وتزعمون في كبرياء انكم تنتسبون الــى سلالتهم النبيلة . اسهروا اذن على الا تنقطع بكم السلسلة . افعلوا ما يبيح لنا نحن ايضا ان نفخر بكم وان نغدو ، بواسطتكم ، اعضاء لا عيب فيهم في هذا الرهط المجيد . اسمعوا ما لا يجعلنا نحمر من اصلنا ، على انه وضيع ، بربري ، ذليل ، ولا يكرهنا على انكــار جدودنا او تغيير اسمنا ، فانتسابنا الى سلالة اخرى ، من اجــل الا نلفظ او نزهق في العار . آنئذ نزول كجيل تحدر منكم وتمحي معنا ذكراكم من التاريخ . انه لشرف ، ان تعيشوا في شرف ، عــار اذا لم تنشئوا جيــلا قويـا او ان تــدعوا الغــالب يصنع تاريخكم . ان الغـــالب لا يظهر ابــدا انــه مستعد للقول بحكم عادل عن المغلوبين . وهو يظن انــه يزداد عـــدلا حين يوغــل باهانتك . من بوسعه ان يقدر ، كم من المآثر ، والمؤسسات الرائعة ، والعادات الكريمة لدى شعوب عديدة من العصور القديمة سقطت في النسيان ، لان سلالاتها سقطت تحت النير ، واستطـاع الغالب ، دون الخوف من المعارضة ، الا يروي عنها غير ما يخدم اهدافه ! » .

ان الاجنبي نفسه يناشدكم ، بالقدر الذي يعرف فيه نفســه على الاقل ويفهم مصلحته . بلى ، ما زال يوجد في كل الشعوب اناس لا يستطيعون القبول بان كل الوعود التي قـــدمت للنوع الانساني باقامة امبراطورية يحكمها الحق والعقل والحقيقة ، ليست غــير وعود باطلة خادعة ، انهم يذهبون الى ان عصر الحديد الحالي ليس غير فترة انتقال الى حالة افضل . هؤلاء الناس والانسانية الحديثة كلها تعتمد عليكم . ان جزءا عظيما من هذه الانسانية هو من نفس منبتنا نحن ، اما الآخرون فقد تلقوا منـــــا دينهم وثقافتهم . ان الاول يناشدوننا باسم ارض الوطن المشتركة ، التي كـــانت ايضا مهدهم فسلمونا اياها حرة ، والآخرون باسم الحضارة التي اخذوها عنـــا ، عربونا لسعادة اسمى . انهم جميعا يناشدوننا ، على ان نبقى كما كنا ابدا ، والا نسمح بنزع تلك الحلقة التي تربط الماضي بالجيل الجديد لعله في اليوم الذي يحتاج فيه الى نصائحنا ، ومثالنا ، وتعاوننا ، من اجل تحقيق هدف الحياة الارضية الحقيقي ، لا يرى حزينـــا اننا لم نلب دعوتــه .

كل العصور ، كل العقلاء والطيبين من البشر الذين تنفســوا ابدا على ارضنا ، كل افكارهم ، وكل طموحاتهم الى الاعلى ، كل هذا هو الذي يكون الاصوات التي احدثكم عنها ، كل هذا يحتشد حولكم في اماثر الضراعة . ولسوف اذهب ابعد فاقول ان العناية نفسهــا ، ان الخطة التي قامت على خلق النوع الانساني في عالم لا يوجد الا من اجل ان يفكر به ويحققه الانســـــان ، تهيب بكم ان تنقذوا شرفكم ووجودكم . من على حق : الذين يؤمنون بقيام عالم افضل ، يجب فيه انقاذ فكرتي النظام والكرامة ، ام الذين يعتبرونهما مثل الاحلام العقيمة ، ويفضلون الغفو في حياة نباتية وحيوانية ، دون اية وثبــة الى العوالم السامية ؟ اليكم يرجع القرار ، بنطق الحكم النهائي . لقد انهار العالم القديم بعظمته وغروره واخطـــائه ، من حطته وعنف اجدادكم . اذا كان عرض هذه « الخطابات » يتفق مع الحقيقة ، كنتم انتم الذين ، بين كل الامم الحديثة ، تحفظون بذرة قابلية الكمـــال الانساني ، وانتم الموكلون بالسهر على نمو الانسانية . فـــاذا لـم تظهروا انكم على مستوى مهمتكم ، وجب على الانسانية ان تتنازل عن كل امل بخلاصها ذات يوم من هوة آلامها . لا تبحثوا عن سـبب للامل ، ولا عن عزاء مبني فحسب على بعض فترات التاريخ التي نرى فيها امة نصف بربرية تبدع حضارة حديثة على انقاض امة قديمة . ولقد وجد ، في الحق ، في العصور القديمة شعب مشابه يملك كــل متطلبـــات مثل هذه الرسالة ، وكـانت تعرف بذلك الامة الوحيدة المتمدنة ، وتركت لنا وصفه ، ولو ان هذه الامة استطاعت التنبوء بسقوطها النهائي ، لكانت اكتشفت يقينا عند ذاك الشعب ووسائل بعثها هي . ونحن ايضا ، نعرف كل سطح الارض ، وكل الشعوب التي تقطنه . فهل نعرف في العصر الحاضر شعبا واحدا شبيهـــا بالامة ، الام يستطيع ان يعطينا نفس الآمال ؟ كل البعيدين عن التامل والامل كحالمين ، القادرين على التفكير بعمق ، لا يترددون عن جواب سلبي على هذا السؤال . لا مخرج آخـر اذن : اذا هلكتم ، هلكت الانسانية جميعا معكم ، دون امل في البعث .

هذا كل ما عندي من قول لكم ، انتم يا ممثلي الامة ، وعبركم ، الى الامـــة جمعاء .

●

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اللوح الرياضي من تل حرمل

قاعدة رياضية جديدة

من أجل الحصول على صورة واضحة عن الرياضيات في العراق القديم وعن الاسلوب الذي تم بواسطته حل اللوح الرياضي من تل حرمــل(1) علينا أن نلقي الضوء على البدايات الاولى والمراحل التطورية الاخرى لعلم الرياضيات القديمة ومما لاشك فيه ان اسلوب الترقيم وطبيعة الارقام السومرية تمثل الاساس الاول الذي قامت عليه الرياضيات السومرية والبابلية فيما بعد.

ان معلوماتنا عن الترقيم تعتمد على المخلفات الكتابية التي ظهرت الى حيز الوجود منذ ان تعرف السومريون على الكتابة وذلك في حدود 3200 ق.م. ومما يجدر ذكره بخصوص الموضوع قبل دخوله هو ان الانسان مقيد في كل مبتكراته بعاملين مهمين ، اولهما أن تظهر الحاجة الملحة الى ذلك الابتكار وثانيهما طبيعة المادة المستخدمه في تنفيذه . لأن هذين العاملين يتسببان دائما في صياغة شكل الابتكار .

فالسومريون كما يبدو من مخلفاتهم الكتابية قد استخدموا الطين بصورة أساسية كمادة يكتب عليها ، رغم أنهم قد كتبوا ايضا على الحجر والمعدن ، الا ان ذلك كان نادرا ولا يقاس بما كتب على الطين .

هذا وان خاصية مادة الطين قد اضطرت الكاتب السومري الى استعمال وسيلة للكتابة (= القلم) تتلاءم وطبيعة الطين . وعلى مايبدو ان من نتائج التجارب العملية التي عاشها الكتاب الاوائل تبين لهم ان افضل وسيلة للكتابة على الطين هو القلم الذي راسه مثلث الشكل . اذ لو جربنا الكتابة على الطين بقلم آخر ولنفترض انه ذو راس مدبب ، فسوف يترك هذا القلم اثارا على جوانب مساره على الطين تشوه الكتابة والرقيم الطيني نفسه . ومهما يكن من امر فاننا لسنا بحاجة لان نفترض ان القلم الذي استخدم في الكتابة لم يكن مثلث الراس وذلك لسببين اساسيين . اولهما شكل العلامات المسمارية ، حيث ان كل خط من خطوط العلامة المسمارية يشبه المسمار وثانيهما الذي يدل دلالة اكيدة على ان راس القلم الذي استخدم مع الكتابة المسمارية كان مثلثا هي تلك الحكمة البابلية القائلة : « راس (بداية) الكتابة هو المثلث = RESH TUPSHARRUTI SANTAKKU »

مما تقدم وبعد وضع جميع الاحتمالات الممكنة بنظر الاعتبار استطاع المختصون بالكتابات المسمارية ان يتصوروا القلم الذي استخدمه السومريون والبابليون في كتاباتهم بالصورة الموضحة في الشكل رقم (1).

الشكل رقم (1) . يبين مقدمة القلم وموخرته الكبير والصغير

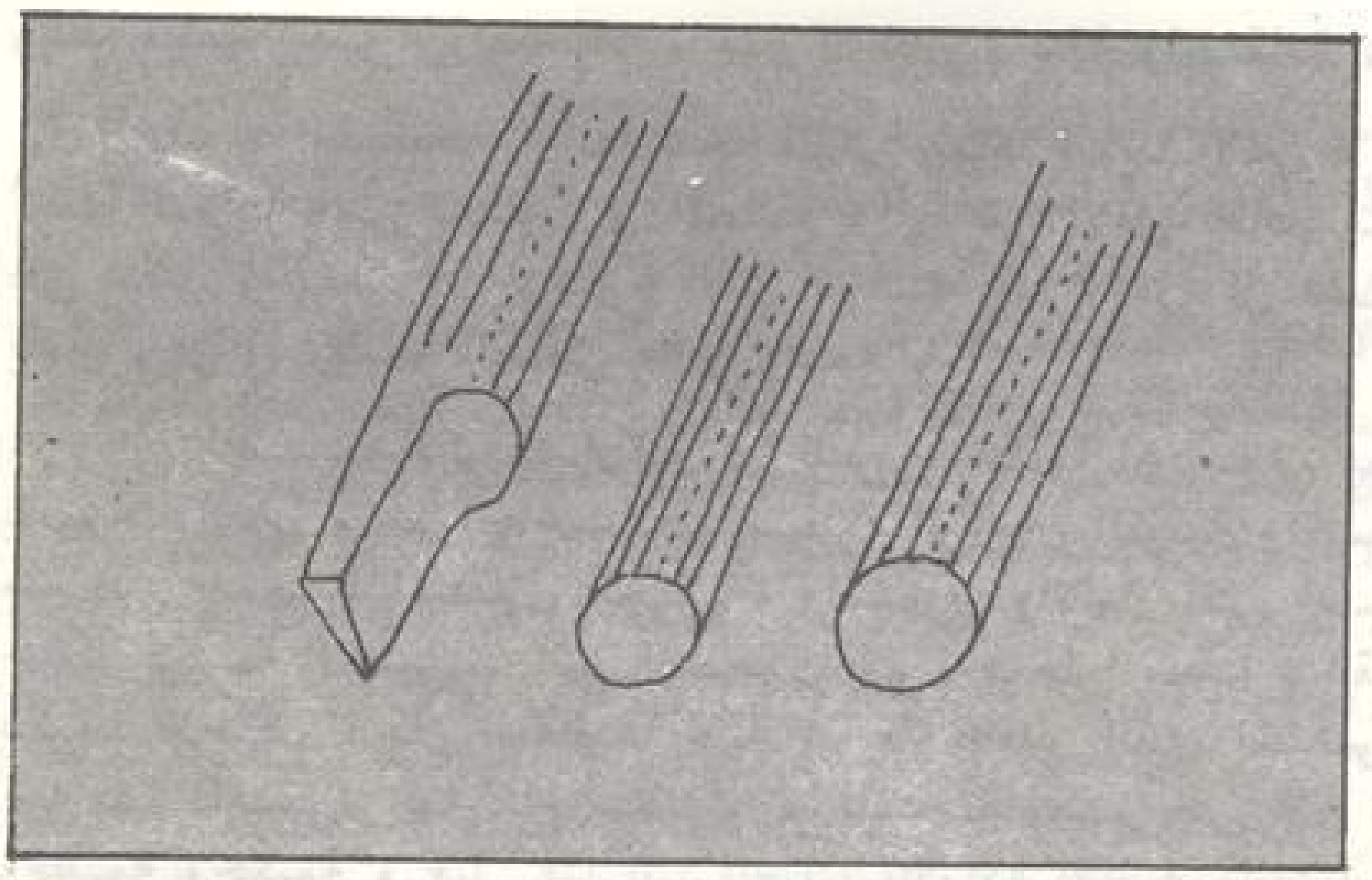

هذا ما يخص مقدمة القلم أما مؤخرته التي لعبت دورا رئيسا في صياغةشكل العلامات الخاصة بالارقام منذ ظهور الكتابة المسمارية وحتى نهاية العصر السومري القديم وذلك في حدود 2340 ق.م(2) ، فقد كانت اسطوانية الشكل وحجمها لايزيد على حجم قلم الرصاص المستعمل في وقتنا الحاضر . والدور الذي لعبته مؤخرة القلم في اسلوب الترقيم سوف يبرز بشكل واضح اذا دققنا النظر في النصوص الاقتصادية التي جاءتنا من بداية الفترة التي ظهرت فيها الكتابة المسمارية وحتى نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، اذ سوف نجد بان الترقيم في هذه الفترة كان يعتمد على علامتين رئيستين هما الدائرة ○ والعلامة التالية التي تشبه المقطع الطولي للمخروط ◗ ولو حاولنا التعرف على السبب لوجدنا بان مؤخرة القلم هي التي ادت الى هذه النتيجة اذ بضغطها بصورة عمودية على الطين تنتج الدائرة ○ واذا ضغطت بشكل مائل تنتج العلامة الثانية ◗ ومن تركيب هاتين العلامتين بأشكال مختلفة وبرسمهما كذلك باحجام متباينة استطاع السومريون تدوين مضاعفات الاعداد واجزائها . فالدائرة ○ مثلا تساوي الرقم (10) واذا كتبت بحجم اكبر ○ فانها تساوي الرقم(3600). واذا رسمت الدائرة الصغيرة في وسط الكبيرة ◎ فان ذلك يساوي(10 × 3600)= 36000 .وكذلك الحال مع العلامة الثانية فان رسمت بحجم صغير ◗ فهي تساوي الرقم واحد وان رسمت بحجم كبير ◗ فتساوي الرقم (60) . واذا رسمت الدائرة الصغيرة في داخلها ◗◎ فان ذلك يساوي (10×60=600).

وهذه الطريقة في تدوين الارقام استوجبت بطبيعة الحال استعمال نوعين من الاقلام ، الاول لكتابة العلامات الصغيرة والثاني لكتابة العلامات الكبيرة ومن الطبعات التي تركتها هذه الاقلام على الالواح الطينية أصبح بامكاننا ان نعرف حجم الاقلام المستعملة في تدوين الارقام بصورة دقيقة .

لقد اشرنا قبل قليل الى ان اسلوب كتابة الارقام بمؤخرة القلم استمر منذ ظهور الكتابة المسمارية وحتى نهاية العصر السومري الحديث اذ في الفترة التالية للعصر المذكور (انظر الملاحظة رقم – 2 –) ظهرت طريقة جديــدة في كيفية تدوين الارقام . وتتلخص هــذه الطريقة الجديدة في استخدام مقدمة القلم لكتابة الارقام دون مؤخرته . وهذه بلاشك طريقة مختصرة بالنسبة للأسلوب القديم وتتناسب مع زيادة الحاجة الى الكتابة وانتشارها ، اذ بدأ الكاتب يستخدم قلما واحدا لكتابة العلامات المسمارية ولتدوين الارقام ايضا .واضافة الى ذلك فان هذا الاسلوب الجديد لايضطره لأدارة القلم عند كتابة الارقام واغناه كذلك عن استعمال الدائرة الكبيرة

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

د. فوزي رشيد

والصغيرة . وهذه الناحية بالذات تسهل الكتابة وتختصر الوقت كذلك .

هذا ومما لاشك فيه ان استخدام مقدمة القلم في كتابة الارقام بدل مؤخرته ادى الى ظهور علامات الارقام القديمة بشكل آخر . والجدول التالي يبين طبيعة الارقام القديمة وكذلك الارقام التي دونت بمقدمة القلم : ـ

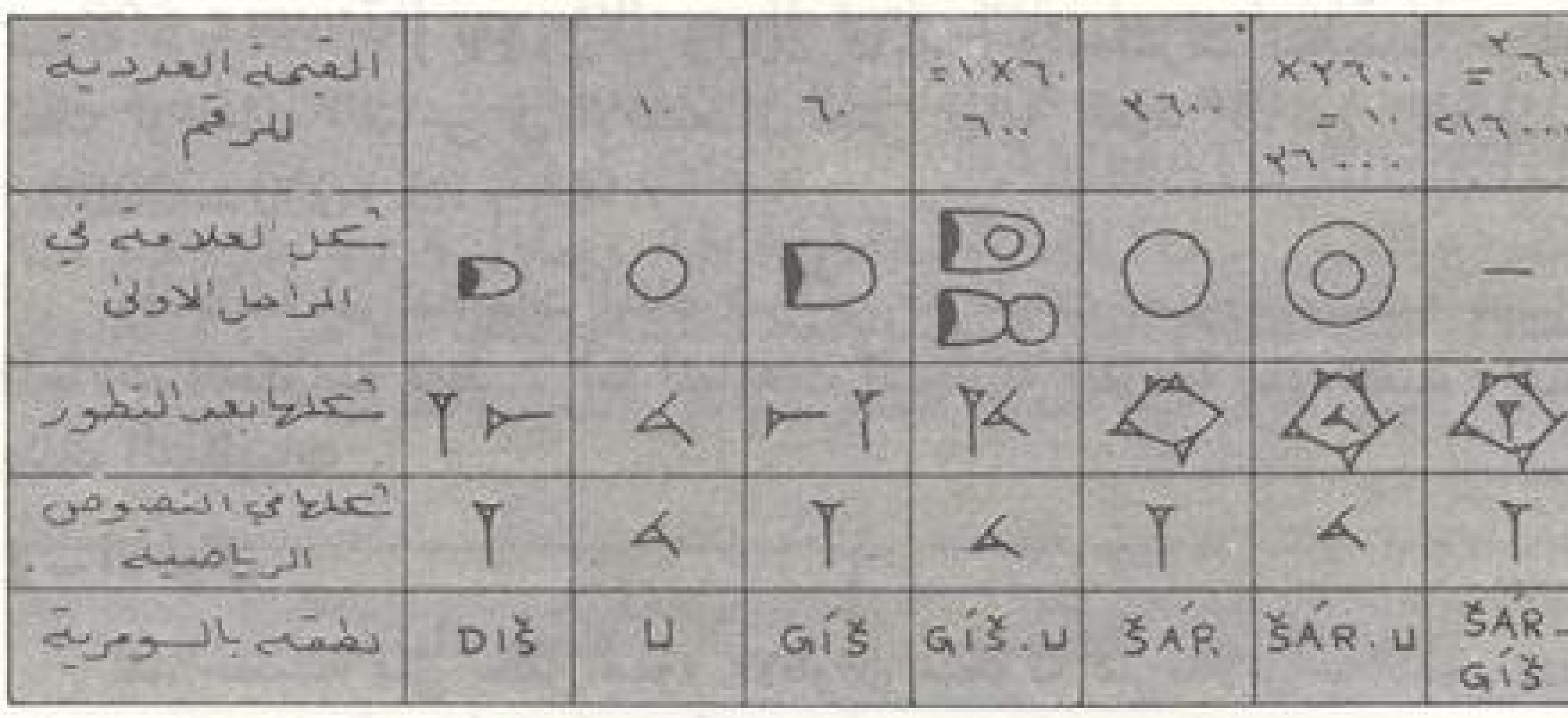

ملاحظة : ـ يبدو من الحقل الخاص بالارقام في النصوص الرياضية أنها لا تتعدى المسمار العمودي (= 1 أو 60) والزاوية (= 10) . والقيم العددية المختلفة لهاتين العلامتين تأتي من موقعهما ضمن المرتبة العددية .

ومما تجدر الاشارة اليه بخصوص الارقام عند استعمالها في النصوص الاقتصادية او الادارية فانها تكتب بحالتين ، الاولى عندما ترسم علاماتها بشكل افقي ففي هذه الحالة تشير الارقام الى الوحدات القياسية الكبيرة والارقام التي تكتب بشكل عمودي تشير الى اجزاء تلك الوحدات القياسية الكبيرة . ولنفرض أن طلب منا كتابة خمسة امتار و ستة سنتمترات بالطريقة السومرية والبابلية فسوف تكتب على الشكل التالي وهكذا فكل جزء يكتب بشكل يغاير الذي اكبر منه ويكون اما افقيا أو عموديا والقصد من ذلك التفريق بين الكل والجزء ، وهذا مثل آخر يوضح هذه الناحية : ـ

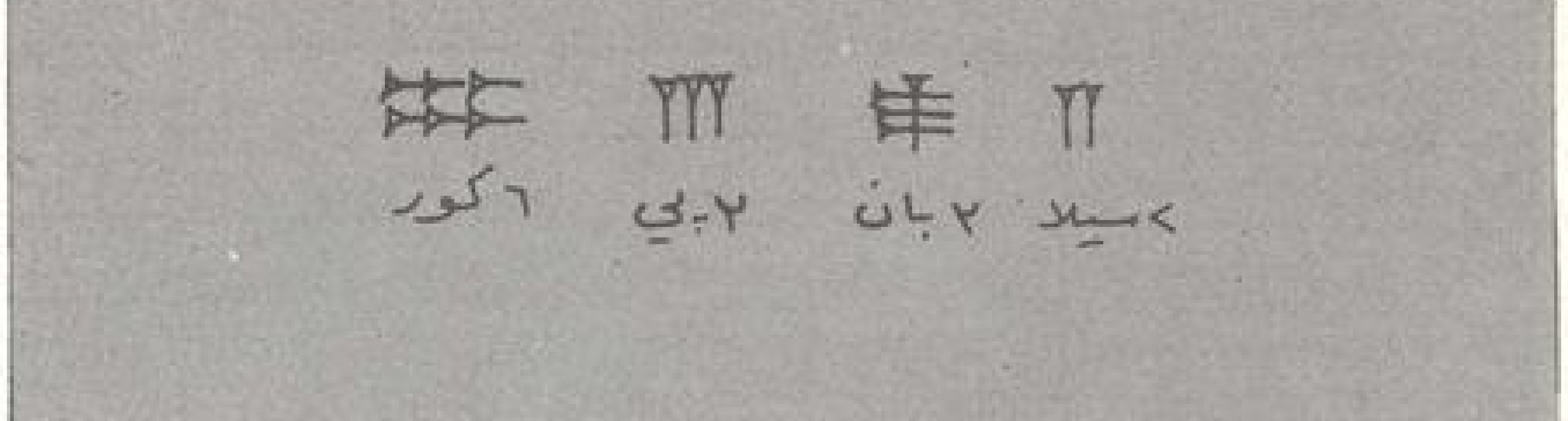

اما الارقام في الرياضيات فقد كتبت دائما بصورة عمودية لأنها ارقام مجردة ولا علاقة لها مع الوحدات القياسية وانما علاقتها مرتبطة بالمرتبة العددية .

اما كسور الاعداد في العصر السومري القديم فقد ظهرت بصورة تتناسب واجزاء المقاييس والمكاييل والاوزان المستعملة في العصر المذكور . هذا وان اقتصار الكسور على اجزاء المقاييس والمكاييل ناحية مفهومة فرضتها طبيعة الحياة الاقتصادية آنذاك وانها في نفس الوقت دليل على ان العلوم الرياضية القديمة ماهي الا تطور طبيعي لحاجات الانسان اليومية . والجدول التالي يوضح نوعية الكسور واشكالها : ـ

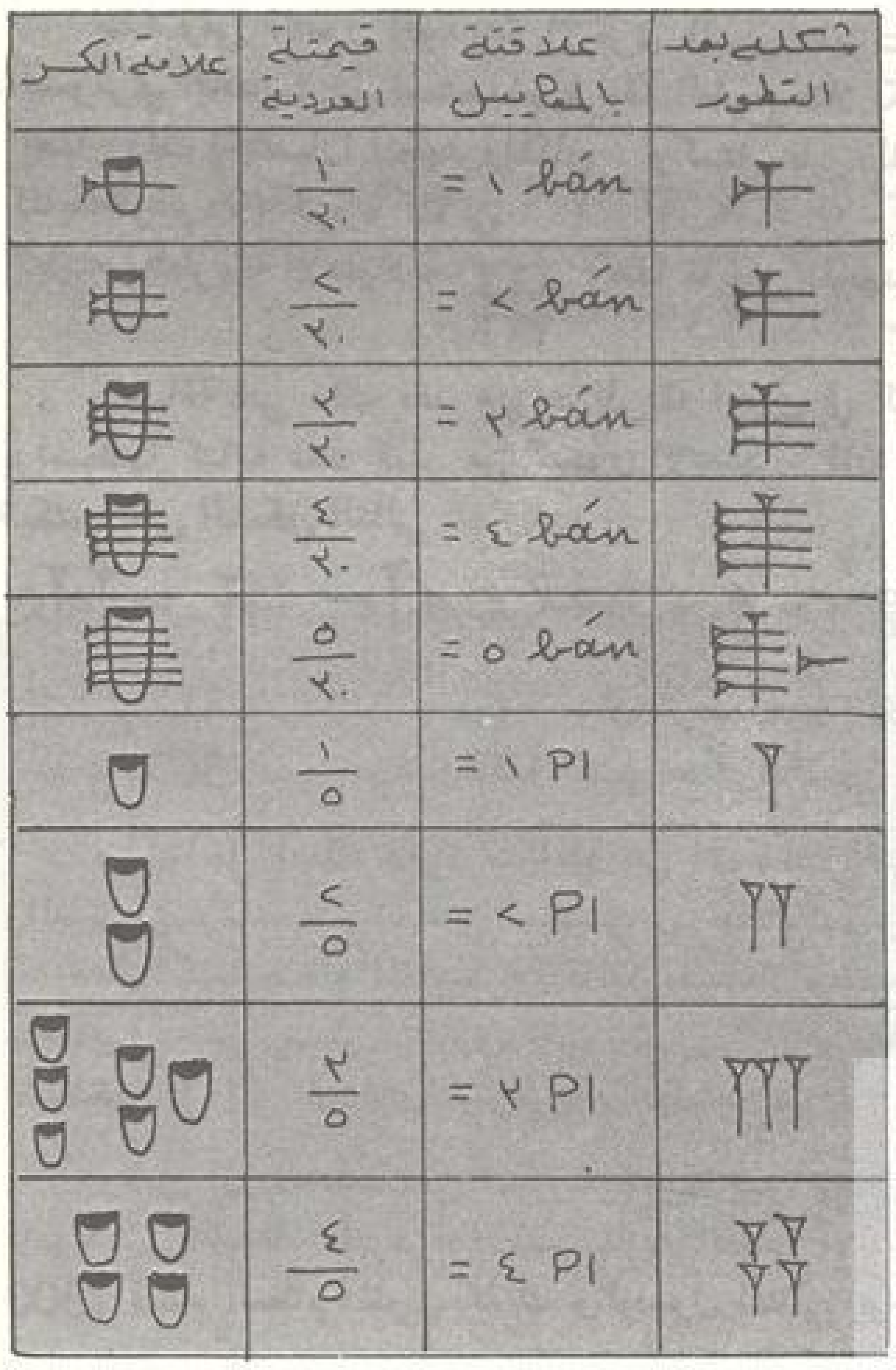

لقد ذكرنا قبل قليل بان اسلوب الترقيم القديم قد تحول الى اسلوب آخر بدأت به الارقام تكتب بمقدمة القلم وليس بمؤخرته واشرنا كذلك الى ان هذا الاسلوب الجديد قد ظهر منذ نهاية العصر السومري القديم (2750 – 2340 ق.م) . والواقع ان هذا التطور لم يقتصر على شكل العلامات فقط بل تعدى ذلك وتسبب في ظهور اساليب جديدة لكتابة الاعداد والكسور ايضا . وهذه الاساليب الجديدة ظهرت واضحة منذ بداية العصر السومري الحديث (2150 – 2000 ق.م) ولكنها نضجت و تكاملت في العصر البابلي القديم (2000 – 1600 ق.م)(3) وأهم هذه الاساليب هو نظام المرتبة العددية أي قيمة العدد بالنسبة الى مرتبته من الاعداد الاخرى كما هو الحال في النظام العددي الحديث . وباستخدام نظام المرتبة العددية لكتابة الارقام اصبح بالامكان الاستغناء عن كثير من علامات الارقام السابقة والاكتفاء بالعلامة المسمارية بالرقم واحد والتي تقوم كذلك مقام الرقم ستين ومضاعفاته والعلامة الخاصة بالرقم عشرة .

ووفق الاسلوب الجديد ونظام المرتبة العددية الذي يدعى بالنظام الستيني أصبح بالامكان كتابة أي عدد مراد . والمثل التالي يوضح نظام المرتبة العددية :

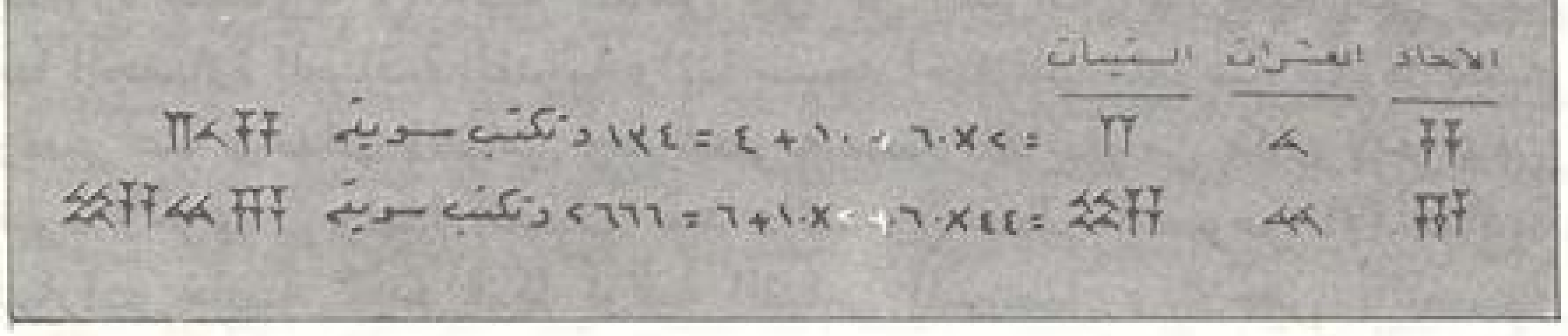

هذا ومن الامور الجديدة الاخرى التي ظهرت منذ بداية العصر السومري الحديث هو استخدام طريقة الطرح مثلا لكي يكتبوا بها الارقام ايضا وذلك اختصارا للجهد والمكان . وكمثل على ذلك هو انهم اذا ارادوا كتابة الرقم (9) كتبوه كالاتي : 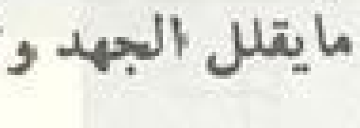 = ١٠-١ = ٩ بدلا من كتابته بالطريقة الاعتيادية وهذا مايقلل الجهد ولا يضايق المكان .

واضافة الى ذلك فقد ظهرت طريقة اخرى في كتابة الكسور يمكن بواسطتها كتابة عدد كبير من كسور الاعداد . فاذا اريد كتابة السدس فيكتب على الشكل التالي :

$\frac{1}{6}$ = igi - 6 - gál = .

والسبع igi - 7 - gál ، واذا اريد كتابة الكسر $\frac{1}{750}$ فيكتب igi - 750 - gál وهكذا تكتب معظم الكسور .

ومن اجل اعطاء فكرة متكاملة عن الاسباب التي دفعت السومريين والبابليين لأستخدام النظام الستيني في حساباتهم والذي قلنا بخصوصه انه متأثر كليا بنظام المقاييس والمكاييل علينا ان نوضح طبيعة هذه المقاييس والمكاييل حتى يتمكن القارىء من تلمس تأثيرها على النظام الستيني المستخدم في الرياضيات السومرية والبابلية .

وقبل ان نتحدث عن المقاييس والمكاييل يجدر بنا ان نذكر بان العراقيين القدماء قد عرفوا منذ بداية العصر الاكدي وذلك في حدود 2300 ق.م النظام المئوي كذلك والجدول التالي يوضح هذا النظام .

القيمة العددية للرقم	١	١٠	١٠٠	٢٠٠	٦٠×١٠= ٦٠٠	١٢٠×١٠= ١٢٠٠
شكل العلامة	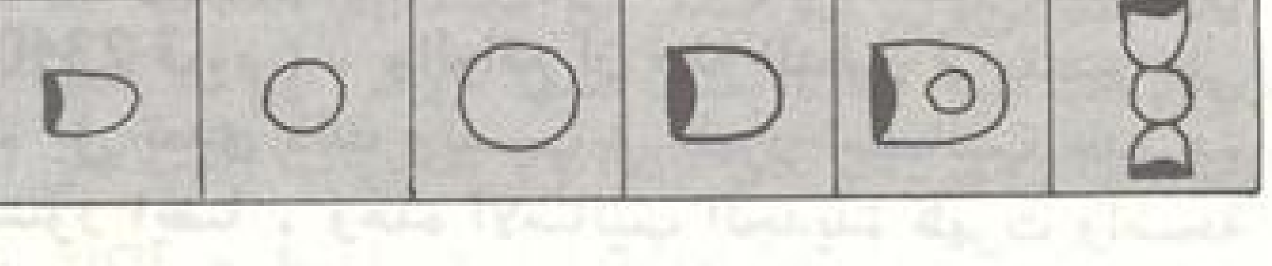					

الا ان هذا النظام لم يستخدم الا في حساب كميات الحبوب . وعلى مايبدو انه من ابتكار الاكديين وذلك لأنه قد ظهر في زمانهم . والاكديون قد اوجدوا علامات مسمارية خاصة بالرقم مئة ١٠٠ = me = 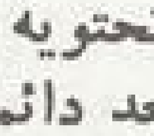 والرقم الف كذلك ١٠٠٠ = lim = وسبب عدم انتشار هذا النظام المئوي راجع الى ان الحياة العملية كانت منظمة وفق النظام الستيني السومري .

المقاييس والمكاييل

عند دراسة الموضوع سوف لايجد الباحث نظاما ثابتا استخدم بصورة متساوية في جميع المناطق وفي كل الفترات التاريخية التي مرت بها الحضارة العراقية القديمة وانما سيجد اختلافات ملموسة بين ما تعنيه وتعبر عنه وحدات القياس وما تحتويه سعة المكاييل من مكان لآخر ومن فترة لأخرى . ولهذا السبب نجد دائما وفي معظم النصوص الاقتصادية عبارات خاصة تحدد فيها نوعية القياس المستعمل وبالاخص بالنسبة للمكاييل التي كانت مستعملة في المعابد العراقية . ولما كانت مكاييل المعابد المختلفة ذات سعات متباينة اصبح من الضروري ان يحدد ضمن اللوح الاقتصادي باي كيل قد تمت العملية التجارية . غير ان هذه الاختلافات في المقاييس والمكاييل والاوزان قد نظمت بشكل موحد في العصر السومري الحديث (2150 – 2000 ق.م) وذلك على يد الملك السومري المشهور « شولكي » (2093 – 2046 ق.م) وهو الملك الثاني من ملوك سلالة اور الثالثة (2111 – 2003 ق.م) واستمرت تنظيمات هذا الملك لوحدات القياس في الاستعمال حتى نهاية العهد البابلي القديم (2000 – 1600 ق.م)(4) .

والحقيقة ان تنظيمات الملك شولكي قد طبقت بصورة منتظمة ضمن المجالات الحكومية فقط . اما المعاملات التجارية الفردية فلم تتقيد دائما بتلك التنظيمات .

1 – الاطوال

لقد حصلنا على بعض صور الاطوال منحوتة على الالواح الحجرية وطبعات الاختام الاسطوانية . وكانت تصنع عادة من الخشب على شكل مساطر ومن الجلد والصوف على شكل اشرطة وحبال ومن القصب كذلك . والذراع الذي يساوي 50 سم أو 49/5 سم من اطوال الوقت الحاضر كان آنذاك يمثل الوحدة القياسية الرئيسة للأطوال كما هو الحال مع المتر في النظام الفرنسي الحالي . والجدول التالي يبين نوعية هذه الاطوال واجزائها ومضاعفاتها بعد تنظيمات الملك شولكي وما يعادلها باطوالنا الحالية :–

باطوال الوقت الحاضر	ŠE الحبة	ŠU SI الاصبع	ŠU DU A القتر	ŠU BAD الشبر	KUŠ الذراع	GI القصبة	GAR الحدود	TIR الحبل	UŠ الضلع	DANNA الميل	المعنى	الاسم بالاكدية	الاسم بالسومرية
١٠,٨٠٠ كم									٣٠	١	الميل	beru	DANNA
٣٦٠ م					٧٢٠	١٢٠	٦٠	٦	١		الضلع	—	UŠ
٦٠ م					١٢٠	٢٠	١٠	١			الحبل	ašlu	TIR
٦ م		٣٦٠	٣٦	٢٤	١٢	٢	١				الحدود	—	GAR
٣ م		١٨٠	١٨	١٢	٦	١					القصبة	qanu	GI
٥٠ سم او ٤٩,٥ سم		٩٠	١٥	١,٥	١						الذراع	ammatu	KUŠ
٢٥ سم		٦٠	١٠	١٠							الشبر	ûtu	ŠU.BAD
١٦,٩ سم		٦	١								القتر	šizu	ŠU.DU.A
١,٦٦٧ سم		١									الاصبع	ubanu	ŠU SI
٠,٢٧٥ سم											الحبة	še'u	ŠE

اشرنا في بداية الموضوع الى ان المقاييس والمكاييل والاوزان لم تكن ثابتة في جميع الادوار التاريخية بل كانت تختلف من فترة الى اخرى ومن مكان الى مكان . وهنا يتوجب علينا الاشارة الى تلك الفروق التي كانت موجودة بين الاطوال عبر مراحل الحضارة العراقية القديمة . فالذراع مثلا كان يساوي خلال فترة العصر السومري القديم (2750–2340 ق.م) عشرين اصبعا (= بوصة) وفي بعض الاحيان وخلال العصر المذكور كان

يساوي ثلاثين اصبعا (= بوصة) .

اما في فترة العصر السومري الحديث (2150 – 2000 ق.م) والعصر البابلي القديم (2000 – 1600 ق.م) فقد كان يعادل دائما ثلاثين اصبعا (= بوصة) . غير انه بدا يساوي اربعة وعشرين اصبعا (= بوصة) في فترة العصر البابلي الحديث (1000 – 539 ق.م) .

هذا وقد استعمل خلال فترة العصر الاشوري الحديث (900 – 612 ق . م) نوعان من الذراع ، الاول يدعى بالذراع الصغير AMMATU SIHIRTU ويعادل 39,6 سم والثاني يدعى بالذراع الكبير AMMATU RABITU ويعادل 49,5 سم وهذا ما يساوي طول الذراع الذي استعمل بعد تنظيمات الملك شولكي . والجدول التالي يبين الفرق بين اطوال العصر البابلي القديم واطوال العصر البابلي الحديث :–

العصر البابلي الحديث	العصر البابلي القديم
الذراع=24 اصبعا (=بوصة)	الذراع = 30 اصبعا (= بوصة)
القصبة = 7 اذرع	القصبة = 6 اذرع
الحدود = 14 ذراعا	الحدود = 12 ذراعا

بعد هذا العرض لأسماء الاطوال وتقسيماتها وما يعادلها في اطوال الوقت الحاضر يستطيع المرء ان يتاكد بنفسه من دقة القياسات التي استخدمها السومريون والبابليون في حياتهم العملية وشدة مقاربتها لأحدث المقاييس المستعملة في وقتنا الحاضر اذا ما انتبه لطول الحبة الذي يعادل 275 و.سم .

2 – المساحات

بطبيعة الحال لم تكن هناك ادوات خاصة لقياس المساحات وانما الاطوال هي التي كانت تستخدم في هذا المجال . اما اسماء المساحات فقد وردت بكثرة ضمن الكتابات القديمة والجدول التالي يوضحها . علما بان « السار » الذي يعادل 36 م2 كان يعتبر الوحدة القياسية الرئيسة .

مايعادل ذلك في مقاييس الوقت الحاضر	SE حبة	GIN شيقل	SARI السار	UBU أبو	GAN حقل	ESE حبل	BUR بور	BUR.U عشرة بور	SAR دائرة	SAR.U عشرة دوائر	المعنى	الاسم بالاكدية	الاسم بالسومرية
٢٨٨٨٠ كم²							٦٠٠	٦٠	١٠	١	عشرة دوائر	–	SAR.U
٢٨٨٨ كم²						١٨٠	٦٠	٦	١		دائرة	–	SAR
٦٤٨٠٠٠ م²					١٨٠	٣٠	١٠	١			عشرة بور	–	BUR.U
٦٤٨٠٠ م²			١٨٠٠	٣٦	١٨	٣٠	١				بور	buru	BUR
٢١٦٠٠ م²			٦٠٠	١٢	٦	١					حبل	eblu	ESE
٣٦٠٠ م²			١٠٠	٢	١						حقل	iku	GAN
١٨٠٠ م²			٥٠	١							أبو	ubu	UBU
٣٦ م²		٦٠	١								السار	musaru	SARI
٦٠٠ سم²	١٨٠	١									شيقل	Xiqlu	GIN
٧ سم²	١										حبة	Xe'u	SE

3 – المكاييل

الوحدة القياسية الرئيسة هي السيلا – SÌLA وقد ترجمناها الى العربية بلفظة « لتر » لأنها تعادل 842 و. من اللتر الحالي . والجدول التالي خاص بالمكاييل واجزائها ومضاعفاتها :–

ما يعادل ذلك بالمقياس الحالي	ŠE حبة	GÍN شيقل	SÌLA لتر	BÁN بان	PI بي	GUR كور	المعنى	الاسم بالاكدية	الاسم بالسومرية
٢٥٢,٦ لتر			٣٠٠	٣٠	٥	١	كور	kurru	GUR
٥٠,٥٢ لتر			٦٠	٦	١		بي	massiktu	PI
٨,٤٢ لتر			١٠	١			بان	sutu	BÁN
٠,٨٤٢ لتر		٦٠	١				لتر	qâ	SÌLA
	١٨٠	١					شيقل	xiqlu	GÍN
	١						حبة	Xe'u	ŠE

ان مقياس الكور خضع لتغيرات كثيرة فقد ساوى في مراحله الاولى من العصر السومري القديم 36 سيلا (= 31 و 30 لترا حاليا) وساوى كذلك في مناطق اخرى 144 سيلا (= 25 و 121 لترا حاليا) و 288 سيلا (= 5 و 242 لترا حاليا) حتى جاء العصر السومري الحديث وشملته تنظيمات الملك شولكي واصبح يعادل 300 سيلا (= 6 و 252 لترا حاليا) . ولهذا السبب فقد سمي الكور احيانا ب « كور شولكي » . اما البان – BÁN الواحد فقد كان يساوي قبل اصلاحات الملك المذكور ستة سيلا (= 05 و 5 التارحالية) .

هذا والى جانب المكاييل الواردة في الجدول كان هناك ثلاثة انواع اخرى من المكاييل الاول يدعى بالسومرية « GURU 7 » ويعادل 3600 سيلا والثاني يدعى « ÈL-DIŠ » ويعادل 36 سيلا (= 31 و 30 لترا حاليا) والثالث يدعى « NINDA » ويعادل 48 سيلا (= 32 و 40 لترا حاليا) . علما بان الكيل الثالث قد بطل استعماله منذ المراحل الاولى للعصر السومري القديم .

وفي العصر الاشوري الحديث استعمل كيل جديد يدعى باللغة الاشورية « imēru »وهذه الكلمة تعني الحمار والمقصود بها طبعا عدل الحمار ويساوي100 سيلا(= 2 و 84 لترا حاليا) .واستخدم هذا الكيل من قبل الخوريين كذلك . والخوريون شعب آري عاصر الاشوريين خلال العصر الاشوري الحديث وسكن المناطق الواقعة شمالا والى الشرق من نهر دجلة . هذا وقد حدث تغير آخر على المكاييل التي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

استخدمت في العصر البابلي الحديث والجدول التالي يوضح تلك الفروق :ــ

العهد البابلي القديم	العهد البابلي الحديث
(1) بان = (10) سيلا	(1) بان = (6) سيلا
(6) بان = (1) بي = (60)سيلا	(6) بان = (1) بي = (36) سيلا
(5)بي = (1) كور =(300)سيلا	(5) بي= (1) كور =(180)سيلا

4 ـ الاوزان

من خلال النصوص المسمارية المختلفة يبدو واضحا ان الاوزان قد خضعت الى حد ما لنظام ثابت في جميع المناطق وفي كل الادوار التاريخية ما عدا العهد الاكدي (2340 ـ 2150 ق . م) ، فقد ظهر فيه وزن لم يستعمل في بقية العهود ويدعى المنا الصغير ويعادل 20 شيقلا (=168 غم) .

هذا وقد استعملت الفضة والذهب اضافة الى الحجر والمعدن في صناعة الاوزان وبالاخص تلك التي تستعمل في القصور الملكية . اذ توضح ذلك من خلال الرسائل المكتشفة في مدينة ماري (= تل الحريري حاليا ، قرب البو كمال) . وحجر الديورايت والكلس كانتا المادتين الاوليتين اللتين تصنع منهما الاوزان على شكل حيوانات كالضفدعة والبطة والاسد

ما يعادل ذلك بالاوزان الحالية	ŠE الحبة	GÍN.TUR الشيقل الصغير	GÍN الشيقل	MA.NA المنا	GÚ الطالنت	المعنى	الاسم بالاكدية	الاسم بالسومرية
٣٠,٣ كغم				٦٠	١	طالنت	biltu	GÚ
٥٠٥ غم			٦٠	١		المنا	manū	MA.NA
٨,٤ غم	١٨٠	٦٠	١			الشيقل	šiqlu	GÍN
٠,١٤٠ غم	٣	١				الشيقل الصغير	—	GÍN.TUR
٤٦,٧٥ غم	١					الحبة	uṭṭatu	ŠE

والثور او على شكل المخروط او الخرزة . اما اذا كانت الحاجة المراد وزنها يفوق ثقلها ثقل الاوزان المستعملة ، فتستخدم في هذه الحالة احجار كبيرة لاداء المهمة وذلك وفق ما اخبرتنا به الكتابات المسمارية التي خلفها لنا سكان العراق القديم . وفيما يخص الموازين التي استخدمت خلال العصور السومرية والبابلية فهي تكاد لا تختلف باشكالها واحجامها عن الموازين البسيطة المستعملة في الوقت الحاضر في عدد من الاسواق الشعبية وفي القرى والارياف .

والموازين القديمة كانت على نوعين ، النوع الاول منهما يمثل الميزان الاعتيادي ويلفظ باللغة السومرية GIŠ.ERÍN وباللغة الاكدية GISHRINNU اما النوع الثاني فهو الذي يماثل القبان ويسمى باللغة الاكدية ZIBANITU وعدم وجود كلمة سومرية خاصة بالقبان قد يكون ذلك اشارة الى انه لم يكن معروفا خلال العصر السومري القديم وانه من ابتكارات الاكديين . والجدول التالي خاص بالاوزان وباجزائها ومضاعفاتها :ــ

5 ـ الاوقات

ان السنة السومرية والبابلية كانت تتالف من اثني عشر شهرا قمريا وكل شهر يساوي ثلاثين يوما ، ولذلك كان عدد ايام السنة السومرية والبابلية لا يطابق عدد ايام السنة الشمسية . وعليه فقد جرت العادة ان يلحق شهر اضافي يدعى باللغة السومرية « ITU.DIRI » الى اشهر السنة الاعتيادية بعد مرور عدد من السنين ليسد الفرق الحاصل بين اشهر السنة الشمسية . اما اليوم فيساوي 12 ساعة ، ومعنى هذا ان الساعة السومرية او البابلية كانت تساوي ساعتين من توقيتنا الحالي . والجدول التالي يوضح المواقيت السومرية والبابلية : ــ

من المقارنة بين هذا الجدول والجدول الخاص بالاطوال يظهر واضحا ان قسما من اسماء الاوقات مشتق من اسماء الاطوال . والسبب في ذلك يرجع الى الارتباط الوثيق الموجود بين الزمان والمكان . ومما يؤيد هذا الارتباط هو اننا في الوقت الحاضر اضافة الى قولنا بان البعد بين بغداد وبابل تسعون كيلو مترا نقول كذلك ان البعد يساوي ساعة من الزمن . وما دام الـ « DANNA » اي الميل السومري يساوي 800 و 10 كم وهي

ما يعادل ذلك باوقاتنا الحالية	GAR ١/١٥ دقيقة	UŠ درجة	DANNA ساعة	U4 يوم	ITU شهر	MU سنة	المعنى	الاسم بالاكدية	الاسم بالسومرية
٣٦٥ يوم				٣٦٥	١٢	١	سنة	šattu	MU
٣٠ يوم				٣٠	١		شهر	warhu	ITU
٢٤ ساعة		٣٦٠	١٢	١			يوم	umu	U4
ساعتان		٣٠	١				ساعة	bēru	DANNA
اربع دقائق	٦٠	١					درجة	—	UŠ
اربع ثواني	١						١/١٥ دقيقة	—	GAR

المسافة التي يقطعها الفرد ماشيا خلال ساعة سومرية اي خلال ساعتين من توقيتنا الحالي ، نستطيع ان نؤكد على ان اسماء الاوقات السومرية قد سميت بأسماء المسافات المعروفة لديهم والتي يستطيع المرء ان يقطعها ماشيا خلال تلك الاوقات . هذا ومما تجدر الاشارة اليه هو ان تقسيم اليوم السومري الى 360 درجة والدرجة الواحدة تساوي اربع دقائق يتفق تماما مع تقسيم محيط الكرة الارضية الذي يحتوي على 360 درجة وكل درجة تقطعها الارض خلال اربع دقائق ، وعليه نستطيع ان نؤكد بان التقسيم الحديث متاثر كليا بالتقسيمات السومرية والبابلية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

6 ـ مقاييس الطابوق

لقد استعمل السومريون والبابليون مقاييس خاصة لحساب كميات الطابوق التي يبتاعها الناس أو ينتجها منتج . والوحدة الرئيسة هي السار « SAR »التي تساوي 720 طابوقة . والسار كما مر بنا هو مقياس لحساب المساحات . واجزاء ال « SAR» ومضاعفاته في مقاييس الطابوق تطابق ما جاء في جدول المساحات حيث ان ال SAR الذي يساوي من السار في جدول المساحات فانه يساوي نفس النسبة هنا ويعادل 12 طابوقة .

7 ـ مقاييس الحجوم

ان مقاييس الحجوم القديمة تتالف في الواقع من طبقات وكل طبقة ذات مساحة وارتفاع ثابت . والوحدة القياسية الرئيسة هي السار « SAR » ايضا . اما مضاعفاته فهي لاتختلف عما هو عليه في جدول المساحات . والسار في مقاييس الحجوم مساحته مربعة الشكل طول ضلعه « GAR »واحد والكار يساوي 12 ذراع والذراع كما هو مذكور في جدول الاطوال يساوي 50سم أو 49/5سم. اما ارتفاع الكار فيساوي ذراع واحد والرسم التخطيطي يوضح ذلك علما بان الكار الواحد يساوي (18 م3) من مقاييسنا الحالية والكن يساوي 300 سم3.

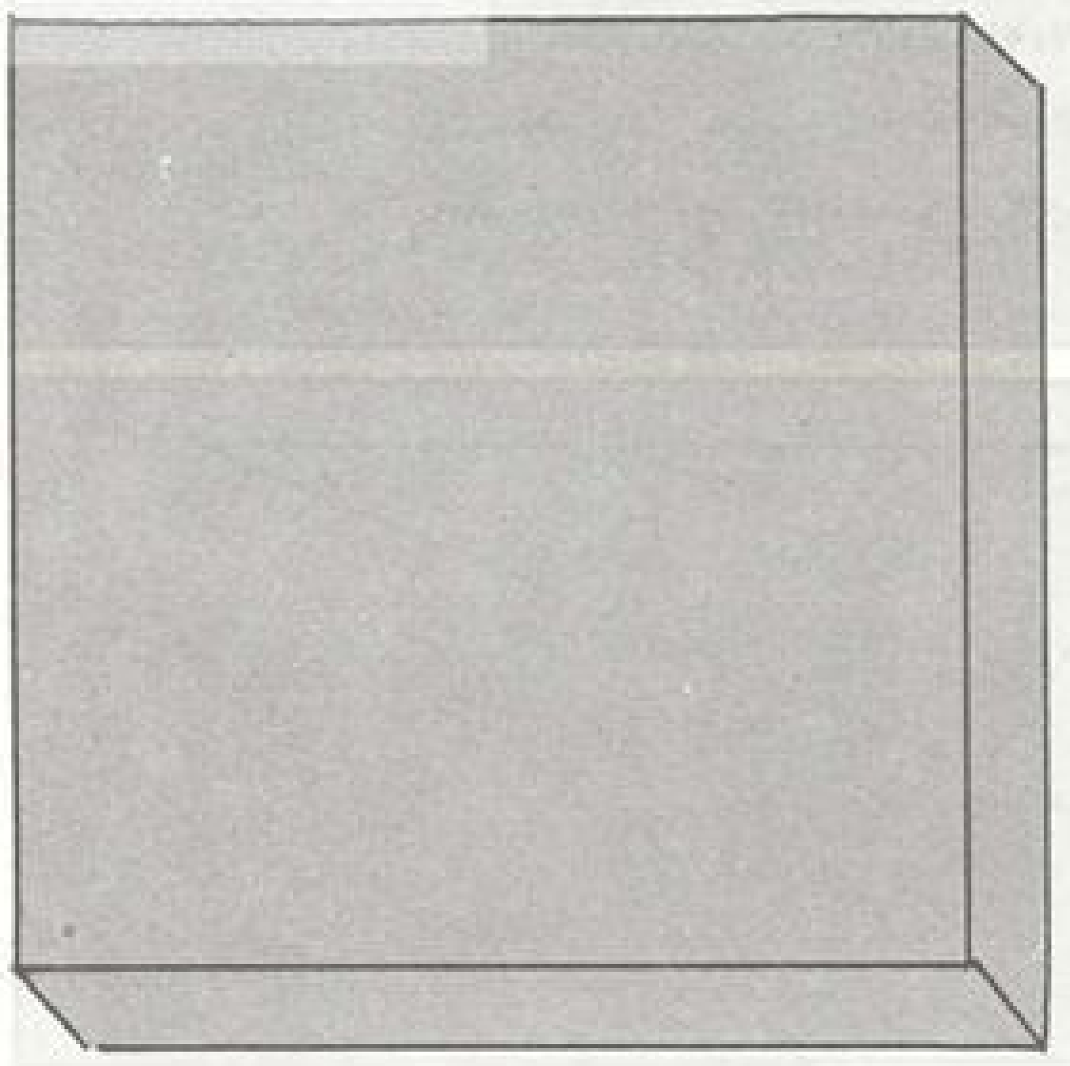

بالقاء نظرة على جداول المقاييس والمكاييل والجداول الاخرى وملاحظة النسب بين كل قياس وآخر سوف يجد القاريء بان النظام الستيني هو الغالب عليها . وسبب عمل المقاييس والمكاييل والاوزان وفق هذا النظام يرجع بالتاكيد الى قابلية تحليل العدد ستين الى عوامل كثيرة ، اذ ان عوامله هي 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 10 ، 12 ، 15 ، 20 ، 30 ، 60 . وهذه المرونة في التحليل لانجدها في الحقيقة في اي عدد آخر . ومما لاشك فيه ان المقاييس والمكاييل قد ظهرت الى حيز الوجود واستخدمت في الحياة العمليه لدى السومريين قبل نضوج علم الهندسة والرياضيات ولذلك فان النظام الستيني المستخدم في المقاييس والمكاييل قد اثر بصورة مباشرة على علم الرياضيات وجعله يستخدم في حساباته النظام الستيني رغم معرفة القدماء بالنظام المئوي كذلك .

والآن وبعد ان بينا طبيعة المقاييس والمكاييل وتاثيرها على النظام العددي السومري والبابلي نود ان نقول بان النصوص الرياضية التي اظهرتها لنا التنقيبات في المواقع المختلفة تتالف بصورة رئيسة من نوعين من النصوص ، الاول يشمل الجداول أو الاثبات الرياضية كجدول الضرب وجداول معكوس الاعداد ورفع الاعداد الى القوى المختلفة وجداول بجذور الاعداد . اما النوع الثاني فيتضمن قضايا ومسائل رياضية وضعت لتحل بموجب القواعد والقوانين الرياضية المعروفة عندهم . واغلب نصوص هذا النوع جاءتنا من العهد البابلي القديم (2000 ـ 1600 ق.م) . وقسم قليل منها يعود الى فترة احدث . اما نصوص النوع الاول الخاصة بالجداول والاثبات الرياضية فقد ظهرت منذ عصر سلالة اور الثالثة واستمرت الى العهد السلوقي حتى ميلاد السيد المسيح .

وسبب ظهور هذه الجداول يرجع الى ان العلوم الرياضية كانت مقتصرة على فئة قليلة من الناس . ولما كانت الحاجة اليومية تتطلب ان يتعامل بها اكبر عدد ممكن من السومريين والبابليين فقد وضع رياضيو العراق القديم هذه الجداول كي يكون بامكان السكان الوصول الى نتائج صحيحة من خلال هذه الجداول وخاصة عند بناء البيوت والمعابد وتوزيع الاراضي وغيرها من الحاجات الاخرى .

وبسبب هذه الجداول وجدنا ان المسائل الرياضية الصرفه كانت تعطي نتيجة الحل دون ان توضح الطريقة المستخدمة في الوصول الى تلك النتائج وذلك كما قلنا بسبب الجداول التي يستطيع المرء من خلالها ان يصل الى النتيجة الصحيحة رغم أنه يجهل اسلوب الحل . وكمثل على ذلك أن يطلب من شخص ما يجهل عملية الضرب ولكنه يمتلك جدولا للضرب ان يضرب العدد 12 × 12 . فبواسطة جدول الضرب يستطيع ان يعطي النتيجة الصحيحة . وهكذا كان اسلوب حل المسائل الرياضية القديمة والمثل التالي يوضح هذه الناحية :

« جمعت سبع الطول مع المساحة الناتج يساوي 27 »

اذا افترضنا بان الطول يساوي (س) والعرض يساوي (ص) فالمعادلة الرياضية لهذه المسئلة ستكون على الشكل التالي :

$\frac{س}{7}$ + س ص = 27 . وعلى ما نعتقد ان معلوماتنا الحالية في الرياضيات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليس بمقدورها ان تعطي النتيجة الصحيحة ما دام الطـول والعـرض مجهولين الا ان الرياضي البابلي استطاع ان يتوصل الى نتيجة دون ان يبين لنا الخطوات التي سار عليها . ولهذا السبب نعتقد بان الجداول المتوفرة لديه هي التي اوصلته الى نتيجته لانها معدة لمثل هذه الاغراض. وفيما يلي مسئلة اخرى من هذا النوع(5) :ــ

ملاحظة : ان الرقم (21) في هذه المسئلة هو في مرتبـة الستينات ويساوي الرقم 1260 .

وهذه المسئلة كسابقتها لا يمكن حلها ونحن نعرف العرض فقط . ولذا فان حلها لابد ان اعتمـد على الجداول التي ذكرناهـا . وكذلـك الحال مع اللـوح الرياضي من تل حرمـل الذي سنقوم بعرض استنساخه وقراءته وترجمته الى العربية مع ابراز القاعدة الرياضية الجديدة التـي تمكنا من استنتاجها :ــ

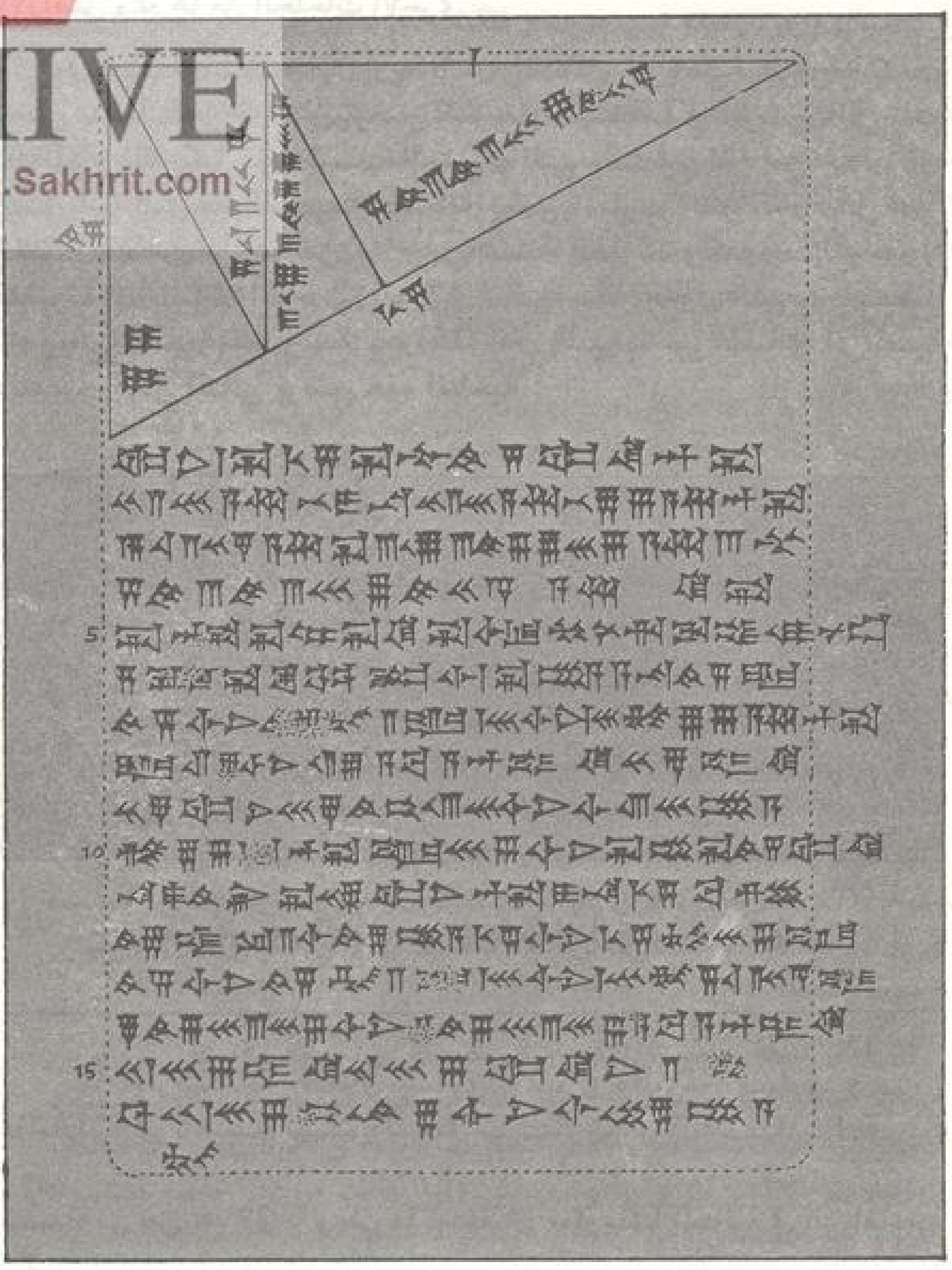

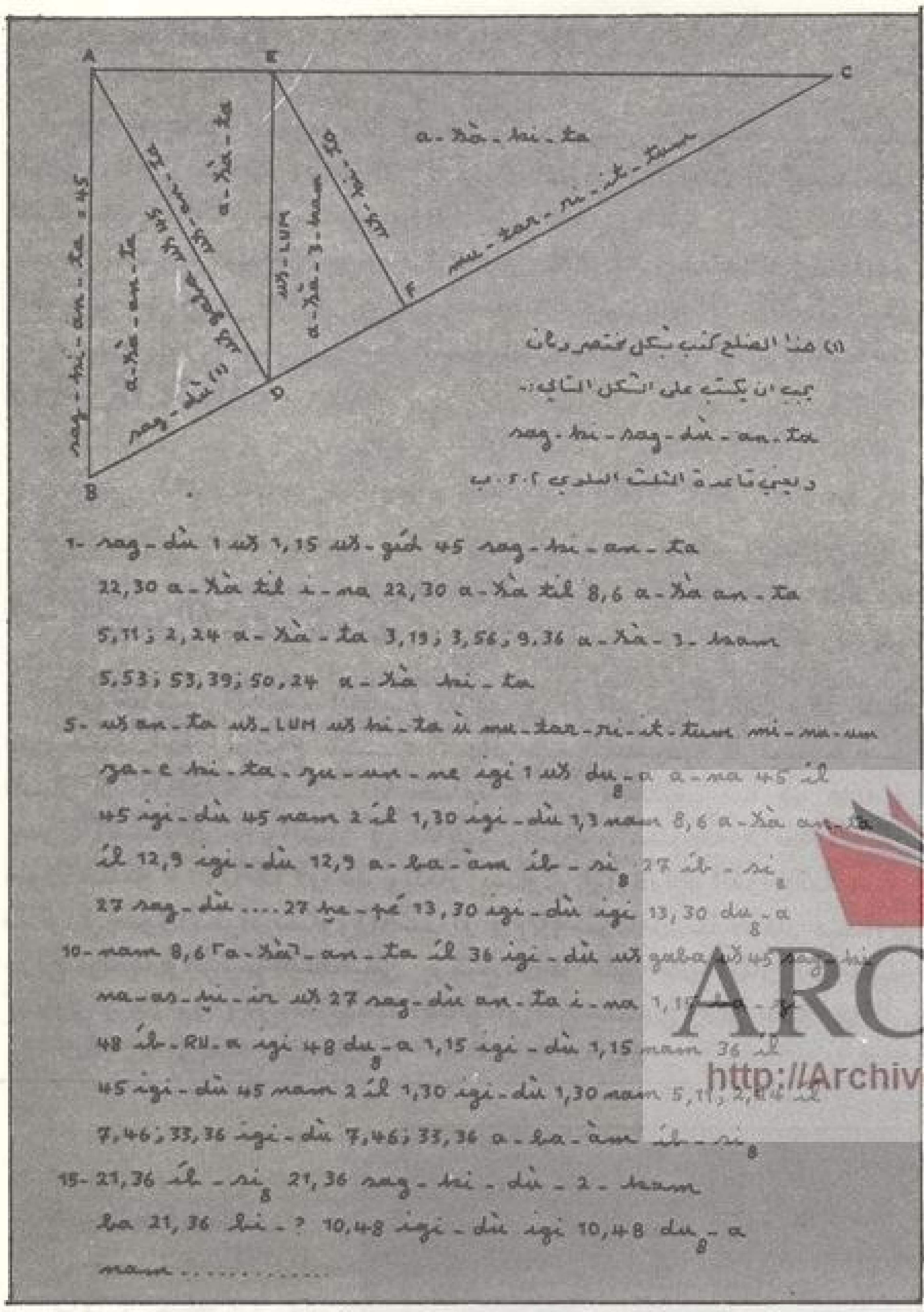

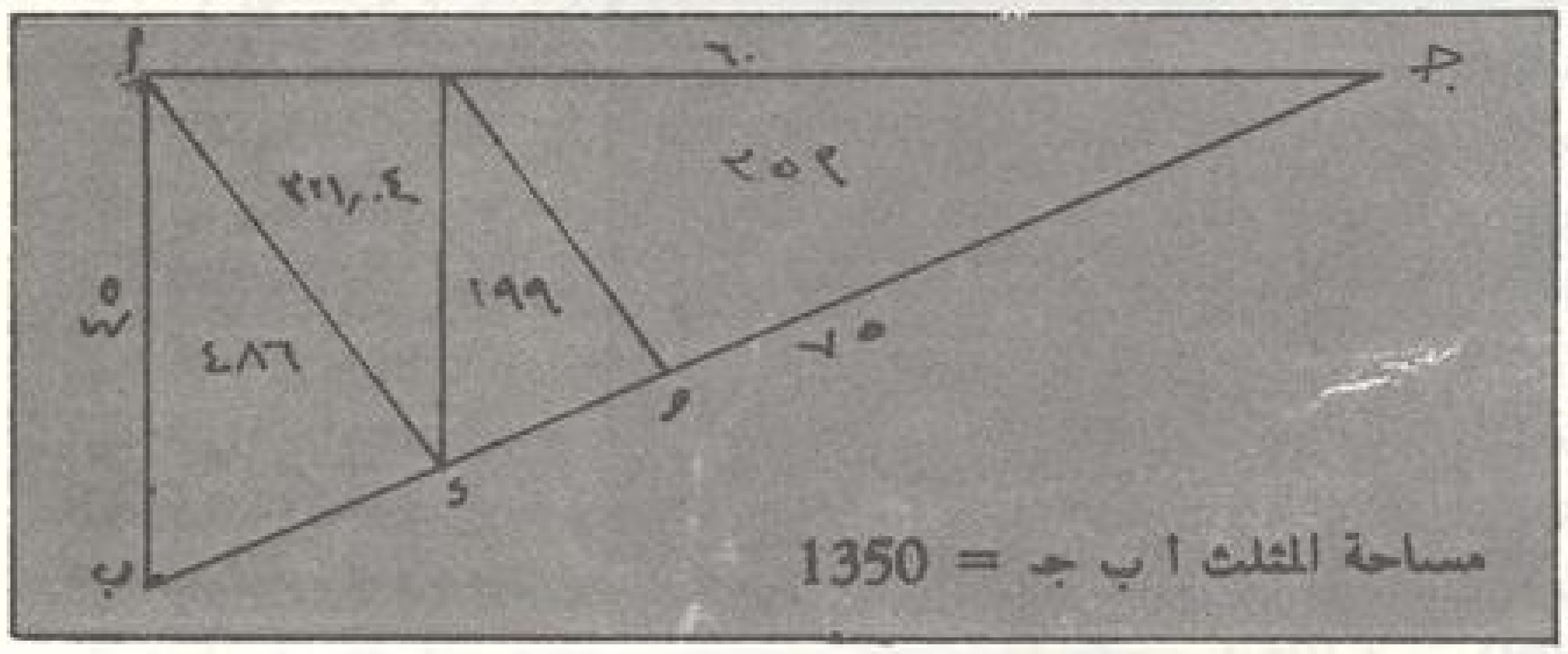

مساحة المثلث أ ب جـ = 1350

الترجمة العربية

1 – مثلث (أ ب جـ) أ جـ = 60 ، ب جـ = 75 ، أ ب = 45

المساحة الكلية 1350 (اقتطع) من 1350 المساحة الكلية ، 486 مساحة (المثلثأ ب د) .و 311٫04 مساحة المثلثالمجاور (أ د هـ) ومساحة المثلث الثالث (هـ د و) حوالي 199 ومساحـة المثلث (هـ و جـ) حوالي 353 .

5 – فما هو طول (الاضلاع) أد ، هـ د ، هـ و ، و جـ ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عند اجرائك العملية خذ معكوس العدد 60 ($= \frac{1}{60}$) واضربه ب 45 (اي طول ا ب) فتحصل على 45 . اضرب 45 × 2 فتحصل على 90 ، ثم اضرب 90 في 486 (= مساحة المثلث ا ب د) فتحصل على 729 . ما هو الجذر التربيعي للعدد 729 ؟ الجذر التربيعي هو 27

27 (طول ب د) من المثلث (ا ب د) . تصنف ال 27 فتحصل على 13ر30 خذ معكوس 30ر13 .

10ـ واضربه في 486 (= مساحة المثلث ا ب د) ، فتحصل على 36 وهو طول ا د الضلع المقابل للضلع (الذي طوله) 45 .
عند واطرح 27 (طول ب د) من المثلث ا ب د من 75 (= طول الوتر ب جـ) .
فيبقى 48 . خذ معكوس العدد 48 فتحصل على 15ر1 . اضرب 15ر1 في 36 .
فتحصل على 45 . اضرب 45 في 2 فتحصل على 30و0و1 . اضرب 30و0و1 في 24و2 ؛ 11و5 .
فتحصل على 36و33 ؛ 46و0و7 (= 56و466) . ما هو الجذر التربيعي لـ 36و33 ؛ 46و0و7 .

15 ـ 36و21 هو الجذر التربيعي . اذا 36و21 هو طول ا هـ تصنف 36ر21 فتحصل على 48و10 . خذ معكوس العدد 48و10 واضربه في . . .

الملاحظات حول اسلوب الحل والقاعدة الرياضية الجديدة

اذا ما لاحظنا الطريقة البابلية المتبعة في حل هذه المسالة الهندسية فسوف نجد ان المعادلة المستخدمةفي ايجاد طول الضلع ب د هي كالاتي :ـ

$$\text{ب د} = \sqrt{\frac{1}{\text{اجـ}} \times \text{اب} \times 2 \times \text{مساحة المثلث ا ب د}} = \text{ب د} =$$

$$\sqrt{\frac{\text{اب}}{\text{اجـ}} \times 2 \times \text{مساحة المثلث ا ب د}}$$

$$\text{اي ان ب د} = \sqrt{\frac{45}{60} \times 2 \times 486} = 27$$

عند التدقيق جيدا في هذه المعادلة نجد ان الناتج الحاصل من معكوس خطوات المعادلة الخاصة بايجاد مساحة المثلث الاصلي الكبير ا ب جـ*

مضروبا في مساحة المثلث الاول ا ب د ووضع الناتج تحت الجذر فالنتيجة الحاصلة تمثل طول الضلع القصير (= القاعـدة) في المثلث ا ب د . والحقيقة ان معكوس خطوات المعادلة التي تعطينا مساحة المثلث الكبير ا ب جـ تساوي (5ر1) . وهذه النتيجة اي (5ر1) تظهر في جميع المثلثات القائمة الزاوية التي يكون فيها الفرق بين طول القاعدة والارتفاع يساوي ثلث طول القاعدة وذلك عندما نعكس الخطوات التي يستخرج من خلالها مساحة تلك المثلثات .

ولهذا السبب يمكننا ان نعتبر الـ (5ر1) نسبة ثابتة في جميع امثال هذه المثلثات . وعليه نعتقد ان البابليين قد تعرفوا على هذه النسبة الثابتة واوجدوا منها قاعدة رياضية . ومنطوق هذه القاعدة الرياضية ينص على ما يلي :ـ

$$\sqrt{\text{النسبة الثابتة (= 5ر1)} \times \text{مساحة المثلث القائم الزاوية}} = \text{طول القاعدة}$$

واذا ما نظرنا الى الطريقة البابلية المتبعة في ايجاد طول الضلع ا د نجدها تعتمد على ضرب معكوس منتصف الضلع القصير ب د في مساحة المثلث ا ب د فالناتج يمثل طول الضلع القائم الثاني ا د . وباسلوب آخر فان الطريقة البابلية تعتمد على قسمة المساحة على منتصف الضلع القائم القصير (= القاعدة) فالنتيجة الحاصلة تساوي طول الضلع القائم الطويل (= الارتفاع) . وهذه الطريقة في الواقع لا تختلف عن الاسلوب المستخدم في الوقت الحاضر عندما يراد ايجاد الارتفاع لأي مثلث معلوم فيه المساحة وطول القاعدة .

وبنفس هذين الاسلوبين المشار اليهما اعلاه توصل الرياضي البابلي الى طول الضلعين (اهـ) و (هـد) . وبواسطتهما يمكن ايضا الوصول الى اطوال بقية الاضلاع .

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

* المعادلة الخاصة بايجاد مساحة المثلث الكبير ا ب جـ هي $\frac{\text{اب} \times \text{اجـ}}{2}$

ومعكوس خطواتها هو $\frac{\text{اب}}{\text{اجـ}} \times 2 = 5 \text{ ر } 1$

الملاحظات

1 ـ يقع تل حرمل على نحو ثمانية كيلو مترات الى الجنوب الشرقي من مركز بغداد .

2 ـ ان اسلوب ترقيم هذه الفترة قد استعمل من قبل بعض الكتاب حتى في العصر السومري الحديث واختفى نهائيا في اواخر العصر المذكور اي في حدود 1900 ق . م .

3 - KURT VOGEL, VORGRIECHISCHE MATHEMATIK, TEIL , PADERBORN , (1959) , P . 15 - 25 .

4 - Armas Salonen , Die Hausgeräte Der Alten Mesopotamier , Helsinki , (1965) , P . 276 - 295 .

5 - Kurt Vogel , Vorgiechische Mathematik , teil L , Paderborn, (1959) , P . 15 - 25 .

قصة من الخيال العلمي

حب في

في مساء ذلك اليوم من شهر ايلول عام 2000 ، وقف صاروخ شامخ على قاعدته بمركز الفضاء معدا للانطلاق. كانت تزينه اعلام الولايات العربية المتحدة بعد ان اتحدت هذه الدول في مجلس رئاسي واحد .

كان هذا الصاروخ المسمى (الوحدة) يحمل اول سفينة فضاء عربية (السلام) بها رائدان في رحلة الى الفضاء .. وقد سبق هذا اليوم العظيم عدة تجارب لاطلاق اقمار صناعية عربيـة .. توجت باطلاق اول رائدين عربيين الى الفضاء .. وقد اختير شاب وفتاة من بين آلاف المتطوعين لهذا العمل الجليل لخدمة مستقبل الولايات العربية المتحدة ..

— 1 —

وقف ماجد ــ أول رائد فضاء عربي ــ يرنو من خلال نافذة معمل الاختبار الذي تجرى به التجارب قبل الانطلاق للفضاء .. تطير نظراته الى الافق البعيد حيث تختلط السماء الصافية بالمناطق الشاسعة الخضراء .. وتعجب كيف كانت كل هذه المساحات صحراء يوما ما ..

كان يود لو يعانق المدى .. ويخترق الحدود .. ويضم بلده الحبيب كله في نظرة .. وبرغم سعادته بكل ما يراه .. وبالرحلة المقبلة .. الا ان نفسه كانت تفيض بحزن عميق ، ربما يرجع هذا لان لميـاء ــ زميلته في رحلة الفضاء ــ قد رفضت حبه بالامس عندما صارحها بما يعتمل في نفسه من شعور بعد ان دامت معرفتهما لشهر كامل في مختبر الفضاء وتجارب انعدام الجاذبية .. انه يذكر جيدا ماقالته له وهما يتدربان على العقل الالكتروني الناطق .

ــ « كيف تحدثني عن الحب ونحن على ابواب القرن الحـادي والعشرين ؟ »

قال لها وهو ينظر الى عينيها الزرقاوين في دهشة .. يحاول ان يستشف شيئا

ــ « عفوا لم افهم تماما .. ماذا تعنين ؟ »

ــ « اعني انه لا مكان للحب اليوم ونحن في قمة التطور .. بل يجب ان نلقي كل اهتمامنا ونكرس كل وقتنا للعلم .. فقد بلغ التقدم العلمي ذروته وانتشرت الاختراعات النافعة في كل مظاهر الحياة .. فبمجرد حقنة واحدة من مصل (الشفاء) تقي الانسان لمدة خمسـة اعوام من كافة الامراض .. وهكذا طال عمر الانسان حتى بلغ متوسطه تسعين عاما .. وتم بفضل الجراحة الحديثة وباستخدام العقـل الالكتروني ازالة الذكريات الحزينة التي قد تؤلم الانسان خلال فترة طويلة من حياته .. » .

قاطعها وقد نفد صبره

ــ « كفى .. انا غير مدرك للتطور العلمي الهائل الذي حققه العالم في الربع قرن الماضي .. ولكن العالم يعيش اليوم في دنيا تحكمها الآلة .. بلا عواطف .. ان سعة العلم زادت في وجوم الانسان واضطرابه ، فهو ينشد الاكثر والاعمق والاوسع .. وهو يكره ويحب ، وبيـن الكراهية والمحبة يتأرجح .. لا يعرف ان بالحب وحده يمكن ان يسود السلام في العالم » .

ترفع يدها بعفوية الى شعرها .. وترمقه بعينيها الزرقاوين .. الشديدتي الصفاء .. النفاذتين .. الآسرتين ، وتلتقي نظراتهما .

يتأملها مليا ، ثم يهمس

ــ « لمياء .. احبك »

اشاحت بوجهها عنه

ــ « ارجوك .. دعنا لا نتحدث في هذا الموضوع » .

— 2 —

جلس ماجد حزينا بجانب العقل الالكتروني .. يشعر بانـــه يتضاءل .. لقد كانت عيناها قاسيتين ساخرتين برغم جمالهما .. الغرفة مظلمة وتكتكات العقل الالكتروني مطارق تهوي على اعصابه .. ويحس بانه يكاد يختنق .. كان يود ان يشكو لشـخص ما ..

فتح قناة التحدث مع العقل الالكتروني ووجد نفسه يقول :

ــ « انني حزين » .

اضاءت بعض اللمبات الملونة .. ثم انطفأ بعضها وبقي البعض الآخر يومض .. وارتفع صوت آلي اجش .. عميق

ــ « ماذا بك ؟ »

اجاب ماجد وهو شارد الذهن

ــ « لقد رفضت حبي »

اضاءت عدة لمبات اخرى .. ودار قرص كبير في الجانب الايمن من العقل الالكتروني .. انه يبحث في الذاكرة عن معنى لهذه الكلمة الغريبة .. ووقف الجهاز في عجز

ــ « ماذا تعني .. بالحب ؟! »

بدت الحيرة على وجه ماجد .. فالحب يمكن الاحساس به ولكن لا يمكن تعريفه في كلمات .. فالكلمات أضيق من ان تعبر عن هــذا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

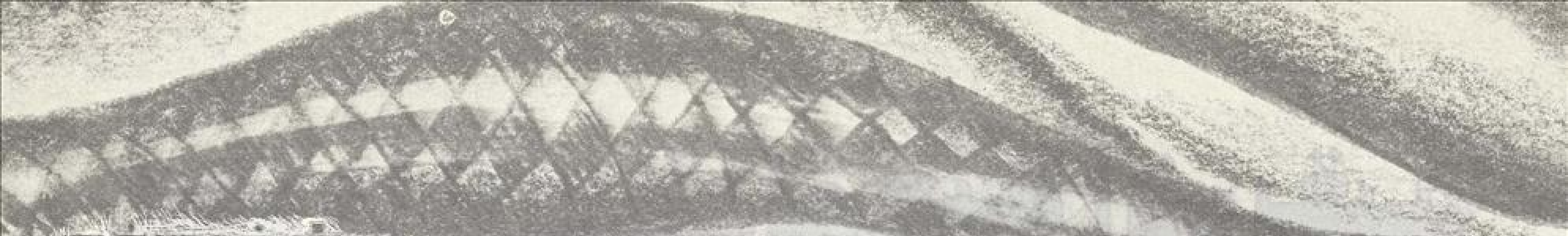

رؤوف وصفي

القرن الحادي والعشرين

المعنى النبيل .. واضطر ان يبحث عن المعنى اللغوي في دائرة المعارف العربية التي تعتبر من اكبر الموسوعات العالمية .. واخذ يقرأ المعنى للعقل الالكتروني .. ثم استمر ساعة يتلو له بعض ما قيل منذ زمن بعيد عن الحب في الادب العربي من نثر وشعر .. وكأنما احس ماجد بأن قراءة أجمل عبارات الحب تخفف عنه بعض ما يشعر به من حزن.

وبمجرد ان انتهى .. اطفأت بعض اللمبات الملونة في العقل الالكتروني الناطق .. وبقي البعض منها يومض في خفوت .. أما القرص الكبير فقد توقف بعد ان استوعب العقل الالكتروني كافةالمعاني في الذاكرة ..

تنهد ماجد ونظر الى العقل الالكتروني .. واختلج صوته

— « والآن .. ماذا أفعل ؟ »

مرت ثلاثة ثوان قبل أن يجيب الصوت الاجش العميق

— « استخدم اسلوبا يناسب العصر القديم .. اكتب لهاخطابا»

يشعر ماجد بشيء من الرهبة لا يدري مبعثه .. فيسأل متهيبا

— « ولكن لا اعرف كتابة الخطابات الغرامية .. فهذه عادة انتهت منذ سنوات طويلة » .

وجاءته الاجابة سريعة .. قاطعة

— « سأمليه عليك » .

وبدأ الصوت الاجش العميق يملي الخطاب في بطء

— « لمياء .. هل القوة ان نأخذ الحياة على غير صورتها هربا من صورتها الحقيقية .. وان نعاني الآلام حين تدفعنا الطبيعة الى السعادة .. كلا .. انما القوة أن نصيب فهم الحياة ونحتمل الاحساس بالمشاعر النبيلة كما هي .. ولو كان هذا الاحساس في ذاته ضعفا .. ولكنه طريق السعادة » .

واستمر ماجد في كتابة الخطاب الطويل حتى النهاية التي قال فيها العقل الالكتروني :

— « ما الحب الا ان تتلاقى على الاحلام القلوب .. فما دمتأحبك فأنت على الدوام معي » .

— 3 —

جلست لمياء ساهمة .. تنظر من نافذتها الى مبنى معهد الطاقة الشمسية للسلام .. حضنت رأسها الصغير بيديها الناعمتين .. ونظرت الى ما في يدها .. انه الخطاب الجديد الذي يكتبه لها ماجد كل يوم .. ولا يتحدثان عنه طوال يوم التدريب حتى اذا عادت الى حجرتها الخاصة وجدته فوق مكتبها .. يرقد كعصفور من السماء .. هذا هو الخطاب الرابع .

واستمرت في القراءة

— « .. انا وان جفاني النوم ثمل كالحلم .. تتفتح عيناي عن طيفك فاخف اليك .. واتخيلك الى جواري فأفتح ذراعي لك .. واضحك فاذا بك قد استحلت ذوبا يجري في عروقي .. انني اليوم مودعك ولم يحن لقلبينا لقاء .. وانني اطرح الكاس ولم يتح لشفتي لمسها .. وداعا » .

رفعت عينيها من الخطاب .. لقد غيرتها هذه الخطابات الى حد كبير .. كم هو رقيق وهو يبثها شعوره الصادق .. ومضت الايام وهي تفكر .. وتقرأ الخطابات ، كانت تعمل في آلية .. واتضحت لها الحقيقة .. انها وحيدة ، وثمة شيء ينقصها .. صبت نقمتها على العلم لانه بحر ضيق .. يكاد بعتوه المتكبر ان يقتل الطمأنينة في باطن الانسان .. يقلقه .. يفتح عليه نوافذ التساؤل والاضطراب .. اختفت السعادة من قلب الانسان يوم كبر صنم العلم وتفشى .. فقد كانت كارثة القرن العشرين انه ضيع المحبة ، والعاطفة ، والانسانية .. كارثته انه وقف عبدا للعلم .

لقد عاشت حياتها الماضية كعصفور يقاوم جرحه بمنقاره .. فيتسع الجرح وينزف الدم اكثر .. وانه ذات يوم وهو يراجع بعض التقارير بجانب العقل الالكتروني

— « ماجد »

نظر اليها في دهشة .. فلاول مرة تناديه باسمه مجردا .

— « اشكرك من أجل الخطابات »

نظر اليها في شغف وسعادة .. اما هي فشيء جديد في عينيه يناديها .. عالم غريب في الوانه يدعوها لزيارته .. لقد اكتشفت الفرق الكبير بين الذين يمارسون الحياة بلحظاتها .. بواقعها .. وبين الذين يمارسونها من بعيد ..

— 4 —

في المساء السابق على الرحلة التاريخية .. كان الصاروخ يقف منعزلا وقد تسلطت عليه الانوار الكاشفة .. ومن حوله العلماء العرب يجرون التجارب الاخيرة .. فقد بدأ العد التنازلي منذ ساعة.. وقفا في شرفة المختبر .. ينظر ماجد الى المدينة المتألقة .. ثم يرنو الى السماء

— « انظري ما اروع النجوم .. وما اصفى السماء »

تتمتم بشرود

— « ما اضيق الارض .. انني سعيدة بالانطلاق الى الفضاءغدا .. اشعر ان السماء تنادينا »

يتأملها معجبا

— « دعينا نوجه رسالة ونحن في الفضاء الى كل شباب العالم .. من هنا من قلب الولايات العربية المتحدة .. بالا يطغى العلم على الحب في القرن الحادي والعشرين .. فبالحب يمكن أن نوجه العلم لصالح البشرية ليسود به السلام فوق الارض » .

تلاقت نظراتهما .. ونبت أمل للبشرية في بريقهما .. وبدأ الحب في دفء يدين تشابكتا .. وبدت النجوم في السماء كملايين الشموع تزف السلام الى القرن الحادي والعشرين ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مفردات ميثولوجية اغريقية

في الميزان اللغوي المقارن

تقول الاسطورة اليونانية : في البدء كانت Chaos (خاوس) . وخاوس هي : الشوآش ، والسديم ، والعماء، والخواء ، واللاتكون ، والهيولى ، كما يفيد القاموس . وكانت خاوس فراغا مطلقا ومظلما ، او بعبارة ادق ، كانت تصور اما على انها الفراغ المطلق الذي يمثل خواء العالم قبل التكوين ، او هاوية الجحيم (تارتاروس) . ثم ظهرت Gaea (الارض) بثديين عامرين ، وبعدها ظهر Eros (الرغبة ، او الشهوة ، او الحب الذي يرقق القلوب) . ولكن الارض لم تكن ابنة خاوس . لقد ظهرت ، هكذا ، بعد خاوس ، كما تقول الميثولوجيا الاغريقية . وكذلك كان نشوء (ايروس) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن خاوس ولد Erebus (ايريبوس = الغروب) ، والليل ، اللذان انجبا ، بعد اتحادهما ، Ether (الاثير) ، و Hemera (النهار) . وفيما بعد ، سينجب الليل كل مظاهر الكون المظلمة والمرعبة، مثل : النوم ، والاحلام ، والموت ، والحرب ، والمشاحنات ، والمجاعة ، والاحزان .

وقد انجبت Gaea (اي الارض) ، من جهتها ، Uranus (السماء) مرصعة بالنجوم ، وجعلته(1) صنوا لها ، فاطبق عليها ـ اي على الارض ـ اطباقا تاما .. ثم انجبت الجبال الشاهقة ، و Pontus (البحر العقيم ، بامواجه المتناسقة) .

ملاحظة

سنتطرق في دراستنا هذه الى ذكر مصطلح (اللغات السامية) ، وهي مجموعة اللغات العربية والاكدية والعبرية والاوغاريتية والآرامية والحبشية وغيرها ، لانه ما يزال متعارفا عليه بين الاوساط اللغوية في العالم اجمع ، على الرغم من اننا لا نرى التسمية دقيقة او صحيحة . ونحن نتفق مع من يرى ضرورة اعادة النظر في هذه التسمية ، بما يفي بالغرض على نحو ادق واقرب الى الصواب ، وعلى نحو ينسجم مع تسمية بقية المجموعات اللغوية . فليس من المستساغ مثلا ان تسمى بعض المجموعات اللغوية باسماء اشخاص ، كما هو الحال مع اللغات السامية واللغات الحامية (نسبة الى سام وحام فقط من ابناء نوح كما جاء في التوراة) ، في حين تسمى مجموعات لغوية اخر باسماء جغرافية (كاللغات الهندية ـ الاوربية) او عرقية او قومية .. ولعلنا نميل الى تسمية مجموعة اللغات السامية بلغات الجزيرة العربية ، كما يرجح البعض ، كالاستاذ طه باقر ، لانها اقرب الى الصواب ، ولكننا اضطررنا الى عدم الاخذ بها خشية ان يفهم منها انها تعني اللغات العربية فقط (اي العربية الشمالية ، والعربية الجنوبية ، كما هو معروف عند اللغويين) .

علي الشوك

هكذا نشأ الكون . انما بقي ان يكون ماهولا بالبشر . فاتحدت Gaea بابنهـا Uranus وانجبت منـه السلالـة الاولى Titans (الجبابرة) . كانوا اثني عشر . ستة ذكور ، وست اناث .

اما الذكور فهم :

Oceanus, Coeus, Hyperion, Cirus, Iapetus, Cronus.

واما الاناث فهن :

Theia, Rhea, Mnemosyne, Phoebe, Tethys, Themis.

ثم انجب اورانوس وكايا ، السايكلوبس Cyclopes ، وهـم Brontes (بـرونتس) ، و Steropes, (ستـيروبس) ، و Arges (آرگس) ، الذين كانوا كسائر الآلهة ، ولكن بعين واحدة فقط في وسط جباههم . واخيرا انجبا ثلاثـة مردة ، هـم Cottus (كوتس) ، و Briareus (برياريوس) ، و Gyges (گيگس) . ومن اكتافهم برز مئة ذراع غير مرئية ، وعلى هذه الاطـراف القويـة انتصب خمسون راسا ملتصقة بظهورها .

وكان اورانوس لا يظهر لذريته الا الغضب . وما لبث ان احتجزهم في باطن الارض ، فحزنت كايا لهذا وطفح صدرها بالموجدة ، واضمرت لزوجها الحقد والكراهية . فندّ من صدرها حديد متوهج على شـكل منجل حاد ، واسرّت لابنائها بالخطة التي اعتزمت تنفيـذها . ففزع الجميع ، ولم يستجيبوا لها ، الا (كرونوس) آخر ابنائها ، الذي ابدى استعداده لمساعدة امه . وعند حلول الظلام ، هبط (اورانوس) كعادته ، برفقة (الليل) ليضطجع مع زوجته . واذ اسلم نفسه الى الرقاد ، داهمه (كرونوس) من مكمنه الذي اخفته فيه امه ، وبتر اعضاءه التناسلية بمنجله ، ورماها في اليمّ . ومن هذا الجرح البليغ تساقط دم اسود ، ومن هـذه القطرات التي تساقطت على الارض ولدت إلاهـات الغضب Meliae . ومن الحطام الذي طفا فوق الامواج نشأ زبد ابيض ولدت منه آلهة شابة هي (افرديت) .

تلك هي رواية الشاعر الاغريقي هزيود حول نشوء العالم بما فيـه من آلهة وبشر .

استطراد لغوي

وخاوس Chaos اسم مشتق من الفعل اليوناني Khaskein (يتثاءب ، يفغر فمه) لينم بذلك عن الفضاء الواسع . وفي مرحلة متأخرة، فسرت خاوس على انها الكيان المشوش غير المنتظم للعناصـر المبعثرة في الفضاء ، وذلك بارجاع الكلمة ـ خطأ ـ الى الجذر Khein (يصب ، يسكب ، يجري) ، وهو تفسير جاء به الفلاسفـة الرواقيون الاغريـق . فقد كانوا يزعمون ان خاوس تمثل الحالة السائلة المائيـة التي تعقب مرحلة خراب الكون بعد ان كانت النيران تلتهمه ، اي المرحلة التي تسبق بنـاءه .

و (خاوس) اليونانية تقابل (العماء) الساميـة ، أو (تيامت = تعامت ؟) باللغة الاكدية ، و (تهامة) بالعربية ، و (تهـوم) باللغـة العبرية ، وتعني (البحر المحيط) .

اما Gaea (الارض ، أو آلهة الارض) فهي موازية لكلمة gi (الارض) باليونانيه ، وتعود الى كلمة ga الاغريقيـة الدوريـة (القديمة) ، وعنـد هوميروس gaia ، ولا تعـرف القواميس لها اصلا .

ولكنها قد تذكرنا بكلمة (القاع) العربيـة . و (القاع) : ارض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، كمـا جاء في القاموس المحيط . ولكننا لم نجد في اللغات السامية ـ في حدود اطلاعنا ـ قرينـة لهذه اللفظة العربية في مبناها ، انما لاحظنا ان هناك كلمة Ki السومرية التي تدل على الارض ، فهل ثمة صلة بين بعض او جميع هذه الكلمات ؟

واما Eros (ايروس) فتعني باليونانيـة (العشق ، الحب الجنسي) . و (الارّ) بالعربية ، كما جاء في قاموس (تاج العـروس) : السوق والطرد ... والجماع .

وقد وجدنا في الاكدية كلمة Erû ، وتقال للمرأة الحامل . و uru (عري ، خجل) . وكلمة (هره) العبرية تعني (امرأة حامل) ايضا . كما ان اللفظة تقال لعضو التذكير بالعربية . اما الكلمة اليونانية فتفيد القواميس ان اصلها غير معروف . فهل تمتّ الى اصل سامي ؟

واما كلمة Erebus (ايريبوس) ، وتعني (ممر في الاعماق المظلمة يصل بين الارض وهاديس « الاعماق السفلى ») ، فهي كلمـة سامية الاصل مأخوذة من لفظة (غروب) ؛ والغروب يفيد الظلام(2) .

وسوف نناقش كلمة Ether (الاثير) عند حديثنـا عـن زوس .

عود الى الاسطورة

وبعد ان آل مصـير (اورانوس) الى العقم ، حـرر (كرونـوس) اخوته الجبابرة Titans ، باستثناء السيكلوبس والمردة ، واصبح سيد الآلهة .

وتحت حكمه استمرت عملية الخلق . تزوج كرونوس من اختـه Rhea (ريا) ، فانجبت منـه ثلاث بنـات ، هـن : Hestia (هستيـا) ، Demeter (ديميتر) ، و Hera (هـيرا) ؛ وثلاثـة اولاد ، هـم : Hades (هاديس) ، و Poseidon (پوسيدون) ، و Zeus (زوس) .

ولكن كرونوس ما لبث ان ابتلع جميع ابنائه ، عدا زوس ابنـه الاخير الذي اخفته امه عنه ، وعوضا عنه القمت الاب حجرا بعد ان لفته بقماط . ويقال ان كرونوس انما كان يفعل ذلك لأنـه كان يخشى ان تتحقق نبوءة تقول ان احد ابنائه سيحتل مكانه . أو لأنه كان قد اتفق مع اعمامه الجبابرة عندما انزل اباه عن عرشه على الا يخلف ذريـة . ورجت (ريا) ام (زوس) والديها اورانوس وكايا ان يساعداها في انقاذ زوس . فذهبت به جدته كايا الى جزيرة كريت لتخفيه في كهف ، وتضعه تحت رعاية حوريات اختلف الرواة في اصلهن ؛ ولكن هيرودوتس يـرى انهن فينيقيات من سلالة قدموس .

ولما بلغ زوس اشده علم اعمامـه (الجبابرة) بامره ، فثاروا على ابيه كرونوس الذي كان قد تعهد لهم بالا يكون له نسل . وكانت معركة حامية كادت الغلبة ان تكون فيها للجبابرة لولا ان زوس خف لمساعـدة ابيه ، فسقاه شرابا استرجع بواسطته اخوته الذين ابتلعهم ابوهـم ، فناصروه على اعمامهم ، فانتصروا .

واذ فطن كرونوس الى ان ابنه زوس انما افلت منه بحيلة من امـه حاول ان يقضي عليه ، فلم يفلح ، بل كانت الغلبـة لزوس الذي القى بابيه الى الارض فسقط الى جوار روما ليضمن لها الخلود ، حسب رأي فرجيـل شاعر الرومان(3) ، لأن كرونوس يعني الزمن ، كما فسـره

البعض ، وهو وهم وقعوا فيه لان الزمن باليونانية يقال له : خرونوس(4).

مناقشة لغوية

لنبدا بكلمة (كوزموس) Cosmos التي تدل على الكون . تعني الكلمة بالاصل في اليونانية : (نظام ، زخرفة ، تزيين ، ترتيب ؛ عالم ، كون) . والكلمة ، كما تفيد القواميس من اصل غير معروف بصورة قاطعة .

فتسمية الكون ، اذن ، جاءت من كلمة بسيطة تفيد بالاصل معنى التقسيم والترتيب ، كما يؤكد جورج تومسن في كتابه (اسخيلوس واثينا) . يقول تومسن : « لقد كانت الكلمة التي استعملوها [يقصد الآيونيين] للتعبير عن نظام العالم هي (كوزموس) . وكان معنى هذه الكلمة الاولي اجتماعيا ، وبقي ذلك المعنى قائما في عدد من المصطلحات السياسية ـ كوزموي (كريت) ، وكوزموبوليز اللوكريين . وفي (الالياذة) ، يستعمل الفعل Kosméo بمعنيين فقط ـ ترتيب الجنود للمعركة واستيطان القبائل في الارض المحتلة ـ وكان هذان المعنيان في الواقع شيئا واحدا ، لان الجنود كانوا يرتبون في قبائل وبطون . وهكذا وصف الفلاسفة الآيونيون ترتيب العالم بلغة الترتيب القبلي »(5) .

وعلى الرغم من اننا نحاول ان نتحاشى الانجرار وراء المشابهات اللفظية السطحية ، الا اننا لا نجد باسا من ان نشير ، ولو مجرد اشارة ، الى احتمال وجود صلة بين هذه الكلمة ، اي كوزموس ، وكلمة (قسم) السامية . ف (قسم) الشيء ـ بالعربية ـ جزاه . وقسم الدهر القوم : فرقهم . وقسم الغلام (بضمة على السين) : كان قسيما ، اي وسيما . وباللغة العبرية (قسم) تعني : نحت ، نقش ، قطع . وباللغة الاكدية Kasamu تعني : يشطر الشيء الى جزاين و (قسم) (السريانية) مثل نظيرتها العبرية . على ان المعنى الاصلي لهذه الكلمة في اللغات السامية هو التجزئة ، او كما يقال بالانكليزية To Divide ونحسب ان هذه المعاني تلتقي الى حد كبير مع المعاني الاصلية للكلمة اليونانية .

كرونوس

وتحار القواميس ايضا في اصل كلمة كرونوس Kronos ، شانها مع العديد من الاسماء التي يرد ذكرها في الاساطير اليونانية . ولم يجد اللغويون كلمة قريبة من هذه المادة سوى لفظة (خرونوس) Khronos (الوقت) ، فوقع بعضهم في واهمة الخلط بين الكلمتين ، ومن بينهم العالم اللغوي الشهير ماكس مولر(6) .

على اننا وقفنا على راي جدير بالاعتبار ، على الرغم من اننا لا نملك ما يدفعنا الى القطع بصحته بصورة اكيدة . وصاحب هذا الراي هو روبرت براون مؤلف الكتاب الموسوم ب (مؤثرات سامية في الميثولوجيا الهلينية)(7) . وبراون يرى ان اسم (كرونوس) يرجع الى كلمة (القرن) السامية ، بمعنى الزيادة العظمية في راس الحيوان . ويعزز رايه بهذه الحجة :

ان اول نقطة جديرة بالاعتناء في البحث عن شخصية مثل كرونوس هي ، اين نجده قبل كل شيء ؟ اما الجواب فهو مؤلفات الشاعر هزيود (من بويوتيا Boiotia) التياستقرت عائلته في ايولس Aiolis وكل التاريخ القديم لبويوتيا يشير الى انها كانت مركزا خاصا للنفوذ السامي [اي الفينيقي] .

وحسب راي روبرت براون فان كلمة كرونوس تقابل كارنوس ، وهذه ليست سوى كلمة (القرن) السامية(8) . وفي اللغات السامية ، تستعمل كلمة (القرن) كمعادل للقوة ، كما يؤكد براون . فصاحب القرن هو القوي . ونجد مثل هذا في كلمات تصف (عشتار) بالقوة والباس : « عشتار ... تضع راس ثور على راسها كرمز لجبروتها » .

اما كيف تغير لفظ Karnos الى Kronos ، فان روبرت براون يعلل ذلك بالحجة الآتية : ان اليونانيين عندما يستعيرون كلمة اجنبية تحتوي على اكثر من حرف علة ، قد يسقطون حرف العلة الاول من الكلمة ، مثلما فعلوا مع كلمة (الكركم) Kar - Kom السامية ، التي صارت تلفظ عندهم Krakos . وعلى غرار ذلك نستطيع ان نتصور ان كلمة Karnos صارت تلفظ باليونانية Kronos (9) .

ولكن القرن باللغة اليونانية يقال له Kheras ، وباحدى اللهجات Kharnon (وهي لفظة لعلها هي واختها الكلمة اللاتينية Cornu تمت مع كلمة القرن السامية الى اصل واحد) ، فلماذا عافها اليونانيون واختاروا بدلا منها اللفظة السامية ، اذا صح راي روبرت براون ؟ ام ان استعارة اللفظة السامية جاءت نصا لا ترجمة ، علما بان كلمة (القرن) كانت تقترن باسماء بعض الالهة السامية (قرن البعل) ، وهناك من يقرن كرونوس ببعل السامي ، لان (بعلا) كانت تقدم له الضحايا (من الاطفال خاصة) ، وكرونوس كان يبتلع ابناءه .

كما انه يمكن ان يطرح السؤال الآتي : اذا كان اسم (افروديت) ، وهي التي نشات من صلب كرونوس ، مستعارا من (عشتروت) السامية، كما سنرى ، فلماذا لا يجوز ان يكون اسم (كرونوس) ماخوذا من كلمة (القرن) السامية ؟

زوس

ثمة صلة لغوية بين كلمه (زوس) Zeus والكلمة اليونانية dios (مقدس) . ويقترن زوس ايضا بالأله اللاتيني Diespiter وكذلك Jupiter (جوبيتر) ويعني (الاب السماوي) . وهذه الكلمات مشتقة من مادة Deyewo (مضيء) ، المنحدرة من الجذر الهندي ـ الاوربي Deya او Di او Dya (يضيء) . ومن هذه المادة ايضا تحدر اسم اله الحرب التيوتوني = الجرماني Tiw ، ومن هذا الاسم الاخير جاءت كلمة Teusday (الثلاثاء) بالانكليزية . بل كلمة Day (يوم) تحدرت ايضا من هذه المادة . كما يمكن ذكر كلمة Diva السنسكريتية التي تعني (شيء له علاقه باليوم) ، وكلمة Tiv (يوم) بالارمنية . ويمكن ذكر كلمة Devus اللاتينية : وتعني (مقدس) ، ومنها جاءت كلمة deus (الله) . وقد اشار الاب انستاس ماري الكرملي في كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها) الى الصلة بين كلمة deus اللاتينية هذه ، وكلمة (ضوء) العربية . وقد وجدنا ايضا ان كلمة udda الاكدية تعني (ضوء) : وهي من اصل سومري ، كما يفيد قاموس بيتسولد للآشوريات ، وترجع الى الجذر u او ud

وكان زوس يستخدم الصواعق سلاحا له . وكانت هذه الصواعق قد صنعها له السيكلوبس (ذوو العيون المدورة) ، والعمالقة ، الذين اطلق سراحهم من سجنهم تحت الارض ، وهو السجن الذي اودعهم فيه ابوه كرونوس ، فكافاوه بها ، اي بالصواعق . ولعل هذا يفسر علاقة الكلمة بالضوء ، كما يؤكد ذلك الجذر الهندي ـ الاوربي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

● دايونيسوس

على ان هناك اشكالا لغويا حير العالم اللغوي الشهير ماكس مولر في حينها ، ذلك ان الكلمة الاغريقية Theos لا تتفق في مبناها الصوتي مع الكلمة السنسكريتية deva (مضيء ؛ اله) ، ولا مع الكلمة اللاتينيــة deus (الــه) . لماذا تحــولت الــدال في الكلمتين السنسكريتية واللاتينية الى ثاء في الكلمة اليونانية ، ذلك ما لم يستطع العالم ماكس مولر ان يعطي تفسيرا له . فان لم تكن كلمــة Theos الاغريقية مشتقة من الجذر div ، فليس هناك جذر آخر من الممكن ان تشتق منه يجمع بين المعنى والمبنى . فهل يلقي هذا مزيدا من الضوء على صلة هذه المادة بكلمتي (ضوء) و udda ؟

وربما يحضر في الذهن ايضا اسم (يهوه) اله العبرانيين عند ذكــر زوس او جوبيتر ، لان اعمال يهوه لا تختلف كثيرا عن وظيفــة زوس أو جوبيتر . ومن بين من يرجع وجود علاقة حتى في اللفظ بين اسمي الاله العبري والاله الروماني ، سيغموند فرويد ، الذي يقول :

« وبديهي انني لست اول من دهش للتشابه بين اسم يهوه وبين جـذر ذلك الاسـم الالهي الآخــر : يوبتر (Jupiter) ، يوفس (Jovis) . واسم يوشانان (Jochanan) المشتق من يهــوه العبراني ، والذي له تقريبــا نفس دلالة غودفروي (Godfroy) (نعمة الله) ، والذي يعادله عند القرطاجيين هنيبعل ، اسـم يوشانان هذا قد أمسى ، في شكل يوحان وجون وجان وجوان ، واحدا من الاسماء المأثورة لدى المسيحية الاوربية . وحين جعل منه الايطاليون « جيوفاني » (Giovanni) ويطلقون على احد ايام الاسبوع اسم « جيوفيدي » (Giovidi) ، فانهم انما يسلطون الضوء على تشابه معين قــد يكون عديم الدلالة ، ولكن قد يكون ايضا عظيم الاهمية »(10) .

واذ يطلق فرويد على زوس لقب « ذاك الذي يهز الارض » فانــه يذكرنا بيهوه اله البراكين .

وقد اختلف العلماء في تفسير اسم (يهوه) اختلافا واسع المدى(11) . ويستعرض الدكتور السيد يعقوب بكر بعض هذه التفاسير ، ويذكر من بينها ان (يهوه) قد يكون مشتقا من (هوى) العبريــة التي تقابلهــا (كان) العربية ، فيكون معنى (يهوه) : يكون . ويشير ايضا الى تفسير آخر ينسبه الى فلهاوزن ، مفاده ان (يهوه) من (هوى) العربيــة التي منها (الهواء) ؛ فمعناه « يسري في الاهوية ، يهب » ، اي انــه الــه العاصفة(12) . ويشير ف. فليشرز في كتابــه (وادي الاحلام) الى ان يهوه كان الها بركانيا ، او الها للرعد(13) . ويؤكد هذا ان (يهــوه) يوصف في المزمور 68 : 4 تارة بانه « الراكب في القفار » ، وتارة اخرى بانه يرعد ويزمزم : « اسمعوا سماعا رعد صوته والزمزمة الخارجــة من فيه »(14) .

دايونيسوس

لا يعرف اصل كلمة Dionysus بصورة قاطعة ، ولكن هناك من يرى ان هذا الاسم ـ دايونيسوس ـ مشتق من (زوس) . ويذهب اصحاب هذا الراي الى ان الكلمة مؤلفة من المقطعين Zeus of Nysa اي (زوس نيسا) . ولكننا وقفنا على راي آخر يرجع بهذه الكلمة الى اصل سامي . وصاحب هذا الراي روبرت براون الذي سبق ذكره ؛ فهو يرى ان كلمة Dionysus مؤلفة من المقطعين Di الاكدي [ام انه Din ، كما نحسب](15) ويعني (يحكم ، يقضي ، يدين) ، و Nisu (انسان) ، وبالعربية : (ناس) = بشر . فالكلمــة تعني بمقطعيهــا ـ وبالحرف الواحد ـ ديّان الناس ، اي قاضي البشر(16) .

ولعل مما يعزز هذا الراي ان ابوي دايونيسوس ، كمــا تقــول الاسطورة ، هما زوس وسيميله Semele ابنة قدموس (وقدموس اسم فينيقي معروف) . واذا كانت الميثولوجيا الاغريقيــة قــد جعلت دايونيسوس الها للخصب والنماء والخضرة ، وبخاصة الكرم (بسكون الراء) ، ومن ثم الها للخمرة ، فانه لم يعرف كذلك عند هوميروس ، اي انه لم يعرف كصانع او خالق للخمرة ، كما انــه لم يظهــر في ملحمتي هوميروس في الاولمب ، انما كان الشاعر اليوناني هزيود (وهو متاخــر عن هوميروس) اول من قال بان الخمرة هبة من دايونيسوس . هــذا في حين كان دايونيسوس يوصف في الالياذة بالغضب .

ديــانا

ديانا Diana اسم مشتق من كلمة لها علاقة بالضوء ؛ فلعل اسمها يعني (المضيئة) او « ضوية » كما تسمى بعض البنات عندنا . وهي آلهة الضوء ، او القمر ، والغابات والصيد والحيوانات الاليفــة . وديانا من الهات (الاهات) الاقوام الايطالية (اللاتين ونحوهم) ، وتقابلها عند الاغريق Artemis . ويرجــع اشتقاق اسمها الى كلمــة Diviana اللاتينيــة المبكــرة ، ويعني الاسم حســب راي Krestchmer « عائد الى Diva ، آلهة القمر » (وبالحرف الواحد : التي تشع) ، وترجــع الى كلمة dius (مقــدس) . وبالتالي ، فهي كزوس ، ترجع الى مادة (الضوء) مبنى ومعنى .

الاثــير

اما كلمة (الاثير) فترجع الى مادة aitho اليونانية من الفعل

aithein (يضيء ، يشتعل) .

ويلاحظ ايضا ان كلمة enthusiasmos اي (العصبية) باليونانية مشتقة من كلمة enthos اي مملوء بالاله ، موحى اليه ، متلبس به . والكلمة مؤلفة من المقطعين en (في) ، و theos (الله) . ومنها جاءت كلمة enthusism الانكليزية(17) .

زنوبيا

وجاء في قاموس الدكتور ارنست كلاين(18) ان (زنوبيا) اسم علم ، وهو من اللاتينية Zenobia ، ويرجع الى اليونانية Zinobia ويعني بالحرف الواحد (قوة زوس) ، حيث ان bia تعني (قوة) ، وتقابلها بالسنسكريتية jya (قوة ، بأس) .

وزنوبيا هي زينب او الزباء عند العرب ، وهي ملكة تدمر وامرأة اذينة ، غلبها واسرها الامبراطور الروماني اورليانوس (273) . وعلى ايامها ازدهرت تدمر وراجت فيها حركة تجارة واسعة فاغتنت وصارت مركزا لثقافة عربية يونانية رومانية(19) .

اورانوس

كلمة (اورانوس) باليونانية تعني (سماء) ، ويظن ان لها صلة بكلمة varsam الهندية القديمة ، وتعني (مطر) .

التيتان

اما كلمة Titan (الجبار) فمشتقة من tito (شمس ، نهار) ، ويظن انها مستعارة من احدى لغات آسيا الصغرى القديمة .

السيكلوبس

الكلمة مشتقة من Kukhlops اليونانية ، وتعني بالحرف الواحد (ذا العين المدورة) ، من khukhlos (دائرة) ، و ops (عين) . واما لفظة (خوخلوس) اي الدائرة فتقابلها بالسنسكريتية cakrah ، وبلغة الافيستا (وهي اللغة الفارسية القديمة التي كتب بها كتاب الزرادشتيين المقدس) -caxra ، وباللغة الطوخارية Tokharian (وهي احدى اللغات الهندية ـ الاوربية المنقرضة) kukäl ، وباللغة اللتوانية kaklas (عنق) . وتقابل هذه المادة بالانكليزية كلمة wheel (عجلة) ، وهي من الانكليزية القديمة Hweogol وترجع الى الاسكندنافية القديمة hvel و hjol

ونحسب ان هذه المادة تقابل كلمة galgal (عجلة) باللغات السامية ، المشتقة من الجذر السامي Gel (يدور) ، ولعل من هذا الجذر جاءت كلمة (اكليل) السامية (بالاكدية : كليلو ؛ وبالعبرية : كليلا) . كما لاحظنا ايضا ان كلمة گليلات gelellat باللغة البربرية الليبية (وهي لغة حامية) تعني (يكون مدورا) .

سيرسه

سيرسه Circe في الميثولوجيا الاغريقية هي الساحرة الشهيرة التي ورد ذكرها في اوديسة هوميروس ، والتي كانت بفضل بعض العقاقير والرقى (التعاويذ) تستطيع ان تمسخ البشر حيوانات في هيأة ذئاب او اسود . وكان ابوها هيليوس Helius وامها حورية البحر المحيط پيرسه Perse . والاسم ـ سيرسه ـ مشتق من الكلمة اليونانية kirkhi التي تعني على الارجح (يلف ، يغطي) ، وهي

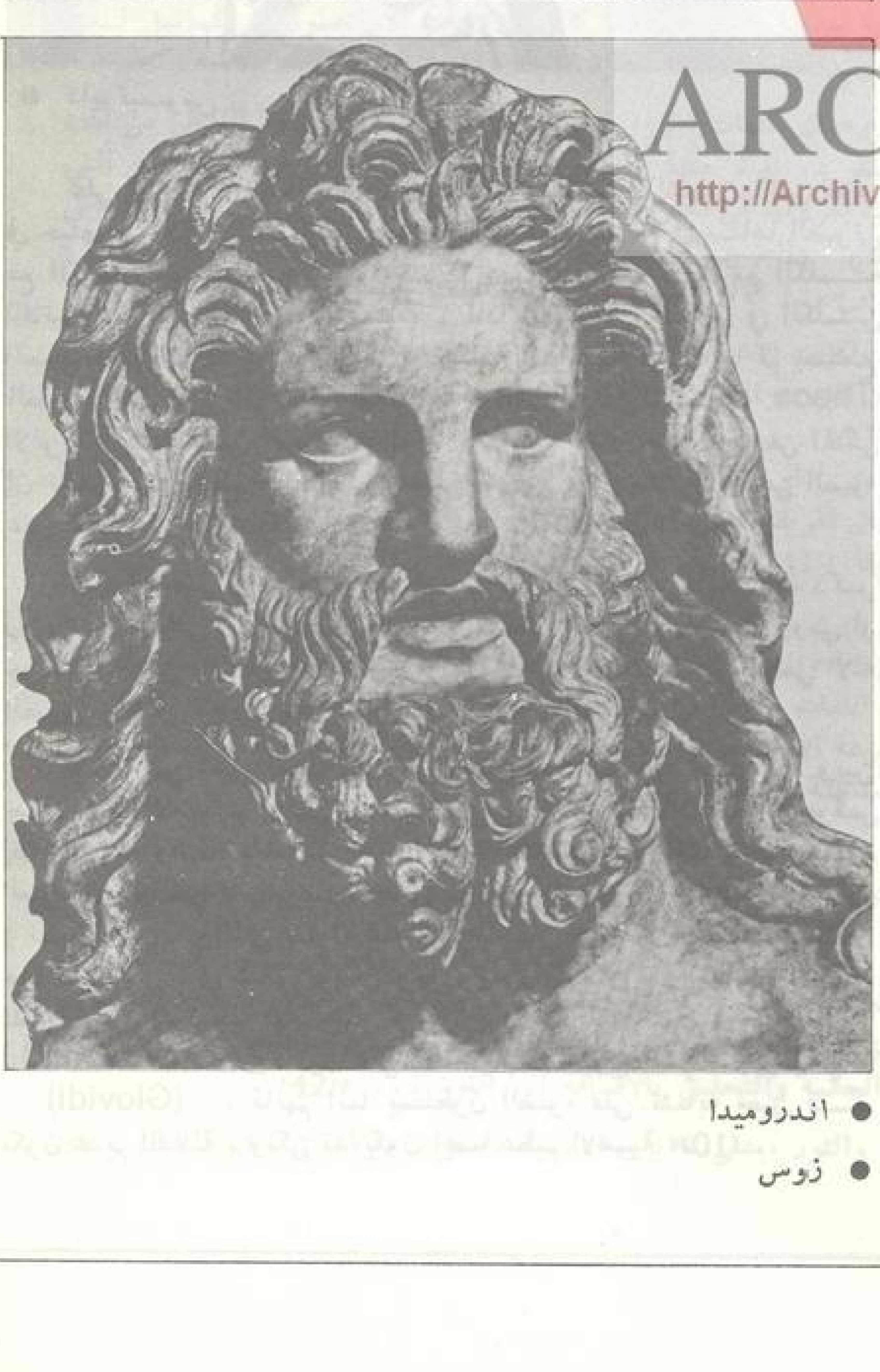

● اندروميدا

● زوس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مشتقة من الكلمـــة الفينيقية ـ العبريـــة karakh (كرخ) بمعنى (لف) ، كما يؤكد الدكتور كلاين في قاموسه .

ديميتر

ديميتر آلهة الزراعة عند اليونانيين القدماء ؛ وتلفظ باللغة اليونانية Dimitir ، وباللغة اليونانية الدورية (وهي اقـدم اللهجـات اليونانية) Damatir ، وتعني بالحرف الواحد (ام الارض) ، من Da (الارض) باللغة اليونانية الدورية ، وتقابل Gi باليونانية ، و matir (ام) باللغـة اليونانية الدوريـة ، وتوازي mitir (ام) باليونانية .

وجاء في الموسوعة البريطانية (طبعة 1962) :

« وهناك في اليونان ايضا آثار واضحة من عبادة آلهـة [انثى] او اكثر . وثمة رأي حديث حصيف يفيد ان احدى هذه الالهات قد تكون الهة للارض ، كانت تسمى أو تلقب بـ « دا » (وهي كلمة ترد في اليونانية الكلاسيكية بمعنى القذف [بمفهومه الجنسي]) . ويقال ان هذا المقطع حين يركب مع عناصر يونانية يؤلف اثنين أو ثلاثة من الاسماء المقدسة، كما هو الحال في اسم ديميتر Demeter او Dameter «mother Da (الام دا) ، و Posei-da-on (زوج دا) »(20) .

ولسنا ندري ان كانت لفظة « دا » اليونانية الكلاسية هـذه ، اي القذف [بمعناه الجنسي] تذكرنا بمادة (دد) السامية ، وتعني الحب ، ومنها جاءت كلمة dadu الاكدية ، وتعني المضاجعة (وسوف نرجع الى هذه المادة عند كلامنا على ديدالوس) .

هـيرا

هيرا Hera اخت وزوجة زوس في وقت معا ، وهي ملكة الآلهة في الاساطير اليونانية ؛ وتقابلها جونو Juno عند الرومان . الكلمـة مشتقة من ira اليونانية ، وتعني بالحرف الواحد (حارسـة) ، وتعود الى iros (بطل) ، وبالاصل (حارس ، حامي) .

اوقيانوس

من اصل غير مبتوت فيه .

ايابيتوس

ايابيتوس Iapetus هو احـد الابنـاء الجبابرة الستة من اورانوس وكايا ، وهو ابو (اطلس) و (بروميثيوس) و (ابيميثيوس) و (مينويتيوس) . ويظن ان اسمه مشتق من الاسم العبري او السامي ـ بالاحرى ـ يافث اصغر ابناء نوح الثلاثة (سام وحام ويافث) .

وفي قاموس الدكتور كلاين ان (يافث) تعني بالحرف الواحـد (اتساع) كما جاء في سفر التكوين 9 : 27 . وهي من الجذر ف ـ ت ـ 5 (وبالاصل من : ف ـ ت ـ ي) وتعني (يتسع ، يكون فسيحا) ؛ وهذه الكلمة ترجع الى مادة (فيثا) الآرامية ـ السريانية ، وتعني (اتسـع ، فضا) . ويبدو لنا انها تقابل مادة (فضا) العربيـة لفظا ومعنى ، ذلك ان (فضا) المكان فضاء وفضوا (وزن علو) : اتسع ، فهـو فاضي . جاء لرؤبة :

افرخ قيض بيضهـا المنقـاض

عنكم كراما بالمقـام الفاضي(21)

ليتـو

ليتو Leto ابنة الجبار Coeus وام ارتيميس Artemis كما انها ام ابولو Apollo من (زوس) . وهي مشتقة من الكلمـة اليونانية Lato . ويظن انها تمت الى كلمة Lada التي تعود الى ليسيا (في آسيا الصغرى) ، وتعني (زوجة ، مراة) ، كما جاء في قاموس الدكتور كلاين .

على ان هناك من يرجح ـ كالاستاذ عبدالحق فاضل ـ ان (لاتـو) مستعارة من اســم (اللات) الساميـة . ويرى ان اللاتين « من فرط افتتانهم باللات وتقديسهم اياها سموا من باب التبرك والتشريف فيمـا يظهر ولديها ابولو وديانه اللذين انجبتهما من جوبيتر باسمين مشتقين من اسم اللات ايضا بالاضافة الى اسميهما الاصليين وهما (لاتويوس : Latoius) : ابولو ، و (لاتوية Latoia) او (لاتويه العذراء : Latoia Virgo) : ديانه »(22) .

واللات مؤنث (إل) او (إيل) اي الله باللغات السامية جميعـا ، وتقابلها بالاكدية iltu وتعني (إلهة) ايضـا . وكان (إل) كبير آلهة الكنعانيين ، وزوجته تسمى (اثرت) ، وتلقب (إلت) . والآلهـة بالعبرية يقال لها (اليله) و (اله) على وزن (شفة) . على ان (إل) باللغة الاوغاريتية (وهي احدى اللغات السامية) تعني ايضا (خروف) ، واحيانا (ثور) ؛ ولعل هذه اللفظة تذكرنا ايضا بالالية العربية (إليـة الخروف) . كما ان كلمة (الاة) العربية (وزن عصاة) تعني البقـرة الوحشية .

ويرجع اقدم ذكر للات الى القرن الخامس قبل الميلاد . فقد جاء في تاريخ هيرودوت (الكتاب الثالث ، الفقرة الثامنة) ان العـرب كانـوا يعتقدون « ان الاله ديونيسوس Dionysos و (الآلهة) اورانيـا Urania هما الالهان الاوحدان ، ويسمون ديونيسوس (بالاسم Orotal) ، واورانيا (بالاسم) Alilat » . والاسم Orotal موضع خلاف بين العلماء ، كما يقول الدكتور السيد يعقوب بكر الذي نقلنا هذا الخبر عنه ، ويعقب : « و Alilat هي طبعا اللات ، وهذا النطق اليوناني دليل على ان اللات كانت في الاصل الالات (= الآلهة) ، كما ان الله هو في الاصل الاله . وقد جعل هيرودوت الالهة العربية اللات صنو الالهة اليونانية اورانيا الهة علم الفلك »(23) .

اثاماس

اثاماس Athamas هـو ملك Minyae في مدينة بويوتيـا القديمـه من اعمـال Orchomenus . تزوج اول امره من نيفيلـه Nephele ، ثم لما تزوج من اينو Ino ثانية اثار غضب هيرا Hera لأن اينو هي التي ارضعت دايونيسوس . فحل باثاماس مس من جنون وذبح احد أبنائه (ليارخس) Learchus ، فرمت اينو بنفسها مع ابنها الآخر Melicertes في البحر هربا منه . وفيما بعد ، كمـا تقـول الاسطـورة ، صارا الهين من آلهة البحر ، فتحولت اينـو الى Leucothea ، وابنهـا الى Polaemon . اما اثاماس فقد اضطر الى الهرب من بويوتيا تلاحقه لعنة ابنه الذبيح . وقضت عليه نبوءة بان يقيم مع الوحوش .

ويدعى اثاماس باللغة الايونية (احدى اللهجات اليونانية القديمة)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاماس Tamas . ويرى روبرت براون ان اتاماس او تاماس مأخوذ من (تموز) . ونحن في الوقت الذي لا نستطيع ان نقول ان اسطورة (اتاماس) اليونانية تشبه اسطورة (تموز) شبها لا يدعو مجالا للشك في وجود صلة بينهما ، لا ننفي احتمال وجود هذه الصلة اللغوية بين الاسمين لشدة تقارب اللفظتين .

اما اصل كلمة تموز Tammuz فيعود الى البابلية Du'uzu او Duzu وهي صيغة مختصرة لكلمة Dumu-zi (الابن الذي يرتفع) ، وقد تفسر على هذا النحو ايضا : « الابن المخلص » ، حيث ان كلمة dumu السومرية تعني (طفل) .

امبروزيا

كلمة (امبروزيا) ambrosia في الميثولوجيا اليونانية تعني (طعام او شراب الآلهة) ، وتفيد ايضا معنى (شيء خالد) . ولقد اثبت A.W. Verrel ان المعنى الاصلي لهذه الكلمة : عطر . ويرجع الدكتور كلاين ، الذي اشار الى ذلك ، ان كلمة ambrosios تعود الى اصل سامي ، فيكون المعنى : (عطر مثل العنبر ؛ شيء له علاقة بالعنبر) .

دايوميدس

دايوميدس Diomedes ابن تيديوس وديبله ، وهو احد الابطال اليونانيين في حرب طروادة . والكلمة تعني بالحرف الواحد (موصى من قبل زوس) ، وهي مؤلفة من المقطعين Dios (صيغة الاضافة لزوس) و medos (مشورة ، خطة ، دهاء) . ويظن ان هذا المقطع الاخير يرجع الى الجذر الهندي ـ الاوربي med (مد = مقياس) الذي يلتقي ، كما نرى ، مع مادة (مد) السامية وتعني (مقياس) ايضا . فمن معاني كلمة madadu الاكدية : (القياس) ، وان (مدد) العبرية تعني (مقياس) ، و (م د د) الاوغاريتية تعني (مقياس) ايضا . و (المد) بالعربية : البسط . والمد (بضم الميم) : مكيال وزن . والمدة (بالضم ايضا) : الغاية من الزمان والمكان . ويقابل هذه المادة السامية الجذر الهندي ـ الاوربي med (يقيس ، يحدد ، يعتبر ، ينصح) . ومن هذا الجذر تحدرت كلمة meter (المتر) ، ومنه ايضا جاءت كلمة matih السنسكريتية ، وتعني (يقيس) ، وكلمة -ma بالفارسية الدينية القديمة ، وتعني (يقيس) ايضا ... الخ(24) .

اغا ممنون

اغا ممنون Agamemnon ملك ميسينيا Mycenae وقائد الشعب اليوناني ضد طروادة . ويظن ان اسمه مؤلف من المقطعين Aga-medmon وبالحرف الواحد : الحاكم بقوة . و aga تعني : جدا ؛ و medmon تعني : حاكم ، ويظن انها مشتقة من الفعل اليوناني القديم medein (يحمي ، يحكم) المشتق من الجذر med (مد ، قاس) . على ان هناك من يرى ان كلمة memnon ترجع الى اصل آسيوي (ربما من الاناضول)(25) .

غانيميد

غانيميد Ganymede غلام وسيم ، كان ساقي زوس . والكلمة تعني باليونانية (تياه برجولته) ، وهي مركبة من ganymai (انا سعيد ، مغتبط) ، و midea (مشورة ، خطة ، دهاء) .

والمقطع الثاني هذا يرجع في اصله الى مادة medimnos (مقياس) الذي يرجع الى الجذر med (يقيس ، يحدد ، يعتبر) .

ميدوزا

ميدوزا Medusa احدى الاخوات الثلاث Gorgons في الاساطير اليونانية ، اللواتي تحيل نظراتهن كل من تقع عليه ابصارهن الى صخر . والكلمة تعني حرفيا (الحارسة) ، ويظن انها ترجع الى الجذر med

اندروميدا

بنت سيفيوس وكاسيوبيا في الميثولوجيا اليونانية . والكلمة Andromeda مؤلفة من المقطعين andros (رجل ، زوج) ، و medesthai (المفكر في ، يفكر في) . ويظن ان هذا المقطع الاخير يرجع الى الجذر med (مد ، قاس) .

ميتيس

ميتيس Metis اولى زوجات زوس ، كما جاء في الاساطير اليونانية ، وهي من اليونانية Mitis من اصل mitis (حكمة ، مهارة ، صنعة) ، وترجع الى الجذر me (يقيس) .

بالاميداس

بالاميداس Palamedas ابن نوبليوس Nauplius ملك يوبويا Euboea احد ابطال حرب طروادة . وفي ايام حصار طروادة زيّف اغا ممنون ودايوميداس واديسيوس (الذي كان بالاميداس قد كشف امره في محاولة للهرب الى طروادة) رسالة اودعت معها كمية من المال يفترض انها مرسلة من بريام ملك طروادة ، اخفوها في خيمته . ثم اتهموا بالاميداس بالخيانة والمراسلة مع العدو ، فرجم بالحجارة حتى الموت . لكن اباه انتقم له من الاغريق في طريق عودتهم الى الوطن ، حيث وضع منارا كاذبا في مدخل كاناريوس وضلل بذلك سفنهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ينسب الى بالاميداس انه مخترع بعض الحروف الابجدية ، ومنارات السفن ، والاوزان ، والمقاييس ، والعديد من الالعاب .

وبالاميداس ، وفق رأي روبرت براون ، اسم من اصل فينيقي : « ومن يكون بالاميداس غير بعل ميدوه الفينيقي (اي رب المقاييس) ، وبهذا يذكرنا ببالامون Palaimon (بعل حمون) » . ومما يؤيد ذلك ، في رأي روبرت براون ، انه ، اي بالاميداس ، « إله الاعداد ، والارقام ، والاوزان ، والمقاييس ، والنرد ، والحروف ، والحساب ، والفلك ؛ والمقطع الاخير من اسمه يفسر على انه يعني « الحكيم » (قارنه باسم ميديا Medeia اي المرأة الحكيمة) » .

بالامون

اما بالامون ، ويكتب بالانكليزية Palaemon فهو احد آلهة البحر في الميثولوجيا اليونانية . والاسم باليونانية palaimon ويعني بالحرف الواحد « المصارع » كما جاء في قاموس الدكتور ارنست كلاين . والكلمة مشتقة من الفعل palaiein « يصارع » ، وهذا الفعل من اصل غير معروف بصورة قاطعة ، كما جاء في هذا القاموس .

اما روبرت براون فيرى انه مؤلف من المقطعين (بعل) و (حمون) كما مر بنا اعلاه . فالاسم ، حسب هذا التفسير ، يرجع الى اصل فينيقي . ولعل (؟) علاقته بالبحر تؤيد هذا الرأي .

ميـديا

ميـديا Medea الساحرة هي ابنة آيتيس Aeetes ملـك كلوخس Clochis في الميثولوجيا اليونانية . والاسـم مشتق من اليونانية Medeia ، ويعني بالحرف الواحد : البارعة ، أو الماكرة . وهو مشتق من كلمة medos (نصيحة ، خطة ، وسيلة ، دهـاء) ، ويرجع الى الفعـل medein (يحمي ، يحكم) ، ويذكرنا بكلمـة medimnos (مقياس) من الجذر med (يقيس ، يحدد ، يعتبر) الذي يقابل مادة (مد) السامية .

دانـوس

دانوس Danaüs هو ملك ارغوس Argos الذي امر بناته الخمسين – كما جاء في الميثولوجيا الاغريقية – ان يقتلن ازواجهن في ليلة العرس . والكلمة ماخوذة من Danaos ، وهي على الارجـح مستعارة من مادة (دان) السامية ، كما جاء في قاموس الدكتور كلاين . ونقـل الدكتور كلاين عن Robert Graves في كتابه (الاساطير اليونانية) ان هذه العلاقة اللغوية تؤكد ان اسطورة Belus و The Danaides « تشير الى وجود المستعمرات الهيلادية Helladic المبكرة في اليونان من فلسطين » . كما يشـير الدكتور كلاين الى انـه بالاستنـاد الى Kretchmer فان الدانيين Danaans هم نفس رجـال تانوس Tanaus ملك السيثيين Sythians الذين جاءوا ، كمـا يرى المؤرخون ، الى ارغوس في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، واندمجـوا مع اليونانيين . ويـرى Kretchmer ايضـا ان هنـاك صلة بين Tanaus والنهر المسمى بـ Tanais وباللاتينية Danubius اي (الدانوب) و -Danu وهو اسـم لقوم من الاقوام الهنديـة – الاوربية .

إفيجينيا

إفيجينيا ، وباليونانيـة Iphigeneia ابنـة اغا ممنـون وكليتيمنسترا ، وتعني بالحرف الواحـد (القويـة الولادة = الاميرة القوية) ، وهي مركبـة من مقطعين ، الاخير منهما ، وهـو geneia يفيد معنى الولادة ، ويذكرنا بمادة -gen الهندية – الاوربية ، وتعني (نسل ، انجب ، الخ) وتقابلها ، كما نحسب ، باللغات الساميـة مادة (قان) : صنع ، خلق ، وكذلك مادة (كان) : وجد . وقد نوقشت هذه المادة بالتفصيل في كتابنا المشار اليه .

العمالقـة

وبعد ان استتب الامر لزوس انفرد بالحكم ، فثار عليه ابناء عمـه العمالقـة Giants ، وهم يمثلون البراكين والطبيعة الثائرة ، فخف لمساعدته بروميثيوس ، وتمت هزيمة العمالقة .

وكلمة giant الانكليزية ترجع الى gigas او gigantos اليونانيتين . ويظن ان هذه المادة اليونانية من اصـل سابق لوجـود اليونانيين .

على اننا وجدنا لفظة اكدية ليست بعيدة جدا في مبناها عن هـذه المادة ،هي gashranu وتعني : عملاق (كاسم ديني مقدس) ، فهل ثمة صلة بين المادتين ؟

تيفـون

تيفون Typhon احد العمالقة الذين قضى عليهم زوس بالسجن تحت جبل (اتنا) حيث لا يزال الى اليوم يثور من وقت لآخـر(26) . وهذه الكلمة مشتقة من typhos كما تفيد القواميس الانكليزيـة ، ومعناها : دخان ، سحاب ، خدر يند عن الحمى . ومنها جاء اسم مرض التيفوس . وتذكر بهـذا الصدد كلمـة typhoon (تايفـون) الانكليزية ، وتعني (اعصار استوائي) . وجاء في قاموس ويبستر عـن (التايفون) انها من الكلمة الصينية tai-fung وبالحرف الواحد (الريح القوية) great wind . وفي قاموس الدكتور كلاين ان لهذه الكلمة الصينية علاقة – في مبناها – بكلمة (الطوفان) العربية . ويشير الدكتور كلاين ، وكذلك الحال في قاموس ويبستر ، الى ان الكلمـة العربية ماخوذة من typhon الاغريقية . ومن معاني (الطوفـان) : المطر الشديد . والطوفان بالعبرية يقال له (شطفون) ، وهي من الفعل (شطف) : غمر ، اغرق ، سقى ، روى ، غسـل ، شطف . والطوفان بالسريانية : طوبانا . ولم نجد في الاكدية – في حدود اطلاعنا – كلمـة تدل على الطوفان بهذا المبنى ، بل وجدنا كلمـة abubu وكـذلك bubbulu . ويرى ينس ان الكلمـة الاولى تطابق كلمتي (عباب) و (اباب) العربيتين . والعباب : معظم السيل وارتفاعه وكثرتـه او موجه . والاباب معظم السيل والموج . ويضيف الدكتور السيد يعقوب بكر الى هاتين المادتين كلمة (اببي) الحبشية وتعني الموج(27) .

جبل او بركان اتنا

يقع جبل او بركان اتنا Etna في الساحل الشرقي من جزيرة صقلية الايطالية . وفي الموسوعة البريطانية (طبعة 1962) ان كلمـة Etna مشتقة من الاغريقية Aitne ، وهذه من كلمة aithw (يشتعل) ، وتلفظ باللاتينية Aetna

على ان الدكتور كلاين يرى ان الكلمة ترجـع الى مادة (اتـون) السامية . والاتون بالعربية : الموقد ، وتقابلها بالفينيقية attuna وبالآرامية attun ، و attuna ، وبالحبشية eton ، ولعلها جميعا ترجع الى الكلمة الاكدية atunu او utunu

الافعى پيثون

كانت پيثون Python حية انجبتها الارض لتكون مرضعة لتيفون Typhon . وعندما ارادت هيرا زوجة زوس الانتقام من غريمتها ليتو Leto زوجة زوس الاخرى ساعة كانت تلد ابولو ، ارسلت پيثـون لتقضي عليها ، ولكن ليتو نجت بفضـل پوسيدون الذي اخفـاها خلف الامواج . ثم قتلها ابولو فيما بعد ولقب نفسه پوثيوس . وصار الاغريق يحتفلون في دلفي بهذا النصر موسميا في الپيثيا .

وفي قاموس الدكتور كلاين ان كلمة پيثون ربما ترجع الى اسـم الموضع پوثون puthon . ولكن هذا الاسم ، اي پيثون – ويطلـق بصورة عامة على الافعى باليونانية – يذكرنا بكلمة (ب ث ن) الاوغاريتية ، وتعني (افعى) ، وتقابلها بالعبرية كلمة (فتن) ، وهي الحية السامة ، وبالسريانية (بثن) ، وبالاكدية bashnu وتعني (تنين) . امـا (بثن) العربية فتعني : الارض السهلة اللينة . والبثنـة : الزبدة ؛ والمرأة الحسناء الغضة البضة ؛ والنعمة . فهل جاءت الكلمة اليونانيـة من المادة السامية ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقال للحية بالعبرية ايضا (ساراف) ، وجمعها سرافيم . والكلمة مشتقة من الفعل (سرف) اي احرق . ولعل هذا الاسم اشتق من معنى الاحراق لان مفعول السم يشبه الاحراق(28) . كما ان الفعل الاكدي sharapu يعني : احرق .

ومن الكلمات الانكليزية الدالة على الافعى : serpent ، وهي مستعارة من الفرنسية القديمة ، وهذه من اللاتينية serpens و serpentis وتعني (اشياء زاحفة ، حية) ، وهي بالاصل صيغة الفعل المبني للمجهول للفعل serpere (يزحف) ، ويقابله باليونانية erpein (يزحف) ، و erpeton (افعى) ، وبالسنسكريتية sarpati (يزحف) ، و sarpah (افعى) ، وبالالبانية garpere (افعى) . وعندنا بالعربية (السرفة) ، وهو دويبة تتخذ بيتا من دقاق العيدان فتدخله وتموت ، كما جاء في (تاج العروس) . والسرف من الخمر : ضراوتها . ومنه حديث عائشة ان للحم سرفا كسرف الخمر .

ولا ندري ان كانت هناك صلة بين المادتين السامية والهندية ـ الاوربية .

إيوس ، اورورا

إيوس Eos ابنة هايبريون وثيا الجبارين ، وتدعى : الفجر ذا الانامل الوردية والاهداب الثلجية . انها هي التي تاتي ببشرى النهار للبشر . وصباح كل يوم تتسلل من سرير النوم الذي يشاركها فيه زوجها تيثونوس Tithonus وتصعد من المحيط الى السماء . وتقابل (إيوس) اليونانية (اورورا) الرومانية ، وتعني الفجر ايضا . و (آي) او (آية) ، في الميثولوجيا البابلية ، زوج شمش ، وتمثل الفجر ايضا ، مثل الالهة اليونانية Eos (ايوس) . جاء في ملحمة كلكامش :

عسى عروسك « آي » ان تذكرك باليوم الذي ترجعه فيه
ولتوكل به حراس الليل والكواكب واباك « سين » حينما
تحتجب انت في السماء(29) .

وجاء في (تاج العروس) : إيا الشمس (بالكسر والتخفيف والقصر) ، ويقال إياه وإياء : شعاع الشمس وضوءها وفي (لسان العرب) تذكر (إيات) ايضا . قال لبيد :

سقته إيات الشمس إلا لثاته
أسف ولم تكدم عليه بإثمد

اما اورورا Aurora الرومانية ، اي آلهة الفجر ، فهي من اصل ausosa كما تفيد القواميس ، وهي كنظيرتها eos اليونانية ترجع الى الجذر الهندي ـ الاوربي ausos (الفجر) . ومن هذا الجذر ايضا جاءت الكلمة السنسكريتية usan ، والكلمة اللتوانية ausra وكلها تعني (الفجر) . ومن هذا الجذر ايضا تحدرت كلمة east الانكليزية ، اي (الشرق) .

ولا ندري بعد هذا ما هو مقدار الصلة بين المادتين السامية والهندية ـ الاوربية ، هذا مع العلم ان مادة (ار) أو (اور) السامية تفيد معنى الضوء ، والنهار ، كما هو الحال في الاكدية والاوغاريتية والسريانية ؛

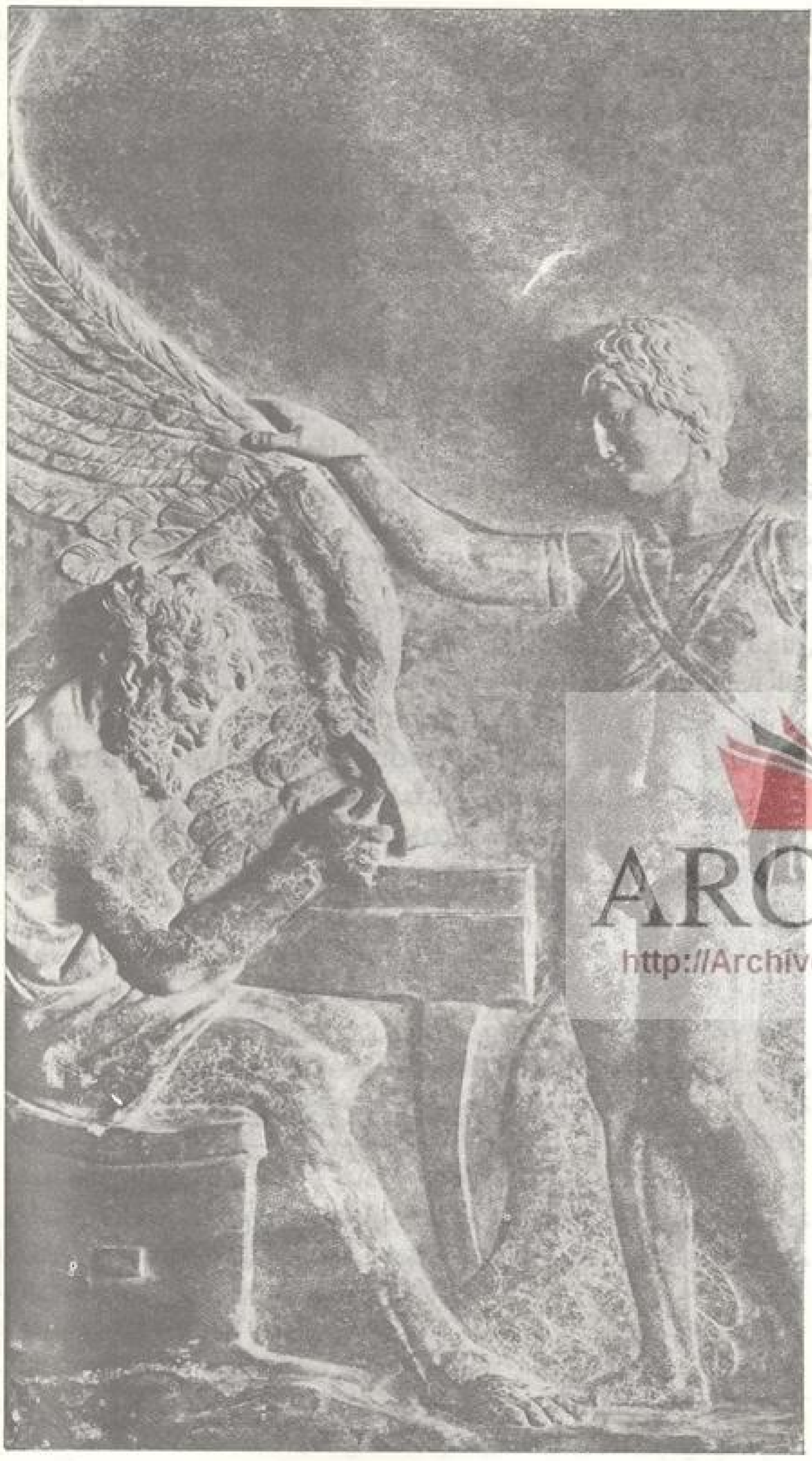

● ديدالوس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واللهب ، والنار ، كما في العربية والعبرية . وهل تذكرنا كل هذه الالفاظ – مرة اخرى – بمادة u أو ud السومرية التي تعني (ضياء) ؟؟

امبراطورية الرياح

وانجبت Eos (ايوس) اربعة اولاد تقاسموا امبراطورية الرياح، هم : بورياس Boreas (الريح الشمالية) ، وزفيروس Zephyrus (الريح الغربية) ، ويوروس Eurus (الريح الشرقية) ، ونوتس Notus (الريح الجنوبية) .

وفي القواميس ان اصل كلمة Boreas اي (ريح الشمال) غير معروف بصورة قاطعة ، ولعلها ترجع الى مادة gore-yas الهندية – الاوربية ، وتعني بالاصل (ريح الجبل) ، حيث ان gore تعني (جبل) ، وتقابلها بالسنسكريتية girik ، وبلغة الاڤيستا (كتاب الزرادشتيين المقدس) gairi وتعنيان (جبل) أيضا ، وبالالبانية gur (صخرة) ، وباللغة السلافية القديمة gora (جبل) ، وباللتوانية gire (غابة) .

و (القارة) بالعربية : الجبيل الصغير ، او الصخرة العظيمة . والقارة ايضا ، الارض ذات الحجارة السود . وباللغة اليمنية القديمة يقال (هقرت) اي القارة ، وهي الصخرة العظيمة . وباللغة الاوغاريتية (غ ر) : جبل ، صخرة ؛ شاهق . كما ان (هـ ر) تعني : جبل ، تل ، مكان مرتفع . وبالعبرية (هر) : جبل . وقد استعارت الاكدية كلمة kharru (جبل) من اللغات السامية الغربية ، كما جاء في قاموس شيكاغو للآشوريات . كما ان (الحرّة) بالعربية : ارض ذات حجارة سود ... واخيرا فان كلمة kur السومرية تعني (جبل) فهل تمتّ هذه المواد جميعا الى اصل واحد ؟

اما زفيروس (الريح الغربية) فيظن ان لها صلة بالكلمة اليونانية zophos (عتمة ، منطقة مظلمة ، الغرب) . وقد تحضر في الذهن كلمة (الزفير) العربية ، ولكنا لا ندري ان كانت ثمة صلة بينهما .

واما يوروس Eurus (اله الرياح الجنوبية الشرقية) فتفيد القواميس انها ترجع على الارجح الى مادة Eus-ros وتعني بالاصل (الريح اللاهبة) ، وهي من eusein (من اصل euein) (يسفع يشيط) المشتقة من الجذر الهندي – الاوربي eus (يشتعل) الذي ربما يذكرنا بمادة (اش) السامية ، وتعني (النار) . فالنار بالاوغاريتية (اش) و (اش ت) ، وبالعبرية (ايش) ، وبالسريانية (اشتا) ، وبالاكدية (ايش) و (إشات) .

واما نوتس Notus (الرياح الجنوبية) فلعلها تعني (الرياح الماطرة) ، وتعود الى notios و noteros (رطب ، ندي) ، و notis (رطوبة ، ندى) ، و notia (رطوبة ، مطر) ، وترجع الى مادة sna (يجري) .

وكان (زفيروس) رفيق (بورياس) الطبيعي ، ولم يكن اول امره نسيما هادئا عليلا يهب على الحقول فتنفتح الزهور بفعل نسيمه ، بل كان كأخيه اعصارا قاسيا ، وكان يجد لذة في اثارة العواصف والعبث بامواج البحر . وكان يعيش مع (بورياس) في كهوف جبال ثراسه Thrace . وبمباشرته Podarge خلف الحصانين كزانثوس Xanthos ، وباليوس Balius اللذين كانا يجران عربة (آخيل) .

هوراي

هوراي Horae الهات الفصول في الميثولوجيا الاغريقية . والكلمة مشتقة من orai اليونانية ، وهي جمع كلمة ora (فصل ؛ ساعة ، يوم ، اي وقت محدد ، فصل الربيع ، سنة) . وتقابلها بلغة الاڤيستا (كتاب الزرادشتيين المقدس) jare (سنة) ، وباللغة السلافية القديمة jaru (الربيع) ، وباللاتينية hornus (من هذه السنة) ، وباللغة القوطية Jer (سنة) . ومن هذه المادة اشتقت كلمة year الانكليزية (سنة) ، وكذلك كلمة hour (ساعة) .

وهناك كلمة عربية – منقرضة – تذكرنا بهذه المادة ، هي (حيري الدهر) ، وتعني : مدة الدهر . فهل استعيرت من اليونانية ؟

هرقل

يرجع الاستاذ عبدالحق فاضل ان هيراكليس اليوناني منقول من اسم (ايراقال) الاكدي كما يكتبه ، او من اسم آخر ربما كان « اثلا » لكليهما . ذلك ان هيراكليس ، او هرقل ، برسمه المعرب ، كان هو الآخر يقترن ذكره بالاعمدة(30) ، مثل ايراگال الاكدي الذي يوصف في ملحمة كلكامش على النحو الآتي :

« وننزع الاله (ايراگال) الاعمدة

ثم اعقبه الاله (ننورتا) الذي اطلق الرعود وفتق السدود »(31)

ويعقب الاستاذ طه باقر على النص في الهامش قائلا ان ايراگال من آلهة العالم الاسفل ، ولعله احد اسماء الاله « نرجال » (نرجول في التوراة)(32) .

ويرى روبرت براون ان هيراكلس Herakles يذكرنا بالكلمة الفينيقية Harekhal (المسافر)(33) . ولا ندري ان كانت هذه الكلمة الفينيقية تقابل كلمة (الرحال) العربية . ويعزز براون رايه قائلا ان هرقل عُبد لأول مرة في اليونان في الماراثون الفينيقي .

بيد ان القواميس الاوربية ترجع بكلمة Hercules (ابن زوس والكمينة) الى كلمتي Hera الالهة اليونانية و khleos (مجد ، نصر) ، فهو بالحرف الواحد (مجد هيرا) أو (فخر هيرا) .

گروپس

گروپس Gryps حيوان اسطوري (عنقاء) ، نصفه اسد ، ونصفه الآخر نسر . تقول المأثورات الاسطورية اليونانية انه كان في الشمال الاقصى بين بلدة الهوپربوريين وبلدة الاريماسپيين ذهب تحرسه العنقاوات لئلا يسرقه ذوو العيون الواحدة . وكانت هذه العنقاء ، اي الـ « گروپس » ، على اتصال باپولو الذي كان يرحل كل عام الى بلد الهوپربوريين(34) .

و (الكروب) ، في اللغة العبرية ، وجمعها كروبيم ، طائفة من المخلوقات لها وظائف يذكرها العهد القديم ، هي : الحراسة ، وحمل الرب أو عرشه . وكان يظن ان اصل هذه الكلمة العبرية هو Gryps اليونانية . بيد ان الراي السائد اليوم ان كلمة (كروب) اكدية الاصل من كلمة karibu (كاريب) ، وتطلق على طائفة خاصة من الكائنات الجنية المجنحة التي كانت تحرس معابد بابل وقصورها . ومن معاني مادة (كرب) في الاكدية : (صلى) ، و (بارك) . وهذه الكلمة الاخيرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اي (بارك) ، وهي من المفردات العربية والعبرية ايضا ، انما هي مقلوب كلمة (كرب)»(35) .

بالاس وبلقيس

بالاس Pallas لقب الالاهة اليونانية اثينا Athene في الميثولوجيا اليونانية ، وتعني بالحرف الواحد (عذراء ، فتاة غير متزوجة) ، وترجع الى كلمة pallakhi (محظية ، خليلة) ، و pallax (شابة ، فتاة) ، وتقابلها بلغة الافيستا (كتاب الزرادشتيين المقدس) كلمة pairika (امرأة جميلة تضل الاتقياء). وفي قاموس الدكتور كلاين ، ان هذا الاسم يذكرنا بكلمة pelighesh العبرية ، وكلمة peliqta الآرامية ، وكلتاهما تعنيان (محظية ، خليلة) ، وتقابلهما بالعربية (بلقيس) ملكة سبأ . ويضيف الدكتور كلاين قائلا : « ان هناك صلة اكيدة بين جميع هذه الكلمات ، بيد انه من الصعب تحديد درجة العلاقة فيما بينها . ولعل الكلمات الهندية ــ الاوربية المذكورة اعلاه مستعارة من كلمات سامية »(36) .

افروديت ، عشتار

ولنبدأ بعشتار ، فهي اقدم :

(عشتار) الهة لها وزن في الميثولوجيا البابلية ، وكانت تسمى عند السومريين إنينا Innina اي سيدة السماء . وبالفينيقية عشترت ، وبالعبرية Ashtoreth . وهي لدى عرب الجنوب إله ذكر يقال له (عثتر) . وهي بنت سين (إله القمر) واخت شمش . وهي نجمة الصباح تارة ، ونجمة المساء تارة أخرى . وكان يرمز لها بنجمة ذات ثمانية اشعة أو سعة عشر شعاعا ، منقوشة داخل دائرة .

ويقال لها بالاغريقية Astarte ، وهي عندهم الهة الحب والخصب ، بينما هي في بابل الهة الحرب . ويظن ان ل Austro إله الربيع عند الشعوب التيوتونية (اي الجرمانية) علاقة بعشتروت . ولا تزال اسماء الآلهة Stella ، و Stara ، و Astar ، و Austro باقية في لفظة Easter اي عيد الفصح ، عيد الربيع(37).

وترجع كلمة star (نجمة) بالانكليزية الى الانكليزية القديمة steorra ، وتقابلها بالهولندية ster . واصلها باليونانية aster و astron . وهذه الكلمة باللاتينية stella و astrum ، وبالهندية القديمة -star ، وبالحثية (وهي لغة هندية اوربية ميتة ترقى نصوصها الى منتصف الالف الثاني ق. م) shittar ، وبلغة ويلز Seren . ولعل هذه الكلمات جميعا ، كما جاء في قاموس كلاين ، ترجع الى الجذر الهندي ــ الاوربي astero وهي تلتقي مع أو ترجع الى الاصل السامي (عشتار) .

ومن هذه المادة ايضا جاءت كلمة astronomy (علم الفلك) ، وكلمة astrology (علم التنجيم) ، وكلمة astrolabon اليونانية (الاسطرلاب) ، وهي منحوتة من الكلمتين astron (نجمة) ، و lambanein (يأخذ) . فكلمة (الاسطرلاب) جاءتنا من اليونان ، ولكن اصلها يعود الى كلمة (عشتار) السامية .

اما (افروديت) Aphrodite فهي الهة الحب في الميثولوجيا الاغريقية ، وتقابلها Venus في الميثولوجيا الرومانية . والاسم باليونانية Aphroditi ، ويرجع ان هذه اللفظة هي بالاصل Afthorithi أو Aftorithi ، وقد حصل التغير في اللفظ بتأثير صيغة الكلمة afros (زبد) ، انسجاما مع قصة ولادة افروديت (من الزبد الابيض الذي نشأ عن حطام اعضاء كرونوس التناسلية الذي طفا فوق الموج ، كما تقول الاسطورة) . ولكن اللفظتين Afthorithi و Aftorithi تذكراننا بمادة (عثتر) أو (عشتر أو اشتوريث) أو (عشتروت) ، وهو اصل كلمة (افروديت) ، كما جاء في قاموس الدكتور ارنست كلاين .

ومن مادة (افروديت) اشتق اسم شهر April (نيسان) ، وبالحرف الواحد : شهر افروديت .

ولكن ما هو اصل مادة (عشتار) ؟ في الموسوعة البريطانية ان اقدم نص مكتوب لاسم عشتار هو اشدار Ash-dar الالهة الاكدية المقابلة للالهة السومرية الاقدم إنيني Innin (سيدة السماء) . وكل الدلائل تشير الى ان الاسم سامي الاصل . اما اين نشأ هذا الاسم فغير معروف بصورة قاطعة ، ويرجع في Erech حيث نجد فيها عبادة للالهة الام السومرية لا تقترن بعشير مذكر . و Erech هي Uruk (اوروك) بالسومرية ، اي الوركاء(38) .

ويذكر بهذا الصدد اسم Asharu ، وهو اله للحصاد في بابل في ايام الملك السومري گوديا Gudea (حوالي 2400 ق. م) ، ولعله كان اسما آخر لننگرسو Ningirsu (39) . وتظهر عشتار في التماثيل امرأة حسنة الوجه ممتلئة الفخذين بافراط ، وقد امسكت ثدييها بيديها ، على نحو ما كانت الالاهات الام تصور في التماثيل لدى الشعوب القديمة ابان سيطرة الام .

وهناك كلمات اخر ، لها دلالاتها ، قريبة في مبناها اللفظي من مادة (عشتر) ، نذكر منها : العثر (على وزن درب) ، وهي النخيل التي تشرب بعروقها من المطر يجتمع في حفيرة ؛ والعشير ، اي القريب والصديق والزوج ؛ والعشيرة كذلك ؛ والاثر ؛ وآشور (الاله الاشوري) ؛ واوزيريس (الاله المصري) ؛ وربما ايضا الثور ؛ وغير ذلك .

وكانت الاشيرة (لاحظ الاشارة) بالاساس عمودا خشبيا يوضع عند حدود البيوت المقدسة (الحرم) لدى الساميين ، ثم صارت فيما بعد الهة(40) . ويقول بارتون ان النخلة كانت الهة عربية ، وكانت تلقب ب (عثر) أو ربما (عثير) ، وكانت رمزا دينيا في الجزيرة العربية وشمال افريقيا حتى قبل تدجينها ، وكانت روحها تسمى عشيرة (اي صديقة)»(41) .

ويرى بارتون ان الاسماء الآتية : اوزيريس ، وآشور ، واشيرتا ، واثيرتا ، واشيرة ، اقدم من عثتر ، وعشتار ، والاسماء المقابلة لهما في بقية اللغات السامية ؛ وان هذه الحقيقة تجعلنا نميل الى الاعتقاد بان المجموعة الاولى من الاسماء نشأت عندما كانت النخلة ما تزال شجرة غير مدجنة عند الساميين .

اما عبدالحق فاضل فيرى ان اصل كل هذه الاسماء يعود الى مادة (الثور) ، داعما رأيه بقوله : « كانت للثور اهمية عظمى عند الاقدمين .

فاما الفرعونيون فقد عبدوه وعبدوا انثاه . واما الهنود فما زالوا يعبدونها ــ البقرة . واما الآشوريون فقد اتخذوا الثور شعارا لدولتهم كرمز للقوة ، وجعلوا له في تماثيلهم رأس انسان وجناحي طائر كناية عن الحكمة والتحليق بالاضافة الى القوة ... »(42) .

والثور ، على ما يرى الاستاذ فاضل ، من الثرى ، اي التراب ، لان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من عادته الهيجان ، وبهيجانه يثير الثرى(43) . ولعل هذا الرأي ، اعني اشتقاق اسم الثور من مادة الثرى أو الثوران ، لا يبدو اعتباطيا ، فقد يذكرنا باشتقاق الكلمة الهندية الاوربية Ox من اصل مماثل . فهذه الكلمة الانكليزية التي تقال للثور ، مشتركة في اللغات الهندية الاوربية وترجع الى الجذر الهندي الاوربي المفترض uksen (حيوان فحل) ، ويعني بالحرف الواحد (الناثر ، الراش) ، وهو من اصل -uks (ينثر ، يرش) ، تماما كالعلاقة بين (ثار) و (الثور) .

يوتيربه ، وتيربسيكوره

يوتيربه Euterpe إلهة الموسيقى (الطرب) في الميثولوجيا اليونانية ، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية Euterpi ، وبالحرف الواحد (تطرب جيدا) ، من المقطعين eu (جيّد) ، و terpein (يطرب) .

اما تيربسيخورة Terpsichore فهي الهة الرقص في الميثولوجيا اليونانية والرومانية . وترجع الكلمة الى اليونانية terpsikhori وبالحرف الواحد : (الاستمتاع بالرقص) . وهي مؤلفة من المقطعين terpis (طرب ، غبطة ، سعادة) ، و khoros (رقص) . والمقطع الاول يقابل الكلمة السنسكريتية trpyati (اكتفاء) ، وبلغة الافيستا thrafda (مكتف ، قانع) ، وباللغة اللتوانية tarpstu (يزدهر ، يؤدي الى رخاء) . وكل هذه الكلمات مشتقة من الجذر الهندي ـ الاوربي المفترض terp (يكتفي) .

ولعل هذه الكلمة تذكرنا بكلمة (طرب) العربية . ولا ندري مقدار الصلة بين الكلمة العربية والمادة الهندية ـ الاوربية . ولم نجد ـ في حدود اطلاعنا ـ قرائن لهذه الكلمة العربية في اللغات السامية (الاكدية ، والارامية ، والعبرية ، والاوغاريتية ، ولم نطلع على الحبشية) . فهل جاءت الكلمة العربية من اليونانية ، كنظيرتها كلمة (الموسيقى) ؟

والطرب ، كما جاء في تاج العروس : الفرح والحزن . وهو خفة تلحقك سواء تسرك او تحزنك . . قال النابغة الجعدي في الهم :

سالتني امتي عن جارتي   واذا ما عيّ ذو اللب سال

سالتني عن اناس هلكوا   شرب الدهر عليهم واكل

واراني طربا في ذكرهم   طرب الواله او كالمختبل

والطرب الشوق ، والجمع من ذلك اطراب . قال ذو الرمة :

استحدث الركب عن اشياعهم خبرا

ام راجع القلب من اطرابه طرب

واستطربته : سالته ان يطرب ويغني . قال الكميت :

ولم تلهني دار ولا رسم منزل

ولم يتطربني بنان مخضب

والتطريب : التغني . قال امرؤ القيس :

تفرد بالاسحار في كل سدفة

تفرد مياح الندامى المطرب

هارمونيا

هارمونيا Harmonia زوجة قدموس في الميثولوجيا اليونانية .

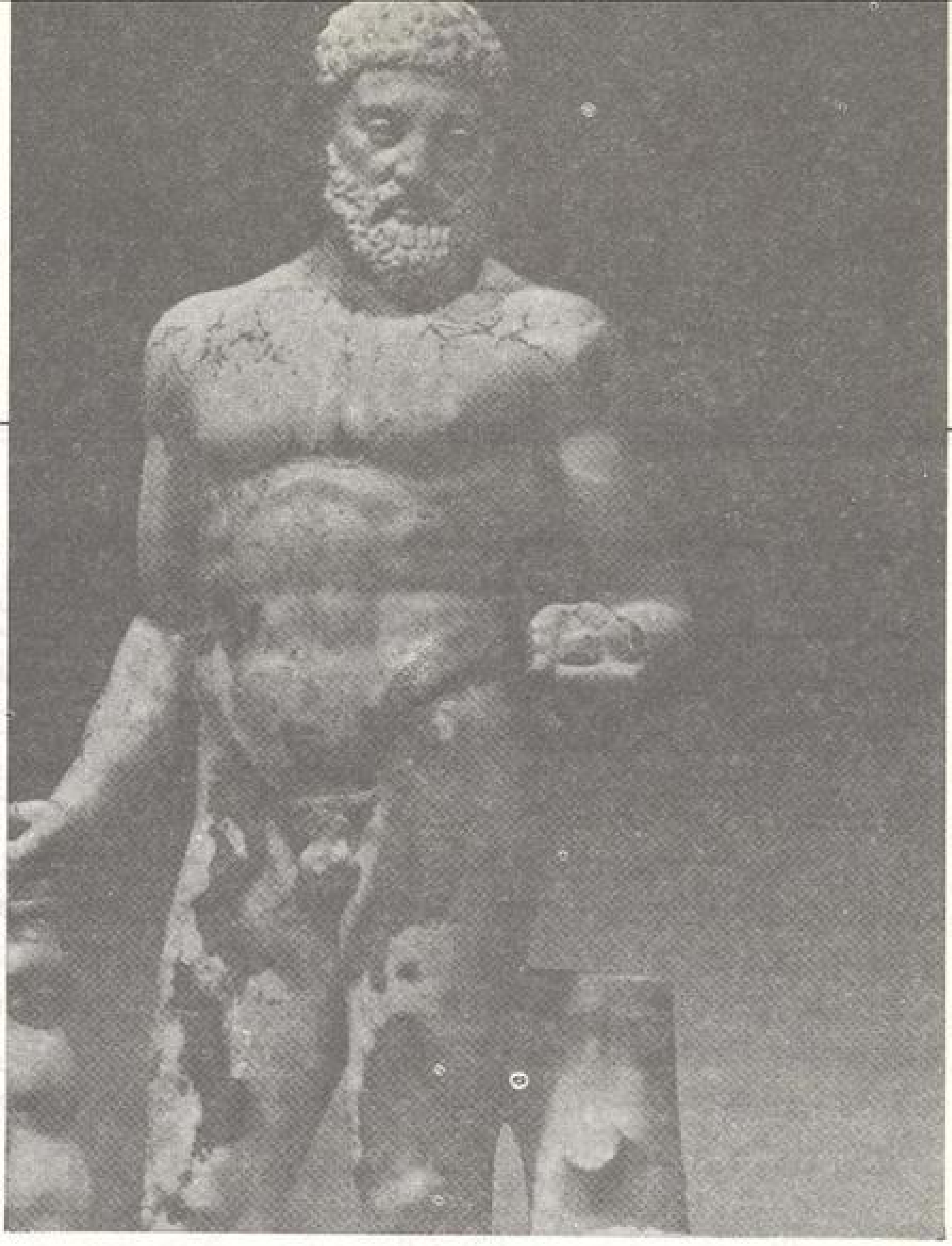

● هرقل

● افروديت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والكلمة مشتقة من اليونانية Armonia وتعني بالحرف الواحد (انسجام ، تناغم) . وفي قاموس الدكتور كلاين ان هذه الكلمة مشتقة من armos (رابط) ؛ وترجع الى الجذر الهندي ـ الاوربي -ar (يربط) . ولكن روبرت براون يرى ان هذه الكلمة ، اي هارمونيا ، ترجع الى الكلمة السامية kharmon اي (الحرم) ؟؟

وربما شجعه على هذا التفسير كون (هارمونيا) زوجة (قدموس)، وهو اسم فينيقي معروف .

قدموس

قدموس Cadmus ابن الملك الفينيقي Agenor ، ومؤسس مدينة (طيبة) ، كما جاء في الميثولوجيا الاغريقية . والاسم مشتق من كلمة (قدم) السامية ، وتعني بالاكدية (امام ؛ زمن سابق) ، والفعل (قدم) بالعربية يعني (جاء) كما هو معروف ، ومثله بالحبشية . و (ق د م) بالاوغاريتية تعني (امام) ، و (قدم) العبرية تعني (الشرق) .

سيميله

سيميله Semele ابنة قدموس وام دايونيسوس Dionysus كما جاء في الاساطير اليونانية . والاسم مشتق من اليونانية Semeli وهي الهة للارض في الفريجية ـ التراقية ، من الفريجية Zemelw (ام الارض) كما يقول Franz Altheim . وفي قاموس الدكتور كلاين ان كلمة zemelw الفريجية ربما لها صلة بالكلمة السلافية القديمة zemlja (ارض) ، وبالكلمة اللاتينية hunius (ارض ، تربة) ، ونضيف نحن : وربما ايضا بكلمة (الحمأ) العربية ، اي الطين ؛ و (حمر) العبرية ، وتعني الطين ايضا ؛ و (ح م ر) الاوغاريتية ، وتعني الطين والوحل .

ولكن روبرت براون يرى ان Semele ترجع الى اصل سامي . فبالسومرية ـ الاكدية Ilu Samela (الالهة سيمله) ، وبالفينيقية Samlath (شملث) . ويقول براون ان اللفظة الاكدية Samela عند انتقالها الى اللغات السامية الاخرى ، تضاف لها تاء التانيث ، فتكون Samelat بالاشورية البابلية ، في حين تصير Samelath بالفينيقية . ولكن اليونانيين لا يجعلون الاسماء المؤنثة تنتهي بحرف الثاء . ومن هنا فان المعادلة الفينيقية الاغريقية تكون على هذا النحو : شا ـ مي ـ لا (ث) = سيميلي اليونانية(44) .

ديدالوس

ديدالوس Daedalus مهندس معماري ونحات في الاساطير اليونانية ، ينسب اليه بناء متاهة الملك مينوس في كريت ، وصنع البقرة الخشبية لپاسيفايه زوجة مينوس ، والرجل النحاسي الذي صد هجوم الآرغونوتيين(45) . وبعد ان ساءت العلاقة بينه وبين الملك مينوس صمم لنفسه ولابنه ايكاروس اجنحة حلقا بواسطتها في الجو وطارا الى صقلية .

وفي قاموس الدكتور كلاين تعني كلمة Daedalus بالحرف الواحد : (العامل الحاذق) ، من الفعل daidallein (يعمل بمهارة وحذق) ، وهي من تكرار الجذر الهندي ـ الاوربي del و dol (يفصل ، يقطع ، يكشط) ، والذي يُرى في الكلمة الهندية القديمة dadati (يفصل ، ينفجر) ، وفي الكلمة اللاتينية dolare (يقطع بفاس) ، والكلمة dolium (جرة كبيرة جدا) .

ولكن هناك مادة (دد) السامية وتفيد معنى (الحب) . فكلمة dadu الاكدية تعني : القيام بعمل الحب ، محبوب ، اثير (بمعنى مفضل) . وتذكرنا هذه اللفظة بالمقطع الاخير من كلمة (بغداد) التي تعني على ما يبدو (محبوبة بغ) .و (دادد) العربية تعني (رجل) . والدد : اللهو واللعب . والدد : اسم امرأة . والود ، والوداد : الحب والصداقة ، ثم استعير للتمني . والود ايضا : المحب . و (ود) : صنم كانت قبيلة كلب تعبده ، وكان بدومة الجندل . وكان لقريش صنم يدعونه ود ايضا . ومنهم من يهمز فيقول : اد . ومنه سمي عبد ود ... وادد : جد عدنان(46) .

و (دادا) العبرية : عم ، صديق ، محب . وهناك الاسم (داود) ايضا . كما ان (دد) الاوغاريتية تعني (حب ؛ واسم لشخص ايضا) . وقد اشار Cyrus Gordon في كتابه Ugaritic Textbook تحت هذه المادة ـ دد ـ الى اسم ديدالوس .

وبعد ، فلسنا ندري مقدار الصلة بين المادة السامية وهذا الاسم .

مينوس

مينوس Minos ملك شبه اسطوري لجزيرة كريت ، وهو ابن زوس واوربا . حكم مينوس كريت وجزر بحر ايجة ثلاثة اجيال قبل حرب طروادة . وكان صاحب شريعة كريت ، وله يعود الفضل في تفوق الاسطول البحري الايجي ، كما يقول هيرودوت .

ووفق المأثورات الاتيكية والدراما الاثينية ، كان مينوس طاغية ، وهو الذي انتزع الاتاوة من شبيبة اثينا ليطعم الميناتور(47) (الهولة ، وهو كائن نصفه انسان ونصفه الآخر ثور ، وكان حبيسا في متاهة كريت) . ويقال ان مينوس مات في صقلية بعد ان ذهب اليها في طلب ديدالوس الذي كشف لأريادنه Ariadne (ابنة مينوس) سر الدخول الى متاهة كريت الذي تمكنت بواسطته ان تقود ثيسيوس اليها . لقد قتلته ابنة كوكالوس Cocalus ملك اگريگنتم Agrigentum بعد ان صبت عليه ماء فائرا في الحمام .

ويرى روبرت براون ان كلمة (مينوس) ترجع الى اصل سامي (Manoah) وهي كلمة تفيد معنى الاقامة على ما يبدو ، فهي مشتقة ـ في مقطعها الثاني ـ من كلمة (ناح) أو (ناخ) أو (اناخ) السامية ، التي منها جاءت كلمة المناخ العربية . ولا نعلم مقدار صحة هذا الراي .

آرگو

آرگو Argo في الفلك : برج السفينة . والكلمة تدل على اسم السفينة التي ابحر بها الارغونوتيون(48) (واسمهم مشتق من ارغو كما هو بيّن) الى كلوشس Clochis . و argo باليونانية تعني (الخفيف الحركة) ، وهي من argos (خفيف الحركة) ، وتطابق كلمة argos الاخرى التي تعني (مضيء ، لماع) ، وتقابلها بالهندية القديمة rjrah ، وباللاتينية argentum (فضة). وتقابل هذه الكلمات الهندية ـ الاوربية في اللغات السامية مادة (يرق او ورق و(الورق) باللغةالعربية ـالقديمة ـ تعني : الفضةمضروبة كدراهم. و (ي ر ق) باللغة الاوغاريتية : ذهب ، اصفر . و (يرق) باللغة العبرية: اخضر ، خضرة . و arqu بالاكدية : اصفر ، اخضر . و (يرق) بالسريانية : اصفر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كابيري

كابيري Cabiri لفظة لاتينية تطلق على طائفة من الآلهة اليونانية ، والكلمة مأخوذة من اليونانية Kabeiroi ، وهذه ترجع الى كلمة (كبير) السامية . وكان (الكبيريون) آلهة الپيلاسغويين Pelasgoi ، وهم اقدم سكان اليونان .

كوسيتوس

كوسيتوس Cocytus احد انهار (هاديس) الخمسة ، كما جاء في الاساطير اليونانية . والكلمة باليونانية Khu Khutos (نهر المناحة) من Khw Khein (يبكي ، ينوح) . وهذه الكلمة تذكر ايضا بالكلمة اليونانية الهوميرية khix (من طيور البحر) ، وتقابلها بالهندية القديمة kauti (صياح) ، و kokah (لوزة) ، وباللغة الارمنية ، k'uk' (متنهد ، متأوه) . وجميع هذه الكلمات من اصوات المحاكاة .

وتقابل هذه الالفاظ ، كما نحسب ، كلمة (الغاق) العربية . والغاق : طائر مائي (تماما مثل الكلمة الهوميرية) ، وكذلك الغاقة . ويقال لصوت الغراب ايضا : غاق ، وهو من اصوات المحاكاة . قال ابن سيده : « وربما سمي الغراب به لصوته » . وجاء في شعر القلاخ بن حزن :

معاود للجوع والاملاق

يغضب ان قال الغراب غاق

ابعدكن الله من نياق

وبالعبرية ، (قاق) : الزاغ الزراعي ، وغراب الزيتون . و (قاقا) : اوزة . و (قات) : البجع (طائر مائي كبير) و (قيق) : غداف ، غراب اسحم .

وبالاكدية agu : غراب . وبالسريانية ، قاقا : ابو زريق ، بجع .

آخيل

آخيل Achilles ابن ثيتس Thetis وپيليوس Peleus بطل حرب طروادة الاشهر . الكلمة مشتقة من اصل سابق لليونان ، كما تقول القواميس . ولكن ، فلنتقص المزيد من المعلومات عن هذا الاسم الشهير .

استنادا الى هوميروس ، ربته امه في فثيا Phthia مع ابن عمه وصديقه الحميم پاتروكلس Patroclus ، وتتلمذ على يد فينقس وخيرون Cheiron . وبالاستناد الى روايات اخر غير هوميرية ، كان لثيتس ـ امه ـ سبعة اطفال ، رمت بهم جميعا في النار او في مرجل لتجعلهم خالدين . فماتوا جميعا ، عدا آخيل ، لأن اباه پيليوس تدخل في شانه . وحسب رواية اخرى ، غطسته امه ثيتس ، وهو طفل ، في نهر الجحيم Stix ليتمتع بحصانة ضد اي جرح او اذى ، الا في جزء من كعبه (كاحله ؟) الذي كانت تمسكه منه . ومن هنا جاء المثل « كعب آخيل » . وتتمة القصة ان آخيل لقي مصرعه في حرب طروادة بعد ان سدد پاريس البطل الطروادي اليه سهما في كعبه . ولكن هوميروس ـ ربما عن حب او عصبية وطنية ـ انهى الياذته بمقتل هكتور من قبل آخيل ، ولم يشر الى موته الذي تم بعد ذلك .

وهناك رواية اخرى متأخرة عن هذه تفيد ان پيليوس الاب ارسل ابنه آخيل الى بلاط ليكوميدس ، بعد ان بلغه ان هناك نبوءة تقول ان آخيل سيلقى حتفه في طروادة . فالبس هناك ملابس النساء واقام بين بنات ملك ليكوميدس . وبناء على اشعار من كالخاس Calkhas بان طروادة لا يمكن قهرها بدون آخيل ، راح اوديسيوس وفينقس ونسطور يبحثون عنه . وفي بلاط ليكوميدس قدموا الى بنات الملك اسلحة واشياء اخرى ليقمن بحياكتها ، فاختارت البنات ما يصلح للحياكة ، اما آخيل فقد فضح نفسه باستلامه الاسلحة(49) . وفي طروادة يلعب آخيل دوره في انقاذ جيش الآخيين ، ثم يكون مصرعه على يد پاريس ، على نحو ما جاء اعلاه .

ولعل هناك من يحتمل وجود صلة بين لفظة (آخيل) اليونانية ، او ما قبل اليونانية بعبارة ادق ، وكلمة (كاحل) السامية . ففي القواميس العربية : المكحالان عظمان شاخصان فيما يلي باطن الذراعين من مركبهما ، وقيل هما في اسفل باطن الذراع (او هما عظما الوركين من الفرس) . ونص قاموس الصحاح : عظما الذراعين من الفرس . ولكن الكلمة البابلية التي تقابل الكاحل العربية ، وهي kisallu (كصال) ، تعني رسغ القدم او الكاحل بمفهومه الحديث ، اي الرسغ ، وهو المفصل الذي يصل بين عظم الساق واعلى القدم . وترد الكلمة الاكدية بهذه الصيغ ايضا : kisillu (كصيل) ، و kisillu (كسيل) ، و Kisallu (كسال) . كما ان مفصل الكاحل باللغة العبرية يقال له (قرسل) .

ولكننا نرجح ان مادة الكاحل السامية قد تكون مشتركة مع الكلمة اليونانية kholea او kholi (عظم الفخذ) ، يعزز ذلك ان من معاني (الكاحل) العربية : عظم الورك . وتقابل الكلمة اليونانية كلمة calcis اللاتينية ، وتعني (كعب) ، وهي تعود الى كلمة calear (مهماز ، منخس) ، وبالسلافية القديمة kluka (ركبة) ، وباللتوانية kulnas و kulnis (كعب) ، وبالپروسية القديمة kulczi (ردف) ، وباللتوانية kul(k)sis (كاحل ، عرقوب) .

اوينيوس

اوينيوس Oeneus ملك كاليدون Calydon في ايتوليا Aetolia . والكلمة مشتقة من اليونانية oineus ، وهذه من inos (الوين = الخمر) .

والوين من اسماء الخمر بالعربية . والوين : الزبيب ، او العنب الاسود ، كما قال الثعالبي ، عن ثعلب ، عن ابن الاعرابي ، وانشد قول الشاعر :

كانه الوين اذا يجنى الوين(50)

و (ي ن) بالاوغاريتية : خمر ، نبيذ . وتقابلها yayin باللغة العبرية ، و inu بالاكدية ، و (وين) بالحبشية ، وتعني : عنب خمر ، كالعربية .

والنبيذ باللاتينية vinum ، ومنها انحدرت الكلمات الدالة على الخمرة باللغات اللاتينية الحديثة (الفرنسية ، الايطالية ، الاسبانية ، الخ) ، وكذلك كلمة Wine الانكليزية . والخمرة بالسلافية القديمة Vino ، وبالارلندية القديمة fin ، وبلغة ويلز (وهي لغة سلتية كالارلندية تنتمي الى مجموعة اللغات الهندية ـ الاوربية) gwin

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبالالبانية vene ، وبالارمنية gini

كما ان النبيذ بلغة جورجيا (وهي ليست هندية ـ اوربية ، بل من لغات القوقاز) gvino ، وبلغة الباسك (وهي لغة قوم في شمال اسبانيا والبرانس الفرنسية ، لم تحدد هويتها) ayen و aihen

ويظن الدكتور ارنست كلاين ان هذه المادة ربما كانت مستعارة من اللغات السامية عن طريق قرطاجة ، ولكنه يشير ايضا الى انه يصعب البت بصورة قاطعة في اصل هذه المادة . فالبعض يقول بساميتها ، وآخرون يعودون بها الى بحر ايجه ، في حين يرشح غيرهم آسيا الصغرى ، او تفقاسيا ، او ارمينيا .

هذا ، ويقول آدم متز : « وقد انتشر العنب ـ الذي قال سترابو (3 , xv) ان المقدونيين كانوا اول من نقله الى العراق وفارس ـ في جميع المملكة الاسلامية »(51) . مع العلم ان مادة (الكرم) كانت معروفة لدى الساميين جميعا ، قبل اليونان ، فهي ترد في العربية والعبرية والاوغاريتية بصيغة (كرم) ، وفي الاكدية بصيغة karanu . والكلمة الاكدية وجدت في نصوص آشورية قديمة (2000 ـ 1500 ق. م) ، وبابلية قديمة (2004 ـ 1594 ق. م) .

وجاء في الموسوعة البريطانية عن العنب : « ربما تسود الكروم في بداياتها الى المنطقة المحيطة ببحر قزوين ، المعروفة كموطن لأصل الفصيلة المسماة V. vinifera ، اجود انواع الكروم . ومن تلك المنطقة انتقل كرم العالم القديم الى المناطق الاخرى في آسيا الصغرى ، ثم الى اليونان ، ومنها الى صقلية . وقد نقل الفينيقيون العنب الى فرنسا في حدود 600 ق. م . وزرع الرومان العنب في منطقة الراين في حوالي القرن الثاني للميلاد(52) .

على انه جاء في الدراسات التاريخية لجامعة كيمبرج ، في الجزء المعنون (الاحوال الطبيعية في شرق اوربا وغرب آسيا ومصر قبل المستوطنات الزراعية والمدنية) ما مفاده ان العنب ، على ما يبدو ، قد وجد اول مرة في الهلال الخصيب(53) .

اوينونه

اوينونه Oenone من حوريات جبل ايدا Mount Ida وزوجة باريس البطل الطروادي ، كما تقول الاساطير اليونانية . والكلمة باليونانية Oinoni ، وهي مشتقة من oinos (الوين = الخمر).

الامازونيات

الامازونيات Amazons شعب من النساء المحاربات ينتسب الى سيثيا (او سكوثيا) كما جاء في الميثولوجيا اليونانية . ويؤثر عن الامازونيات انهن كن يقطعن الثدي الايمن من صدور اطفالهن لكي يكون بمقدورهن عند البلوغ استعمال القوس في القتال . وتروي الاساطير ان الامازونيات حين يتصلن برجال من شعب آخر (وهذه هي الوسيلة الوحيدة لتكاثرهن) كن يرسلن بالذكور من اطفالهن الى موطن آبائهم ، ويحتفظن بالاناث . ويختلف موطن الامازونيات في المصادر والمأثورات الادبية والجغرافية اليونانية . ففي الياذة هوميروس كان موطنهن في فريجيا ولوقيا . وفي مصدر آخر تأتي ملكتهن Penthesileia بفريق من المحاربات من ثراسه لنصرة بريام ملك طروادة ، بيد ان آخيل يتصدى لها فيذبحها . وفيما بعد ، عندما امتد نفوذ الاغريق الى البحر الاسود ، صارت هذه المنطقة تعتبر موطنا للامازونيات(54) .

وفي القرن السادس عشر اكد المكتشف الاسباني فرانسسكو دي اوريلانا انه احتدم في قتال مع نساء محاربات في اميركا الجنوبية عند نهر المارانون Maranon الذي سمي فيما بعد باسمهن الامازون Amazon . ولكن آخرين يرجعون اشتقاق اسم النهر (امازون) الى الكلمة الهندية (اماسونا) amassona التي تعني (محطم القوارب)(55) .

اما اصل الكلمة اليونانية Amazon فغير معروف بصورة قاطعة ، على الرغم من ان التفسير الشعبي الدارج للكلمة يرجع بها الى المقطعين -A (بدون) ، و mazos (ثدي) .

على ان الكلمة : كما يرى المؤرخون ترجع الى اصل غير يوناني (آسيوي على الاغلب) . وهناك من يرجع وجود صلة بين كلمة (امازون) والكلمة السامية (اميص)(56) او (حميز) ، فكلمة (اميص) العبرية تعني (شجاع ، جريء ، جسور ، ثابت الجنان) . واميصوت : شجاعة ، جراة ، شدة ، ثبات ، قوة . والحميز ، باللغة العربية ، الشديد ، وكذلك الذكي . ومنه جاء اسم (حمزة) : شجاع . ولعل هذا الراي يستند الى مطابقة الكلمة اليونانية مبنى ومعنى مع الكلمة السامية .

★ ★

وبعد ، لئن اتضح لنا ان العديد من الآلهة الاغريقية تحمل اسماء ليست هلينية ـ بعضها ينتسب الى اقوام غير يونانية او غير هندية ، اوربية ، وبعضها الآخر يرجع الى اصول سامية ـ فيحسن بنا ان نفطن الى ان اليونانيين ، عندما قدموا الى بلادهم هذه ، لم يكن معهم سوى اله واحد ، هو (زوس) ، يرجع اسمه ومهده الى اصل هندي اوربي ، كما يقول المؤرخون . وربما كان لديهم إلهة (إلاهة) للزراعة او القمح ، كانوا يطلقون عليها اسم ديميتر ، وكانت لها ابنة تدعى Kore (العذراء) . وربما ايضا كان لديهم إله آخر ، هو پلوتون (إله الخيرات) الذي صار فيما بعد يقرن ب (هاديس) Hades إله الموتى . وحتى (زوس) الذي يرجع اسمه الى كلمة تفيد معنى الضوء ، وتلتقي في مبناها مع مادة (الضوء) العربية او udda الاكدية ـ السومرية ، ينبغي ان نعيد النظر في هويته واصله ما دام اسمه لا يرجع الى لفظة هندية ـ اوربية خالصة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

(*) فصل من كتاب معد للطبع بعنوان (دراسة في المفردات المتشابهة بين اللغات السامية واللغات الهندية ـ الاوربية)

(1) السماء مذكرة باليونانية .

(2) ناقشنا هذه المادة بالتفصيل في كتابنا المشار اليه عند كلامنا على كلمة (اوربا) التي ترجع هي الاخرى الى كلمة (الغروب) السامية .

(3) يراجع في هذا كتاب Greek Mythology تأليف Robert Graves و (قصة الادب في العالم) تصنيف احمد امين وزكي نجيب محمود ـ القاهرة 1943 .

(4) ينظر في هذا (معجم الاعلام في الاساطير اليونانية والرومانية) ترجمة امين

سلامة ، ص 254 .

(5) جورج تومسن : اسخيلوس واثينا ، ص 110 . ترجمة د. صالح جواد الكاظم، منشورات وزارة الاعلام ــ بغداد ، سنة 1975 .

(6) ولد في المانيا عام 1823 وتوفي في انكلترا عام 1900 .

(7) صدر عام 1898 .

(8) ناقشنا هذه الكلمة بشيء من التفصيل في كتابنا المشار اليه .

(9) Robert Brown, Semitic Influence in Hellinic Mythology, PP 113 - 116

(10) فرويد : موسى والتوحيد ، ص 75 . ترجمة جورج طرابيشي ــ دار الطليعة ، بيروت 1977 .

(11) الدكتور السيد يعقوب بكر في تعليقه على متن كتاب موسكاتي (الحضارات السامية القديمة) الترجمة العربية ، ص 285 .

(12) المصدر السابق ، ص 286 .

(13) فليشرز : وادي الاحلام ، ص 415 . ترجمة فريد لقمان . مطبعة الحرية ، بغداد

(14) الدكتور احمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ ، ص 216 .

(15) وبما سقط حرف ال n عند الطبع .

(16) ينظر في هذا كتاب روبرت براون الذي سبقت الاشارة اليه ، ص 133 .

(17) سارتون ، ج1 ص 414 .

(18) A Comprehensive Etymological Dictionary of English Language

(19) من قاموس المنجد .

(20) الموسوعة البريطانية (طبعة 1962) تحت مادة Gruk Religion

(21) قاموس (تاج العروس) ، تحت مادة (فضا) .

(22) عبدالحق فاضل : تاريخهم من لغتهم ، ص 96 . منشورات وزارة الاعلام العراقية ، سنة 1977 .

(23) الدكتور السيد يعقوب بكر : المصدر السابق ص 359ــ360 .

(24) ناقشنا هذه المادة بشيء من التفصيل في كتابنا المشار اليه .

(25) ينظر في هذا كتاب
John Forsdyke, Greece before Homer, p. 98. Max Parrish, London, 1956.

(26) قصة الادب في العالم ، ج1 ، ص 128 تصنيف احمد امين وزكي نجيبمحمود ــ 1943 .

(27) الدكتور يعقوب السيد بكر ، المصدر السابق ، ص 267ــ268 .

(28) المصدر السابق ص 305 .

(29) ملحمة كلكامش ، ترجمة طه باقر ، ص 82 ، الطبعة الثانية . و «سين» اله القمر .

(30) يراجع في هذا كتاب عبدالحق فاضل (تاريخهم من لغتهم) ، ص 63 وما يليها.

(31) ملحمة كلكامش ، الطبعة الثانية ، ص 133 .

(32) المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، الهامش .

(33) روبرت براون : المصدر المذكور آنفا ، ص 99 .

(34) معجم الاعلام في الاساطير اليونانية والرومانية ، ترجمة امين سلامة ، ص168.

(35) الدكتور السيد يعقوب بكر ، المصدر السابق .

(36) قاموس الدكتور كلاين المشار اليه سابقا تحت مادة pallas

(37) يراجع في هذا كتاب (ملاحم واساطير اوغاريت) للدكتور انيس فريحة ، وكتاب (الحضارات السامية القديمة) لموسكاتي ، الترجمة العربية ،ص256.

(38) الموسوعة البريطانية (طبعة 1962) تحت مادة Ishtar

(39) G. A. Barton, Semitic and Hamitic Origins. pp. 133-4, University of Pensylvania Press, 1934.

(40) Ibid, p. 138.

(41) Ibid. p. 133.

(42) عبدالحق فاضل : تاريخهم من لغتهم ، ص 109 .

(43) المصدر السابق ، ص 94 ، وكذلك ص 112 .

(44) روبرت براون : المصدر المذكور آنفا ، ص 132 ، 136 .

(45) سيأتي الحديث عنهم بعد قليل .

(46) عن تاج العروس ، تحت مادة (دد) .

(47) يعني بالحرف الواحد : لور مينوس .

(48) وتعني بالحرف الواحد : (نوتيو ، اي بحارة ، اركو) .

(49) الموسوعة البريطانية (طبعة 1962 (تحت مادة Achilles

(50) فقه اللغة ، للثعالبي ، ص 123 . مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، سنة 1952 .

(51) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة عبدالهادي ابو ريدة ، ج2 ص 223 .

(52) الموسوعة البريطانية (طبعة 1962) تحت مادة Grape

(53) Cambridge Ancient History : Physical Conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt before the Period of Agricultural And Urban Settlement, 1965. p. 13.

(54) عن الموسوعة البريطانية (طبعة 1962) تحت مادة Amazonas

(55) المصدر السابق .

(56) في قاموس الدكتور كلاين ان الكلمة اليونانية ترجع على الارجع الى كلمة (اميص) العبرية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هيكل

كانت

الفلسفة الوضعية ومعيارها الاجتماعي

ان الفلسفة الوضعية هي رد فعل حاد وحاسم للفلسفة المثالية التي نشات في اوائل العصر الحديث ، خاصة بعد ظهور الفلاسفة الالمان عمانوئيل كانت وفخته وهيكل . ومع ان كانت (1724 – 1804) قد حاول دحض الميتافيزيقا او المثالية الماورائية ، كما عبر عن ذلك في كتاباته العديدة خاصين بالذكر « نقد العقل النظري Critic of Pure Reason » و « نقد العقل العملي Critic of Practical Reason » . فلقد اعتبر البحث في الماورائيات امرا يخلو كل الخلو من الفائدة ، وهو بحث لا طائل وراءه . ولابد من ان نرفع الوشاح عن الحقيقة فنقول ان الافلاطونية كانت اغراقا في المثالية الى درجة الادعاء بان جميع معارفنا لم تاتنا من العالم المحسوس « المادي الواقعي » كما لم تاتنا من التجربة ؛ انما هي مجرد افكار جاءتنا من العالم المثالي اللامادي « الفكري وقبل التجربة Apriori » ، او بالمصطلح الفلسفي « القبلية » ، وهي تقابل « البعدية Apostriori » اي الواقعية وبعد التجربة ، في المنهج الواقعي الحسي . وإن ذلك يتعين حسب ما تدعي النظرية المثالية ، وحسب راي افلاطون بكون النفس الانسانية حاملة المعارف كانت في عالم ثان هو عالم المثل ، حيث شاهدت « اي النفس » جميع الاشياء مجسدة ومشخصة فيه ، فكونت الافكار . فاذا ما قضت الابدان ونزلت النفس من العالم العلوي « المثالي المجرد » الى العالم السفلي « المادي المحسوس » بدات تتذكر الصور التي شاهدتها في عالم المثل « العلوي » . وهي « النفس » لم تستق المعارف من الواقع المادي المحسوس ، انما هي تدرك هذه المعارف والاشكال المادية المجسدة عن طريق مطابقتها بما لديها من صور وافكار ، وهي التي استقتها كما اشرنا من عالم المثل .

ان هذه النظرية التي اطلقنا عليها اسم « المثالية » خلقت رد فعل لدى كثير من المفكرين والفلاسفة الى درجة ان انكر عدد منهم كل فكرة مثالية لا تستند الى التجربة والمادة والمحسوس . ان جون لوك وجماعته : ديفيد هيوم وجون ستيوارت ميل وهربرت سبنسر ادعوا ان هذه المعارف قد وردتنا عن طريق المادة ومن عالم الحس . وعليه فان الافكار لن تتكون ما لم تردنا عن طريق الحواس . فلا افكار بدون محسوسات وعالم مادي. ولقد نمت هذه الفلسفة نموا سريعا فاتت ثمارها عند اوكست كونت حينما تبدى له عقم المنطق الارسطوطاليسي من ناحية في البحث العلمي ، وعقم الميتافيزيقا الماورائية ، الافلاطونية والهيكلية من ناحية ثانية . فركز هجومه كما هو معروف على كل من المنطق الارسطوطاليسي والفلسفة الماورائية ووضع اصول منهج البحث Methodology الذي ارسى اصوله وثبت قواعده فيما بعد المفكر الفرنسي كلود برنارد وان انتقادات اوكست كونت للماورائية اضافة الى اعتباره لغوا لا طائل وراءه ، وعبثا لا يؤدي الى نتيجة ، فهو لكونه مرحلة من مراحل التطور الفكري للانسانية ، تمثل ايمان الانسان بفكرة مجردة غيبية ، ليست عيانية ، ولا وجود لها في العالم المادي . ولما كان اوكست كونت لا يقر بسوى العالم المادي ، فهو ينكر جميع الافكار المجردة ، ولا يؤمن بالغيبيات ، خاصة وهو الذي يعتبر العلم ، الاداة الصحيحة للارتقاء بالانسانية الى اسمى مراحلها . اما الاسس التي بمقتضاها رفض كونت الفلسفة الماورائية ، حيث انها لا تستند الى الماديات ، ولا ترتبط بها ، وهي لا تخضع للحس الذي هو الطريق الاولي للتجربة . وما دامت هذه القضايا لا تخضع للتجربة ، فلا يمكن التسليم بها تسليما قاطعا لأنها فرضيات وآراء لا سند لها من التحقق المادي . ونظرا لأن المنطق العلمي او المنهجية التي اعتمدها كونت في دراسته يرفض كل عام لا يدخل فيه ، فهو لذلك يرفض الماورائية كلاً ، لأنها تقوم على المنطق الشكلي Formal Logic او المنطق الصوري « القياسي » . والقياس لا شك وكما هو معروف يؤدي في العديد من الاحيان الى مغالطات كثيرة ، لأن القضايا التي يستند اليها ، فكرية ، وليست لها مقابلات حسية ، مما يدعو الى الوقوع في المغالطات بصورة قصدية او لا قصدية . وتبعا لكل ذلك رفض كونت المنطق الارسطوطاليسي ، ورفض الفلسفة الماورائية « الميتافيزيقا » لغرض اقامة فلسفته الوضعية . وفلسفة كونت الوضعية نتيجة حتمية لمذهبه الذي وضعه في علم الاجتماع والمعروف بقانون الحالات الثلاث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سلمان التكريتي

حيث قسم تاريخ الانسانية الفكري الى ثلاث مراحل . وهذه المراحل الثلاث هي دليل سيرة تطور المجتمعات الفكرية . فالمرحلة الاولى هي اللاهوتية Theological والثانية هي الحالة الماورائية « الميتافيزيقا » Metaphysical والثالثة هي الحالة العلمية Seientific . لكننا يجب ان نلاحظ ان الحالة اللاهوتية مقسمة الى ثلاث مراحل هي الفتيشية Fetichism (1) والثانية هي المرحلة الطوطمية Totemism (2) والمرحلة الثالثة هي مرحلة التابو Tabou (3) . وان الفكر في اللاهوتية بدءا كان لا يدرك سوى ما هو معروض امامه من ماديات فآمن بها على اساس انها القوى التي تسير الكون والمنظمة له ، فخاف منها وعبدها . ولا شك ان هذه الحالة ما زالت من سمات العديد من المجتمعات البدائية في افريقيا بصورة خاصة. ويكون الفكر البشري في الحالة الثانية الماورائية (الميتافيزيقية) قد ارتقى فاخذ يرفض الافكار السابقة من ناحية لاهوتيتها واخذ يجرد الماديات ، ويضع لها عللا ذاتية مسيرة للكون بعد ان كانت عللها مفارقة عنها في الحالة اللاهوتية . وهذا معناه ان قول كونت بالعلة والقوة الفاعلية والجوهر الفرد والماهية والذات ، والغاية والنفس والحرية والثواب والعقاب . ونتيجة لتفكيره وفق هذه الحالة ، فانه وصل الى وحدة الوجود أو الحلولية على اعتبار ان العلل ذاتية في الاشياء ، وليست مفارقة لها . فالاشياء هي الله ، أو ان الله حال في هذه الاشياء . وهذا يدعونا للقول برفض الغيبية والايمان بالاستدلال ، وحيث يحل المجرد محل المادي المشخص . وكونت من هذه الناحية يعتبر الدين حالة وضعية . وهذه الحالة ملازمة لكل مجتمع في حالة تطوره وانتقاله . ويمكن تفسير كل القيم والقوانين على انها مواضعات اجتماعية متفق عليها ، او هي اوضاع تلازم المجتمع لفترة معينة تتبدل وتتغير تبعا لتغير حياة المجتمع وظروفه ونشاط افراده ، واكتشاف قوانينه وادراك الترابطات والاطرادات بين الظواهر .

من هذا المنطلق يكون اجتماع الانسان أو تجمعه وفقا للفلسفة الوضعية مخالفا في التحليل لراي ارسطو 384 – 322 ق. م الذي يؤكد ان الانسان اجتماعي بالطبع ، بينما يقرر كونت ان الانسان اجتماعي بالاضطرار ، اي ان الظروف هي التي اضطرت الانسان الى ان يتخذ وضعية معينة يلتزم بها في المجتمع ويلتزم المجتمع بها . لذلك فكثيرا ما نرى ان فكرة الربح والمنفعة هي التي تسود المجتمعات وحياة الافراد في تلك المجتمعات . وهذا الربح بالطبع أو هذه المنفعة لا تظهر الا اذا حصل الاجتماع . وتبعا لذلك تظهر الانانية بين الافراد . لكن نمو العقل البشري والعاطفة وتطورهما اديا الى اضعاف الانانية . وبعد انطلاق العلم وظهور الاكتشافات وسيطرة التجربة في الحياة العلمية وميادين الحياة الاجتماعية وسيادة فكرة الايمان بأن الاشياء تعرف بظواهرها ، وعدم الايمان بحقيقة الاشياء كما يقول كانت انه لا يمكن ادراك الشيء بذاته ، لأنه وادراكه قضية ما ورائية . والايمان بالظواهر معناه رفض الماورائية ووجوب الاعتماد على الواقع . وهذا هو منطق الفلسفة الوضعية . وهذا هو جوهر الحالة العلمية او الواقعية .

ان نشاط الفلسفة الوضعية التي ارسى اسسها كما اوضحنا ، المفكر الفرنسي اوكست كونت ، يمكن ايجازه بحلول الملاحظة محل الاستدلال ، والاستعاضة عن العلل بالقوانين ، اي العلاقات المطردة بين الظواهر ، ولما كانت هناك بعض القضايا التي لا تقع تحت الملاحظة ، فتكون خارجة عن دائرة العلم ، ولم يحدث لها تطور ، وهي غير قابلة للحل ، لذلك يجدر تركها . واذا اردنا ان نطبقها على الحياة الاجتماعية ، فيمكننا ان نقول ان فكرة الانسانية تكون هدف الانسان وجوهر محبته على اعتبار ان الانسان يكرس جهده لخدمة الانسانية . ويمكن ان نقرر ان هذا الاتجاه في فلسفة كونت لا يعني اتجاها الحاديا ، انما هو اندماج فكرة الله بفكرة الانسانية ، او ربما هو اقرب الى وحدة الوجود أو الحلولية بصورة ادق .

ان الفلسفة الوضعية لاوكست كونت تعتبر ان قمة الفكر الانساني وقمة العلوم هي علم الاجتماع . وان جميع العلوم مكرسة للتفرغ لخدمة هذا العلم ، لأنه يحقق الخير والسعادة والرفاه للانسانية . وانطلاقا من هذا المبدأ ، قسم كونت علم الاجتماع الى قسمين ، احدهما هو علم الاجتماع الساكن Static Sociology ومحوره او الفكرة الاساسية فيه هي فكرة النظام وعدم التغير ، اي الاستمرار على كينونة ثابتة . والقسم الثاني هو علم الاجتماع المتحرك Dynamic Sociology وهو الذي يبحث عن قوانين نمو المجتمع ، اي تطور الاوضاع Position الاجتماعية ، ومحوره أو الفكرة الاساسية فيه هي فكرة التقدم . وهذان القسمان من علم الاجتماع مرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا ، ذلك لأن النظام والتقدم مترتبان الواحد على الآخر . وان دراسة وضعية المجتمعات ونظامها وتقدمها هي الفكرة الرئيسة في فلسفة كونت ، وتعتبر دحضا للفلسفات المثالية ، لأنها تؤمن فقط بالنظام ولا تؤمن بالتقدم ، وهي كذلك دحض من ناحية ثانية للفلسفات الطبيعية والميكانيكية التي لا تؤمن الا بالتقدم وحده ، وترفض النظام ، اي السكون باعتباره لا يورث الا الركود في الحياة بشكل عام .

■ ✱ ■

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعد ان قمنا بتحديد منطلق الفلسفة الوضعية الكونتية ومحدوديتها الفكرية ، نقول انها انطلقت في مطلع القرن العشرين انطلاقة مثيرة وباشكال جديدة ذات مضامين علمية زاهية ، وذلك في الفلسفة الوضعية المنطقية الرياضية ، اذ برزت بصورة خاصة في انكلترا على ايدي المفكرين هربرت برادلي ورنارد بوزنكيت وصموئيل الكسندر والفرد نورث هوايتهيد وجوتلوب فريجه وبرتراند راسل . ويمكننا تحديد فلسفة المناطقة الرياضيين ، او الوضعية الرياضية المنطقية هذه بكونها تصورية طبيعية منطقية رياضية حسية . لذلك فهي قريبة من الفلسفة الظاهرية Phenomenotis اذ تذهب هذه الفلسفة الى ان معاني المادة والمكان والزمان وما اليها ، وهي اركان العلم الطبيعي لا مقابل لها في الخارج ، لكنها نافعة في تعيين الظواهر المحدودة والتعبير عما بينها من علاقات . لذلك تعتبر الفلسفة الحقيقية في عرف المنطقية الرياضية التي هي التعبير عن الدقيق او السلوك الحسن كما يقول برتراند راسل ، أو هي علم الدلالات اللفظية كما يقول فريجه وبرادلي .

لقد عبر ايضا بوزنكيت عن ذلك ادق تعبير بقوله ان المنطق هو معرفة تراكيب الاشياء ، او هو العلم الذي يجعل الاشياء قابلة لأن تكون معقولة . وقد يجلو لنا المفكر صموئيل الكسندر الراي بدقة ، حينما يقرر كما قرر اينشتين على ان الطبيعة في البدء ما هي الا اربعة ابعاد يحققها الزمان بعد ابعاد المكان الثلاثة . كذلك فان كل ما في الوجود ليس الا المكان الزماني . ويرد راسل اقوال هوايتهيد ، لأنه قد اشترك معه في عرض كثير من الآراء الرياضية والمنطقية بعد ان الفا كثيرا من الكتب معا . ويعلن راسل انه يمكن استنباط الرياضيات من المنطق . والمنطق هو المنقذ الاعظم ، لأن الفلسفة تتطلب البرهان المنطقي . ومن هذا

نلاحظ ان الفلسفة الوضعية الحديثة رجعت الى المثالية التي رفضهـا اوكست كونت ، وذلك باعتبارها المنطق الرياضـي الاساس لتفسـير مفارقات الطبيعة واطراداتها ، خاصة حينما تعتبر اللغة هي محور الفلسفة التي تقوم على ابتكار لعبات لغوية متشابهة او مختلفة بالرغم من شـدة ازدحام اللغة الاصطلاحية العادية بالمصطلحات الاتفاقيـة الخاصـة ، وبالقواعد الجزافية على حد قول فتجنشتين (1889 – 1859) ، وهي امور يتعذر معها تبين الجانب التصوري من اللغة . ومع اعتراف فريجه بان الكلمة قد تستحضر صورا متباينة في عقول اناس مختلفين ، أو ان الفاظا مختلفة قد تثير صورة بعينها في عقل فرد واحد ، فهو مع ذلك جعل اللغة اساسا لفلسفته الوضعية المنطقية . والصورة الذهنية لا تحـدد معنى الجمل لتي تتضمن الكلمة ، والكلمـة ذات سمتين ؛ الاولى هي التلوين ، اي الصور والارتباطات التي تستدعيها الكلمة ؛ وهذه امـور ذاتية قد تختلف من شخص لآخر ، والثانية هي التحديد أو المعنى الذي تحمله الكلمة في استعمالها الصحيح . وهذه السمة موضوعية تدخل في تحديد قيمة الصدق في الجملة التي تتضمن تلك الكلمة .

ان هذا التهاون في الاعتماد على الكلمـة ذات السمتين يؤدي الى نسبية المعايير الاجتماعية بصورة خاصة . وهذا معناه ايضا سقـوط الفلسفة الوضعية المنطقية في الشكلية الكلاسية (المدرسية) التي اعتمدت المنطق الشكلي ، في الوقت الذي كانت الوضعية الكونتية مفتاحا جديدا للمنطق الدايلكتيكي « الجدلي » الذي اعتمدته النظريات الفلسفيـة الحديثة لتفسير الحركات الاجتماعية في المجتمعات المتغيرة الباحثـة عن كينونتها وهويتها القومية . وليس من اختلاف بين الفلسفة المثاليـة التي اعتمدت على المنطق الشكلي الذي تحدد مساره اللغة وبين الفلسفة الوضعية المنطقية التي تعتمد اللغة ايضا ، باعتبارها لعبة على حد قول الوضعيين المنطقيين الرياضيين . وباقرار اختلاف الصورة والمعنى في الكلمة التي هي اداة اللغة ، يشوب الغموض ادراك الحقيقة لاحتمـال نشوء مغالطات بسبب المنطقية الرمزية التي اعتمدتها الفلسفة الوضعية المنطقية ذاتها . ولا شك ان هذا يعود الى تأثر الفيلسوف فريجه بصورة خاصة بالفيلسوف الالماني هوسرل (1839 – 1938) الذي قـرر ان الحقائق لا وجود لها الا من حيث كونها تشير في الوعي ومن أجل الوعي ، حيث ابتعد عن التجريبية التي هي قوام الفلسفة الطبيعية « الفيزيقا » وتحول الى الفلسفة الماورائية « الميتافيزيقا » . لكن الفيلسوف الالماني كارناب (1891 – 1968) وهو وضعي منطقي ايضا ، يرفض ان تكون قوانين المنطق والرياضيات سبيلا لاخبارنا عن اي موضوع . وهـذه القوانين ليست سوى ابنية منطقية تستمد ضرورتها القبلية Apriori باكملها في نطاق اللغة التي ترد فيها من القواعد البنائية التي استقـرت بحكم العرف وضبطت استخدام هذه اللغة . وبالاضافة الى ذلك فـان مصدر الخلافات الفلسفية عادة هو الخلط بين العبارات شبه الشيئيـة والعبارات الشيئية .

ان الفلسفات التي تقوم في حياتنا المعاصرة على اللعب بالالفاظ أو العاب اللغة ، او على المنطق الشكلي المثالي الذي يقـود الى مغالطات قياسية في القضايا ، وتؤدي الى حجب الحقيقـة عن الادراك ، لن تكون في خدمة عملية التطور الفكري من ناحية ولا تنظيم الحياة الاجتماعية من ناحية ثانية ، انما تظل لغوا لا طائل وراءه . ان حياتنا المعاصرة تتسـم بالجدلية ، والتطور يقوم على هذه الجدلية ، والصراع نتيجـة هـذه الجدلية . وتحقيق الهوية القومية لا يتقوم بفلسفة لا تدرك أو تسيء فهم وظيفة الادوات الذهنية اساءة تامة ، انما هذه الفلسفة تؤدي للوقوع في الماورائية « الميتافيزيقا » بدل الوصول الى فلسفة واقعية أو طبيعية « الفيزيقا » . والفلسفة الوضعية المعاصرة ، وبعيـدا عن وضعيـة الفيلسوف الفرنسي اوكست كونت ، انما هي رمزية من ناحية وماورائية « ميتافيزيقية » من ناحية ثانية ، تضع الانسان في متاهات غيبيـة . والفكر العربي المعاصر لا يسلم بالفلسفة الوضعية المنطقية لأنها لا تفسر جدلية الصراع الذي تخوضه الامة العربية وفق مفهوم القومية العربيـة ونموها وتطورها . لأن فكرة القومية ، وتحقيق هوية الامة العربيـة واثبات كينونتها ليس من الماورائية « الميتافيزيقا » في شيء . ولا نبالغ اذا قلنا ان المنطق المعتمد على المفارقات اللغوية لا يفسر اطرادات المجتمع وظواهر الطبيعة المتصارعة في جدلية دائمة تتفجر عن الجـديد في كل صراع . وهذا الجديد هو حقيقي لأنـه واقعي ، في الوقت الذي تنفي الفلسفة الوضعية المنطقية والفلسفات المثالية ، الحقيقي بكونه واقعيا . وفي اعتبارها ان الوجود الحقيقي لابد ان يتصف بنوع من التوحد لا نظير له في مجالات تفكيرنا العقلي ، وهو يعلو على جميع العلاقات ويجاوزها ، كما يقول الفيلسوف الانكليزي برادلي (1846 – 1924) . وهذا الوجود الحقيقي مطلق لكننا نؤكد ان الوجود الحقيقي هو الواقعي ، وهو الذي يحقق كينونة الامة ، ويؤكد وجودها الذي نحتاجـه نحن الآن لبنـاء الشخصية الذاتية للامة .

الهوامش

(1) الفيتيشية : هي مرحلة عبادة الظواهر المادية واضفـاء الروحانيـة عليها .

(2) الطوطمية : هي مرحلة الايمان بالكائنات الطبيعية كقوى الهية ، لكن دون اعتبارها ذات روحانيـة انما افعالها تنسب الى موجودات غير منظورة تؤلف عالما علويا ، ويمكن اعتبارها مرحلة تعدد الالهة .

(3) التابو : هي مرحلة توحيد الالهة في اله واحد مفارق للعالم المادي الموجود . وهذا معناه الايمان بقوة غيبية سامية ، مغايرة لعالمنـا ، واصبحت هذه القوة اساسا مشتركا لحياتنا الخلقية والاجتماعية .

المصادر

1 – الموسوعة الفلسفية المختصرة : مجموعة مؤلفين وترجمة : فؤاد كامل وجماعته .

2 – تاريخ الفلسفة الحديثة : يوسف كرم .

3 – هيوم : د. محمد فتحي الشنيطي .

4 – المنطق الوضعي : د. زكي نجيب محمود .

5 – في عالم الفلسفة : د. احمد فؤاد الاهواني .

6 – هذه هي الشخصانية : عمانوئيل مونييه .

7 – افلاطون : د. عبدالرحمن بدوي .

8 – الفلسفة الوجودية : جان فال .

9 – The History of Western Philosophy

برتراند رسل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقاءات

« نوفينسكي : فلسطين والعالم الثالث قضيتي »

■ فاز الفنان البولندي ماريان نوفينسكي بجائزتين في معرض بغداد العالمي للملصقات . واحد الملصقين الفائزين عن (فلسطين . الوطن السليب) والاخر عن الاضطهاد الثقافي في شيلي . وسبق ان حصل ملصقه عن شيلي بجائزة (ملصق الشهر) التي تمنحها صحيفة (شجه فارشافي) اليومية الصادرة في العاصمة البولندية . وفي لقاء مع نوفينسكي سالته :

– كيف نشات لديك هذه الاهتمامات ، بفلسطين ، بالعالم الثالث ؟

– قبل كل شيء ليست اهتمامات عابرة ، بل جاءت نتيجة موقف معين ازاء العالم . وقبل أن اساهم في معرض بغداد كنت قد عملت ملصقا عن فاطمة الفلسطينية التي عذبها المحتل . وقصة فاطمة عرفتها اثناء مشاركتي في مهرجان الشباب والطلبة العالمي في هافانا .وهناك كنت قد ساهمت في حملة للمهرجان كانت تهدف اظهار وجهي العملة : الضحية والجلاد . وكان ذلك على شكل محاكمه . وحينها سمعت قصة فاطمة والتي رسخت ببالي أكثر من غيرها وكانت قصتها (تتصارع) في نفسي طيلة شهر حتى تجسدت في ذلك الملصق الذي يتحدث عن قصة تلك العربية التي سحقها المحتل الصهيوني . وهذا الملصق كان بين مجموعة الاعمال الجرافيكية التي حواها معرضي الاخير في وارشو.وحينها سمعت بمعرضكم العالمي واخذت أفكر : هل أرسل هذا الملصق أم اعمل اخرا يرمز الى القضية الفلسطينية بصورة اكثر شمولية . والواقع ان ملصق (فاطمة) كان ذا مضمون واسع ، لذلك اردت ان اقدم عملا اخرا يقوده عنصر الرمز . وبعبارة اخرى فكرت بملصق يخاطب مباشرة انسان الشارع الذي لا يملك امكانية فك طلاسم المضمون لهذا السبب او ذاك. وبرأيي أن الملصق يؤثر من خلال الرمز المنتقى والمكثف لدرجة تغني المتلقي عن جهة التفكير الطويل . وبالطبع أنا استخدمت تقنية اخرى في ملصق المعرض . فقد كان ملصق (فاطمة) يعتمد على استنساخ عناصر فوتوغرافية وفق تكوين خاص بينما اعتمد ملصق المعرض على تقنية اخرى هي الرسم .

– اعود الى ملصقاتك السياسية . تبدو لي انها عملت لشارع العالم الثالث وليس للشارع البولندي . المقصود بالطبع اسلوب التخاطب والتعبير المختصر والمصدم ايضا .

– قبل أن اسافر الى الخارج واحتك باعمال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ ماريان نوفينسكي

الفنانين الاخرين،بحيوات بشر اخرين وقضاياهم، كنت انتج اعمالا جرافيكية للبولنديين ووفق تصوراتهم ومنطلقاتهم الذوقية . كنت افكر بلغة بولندية صرفة اي بملصق ذي نطاق قطري وحتى محلي . وانت تتفق معي بأن لكل مجموعة بشرية، لكل بلد ملصقة الخاص الذي ينبغي أن يتجاوب مع سبل التفكير وتقاليد استقبال العمل الفني . في الغرب نجد الملصق ضخما ذا مستويات عدة كي يتكيف مع الظروف الخارجية التي لا تسمح بالوقوف والتامل الطويل . وفي امريكا اللاتينية وجدت للملصق مهمة ووظيفة أخرى . واذا عدت الى معرضكم فقد فكرت أن ملصق المعرض ينبغي أن يكون بدون ذلك التضخم المضموني الذي يمنعه من الوصول الى شارع العالم الثالث قبل كل شيء . اذن الفرصة الوحيدة هنا هي الملصق ذو الرمز والشكل الجرافيكي . وقد يكون ملصقي مختلف عن الملصقات البولندية . الا انها مسالة الظاهر فحسب فملصقنا متنوع للغاية ولا مكان للحديث عن قاعدة او مسار مقنن . مثلا تلاحظ في بولندا منذ فترة من الوقت ظاهرة عمل ملصقات لجامعيها فقط ، أي لا علاقة لها بالشارع كذلك هناك ملصقات مخصصة لقاعة العرض . وقسم من ملصقاتي تعود الى هذا الصنف ، رغم اقتناعي بانها تصلح ايضا للشارع واكثر من صلاحية تلك الملصقات الملونة . لا شيء لدي ضد الملصق الملون ، بل أنا معه . فهو يشد الاهتمام بفضل الوانه ويجذب نظر العابر ومهما كان مسرعا . وانت تسالين عن صلاحية ملصقي لشارع العالم الثالث . ان مفهوم الملصق – الرمز يسيطر على مخيلتي وأدواتي . وقد يصلح مثل الملصق لناس العالم الثالث ، الاميين وغيرهم من الناس الذين لا يعايشون الفن يوميا . وهذا الواقع بالذات هو الارضية الحقيقية لمشكلة الملصق المكرس لحاسة النظر وليس الاخر الذي يعتمد على الاستقرار وفك الالغاز . فالاول يستفز الناظر كي يفكر وليس أن يقرأ فقط .

– والان بمن تاثرت ؟

– كل شيء في ملصقاتي نابع من علاقتي بالانسان الذي عرفتهفي شتى مناطق العالم الثالث، فهذا الانسان ، سواء أكان انسانا عاديا أم فنانا ، يفكر ويعيش باسلوب مغاير ، كنت مبهورا للغاية بملصق امريكا اللاتينية وخاصة المسكيك ، والذي ينفصل عن فكرة نمذجة الانسان بل يقدمه كما هو ، جميلا أ قبيحا ، هامسا أو صارخا . كذلك انا معجب بالملصق الفنلندي الذي خلف ،

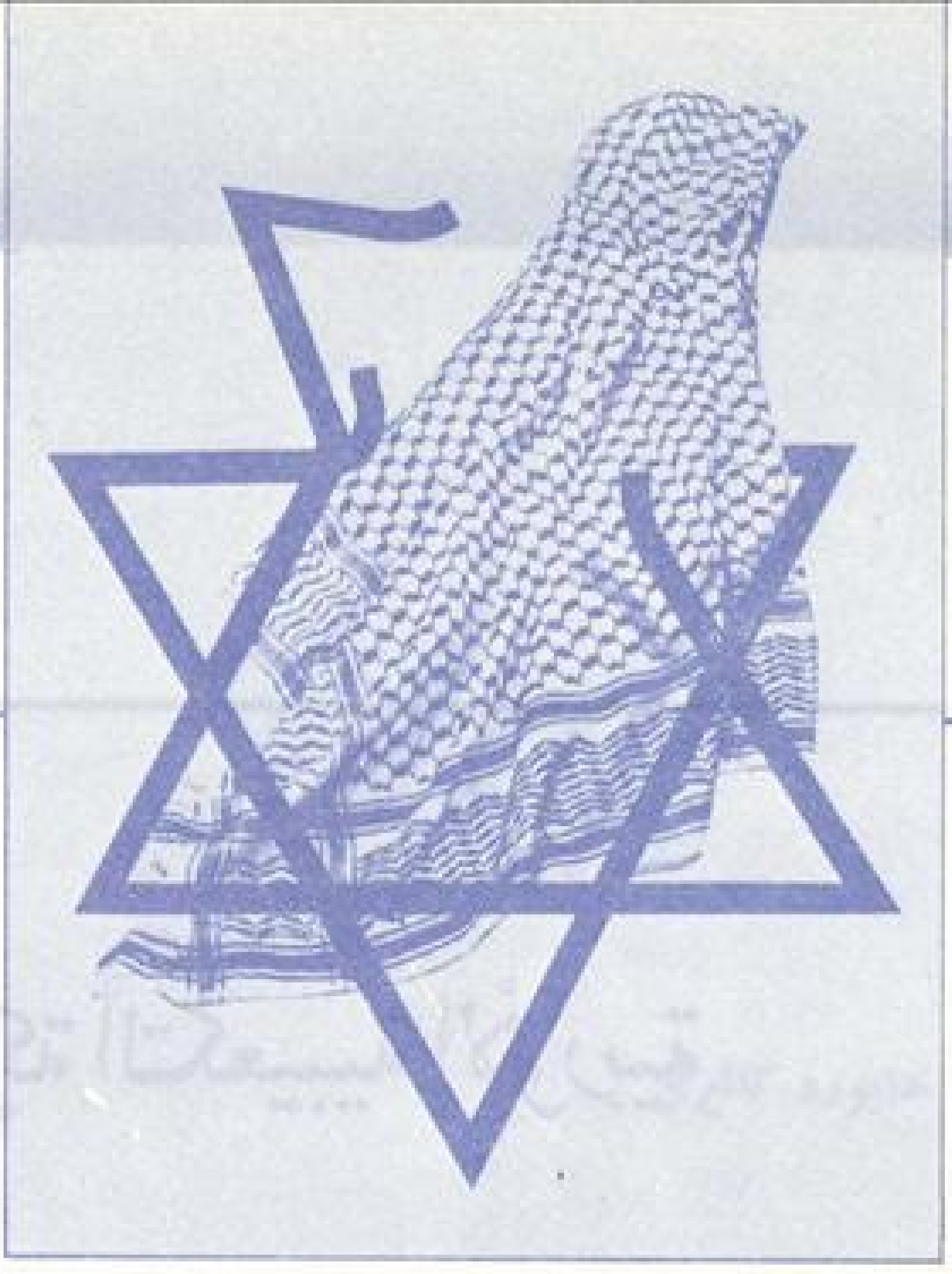

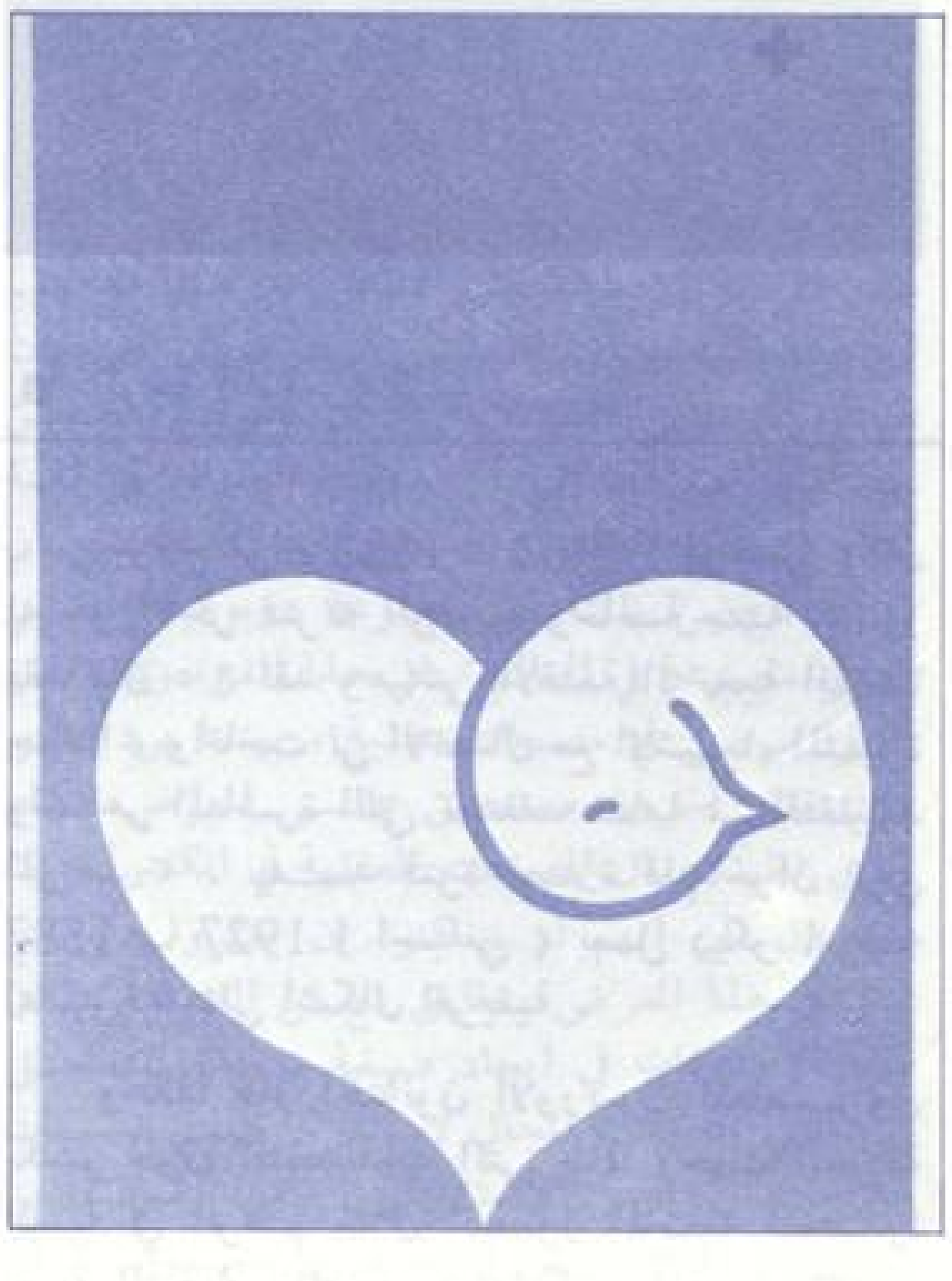

باعتقادي الملصق الياباني وراءه . لقد ترك الفنلنديون النص تماما ويفضلون ممارسة التاثير بواسطة الفوتوغرافيا والرمز . وبالطبع فالاخذ بالفوتوغرافيا في الملصق يمكن معاملته كموجة صاعدة لا شك ستزول او تاخذ ابعادا جديدة . فكما هو معرف لا شيء ثابت في الفن .

ـ تتميز اعمالك بدرجة حرارة عالية في معالجة قضايا يعيشها العالم المعاصر ، وبلورها تحدد سماته بصورة مفجعة كالعنصرية والاستعمار والدكتاتورية وسباق التسلح الجنوني والاستيطان الاستعماري . ان هذه الحرارة والاحساس المتفجر نادرا ما نلقاها لدى الفنانين الاخرين . بم تفسر هذه الظاهرة ؟

ـ هذا حق . هناك ملصقات بولندية قليلة حول بعض المواضيع المذكورة فالعالم الثالث ما زال بعيدا عن مواطننا العادي . بالنسبة لي حسم المسالة عنصران : احتكاكي ومعايشتي لكثير من قضايا العالم ثم وعيي بما املكه انا وما يملكه الاخرون . لناخذ كمثال ملصقات عام الطفل العالمي . كم من الملصقات المكرسة للاطفال الجوعى وكم من الملصقات للاطفال الاخرين الذين يملكون كل شيء ؟ وحاصل الجمع لصالح الملصقات الثانية . انظر الى ملصقي هذا (المعلق على الجدار) . لقد جمعت فيه النقيضين : الطفل المعافى الشبعان المتفجر حياة والاخر العاري الجائع . الاول يلهو بلعبة ميكانيكية والثاني يحمل صحنا فارغا . ان الالتزام بقضايا عالمنا ليس مجرد اختيار مزاجي او اعتباطي او معدوم المسؤولية . فلابد أن يحسمه هنا عنصر الوعي والمشاركة الانسانية . ومن هنا وجدت أن معرضكم العالمي . معرض بغداد ، جاء تجسيدا طيبا وتجاوبا خلاقا مع الحاجة الكبرى في عالم اليوم ـ تخليص العالم الثالث من القهر الاجنبي من الجوع والامية والمرض والسكن البدائي من اوبئة الكولونيالية والعنصرية والاستيطان . وتضيف الى هذه الصورة المريعة ملامحا أكثر تراجيدية قضية فلسطين الوطن السليب الذي تكون قضيته أبعد من قضية احتلال والاجئين فحسب .

اجرى الحوار
عدنان المبارك
وارشو

◆

- فلسطين الوطن المغتصب
- أنا أتذكرك يا فكتور جارا
- السلام المضطهد

- بفضل تبرعك بالدم أنا أحيا
- تبرعوا بالدم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أثر الفن الافريقي على الحركة التكعيبية الأوربية

■ سنة 1905 عثر شخص يدعى « موريس دوڤلامنك » (1876 — 1958) ، في مخزن صغير للتحف ، على تمثالين خشبيين غريبي الشكل اغرياه بوجودهما التشكيلي المؤثر فساوم على شرائهما واخذهما معه . وهكذا بدات احدى أهم الثورات في تاريخ الرسم في القرن العشرين في فرنسا .

بعد سنتين تقريبا بدات بوادر الحركة التكعيبية المعرفة بكونها مدرسة فنية تقول بامكانية تقديم مظاهر مختلفة لشيء واحد تحت اشكال اوجه هندسية في وقت واحد .

هذه الحركة التي ولدت من ريشة براك وبيكاسو ، المعتبرين روادا للتكعيبية ، لم تأت نتيجة الفطرة . فمنذ نهاية القرن التاسع عشر بدأ الانطباعيون المتأثرون بالهولندي فانسنت فان كوخ 1853 — 1890 وخاصة بول سيزان 1839 — 1906 الذي اهتم باخضاع اشكال الطبيعة الى اشكال الاسطوانة او الدائرة ، باستخدام العناصر التي تحدث عنها فيما بعد فنانو بداية القرن العشرين .

الا ان أهم عنصر ساهم في خلق الحركة التكعيبية وتطورها يتمثل في اكتشاف الفنانين الفرنسيين للفن الزنجي وخاصة في مجال النحت. منذ 1904 اهتم انصار المذهب الوحشي في الرسم بالمنحوتات الافريقية التي تقع تحت ايديهم وساروا في طريق استغلال مصادر اللون والاصالة ومنهم: هنري ماتيس 1869 — 1954 ، واندريه دوران 1880 —1954 الذي اصبح فيما بعد تكعيبيا. لقد اصيب هؤلاء « الوحشيون » بنوع من الذهول أمام الاقنعة والتماثيل الافريقية التي تكشف عن ذكاء في التعامل مع الشكل كان مجهولا بالنسبة لهم . وقد صرح سيزان في نهاية حياته : التبسيط الهندسي هو الفن الزنجي » . وبسرعة غريبة تعمق هذا الاهتمام من جانب الاوساط الفنية الاوربية بالفن القادم من مجتمعات لاتعرف لا القراءة ولا الكتابة. فاعتبارا من 1906 أبدى اندريه دوران الذي نلاحظ في رسومه تأثرا ببول غومان 1848 — 1903 وهو الذي انهى حياته في اوسياني واجتهد في التعبير ببساطة عن التساؤلات الميتافيزيقية في لوحاته ، اهتماما بالرؤية الزنجية للعالم وخاصة بعد زيارته لمتحف الاجناس في لندن . ومن حينها عكف بعد عودته الى باريس على اقتناء المنحوتات والتحف الافريقية ، واخذ يدعو معاصريه الى الاهتمام بالفن الافريقي .

■ قناع لمراسيم الدفن من نيجيريا

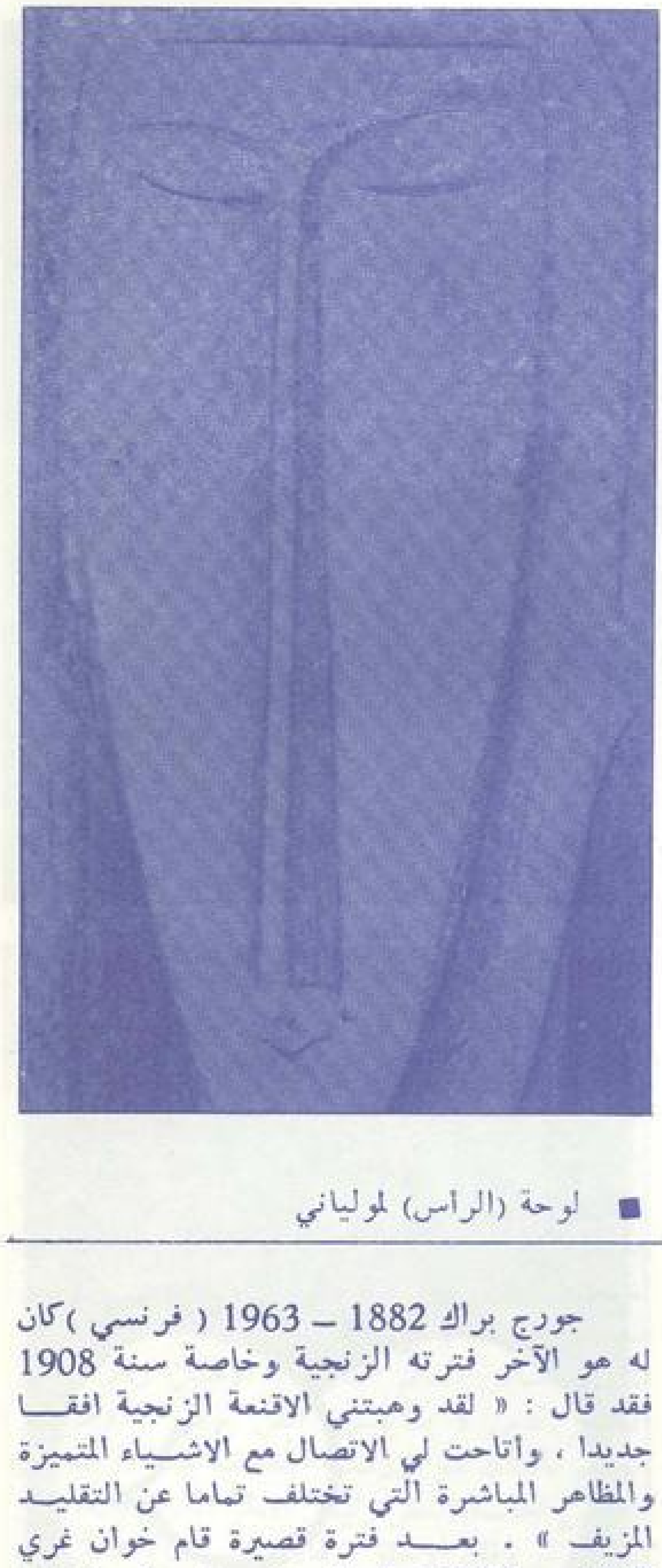

■ لوحة (الراس) لموليياني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في نفس السنة 1906 اتيحت الفرصة لبابلو بيكاسو 1881 — 1973 لزيارة معرض للفن البدائي الايبيري في متحف اللوفر وقد غادره متأثرا بالاشكال المعروضة بصورة غريبة . لقد وجد في المنحوتات ما يحرر الجوهر ويلتحم مع الابداع الحقيقي . بعد ذلك أخذ بيكاسو بالتردد على ماتيس الذي يحتفظ دائما بمنحوتات افريقية متجددة ثم في 1907 تعرف على دوران . وبما ان الأخير مغرم بالفن الزنجي فمن العجب ان لايتأثر هو الأخر به .

خلال تلك الفترة ايضا ابدى بيكاسو تأثرا ملحوظا بالفن الافريقي فقد وجد فيه المظهر الخام، قيم البساطة الوحشية والسحرية فقال : « على العمل ان يخلق الاشكال لا ان يقلدها ، وهذا هو ما يفعله الفنان الافريقي حين يصنع قلادة او تمثالا » وهكذا بدأ بيكاسو في استلهام افكاره واشكاله من الفنون الافريقية .

جورج براك 1882 — 1963 (فرنسي) كان له هو الآخر فترته الزنجية وخاصة سنة 1908 فقد قال : « لقد وهبتني الاقنعة الزنجية افقا جديدا ، وأتاحت لي الاتصال مع الاشياء المتميزة والمظاهر المباشرة التي تختلف تماما عن التقليد المزيف » . بعد فترة قصيرة قام خوان غري 1887 — 1927 (اسباني) بعمل ديكو لمنزله اعتمد فيه على اشكال افريقية .

وهكذا قام الفنانون الاوربيون المعاصرون بكسر طوق التحديدات التي طالما وجهت الحركة الفنية في الرسم خلال العصور الماضية ليعتمدوا حرية التحرك والتعبير تماما كما فعل الفنان الافريقي منذ آلاف السنين . فقد اكتشفوا في هذا الفن ثروة تشكيلية مضمرة وعمقا ينادي بديمومة الانسان واهتماماته الاساسية .

◆ ترجمة : ميسون ابو الحب

معارض

تصورات «اللامنتمون»

قاعة هايورد كاليري

لا يضطجع الفن في الفراش الذي صنع له ، انه يهرب حالما ينطق باسمه ، يجب ان يكون متواريا وافضل لحظاته عندما ينسى ماهيته .

الرسام الفرنسي دوبوفيه

■ طيلة اسابيع عديدة اثار معرض «اللامنتمون» الذي اقيم في قاعة هايورد كالري اهتمام الصحافة والمشاهدين على السواء ، ولعله اول معرض يناقش وظيفة الفن خارج مؤسسة الفن ويعرف الفنان بدون خلفيات اكاديمية او مدرسية ولعله ايضا اول معرض يدير ظهره للسوق الفنية ونظم قاعات العرض التجارية .

هذا المعرض الجماعي والذي شارك فيه اثنان واربعون فنانا مختلفين عن بعضهم الاخر ، يوحدهم انتفاء علاقتهم بتقاليد الفن ، انه معرض لاشخاص معزولين عن عالم الفن وهم يشعرون بضغط الحاجة للتعبير عن تصوراتهم الاصيلة بعيدا عن القوانين المتداولة لمحترفات الفن ولربما يذكرنا ذلك بفان كوخ كنموذج ولو أنه كان واسع الثقافة كفنان ولكنه كان في نفس الوقت شديد الحذر من تقاليد الفن الغربي .

اللامنتمون ، ليسوا فنانين ممتهنين ، ليس لديهم اية علاقة اكاديمية او شهادة مدرسية بالفن ، يعرفون القليل ان لم يكن لاشيء عن الفن كما يفهمه اشخاص الثقافة . لايذهبون الى قاعات العرض او المتاحف ولا يعيرون الاهتمام لمشاهدة الكتب الفنية ، العمل الذي يبدعونه لايجيء من رغبتهم في أن يكونوا فنانين معروفين وانما من رغبتهم الداخلية وحاجتهم للافصاح ، هذه الرغبة الاصيلة التي تنبثق من صفاءهدفهم. ان هذه التحديدات للامنتمي يراد منها تعريفات عديدة . بعض النقاد يقترح ان يكونوا ضمن مصطلح الفن البدائي او يرى بعضهم الاخر انه نتاج المرضى العقليين معتمدين بذلك على أن نسبة أربعين بالمئة من مجموعة دوبوفية التي تعتبر مجموعة في العالم تمثل هذا الفن تعود لاناس كانوا مرضى في مصحات عقلية ، بينما يرد على ذلك نقاد آخرون معتمدين على المعرض الكبير الذي نظم لاعمال المصحات العقلية في انكلترا حيث يشيرون الى انهم لم يتمكنوا ان يعثروا على أي عمل في هذا المعرض يتطابق مع فن اللامنتمي . ان هذه الاختلافات في ايجاد صيغة موحدة للتعامل هي التي افسحت المجال لاستمرار ظهور تسميات جديدة مثل الفن الاستثنائي ، الفن الشاذ ، الفن المعزول ، حافة الفن وغيره من تسميات . ان الابحاث لازالت مستمرة لايجاد تصورات واضحة لفن اللامنتمي وعلاقته بمرض انفصام الشخصية بعد أن أثبت الدكتور ليونفراتي بعض المميزات لاعمال المرض العقليين وهي :

1 ـ النزعة لغرض الاشكال الانسانية بشكل عناصر فاقدة الحيوية .

2 ـ براعة اسلوبية ونزعة للتشوية وبشكل خاص الاشكال الانسانية .

3 ـ تكررار استعمال الرموز .

يعتبر متحف الفن الخام في لوزان والذي يضم مجموعة الرسام الفرنسي دوبوفيه اكبر بيت يحتوي على مجاميع فريدة من هذا الفن وهي تشتمل على لوحات وتخطيطات ملونة وبالاسود والابيض الى جانب مواد أخرى هي نتاج يمثل اؤلئك الذي عاشوا عند الجانب المتطرف للمجتمع وفي بعض الاحيان خارجه . المرضى العقليين ، السجناء ، الاشخاص الذين لم يتمكنوا من الانسجام مع المجتمع او أنهم رفضوا من قبله لأي سبب من الاسباب .

بدأ دوبوفيه بعد الحرب العالمية الثانية في جمع بعض الاعمال وقد قادته الابحاث للذهاب الى بعض المصحات العقلية في سويسرا لما وجده من تعاون وتشجيع وبشكل خاص من الدكتور والتركنثلر في مصح ولدو حيث كان يعالج فيه واحد من ابرز رسامي هذه المجموعة وهو ادولف ولفلي وقد خص موركنثلر في حينه هذا المريض العقلي بالكثير من العناية والتشجيع وعمل على الاحتفاظ باعماله واعمال مرضى آخرين وقد كتب فيما بعد رسالة علمية مهمة عن ولفلي بعنوان (مريض عقلي كفنان) .

استمر دوبوفيه في البحث عما يسميه بالفن الخام لكي يميزه عن الفنون الاخرى التي يجدها فنون مطبوخة ومعمولة من قبل اساتذة يعرفون بالدقة ماهي المواصفات التي تماشي نقاد الفن والمتعاملين به . وقد نجح دوبوفية فيتتويج بحثه بمعرض اقامه في باريس عام 1947 وقد اثار هذا المعرض الكثير من الاهتمام مما شجع دوبوفيه على تنظيم حملة عالمية لجلب الانتباه لهذا النوع من الفن وقد لاقى التاكيد والدعم من قبل السريالي اندريه بريتون والرسام تابيه . وتحت عنوان « افسح الطريق للبربرية » نظم معرض آخر عام 1967 في متحف الفن الزخرفي في باريس اشار دوبوفيه في مقدمته « الى ان الغرض من تدخلنا هو اظهار الفن الذي يهرب قدر استطاعته من التكييف الحضاري والذي ينبثق عن موقف فكري أصيل » . كما أشار في مكان آخر « انهم لم يجيئوا من المدارس وانما من حلقات الناس البسطاء متحررين من الحلول الوسطى التي تبدل ليكانيكية بنتاج مهني . وفي ربيع عام 1978 نظم معرض آخر في متحف الفن الحديث بباريس اطلق عليه (معرض الفن الشاذ) . وبعد ستة اشهر اقيم في كلاسكو (اسكوتلندا) معرض لثلاثة من فناني هذا الفن سمي المعرض بالعالم الاخر .

يجيء هذا المعرض الكبير بعد سنة من الاستعدادات وقد اشرف على جمع مواده وتنظيمه كل من فكتور موسكرف وروجر كاردنيال اللذان سبق لهما ان اصدرا كتابا عن فن اللامنتمي عام 1972 . في هذا المعرض الكبير نشاهد مواد ورسائل مختلفة للتعبير ، هناك لوحات متنوعة الحجم والمادة الى جانب منحوتات انسانية مذهلة وحيوانات خرافية من الاسلاك والخشب والى جانب ذلك هناك افكار خيالية نفذها ثلاثة فنانين نشاهد صور فوتغرافية لها . ومنها البرج الذي ابدعه سيمون روديا الايطالي الاصل في لوس انجلوس . كان هذا الفنان مصلح تلفونات واخذ بجمع المواد التي يحتاجها لبناء هذا البرج من سمنت واسلاك وموزائيك طيلة ثلاثة وثلاثين عاما وقد تمكن خلال تلك السنوات من انجاز برج خيالي رائع قال عنه ببساطة (كانت لدي فكرة ان اعمل شيئا كبيرا وقد عملته الان) . وعندما اكمل هذا البرج عام 1934 اهمله ببساطة تاركا عليه بصمات اصراره الشخصي ورؤيته الابداعية. اما النموذج الاخر فهو فرديناند شيفال رجل البريد القروي والذي قضى ثلاثين عاما في بناء قصره الخيالي من حجر الليمستون والسمنت في قريته قرب ليون الفرنسية وقد جعله مثل هيكل مثير وغني بالزخارف والرموز التي تذكرنا بالعناصر المستعملة في المعابد في الفن البوذي والهندسي كما حرص شيفال ان يحيط هذا الهيكل بغابة كثيفة شبيهة بغابات شرق اسيا ، وبعد ان انتهى منه تحول شيفال البالغ من العمر حينذاك ثمانية وسبعين عاما لبناء قبر جميل له في المقبرة المحلية حيث دفن فيه بعد عشرة سنوات . ولعل كلارنس شمت الذي ولد في نيويورك عام 1897 اكثر غرابة من البنائين الاخرين فقد بنى بيته المكون من سبعة طوابق على منحدر جبل كاتسكل وقد زينه بالمرايا والزجاج وكان هيكله بشكل عام من الخشب غير المصقول وقد زين سطح هذا البيت بحديقة خيالية مملوءة بالعديد من الاشجار الى جانب مواد غريبة كانت تحيط بالمعبد الذي انشاه وسط الحديقة الا انه احترق عام 1968 ولم يتخل الفنان عن اصراره في بناء بيت آخر لايقل غرابة عن الاول الا انه احترق ايضا عام 1971 اما الفنان فهو لازال يعيش في احدى المصحات العقلية في مدينة نيويورك .

اما في اعمال الرسم فقد احتوى المعرض على

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

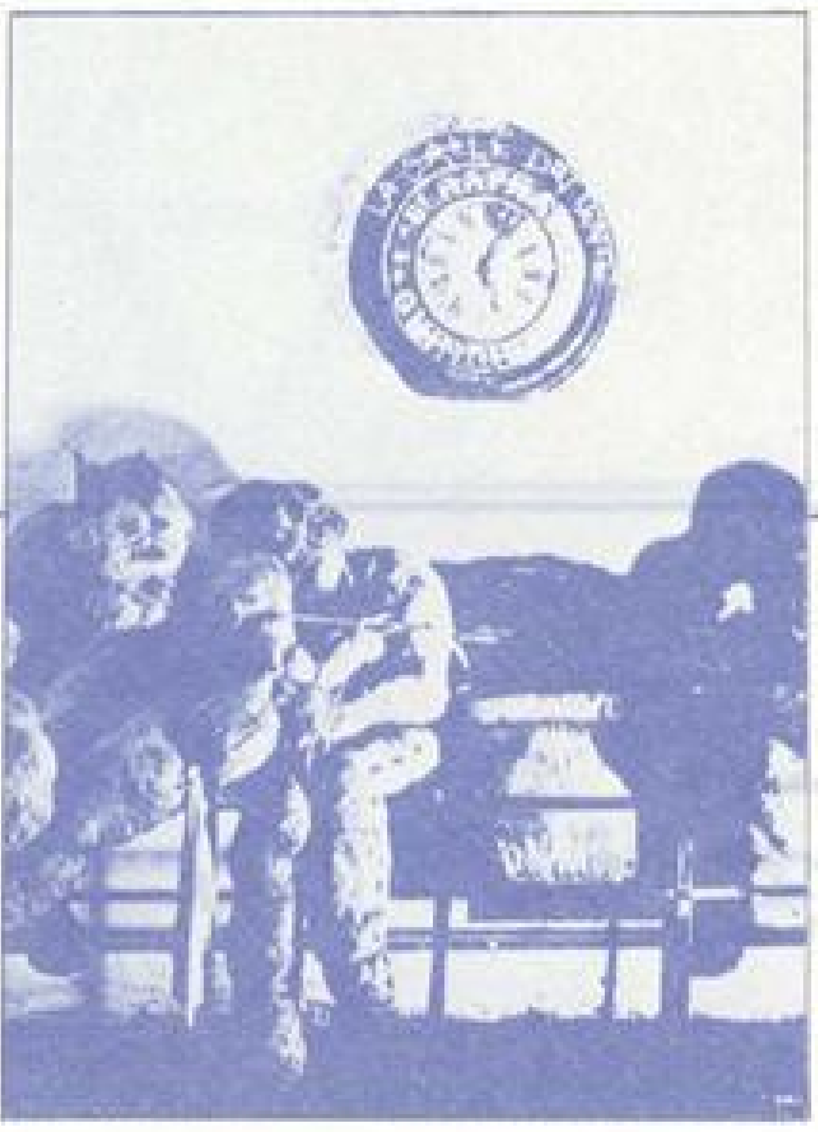

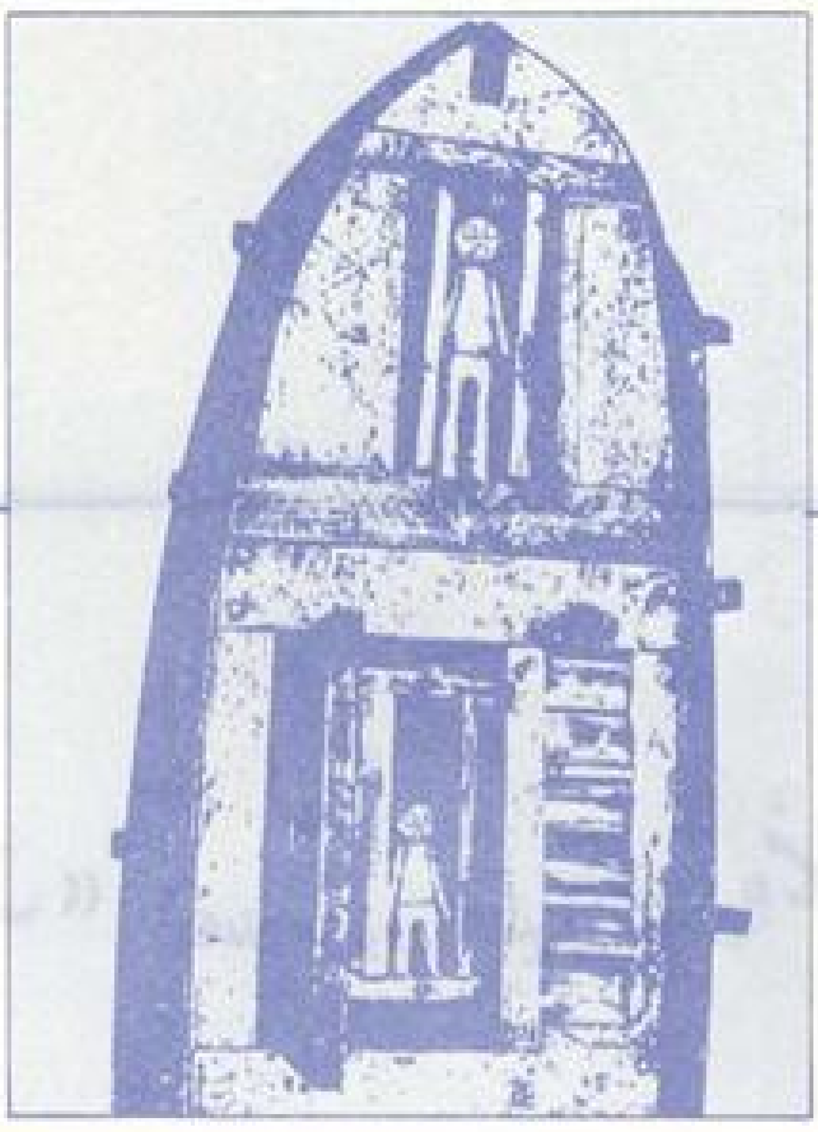

■ غرفة الانتظار فرنسيس مارشال
■ من اعمال باسكال فيربينا
■ جول تيجري

مناخات مختلفة منها اعمال فريدرك شرودر الذي كان في بداية حياته نزيل السجون كسارق ومهرب وفي عام 1949 عندما كان بعمر السابعة والخمسين بدأ الرسم بالالوان والقلم ومنذ ذلك اصبح واحدا من ابرز الفنانين . ان اعماله لاتشخص صبره ومخاوفه وهواجسه الداعرة ولكنها ايضا تعكس بسخرية شكلا من التعبير الكاركتيري للتابو الجنسي . وفي بعض اعماله يذكرنا بعذوبة اجواء الفنان البدائي روسو مع الفرق بان شرودر اكثر صراحة ازاء الجنس واكثر سخرية منه . سكوت ولسن (1890 - 1972) فنان آخر جلبت اعماله انتباه قاعات العرض التجارية واصحاب المجموعات الفنية الا انه قاوم ذلك وفضل ان يعرض اعماله في باص قديم وان يعيش وحيدا في غرفة صغيرة ، ولد هذا الفنان في كلاسكو ، وهرب من المدرسة وهو في التاسعة من العمر ثم التحق بالجيش في السادسة عشرة حيث خدم في الهند ، جنوب افريقيا ، ثم فرنسا وعمل بعد الاربعين في مخزن لبيع المواد المستعملة في تورنتو بكندا ، بدأ الرسم هناك وكانت تصوراته الاولى ذات اسلوبية متميزة وقد ظل طيلة حياته الفنية امينا لخيالاته الزخرفية واشكاله الخرافية المملوؤة بالازهار وفروع نباتات غريبة والتي كان ينفذها بالحبر الملون وباصباغ الشمع . عاد سكوت الى بريطانيا عام 1945 واستمر على الرسم بحيوية وتميز الى ان توفى في لندن عام 1972 . لم يكن البريطاني سكوت الفنان الوحيد الذي فضل حياة العزلة فقد فعل كذلك هنري دراجر (1892) البرازيلي الاصل والذي يعمل كمنظف مصعد في مستشفى شيكاغو ، عاش هذا الرسام لاربعين عاما في غرفة منزوية صغيرة في المستشفى وعند وفاته عام 1973 وجدت غرفته مملؤة بالمجلات القديمة والروزنامات واوراق مختلفة الى جانب قصاصات من مجلات مختلفة ، ومع هذه الاشياء كانت هناك ثلاثة عشره مجلدا يظم كل واحد منها على الف صفحة سجل فيها الفنان رؤاه المفزعة عن عالم خيالي وزينها بالرسوم التي كان ياخذها يتصرف عن رسوم المجلات ان رسومه رغم غنى الوانها مملوؤة بالمشاهد المفزعة ، صبايا تذبح من قبل اشخاص يريدون ملابس عسكرية من القرون الوسطى ، اطفال يختنقون على مشهد من اطفال اخرين وقوافل من الفرسان الشاهرة السيوف تستبيح حقلا مملوء باشخاص معلقين على اخشاب منتصب في اماكن مختلفة . انها رؤى الحروب والدمار ولربما كان ذلك نتيجة لمشاهدته المدينة التي سكنها بعد رحيله عن البرازيل والتي دمرت بفعل اعصار التورنادو .

اما باسكال فيربينا الفرنسي المولود في مرسيليا عام 1941 فقد جاءنا بافكار البحر ووحشته فهو كبحار سابق فضل ان يستخدم مايعثر عليه من مواد على ساحل البحر في صياغة افكاره النحتية التي تشير الى وحدة قاتلة، اشخاص ينزوون عند مداخل مفتوحة الابواب او يقبعون خلف نوافذ غير مغلقة . ولم تكن شخوصه ذات تقنية تتوازى مع مقدرته في التكوين العام وكانه يريد ان يوحي بتصاغر الانسان ازاء هذا العالم السري المملوء بالمخاوف . ان شكل القارب يسيطر على اكثر تكويناته فقد استخدمه بنجاح كما حاول ان يوظفه حتى في صياغاته التجريدية مثل منحوتته المسماة « صوت الامواج » او «الثقب المخفي والمطرقة » ان منحوتات فيربينا تبدو عقلانية جدا ازاء هواجس اليان بوربونياس من اواسط فرنسا والتي تدرب لكي يكون معماريا ثم تحول الى نحات الحيوانات خرافية مفرطة مستخدما في ذلك مواد مختلفة كالاسلاك ،الخشب والورق المصمغ . ان غرابة اعماله تاتي من الضخامة والمبالغة في خصائص الشكل وبصورة خاصة في الوجوه الحيوانية او الانسانية ، كما انه يزاوج بين هذه الاشكال وبين افكار اخرى كان يحول احدى منحوتاته الى عربة يمكن ان يستخدمها ، ان غرابة اشكاله وعدم انتظامها كحجوم يقربها من الاشكال المسرحية التي تعبر عن الحجم الانساني . مقابل هذا النحات يكون اميل رايتر الفرنسي الذي اقتصر في منحوتاته الخيالية على قطع من الخشب غير المنتظم والذي يربطه بوسائل مختلفة كيما يحقق رؤيته لبرج ايفل ، الكنيسه ، السيمك القديم . ولم يقتصر في عمله على ذلك وانما نشاهده في عمل اخر سماه بالقارب والتمساح وكانه يريد ان يمتحن مادته في بلورة افكاره التجريدية . لجول يجري (1949) عالم آخر يتميز بالدقة والغنى اللوني وان كان يميل الى ان يضع افكاره من خلال هياكل انسانية ملونه ينتهي منتصفها بعجلات معمولة من الخشب والاسلاك . كما انه يزين في بعض الاحيان هذه الاشكال بالاجنحة او بمواد غريبة لاعلاقة بها بالانسان . في منحوتة الشراع المبحر يضع للمركب الشراعي ثلاث عجلات وقد جلس فيه رجل ذا قناع موحيا بالحركة وبمناخ فيه بعض الغرابة . وكان هذا المركب مبحر الى المجهول .

اما كاي بيوجه المغربي الاصل فهو كمصلح للسيارات القديمة لم يذهب بعيدا عن مهنته حيث عرض مجموعة من الاعمال تمثل تصميماته لسيارة ، دراجة بخارية وماكنة قطار. ان حجوم اعماله والتي تقل عن المتر تفصح عن دقة مذهلة في بناء الشكل وتفاصيله داخل كل عمل ولم يقتصر في اعماله على تجميع هذه الاشكال وانما لونها بالوان حارة جميلة . اذا تجاوزنا ماريو جيجورو البرتغالي ومنحوتاته التي تعكس خيالات قريبة من فنون المايا المكسيكية او كارل بريندل الالماني الذي يقترب في اشكاله من المنحوتات الافريقية . يستوقفنا الفنان الفرنسي فرانس مارشال ، فهو بمناخاته النفسية التي تعبر عن القمع والانزواء وبشخوصه المعمولة من القماش والمربوطه بالحبال يجعلنا عند فنان لايمكن تناسية ان منحوته المسماة بالاعتراف لتذكرنا بشهد محاكمة مجهولة وكان كلا الشخصين وهم مكبلين بالحبال ينتظران ساعة القتل . اما منحوتة العشاء فهناك ثلاثة اشخاص مربوطين على كراسي حقيقية ووطعت بينهم منضدة فيه اطباق للاكل . ان مناخ اعماله يتسم بعذوبة سريالية وبصمت محزن وقد ساعد على ان يعطي لاعماله مناخات نفسية قاسية هي طبيعة اشكاله والمادة التي استعملها واقتصاره على الوان قليلة في تلوين بعض اجزاء تماثيله .ان غرابة هذه الاعمال تقابلها غرابة حياة فنانين آخرين ، جونن هاوسر من جيكوسلوفاكيا، لاجئ الحرب والذي رفض ان يتعلم القراءة والكتابة ودخل مستشفى الامراض العقلية في السابعة عشره من عمره يفضل في اعماله ان يرسم المراة وهو في الغالب منقولة عن صور موجودة في المجلات . تعكس اعماله هواجس جنسية عنيفة ينفذها بالقلم الرصاص والاقلام الملونة وباحجام صغيرة . اما اوكستين ليسيج الفحام الذي سمع صوتا اثناء عمله يدعوه للرسم فقد فضل التخلي عن عمله والانصراف الى الرسم وهو يعتبر ان اعماله هي من مسؤلية الوحي الذي جاؤه . ولم يكن ادولف ولفلي اشهر رسامي المصحات العقلية يختلف عن الاخرين الذين يشاركونه الابداع ، فقد تعرض في حياته الى اخفقات عديدة في الحب ودخل السجن لمرات وعندما ادخل المستشفى كان من اكثر المرضى العقليين مشاكسة حتى اضطرت ادارة المستشفى لوضعه في غرفة انفرادية ، وهناك جمع لوحاته ورسومه . كتب هذا الفنان سيرته الذاتيه معتبرا نفسه سانت ادولف الثاني وفيها نجد المميزات التي تطبع اعمال منفصمي الشخصية من حيث اهتمامها بتكرار الزخرفة ونزعتها في تشويه الاشكال الانسانية . ان لوحاته تاخذ بكليتها ثم سرعان ما يدرك المشاهد طرافة التصورات ودقة التفاصيل التي تحتويها هذه اللوحات .

◆ ضيا،العزاوي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ فارس بولوني

■ شارب الكوكتيل

ماكس ارنست

■ « قد يعرف الفنان مالايريده . لكن ويل له ان اراد معرفة ما يريده . كل فنان يضيع حين يجد نفسه . ان الخدمة الوحيدة التي قدمتها للفن ، هي انني لم أجد نفسي » .

ماكس ارنست

تعريف موجز بحياته :

« ماكس ارنست ، هو رسام ونحات الماني ـ فرنسي ، ولد في 1891/4/2 بالقرب من مدينة كولون في المانيا ، وعاش في باريس والولايات المتحدة الامريكية . تاثر في بداية حياته الفنية بالمدرسة التكعيبية والوحشية ، وكذلك بجماعة « الفارس الازرق » . ومن خلال صداقته للرسام اوغست ماكه تعرف على ابولينير وديلوني . في عام 1916 رسم لوحة « بيت على بحيرة الغابة » التي تعتبر أول صورة سريالية . كان كرهه الحرب العالمية الاولى من الاسباب الرئيسية التي دفعته الى « .. قبر العقلانية القديمة .. والتوجه الى التعبير الحر في عالم حر » (باول ايلوال) .

اسس في عام 1914 مع هانس آرب جماعة « الدادائية » في كولون . تأثر في هذه الفترة بلوحات دي كريكو ومنحوتات جياكومتي . تعرف عام 1922 في باريس باول ايلوار واندريه بريتون، واصبح بعد عامين من هذا التاريخ من مؤسسي السريالية ، التي انفصل عنها عام 1936 . بعد استيلاء النازية على الحكم في المانيا ، كانت لماكس ارنست اتصالات بالجماعات المقاومة للنازية ، فتعرض بسبب هذا الموقف السياسي الى الاعتقال والملاحقة من قبل البوليس الالماني ، واستطاع في 1941 الهرب الى الولايات المتحدة الامريكية . عاد بعد الحرب العالمية الثانية الى باريس وحصل عام 1958 على الجنسية الفرنسية . توفى1976 قبل يوم من بلوغه الخامسة والثمانين من العمر» .

وقف ماكس ارنست ضد جميع المحاولات التي ابتغت اعتباره طليعيا او فنانا بالمعنى التقليدي . فنحن نجد في اعماله المبكرة اشارات عديدة للابتعاد عن تأثير الاتجاهات الفنية التي سيطرت آنذاك على الحياة الفنية الالمانية عامة ، وعلى فن ماكس ارنست بصورة خاصة ، سواءا اكانت تلك الاتجاهات الفنية تكعيبية او وحشية او تاثيرية . ففي ذلك الرفض المبكر يكمن اساس الاسلوب الفريد والغريب في اعماله ، التي لايمكن ايجاد تعريف محدد لها الا من خلالها هي بالذات . لهذا ليس من الصحيح ابدا حصر عمله في اطار علامة او مدرسة فنية معينة ، فانطلاق فنه من الدادائيه والسريالية ليس سوى تقارب في الشكل الخارجي الزائل . ومن النادر ان يجد المرء فن [illegible] بشحنة قلقة وفضول للتقدم ، ولا يستقر في مكان واحد او في نطاق مدرسة فنية معينة ، بل يقوم باكتشافات مستمرة بوعي يقظ ، ويتحرك بحرية كبيرة في مجمل عوالم الفنانين الطليعيين. واستطاع ارنست عبر انتقالاته الفنية المفاجئة ان يحقق ذاته الفنية ، ولايقود البحث عن هويته الفنية الا الى هذه الحقيقة .

من الطبيعي ان تلك الانتقالات الفنيةالمفاجئة تركت ظلالا جانبية على عمله ، وهي تتجلى بوضوح في الاعمال المقدمة في هذا المعرض الاخير الشامل المقام الآن في ميونخ : الاعمال الزيتية والنحتية في مبنى الفن ، ولوحات الكرافيك والكولاج في متحف لنباخ ، وسوف ينتقل المعرض بعد ذلك الى برلين الغربية .

اشار ماكس ارنست في كتاباته واحاديثه عن الفن باستمرار الى التناقض المختفي وراء اسس هوية كل مخلوق أو شيء . ففي كل ظاهرة توجد معان عديدة وعالم مفتوح : عالم لايحوي اي شيء متكامل ونهائي ، ومن هذا العالم اللانهائي وغير المستقر ، تنبع شاعرية مجمل اعماله الفنية . اذن ، فليس من الغريب ان تتناول الكثير من اعماله المواضيع المحببة الى نفسه :الهزات الارضية، والجلد المتكمش في تجاعيد تلف بالعالم والمخلوقات والاشياء ، وان تصدر كتاباته الفنية وسيرةحياته تحت عنوان « نسيج الحقيقة ونسيج الاكاذيب » .

لم تكن بداية حياة ماكس ارنست تتسم بعلامات بارزة يمكن ان تمهد لمستقبل مكرس للفن . فنحن نعرف من الكتب التي تناولت سيرة حياته ، وكذلك من المذكرات التي كتبها بنفسه ، انه درس قبل الحرب العالمية الاولى الفلسفة وتاريخ الفن وعلم النفس في جامعة بون . وكما ذكر هو ، انه اهتم بصورة خاصة بالصور التي رسمها نزلاء مستشفيات الامراض العقلية ، واكشف في تلك الاعمال « ذخيرة غنية لاتنضب من الافكار المجسمة» ،استخدمهامباشرة في لوحاته الزيتية من فترة الدادائية بعد الحرب العالمية الاولى ، وهاجم بها بعنف ووعي نقدي عقلانية المجتمع البرجوازي .

وكبعض الفنانين من جيله ، مثل هانس آرب ، مارسيل دو شامب ، جورج جروس ،راؤل هاوسمان ، اصبحت الدادائية ، الثورة الفكرية للمثقفين الاوربيين في مطلع هذا القرن ، نقطة انطلاقة حاسمة بالنسبة لماكس ارنست ايضا . فبدون الالمام بذلك الرفض الفكري الاساسي الذي قام به الفنان آنذاك ، لايمكن ابدا تصور الانعطاف الفني الذي قام به لتخطي الواقع المالوف ،والتوجه الى التعبير عن عوالم بصرية وهمية ، جعلت منه الشخصية البارزة للمدرسة السريالية في الفن . ولايوجد أحد بين الفنانين الذين كانت لهم صلة وثيقة بالسريالية وأرسوا قواعدها ، من يستطيع ان يقدم لنا حصيلة من الاعمال السريالية المستقلة والصعبة الفهم ، كما فعل ماكس ارنست. لقد توصل وليم روبين ،مدير متحف الفن الحديث في نيويورك ، عندما كتب تاريخ الدادائية والسريالية ، الى نتيجة فحواها ان ماكس ارنست هو اعظم فنان في هاتين المدرستين الفنيتين .ففي كتابه يقول : « يبدو لنا الآن ، ان ماكس ارنست كان مختارا للقيام بدور قيادي في الجو الشعري والثقافي الرافض للجمالية ، والذي ساد في الفن بعد عام 1918 ... وهو يعتبر في النتائج الرائعة لأسلوبه وتقنيته بالنسبة للدادائية والسريالية، مثل بيكاسو بالنسبة لمجمل الفن في القرن العشرين » .

حين عاد ماكس ارنبست عام 1918 من الحرب العالمية الاولى ، وضع نفسه « في الجانب الآخر من الرسم » . فاعماله الاولى التي انجزها في الوضع الجديد من الحرية ، تبين الاستقلالية التامة من الاساليب والاعمال الفنية المعروفة . انها اعمال تخلو من الاستمرارية المقارنة ، وتمتاز برفض كل النظم الفنية التي كانت متبعة آنذاك . ولكن رغم هذا ، فحاجز الرفض الذي اقامه ماكس ارنست طيلة خمسين عاما من العمل الفني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

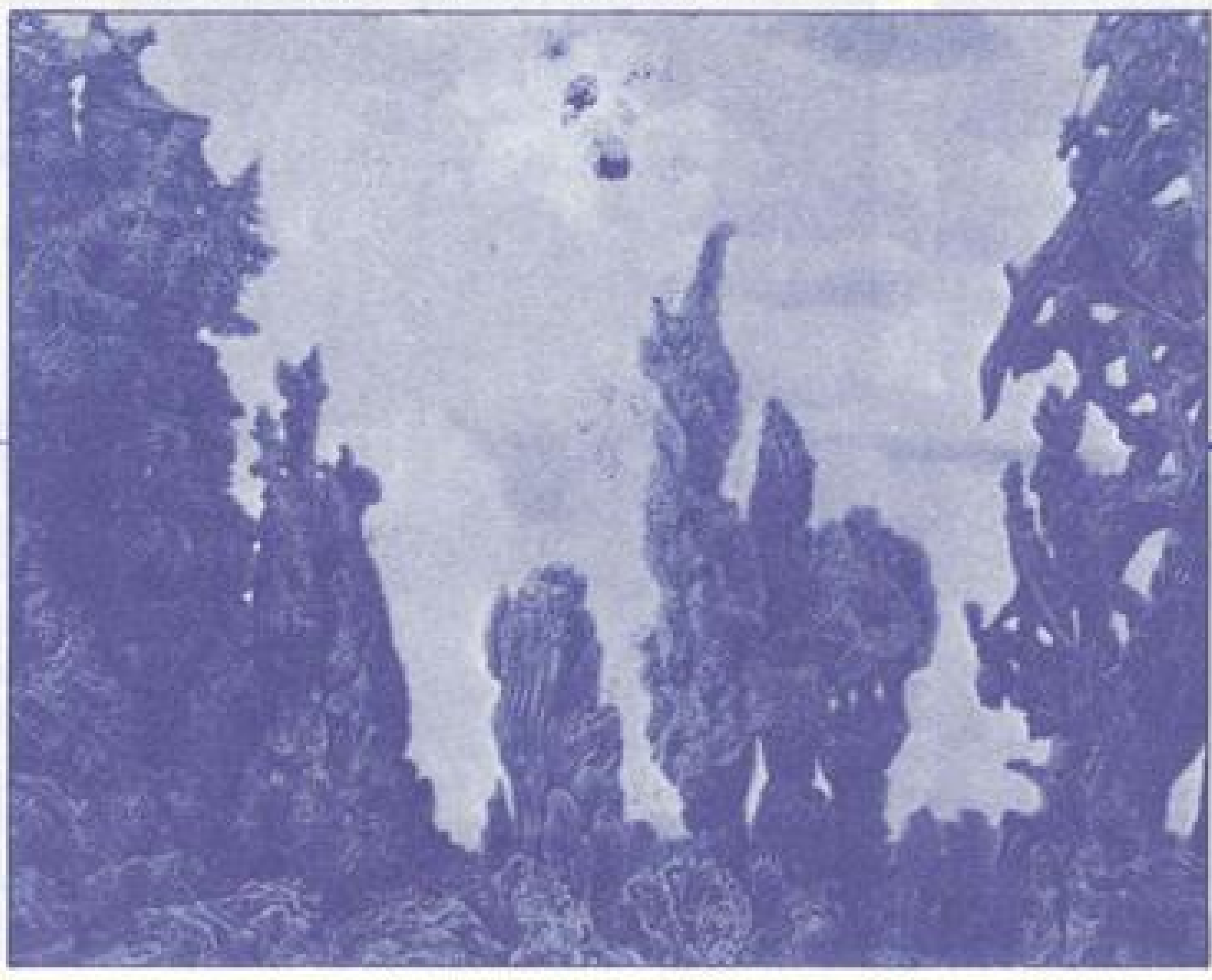

■ المغارة الفاتنة

■ عصافير

الخلاق ، اجبر المتاحف والنقاد على التراجع عن مهاجمته ، وان كان ذلك الحاجز ضد المعايير الفنية والفكرية التقليدية . لقد قال ماكس ارنست مرة عن نفسه: «انه يمتاز بموهبة تجعل الاختصاصيين يرضون عنه » .

وقد يكون ماكس ارنست فنانا متشككا ، ومرتابا بالمدارس الفنية ، لكنه لم يكن ابدا مستهزئا بها. فكل الاحكام التي اطلقتها البرجوازية في مجال الفكر والاحساس والفن التشكيلي ، كانت تثير عنده الشك والارتياب . ويمكن ارجاع الخلفية الفكرية لهذا الموقف الى دراسته للفلسفة

وعلم النفس .. تلك الدراسة التي اثرت في تفكيره اكثر من أي فنان آخر في هذا القرن . فمنذ الفتره السابقة للحرب العالمية الاولى ، آمن بعدم امكانية اكتشاف الحدود بين الفن واللافن ، بين التصرفات النفسية الطبيعية المكونة لحياة المجتمع والظواهر النفسية المرضية . لهذا لم تكن مشاركته في الدادائية تهدف الى اثارة موقف جمالي مستحيل ، وخلق تيار في الفن غرضه الاحتجاج والمعارضة فقط . انه حاول منذ البداية طرح اسئلة جمالية في حدود الممكن ، لم يتطرق اليها احد من الفنانين قبله . فنحن نجد اليوم في اعماله التي رسمها في تلك الفترة الاولى للدادائية في كولون صفات فنية ايجابية ، تشير الى جانب اعتراضها على الفن التقليدي لتلك المرحلة ، الى ارادة جمالية جديدة ، تحتم علينا الاعتراف بوعيه لقضية الشكل في الفن . هذا وعلينا ان لا ننسى ايضا ، ان ماكس ارنست اختلف آنذاك ، اي بعد الحرب العالمية الاولى ، عن بقية فناني الدادائية ، ولم يكن له موقف فوضوي مملوء بالشك فقط ، بل ان شكله بالفن التقليدي كان مشوبا بالافتتان به في نفس الوقت . وكان هذا الافتتان وليد تعرفه على اعمال دي كيريكو ، التي بذل طيلة حياته جهودا مستمرة لتجاوزها وتكملتها ، وكذلك حبه للرسم الالماني الرومانتيكي المتمثل بلوحات كاسبر دافيد فريدريش ، والفلسفة المثالية الالمانية ، وشعر هولدرين ونوفاليس وهاينريش هاينه .

لو نظرنا الى ماكس ارنست من هذا الموقف الفني والفكري ، هذا الفنان احد الشخصيات الرئسية في هذا القرن ، ونرى فيه اقوى قطب مواجهة لبيكاسو . فهو مثل بيكاسو ، لم يسلب التطور العام للفن ، وتصورالطريق المنطقي للطليعية نظرتها الموجهة نحو غاية ، بل انه جعل القطيعة معها أساسا لشكله الفني الذي بنى عليه جميع اعماله . ان هذين الفنانين لم يكونا نموذجين تقليديين للفنان بل كانا نموذجين حياتيين ، لم يتوقفا في مسيرتهما الفنية امام مشكلات التطور ، بل حققا شخصيتهما الفنية البارزة بقفزات وتحولات سريعة تتسم بنوع من الفجائية . ولكن رغم هذه الصفة المشتركة لاتوجد علاقة بين اساس عمل هذين الفنانين . فبيكاسو بقي قبل كل شيء واقعيا ، ولايوجد أي غموض في مواضعه ، لانها مواضع تمس مباشرة الحقيقة والواقع . اما بالنسبة لماكس ارنست فيختلف الامر : فهو يشك حتى بالمواضيع نفسها . فلوحاته العديدة عن الطبيعة والكون ذات محتويات اضفاها الفنان على تلك المواضيع ، تسلبها كل العناصر الواقعية . وهو لم يغير ابدا أي موضوع مسلم به عند الجمهور بمساعدة الاسلوب الذاتي او التشويه او الاتجاه الى التعبيرية . فاعماله هي نقاط تقارب بين الموضوع الخيالي والنتاج التقني ، وتعكس درجة اهمية المسافة التي نلمسها بين الواقع [illegible] المسافة المتكررة بين التقنية الموروثة والتقنية الحديثة في الفن . وفي نقاط التقارب هذه يكمن التجديد الثوري الذي قام به ماكس ارنست في وسائل التشكيل البصري ، التي قدمت محتويات جديدة على صعيد التقنية الفنية . وهذا يعني : ضرورة رفض الاسلوب الاكاديمي والتقليدي ، وتقديم وسائل تعبير جديدة للتعبير عن محتوى جديد . ولتحقيق هذا الهدف ، استخدم ماكس ارنست طريقتين جديدتين للعمل ليستبدل بهما العمل المباشر ،: وهاتين الطريقتين هما : اسلوب الكولاج Collage واسلوب الفروتاج Frottage ففي هذين الاسلوبين في العمل ، استعمل لتشكيل الصورة موادا لم تكن في السابق ضمن عناصر الفن التشكيلي . وكانت هذه المواد على الاغلب قصاصات صور ماخوذة من مطبوعات القرن التاسع عشر . لقد استخدم كل من بيكاسو وجورج براك ايضا اسلوب الكولاج في المرحلة التكعبية ، لكن اختلاف ماكس ارنست عنهما ، هو توصيل هذا الاسلوب الى معالجة مطلقة تتسم بتشكيل جديد لكل اللوحة ، وشاعرية شاملة تربط بين جميع الاعمال المنجزة بهذا الاسلوب .

كيف يمكن فهم صور ماكس ارنست ؟

لقد بذلت محاولات كثيرة لاعطاء مختلف التفسيرات الغريبة لصوره . ان اغلب تلك التفسيرات والشروح استندت على التحليل النفسي وفق نظرية فرويد ، وهي تبدو أكثر سذاجة من غيرها ، وتبين اقل الفهم لهذه الاعمال ، لأن ماكس ارنست هو أول فنان استخدم بوعي المعرفة فيما يخص اكتشافات فرويد . ففي اثناء فترة دراسته للفسفة اهتم بعمل فرويد الفكري . فقد قال للناقد والمؤرخ الفني فيرنر شبيس ،بأنه قرأ في عام 1973 كتب فرويد « تفسير الاحلام » و « النكتة وعلاقتها باللاوعي » . ان معرفته لنظرية فرويد اتاحت له تحليل ذاته الخاصة ، والسيطرة على رغباته واخضاع افكاره المرتبطة بالذاكرة والخيال الى مراقبة حاسمة . فمن وجهة النظر هذه ، من الخطأ اجراء تحقيق لعالم صوره وفق التحليل النفسي لفرويد ، لان الاستخدام الواعي لهذا الموضوع في اللوحات التي أنجزها لا يحتاج الى اي تفسير وفق العقل الباطني . فلوحاته هي مثل كتاب شعري مفتوح للقراءة ، ولكل مرء الحق في اعطاء هذه الصور ترجمته الشخصية لها ، وان تبقى هذه الاعمال مفتوحة للفهم . لهذا السبب اكد ماكس ارنست باستمرار ، ان المشاهد لاعماله له كل الحرية لفهم وترجمة عالمه الفني كما يشاء ، ويجب ان لا يفقدها خاصيتها الشعرية باخضاعها لشروح عقلاتية .

في المقال الذي نشره اندريه بريتون عن ماكس ارنست تحت عنوان « السريالية والرسم » لم يتطرق ابدا في هذا المقال الى قضية تحطيم الفن ، خلافا لكل البيانات التي اصدرتها الدادائية ، بل انه اراد فصل أعمال ماكس أرنست عن التكعيبية والرمزية ، وبحث عن أيجاد الشاعرية في عماله ، ايمانا منه بان هذه الاعمال لها القدرة على اشعال « شرارة شعرية » ، تتخطى كل ما انجزتها السريالية من اعمال .

ان المحاولات الجريئة التي قام بها ماكس ارنست ، بعد رفضه للمدارس الفنية الطليعية ، جعلته يكتشف اشكالا جديدة ، ويقدم حلولا مدهشة للعمل الفني ، ويجد وسائل تعبير تلبي متطلبات المثقفين ورغبتهم للتجديد ، ولا تولد اية خيبة أمل في افاق انتظارات المشاهد . من الطبيعي أن معاصري ماكس ارنست لم يفهموا قبل نصف قرن فنه . فالاحكام المسبقة والجاهزة التي صدرت على نتاجه الفني ، خلقت سدا امام ذلك الفهم . يضاف الى ذلك ان البرجوازية لم تسامح هذا الفنان الذي قدم باعماله وسيلة لامكانية حرية الخيال ، وقدم للفرد الاستقلالية في رفض كذب ورياء المجتمع الذي عاش فيه ، وفرق المحرمات التقليدية للبرجوازية .

◆ ميونيخ : حسن ذو الفقار

مهرجان دمشق المسرحي والبحث عن مسرح عربي جاد

■ المهرجان.. احتفال، ترى هل كان المسرحيون يحتفلون في دمشق لمناسبة اقامة المهرجان الثامن للفنون المسرحية ؟

كانت دمشق تحتضن عددا من المسرحيين العرب، بعضهم قدم عروضا مسرحية، والبعض الاخر جاء ليتابع تلك العروض، وليناقش.. او يظل متكئا يتابع وقائع مايجري. الواقع كانت تحدد تساؤلا معلنا احيانا ومكتوما في كثير من الاحيان..

والتساؤل العميق يتعلق بالمسرحيات العربية التي تم عرضها، ترى هل تمثل اقصى عطاءات القطر العربي في المسرح عبر هذه المشاركة، هل هي النموذج الافضل، وهل حقق العرض اهدافه؟.

معظم الاقطار العربية المشاركة في المهرجان كانت تقدم مسرحا رسميا، بمعنى انه يمثل الاتجاه السياسي للقطر العربي المشارك، في حين كانت فرق مسرحية يمكن ان تقدم هذا الاتجاه وتحرص على تقديمه ولكن بشكل فني عال.. نريده ونهدف الى توصيله في مهرجان مسرحي له خصوصيته وقيمته الكبيرة.

والمسرح.. هو الحرية، وبدونها لا يمكن ان يتنفس ويقدم وجوده الصحي، ومن هنا نجد بعض العروض قد سقطت في الشعارية لسببين: فقدانها حرية التعبير، وخبرتها في التعامل مع التعبير الفني.

والمسرح عندما يمتلك الحرية يتحول الى عطاء حقيقي بعيد عن الابتذال والمهنية الصرفة، وهو ازاء ذلك ليس اعلاما قائما على تكتيك مؤقت، بل هو يؤسس ستراتيجية راسخة وعلى المدى البعيد.

ومن هنا لم يكن الاعلام محور المهرجان المسرحي..

فاليمن الديمقراطية وعبر تجربتها المسرحية الوليدة قدمت عرضين احدهما « الفردية القاتلة » تاليف واخراج علي الرخم، و « نحن والفاشية » اعداد زكي عمر.. كانت الاولى تكشف عن حلولها مسبقا ومنذ قراءة عنوانها، وكانت الثانية تهتف بالحياة وسقوط الفاشية.. ونحن مع المعاني المطروحة، لكنها تستهلك منا الوقت والجهد في المتابعة باعتبارها تكرر مانعرف دون ان تضيف قيمة فنية لهذه المعرفة.

والعراق قدم « الشهداء ينهضون » ضمن خط اعلامي موجه لادانة نظام الخيانة الساداتية، واكدنا في موضوع سابق نشر في (آفاق عربية - العدد 9 أيار 79) على التوفيق في هذا الاتجاه السياسي الملتزم الذي نقف جميعا الى جانبه، الا اننا اكتشفنا بان المهرجان المسرحي في دمشق لم يكن مهرجانا اعلاميا، بقدر ما كان مهرجانا يدعو الى مسرح عربي يتعامل مع الحرية بشكل جاد.

■ مسرحية قصة حديقة الحيوان

■ مسرحية الملك هو الملك

من هنا كانت « الشهداء ينهضون » قاصرة عن توصيل صوتها وهي كما ذكر د. عادل قره‌شولي في مناقشة المسرحية كونها مثل تلك الحكاية التي تقص علينا حياة ملك اعور واحدب واعرج رغب في ان تكون له صورة، وفشل كل الرسامين في تلبية رضاه.. الا ان احد الفنانين وفق في ذلك فجعل الملك يحمل بندقية وينحني لتزول حدبة ظهره ويوجه نظرة الى زاوية لتختفي عينه المصابة بالسكون، ويجلس باركا لئلا ترى قدمه العرجاء، فنجح الفنان بموهبته ووعيه.. الا ان عرض « الشهداء ينهضون » اختل توازنه بسبب غياب الموهبة الحقيقية في اغناء نص محبط اساسا، مع ان مضمونه سليم ونقره تماما.. ولكننا وجدناها تتحول الى مقالة تلقى على خشبة المسرح !!

اما « كلكامش » فضاعت بين الاسطورة الخالدة والدراما.. فلم تأخذ اتجاها في حركة مسرحية، كون الكادر احتفظ بآليته.. امام جمع من خبراء الفن المسرحي. وعلى العكس من ذلك برزت في المهرجان فرق مسرحية فنية، تقف في طليعتها مسرحية « من حكايات سنة 1936 » لفرقة مسرح الحكواتي اللبنانية، وهي فرقة شكلها مجموعة من الشبان الذين يعشقون المسرح، وهم يتدربون في بيوتهم او في صف دراسي او حديقة عامة.. ونصهم المسرحي، نص كتبوه بانفسهم، وبشكل جماعي، ولذلك فهم يحملون ادوات معرفة حقيقية بما يقدمونه للجمهور، ويدركون هذه العلاقة الصحيحة مع الجمهور، فهي ارضيتهم التي يقفون من اجلها ومن خلالها. كذلك افلح المسرح التجريبي السوري في مسرحية « رحلة حنظلة من الغفلة الى اليقظة » التي اعدها سعد الله ونوس عن مسرحية بيتر فايس « كيف يتم تخليص موكينبوت من آلامه » واخرجها فواز الساجر، والى جانبها مسرحية « قصة حديقة الحيوان » لادوارد البي، اخراج وليد قوتلي، تقديم المختبر المسرحي في نقابة الفنانين السورية.

و « حنظلة » اسقاط لعذابات متلاحقة قدمت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ مسرحية حفلة على الخازوق

بكوميديا مشوقة ، و « الحديقة .. » كشف للعلاقات الانسانية وصراعها ، وادانة المجتمع الراسمالي الاستهلاكي .. وتوفر لكلا العرضين فنان مبدع هو : زيناتي قدسيه ، فقد اضفى قيمة خلاقة لعملين مهمين في مهرجان دمشق المسرحي.

والاردن في عرضها الوحيد « حفلة على الخازوق » قالت مقولتها وانسحبت في الظل ، ادانت من زاوية الهدم وحدها ، ورغم جراتها ، لم تعط سماء مفتوحة لحياة تجيء . وتونس شارك بعرضين مسرحيين هما « مقاومة لم يكتبها البديع » و « جزيرة النحاس » وكلاهما تمتعا بجزء من العافية لخبرة الكادر ، وللمحاولة الجادة في التاليف الجماعي .. ولكن الذي افقر وجودهما عامل اساس هو افتقادهما لوحدة الرؤية الفكرية .. فقد كان كل مشهد يحاول ان يلتصق بالثاني دون ان يتداخل في عمق جذوره .

وعندما توفر فنان معروف كابراهيم جلال في مسرح الامارات العربية وامام نص محفوظ عبد الرحمن « الفخ والسندباد » الذي بدأ معلومة ثقيلة في معالجة الحكم والعدل والحب .. وضمن حقائق كبيرة ومعالجة صغيرة وارشادية ، هبط كل شيء .. اصبح كل ماأعد له ابراهيم جلال من خبرة فنية ووعي هادف اطارا فحسب ..

وبقي « الملك هو الملك » عرضا للمسرح القومي السوري يحمل ثقله عبر نص سعد الله ونوس واخراج اسعد فضه ، ومثل هذا الثقل كان يراد له معايشة اكبر في قيمته التحريضية ازاء ملكية فردية تقود نفسها الى التهلكة بلعبة الترويح عن نفس اصابها السام ، فنزل الملك للشعب واختار ملكا بدلا عنه ليضحك ، فكان ان اصبح الضحك بكاء وفقد الملك عرشه ، فالكل يستجيب لمن حمل العرش وجلس على كرسي السلطة ..

وتبين من هذا العرض .. ان تناول نصه من قبل فنان عراقي هو فاضل خليل ، لايقل في اهمية عن العرض السوري ، فكانت المعالجة لكلا العرضين تحمل طابعها الخاص .. كما كان لعمال سوريا مسرحهم من خلال مسرحية « القرى تصعد الى القمر » التي اعدها واخرجها فرحان بلبل عن مسرحية بريشت « دائرة الطباشير القوقازية » وهي اتجاه سليم في الدعوة الى مسرح يدعو للعمل والانتاج والتعاونيات الزراعية بعيدا عن تلك الحالات السهلة في التناول المظهري ..

وهناك عروض مسرحية متلاحقة للمسرح

■ مسرحية كلكامش

■ مسرحية مقامة لم يكتبها البديع

الفلسطيني والمسرح العسكري ..

وكنا نريد ان تكون الى جانب العروض محاور فكرية ودراسات معينة بالثقافة المسرحية ، بحيث يتحول المهرجان الى حلقة دراسية للمسرح العربي .

واذا كان لنا ان نتناول سير المناقشات التي جاءت بشكل نقدي تطبيقي للعروض المسرحية التي قدمت ، فاننا لابد ان نؤكد اهمية هذه المناقشات كونها قائمة في معظمها على خبرات مسرحية جادة ، ومتسمة بطابع الحرية والصراحة المطلقة رغم بروز مظاهر المجاملة التي تخلو من العمق والدقة العلمية ..

كذلك فان غياب الكادر التمثيلي لبعض الفرق المسرحية وبخاصة « اعضاء الفرقة القومية » العراقية عن المشاركة في متابعة العروض والمناقشات والادلاء بارائهم مع انهم يشكلون اكبر فرقة في المهرجان .. جعل الامر يشكل فتورا متلاحقا يوما بعد آخر ..

ان المهرجان الثامن للفنون المسرحية في دمشق كان احتفالا استمر من 1-1979/5/15 تعرفنا فيه على اوجه متعددة للنشاط المسرحي العربي ، عروضا ومناقشة وتعارف ، ومثل هذا المهرجان لابد ان يشكل علامة مهمة في ايجاد معادل نظل تلح عليه ونسعى من اجله في سبيل خلق مسرح عربي جاد ..

■ **حسب الله يحيى** ■

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سينما

مالرو والسينما

■ منذ أمد تقوم المجلة الثقافية الاسبوعية « كولتورا » الصادرة في وارشو بنشر سلسلة من الدراسات المكرسه لمواقف كبار الكتاب والمفكرين ازاء الفن السينمائي . وفي أحد اعدادها الاخيرة تحدثت المجلة عن آراء أندريه مالرو بالفلم . كذلك نشرت قصة له اعتبرتها خير نموذج للكتابة السينمائية .

المعلوم ان مالرو تفرغ للسينما في الفترة مابين كانون الثاني 1938 وأيلول 1939 (عشرين شهرا) . حينها ظهر فلمه (الأمل) ودراسته (تخطيط لسايكولوجيا السينما) . وكانت تلك الفترة فترة الانبهار العام بالسينما . ومالرو كان بين الذين آمنوا بانها اسلوب جديد يمكن أن يعبر عن (توقد العاطفة والجمال والغموض) . الا ان الواقع كان اكثر صلادة .. فالسينما التقليدية تمسكت ، بشتى الاساليب ، بمكاسبها ومخططها القائم على كونها تسلية ودعاية . وكان ان خسر مالرو ، شأن الكثيرين ، المعركة مع السينما . لقد خيبت امله . وكانت علاقته بها علاقة غرام وادمان ــ الانبهار والخيبة، الهجران والعودة .

تنتهي دراسته المذكورة بجملة مفاجئة لاتخلو من الاستخفاف : (وبشكل ما فالسينما صناعة) ! ويمكن أن نحدد الموقف النهائي لآراء مالرو : السينما هراء ..

لقد ترك مالرو السينما الا انه لم يكف عن الاهتمام بها . وفي كتاباته يمكن العثور على ملاحظات كثيرة عن ماهية السينما وكيف ينبغي ان تكون علاقتها بالأدب . وكانت تلك الملاحظات مقتضبة لاتتعدى احيانا الجملة الواحدة . كذلك كتب مالرو عن رجال السينما ونسائها ، عن جابلن و ويلز و جابان و ديتريش . وادلى باحاديث للصحافة والاذاعة ولو كتبه عن السينما لكانت هناك انثولوجيا كبيرة .

في علم 1926 كتب مالرو مؤلفه (اغراء الغرب) : انظروا الى الناس الخارجين من دار السينما . تحركاتهم هي تكرار لحركات الابطال. وفي (الفاتحون) ذكر غارانا بالامكان التشكيك بمقال في الصحيفة وليس بالصورة والصوت . فالدعاية بواسطة مكبر الصوت والفلم لايمكن أن تتلاشى الا بمكبر الصوت والفلم .

نشرت رواية (الأمل) في كانون اول 1937 . وبعدها بقليل توجه مالرو الى الولايات المتحدة وكندا . زار هوليوود . وهناك علم بأن المخرج جوريس ايفنتز قد عمل (ارض اسبانيا) بمبادرة من أرشبالد ماك ليش وجون دوس باسوس وليليان هلمان . والفلم يتحدث عن الحرب الاهلية . والتعليق كتبه همنغوي .وحينها قرر أن يعمل فلما .

عرف عنمالرو بانه كان متناقض الشخصية. كان يثمن النقاش وتبادل الرأي الا انه لم يتقبل اي نقد وحتى من زوجته . لقد كتب عن العظماء الا انه ضخمهم (بيكاسو و دي جول مثلا) . كذلك اراد ان ينافسهم . ان يصبح رمزا روحيا لباريس ــ العاصمة العالمية . حينها اقترب من الشيوعيةالا أنهاحتفظ بذلكالقدر منالارستقراطية (كان يفضل اللقب الطبقي على كلمة «رفيق») .

وبعد عودته من امريكا اخرج فلمه عن الحرب الاهلية في اسبانيا وبعد التغلب على مصاعب مالية وتنظيمية كثيرة . وقد كتب السيناريو بنفسه اما العقدة فأخذها من الجزء الثالث من رواية (الامل) والذي يتحدث عن تاريخ سرب الطائرات الذي قاده . ومنع انفجار الحرب العالمية الثانية حفل أفتتاح الفلم . وبعدها دمر الهتلريون جميع نسخ الفلم عدا نسخة واحدة كانت موجودة في علبة كتب عليها (دراما مضحكة) .وبعد الحرب لقي فلمه الفشل رغم أن الموزع غير الكثير .اوصى بأعادة تقطيع الفلم وتغيير العنوان .وكان موريس شومان (السياسي المعروف) قد كتب مقدمة للفلم جاء فيها ، أن مالرو العبقري قد ربط مأساة اسبانيا بصمت الطبيعة ..وايقاع العالمبتراجيديا الشعب . الا أن الفلم فشل . وكما قال احد النقاد (اننا نلمس منطقة النوايا غير المترجمة). كذلك نحن شهود حالة استثنائية وحين ينقل المؤلف روايته الى فلم شخصي مستخدما شتى اشكال التسجيل : الرواية ــ السيناريو ــ الفلم. وفي هذا الفلم هناك جمع لتأثيرات شتى .فمعاملة الجموع مأخوذة من ايز نشتاين ، والطبيعة من دوڤجينكو والشخوص من غريفيث والمشاهد من رينوار . واحد النقاد وجد فيه تنبوء باسلوب روسيلليني ..

لم يعرف مالرو عمل الافلام . لقد صعد الفعل بصورة سيئة وغامضة .. وزع اللهجات الدراماتورجية بصورة غير سليمة . لم يعرف قيادة الممثلين الذين كانوا من ممثلي الدرجة الثانية والهواة .

وبعدالحرب انقلبت الآية . فلم يحظ اي فلم فرنسي بالمديح الذي كالته بسخاء الصحافة لفلم مالرو . مثلا اندريه جيد كتب (هذا النبل الطبيعي ، والعظمة الغامضة وهذا الادراك للكرامة الانسانية) .

لقد انعكست محصلة تجارب مالرو من تلك الفترة في دراسته (تخطيط لسايكولوجيا السينما) . وكان تخطيطا قصيرا لايتجاوز بضع عشرة صفحة وستة ابواب . وهذا الكتيب دراسة عن الحضارة والثقافة والفن وبحث لكل ماهو دائم وعابر ،عن علاقة السينما بالتصوير الفوتوغرافيا والمسرح والأدب و .. الاساطير . والعقدة الاولى هنا هي الفروق بين فن الغرب وجميع الفنون الاخرى وكتب : المشكلة تكمن في الحضارة ذاتها، في واقع الانسان ــ العالم . ففي قطب واحد للمعاناة الانسانية المباحة ، هناك فنان الأيماء والراقص الصيني أو من جاوه والممثل والراوي اليوناني الذي يقود وراء القناع ، وفي القطب الاخر الكلمة المسجلة باكبر توكيد وكامل ضجة الليل او وجه ما بتعبير عابر يملأ شاشة طولها خمسة امتار ــ الفلم » . كذلك وجد أن الأهم في حضارة الغرب هو « الحاجة المتعصبة الى الشيء » و « الادراك بانه يوجد شخص آخر » . ويقول مالرو أن السينما قررت تجاوز جهود التصوير الباروكي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذي يوحي بالحركة والدينامية . فالمقصودة هنا هي الاحاسيس والمخيلة والحركة . والسينما استطاعت ان تؤدي هذه المهمة حين سيطرت على (التعويض عن الصورة) رغم انها (مشلولة اكثر . فهي لاتتصرف بالوهم Fiction وبمقدورها أن تظهر الراقصة في قفزتها الا انها لاتستطيع أن تظهر الصليبيين وهم يدخلون القدس) .

ان اختراع الصوت وادخال الحوار كانا المرحلة التالية . وقد شبه مالرو العلاقة بين السينما الناطقة والصامتة بالاحرى بين الرسم والتصوير . واستنتاج مالرو النهائي : السينما ليست بأدب . انها صحافة . وكصحافة تجد لنفسها ، سواء ارادت ام لا ، حقلا لابد فيه من وجود الفن : الاسطورة والعدالة الفردية والعامة والمغامرة والجنس . هذه هي بعض الاساطير المعاصرة التي لم تنضب قواها بعد . ومن هنا فان (الممثلة العظيمة هي امرأة قادرة على تقمص الكثير من الادوار غير المتشابهة . أما النجمة فهي أمرأة يعد خصيصا لها الكثير من السيناريوهات المتشابهة) .

ومرة قال مالرو : أن العمل الفني سؤال موجه الى الرب حول معنى الحياة ، سؤال يمنح دائما العظمة لبعض الآمال الحية . والمثال هو رواية تولستوي .. ان الاسطورة تبدأ بفانتوماس لكنها تنتهي بالمسيح . والجموع لاتعطي الإولوية للموضوع وأجود مافيه رغم انها في غالب الاحيان تقدر على ادراك ذلك ..

حين كان مالرو في التاسعة عشرة من العمر اراد ان يكتب تاريخ التصوير . وبعدها بكثير اعترف بأن فهمه للفن افضل بكثير من فهمه للأدب . ولم يكتب تاريخ التصوير بل كتب عددا من الدراسات عن الفن جمعت في أهم كتابين له (متحف المخيلة) و (تحولات الآلهة) . ورغم الطابع الشخصي والاستقلالي لآرائه الفنية نلمس ببساطة جذورها في مؤلفات الكبار امثال فيلفين والويز وريجل وپانوفسكي وغيرهم . وهناك من يقول أن اراء مالرو تنبع من مبدأ على هيئة مثلث ضلعه الاول هو الانسان - المنتصر او الانسان المتشكك والثاني عدم ادراك وجود الله أو لا وجوده . والثالث هو الفن هذا الغريم او الشريك بالنسبة للعالم والانسان .

والكثير من آراء مالرو تعرضت الى الهجوم. فقد أتهم بأنه ضد التاريخ ويدحض علم الاجتماع ويعزل العلوم الأنسية عن العلوم الاخرى . وحتى ان البعض أتهمه بنشر الافكار البالية .

لقد بقى مالرو الى النهاية على خطه العدائي ازاء السينما والتلفزيون وقد عامل هاتين الظاهرتين كتزييف للثقافة . وفي عام 1959 تحدث في الحفل الختامي لمهرجان كان السينمائي اعترف بان الفلم هو لغة عالمية الا انه اضاف بتحفظ (لا تخدعنا القوة الايحائية للصورا فكما هو معلوم لا علاقة لها باعادة خلق الواقع . انها مجرد قوة كبيرة لعالم مختلف يبدو دائما شبيها بالواقع رغم أن الواقع لا يشبهه) . وفي عام 1964 احتد صوت مالرو (.. لقد اخترعنا مصانع الاحلام التي لم تعرفها البشرية من قبل .. اذن ما هي النتيجة ؟. لقد سيطرت على البشرية جمعاء فوق الوهم التي هي في الوقت نفسه قوة النقود والسياسة .. اننا نعيش في حضارة اصابعها العنف ولسبب بسيط للغاية بأن احلام الناس تحمل قوة [illegible] الجنس والدم) . وفي عام 1969 قال (كل حضارة امتلكت شياطينها وملائكتها . الا ان شيطان الماضي لم يكن بالضرورة مليار ديرا او منتج وهم. ومصانع الاحلام ستلجأ ، عاجلا ام آجلا ، الى الاساليب الاكثر نجاعة ، الى الجنس والدم ... ان ثقافتنا المشتركة هي ما نختاره وما يسمح للحضارة بالوقوف بوجه مصانع الاحلام . والمهم هنا تقديم السند للانسان وطالما انعدم السند في الله ...)

وفي كتاب (الانسان المتشكك والادب) الذي ظهر بعد وفاته نجد أيجازا لكامل افكار مالرو عن السينما (هذا الطفل الذي نما ولكنه لم ينضج) . فهو قد وقف ضد نقل الاب الى السينما والتلفزيون وقال : حين يجسد جيرار فيليب بطل ستندال (دير پارم) فهو لا يتصور البطل الملموس في الرواية بل اخرا مختصرا الى سيرته الذاتية . ولا يحصل هنا التطابق بين الفلم والرواية بل بين الروايتين الاولى التي تسرد الرواية الاصلية والثانية التي يرويها الفلم . لقد حاول الفلم عامة ان يجد في الحبكة معادلا للكتاب ..) .

وكما لاحظ القارىء فاراء مالرو خصت بالاحرى ابعادا معينة للفلم ، كالفلم الهوليوودي، او علاقته بالادب الى جانب التاملات ذات الطابع الفلسفي التي لم تتعرض لضغوط ضرورات الواقع المعاصر وحاجاته .

اليخو كاربنتي على الشاشة

■ عرض في آذار الماضي في كل من فرنسا والمكسيك وكوبا فلم « يحيا الرئيس » لمخرجه التشيلي ميغل ليتان .

واستطاع الجمهور ان يتمتع بثمار جهود استمرت سنتين بذلها ممثلون وفنيون يعملون في هذه الاقطار الثلاثة .

وهذا الانتاج المشترك ، والذي تقدر تكاليفه بحوالي مليونين ونصف المليون دولار هو ثمرة تعاون بين مؤسستين حكوميتين (المعهد الكوبي للسينما ، والمؤسسة المكسيكية كوناسين) وبين شركة كوستا - ثمرافاس للانتاج السينمائي والقناة الثالثة في التلفزيون الفرنسي .

ولعرضه في فرنسا فقد ركزت الحملة الدعائية على اسم كوستا - غرافلس بشكل واسع بسبب الشهرة التي اكتسبها من وراء افلام عالمية معروفة سبق وان نالت نجاحا ساحقا من أمثال (Z) ، و « حالة حصار » و «الاعتراف» وقد كان هذا الاجراء كأسلوب لتطويق الصعوبات التي تعترض وصول الافلام القادمة من العالم الثالث الى الشاشة الفرنسية (في عام 1978 عرض في فرنسا فلمان فقط من امريكا اللاتينية من اصل ستمائة وستين فلما عرضت في السنة نفسها) .

وفلم « يحيا الرئيس » واحد من الانتاجات الطموحة التي ظهرت في أمريكا اللاتينية خلال السنوات الاخيرة . وهو مأخوذ عن رواية الكاتب الكوبي الكبير « اليخو كاربنتيي » « اللجوء الى الأسلوب » .

وبطل الفلم - قام بالدور الممثل نيلسون ڤيلاغرا - دكتاتور لدولة وهمية وهو حصيلة لملامح الدكتاتوريات التي عرفتها معظم اقطار امريكا اللاتينية .

وهذه الشخصية هي نموذج من النماذج التي في طريقها اليوم الى الزوال ولعل سوموزا دكتاتور نيكاراغوا الحالي هو آخرها ، وقد يشهد نهايته قريبا . فمنذ بداية القرن العشرين ، حيث تدور احداث الفلم ، تطورت آليات السلطة بما في ذلك الانظمة المستبدة متذرعة بنظرية «الأمن القومي». ورغم ذلك ، فان الفلم يظل محتفظا بنكهته المعاصرة . طالما ان الدكتاتوريات همها الوحيد الحكم الفردي وطالما أن العقليات تبقى خاضعة لموروث ثقافي طبعه الاستعمار وسيطرة القوى التي حلت محل الاستعمار الاجنبي .

ومع كونه واحدا من الافلام الضخمة المشحونة بالاثارة والسخرية ، فان « يحيا الرئيس » يطرح في الوقت نفسه تأملات في تاريخ امريكا اللاتينية

وهويتها الثقافية .

وقد انيط اخراج الفلم بالمخرج ميغل ليتان المسؤول السابق عن السينما في تشيلي في عهد الندي والذي يعيش اليوم في منفاه بالمكسيك .

وكان ليتان قد سبق له وان اخرج عددا من الافلام نذكر منها : « دكتاتور فاهويلتورو » (1969) ، « الصديق الرئيس » (1971) ، و « الارض الموعـودة » (1972) و « أفعـال ماروشيا » (1975) .

وفيما يلي الحوار الذي اجرته معه مجلة افريقيا ـ آسيا وذلك بمناسبة عرض فلمه « يحيا الرئيس » ؟

س : كيف ولد فلم « يحيا الرئيس » ؟

ج : عند قراءتي لرواية اليخوكاربنتي «اللجوء الى الاسلوب » لاحظت أن في هذه الرواية مادة لفلم طالما كنت اتمنى عمله . وبدات اسجل على هامش صفحات الكتاب ملاحظات وتعليقات شكلت النواة الاولى للسيناريو . لقد اعجبت بشخصية البطل المعقدة وبالفترة التي تناولتها الرواية وبالاحداث التي اعرفها جيدا كما يعرفها كل أمريكي لاتيني ولكن اليخوكاربنتي عرضها بلغة ساحرة اخاذة . نحن نملك دائما صورة بعيدة وغائمة عن رجال السلطة . ولكن الرواية على العكس من ذلـك ، تدخل مخدع الرئيس وتعري ، منطلقة من سلوكه الخاص ، آليات السلطة .

س : تناول كتاب عديدون شخصية الدكتاتور (ڤال انكلان ، استورياس ، فارغاس لوزا ، غارثيا ماركيز ، رواباستون وغيرهم ...) فما الذي شد انتباهك بشكل خاص الى صورة الدكتاتور التي رسمها كاربنتي ؟

ج : لفت انتباهي سخريتها الحادة وتلاحق الاحداث في مساحة من الحلم ... تلاحقها بين الحلم المزعج والكابوس ، وكذلك المستويات المختلفة للواقع الذي اكتشفته في هذه الرواية . كما اعجبني فيها الجانب الباروكي وتراكم احداثها . واخيرا ماأسماه كاربنتي « الواقع الرائع » .

س : فكرة الانتاج المشترك الواسع هـذه (فرنسا ، كوبا ، المكسيك) من أين جاءت ؟

ج : يتطلب انجاز فلم مثل هـذا احتياجات حقيقية . وهكذا كان لزاما أن تدخل فرنسا في هذا الانتاج طالما أن جزءا من الفلم كان مقررا له أن يصور في باريس . بعد ذلك تبين انه من الممكن لمؤسستين سينمائيتين أمريكيتين لاتينيتين ان توحدا جهودهما وان تكون لهما اهداف ثقافية وايديولوجية مشتركة مع المنتجة الفرنسية ميشيل راي ڤاراس . اما بالنسبة للمكسيك ، فقد عملنا مع فنيين مكسيكيين . وفي كوبا مع فنيين كوبيين . وكذلك في فرنسا فقد تعاونا مع فريق فرنسي .

مؤلف القصة كما هو معروف كوبي الجنسية . اما الممثل الرئيس فانه يعيش ويعمل في كوبا وهو مثلي من تشيلي . كما شاركت في الفلم ممثلة من فنزولا .

لقد كانت هناك فكرة لانتاج فلم امريكي لاتيني والعمل على أن يكون شكل الانتاج مناسبا لمضمون الرواية .

س : كيف عملتم على اقتباس القصة ؟

ج : قمت باختيار اولي لأهم الاحداث واكثرها كشفا لسلوك الدكتاتور وآليات السلطة والعناصر التي تقدم صورة امريكا اللاتينية بشكل اكثر اتساعا وشمولية . وقد ساهم [illegible] والشاعر المكسيكي جيم اوغستو شيلي في النقاش الطويل الذي دار حول مشروع السيناريو الذي وضعته . وكان النقاش مثمرا . كان عملا طويلا ولكنه مشوق وغامض . كذلك اجريت بعض التغيرات اثناء التصوير اذ انني كنت اعتمد سيناريوهات مفتوحة تاركا المجال لبعض الارتجال . وكانت الصعوبة الاساسية هي تحويل الرواية الى موضوع سينمائي .

لقد استفدت كثيرا من النقاشات التي دارت بيني وبين كاربنتي . عملنا معا طيلة شهر باكمله . كان يقص علي الحكاية وكنت اسجل بعض الملاحظات فالحكاية الشفهية بالنسبة لي كانت مهمة جدا . وافلامي السابقة اعتمدت على حكايات استقيتها من مصادرها ... من اناس ساهموا في صنع الاحداث التي يرويها الفلم .

بعد فترة بدأت الامور تسير سيرا طبيعيا . فبعد محادثاتي مع كاربنتي وقراءاتي لروايته ، وبعد رجوعي الى ارشيف الصور والبطاقات البريدية كان علي ان اقوم ببحوث مضنية خاصة مع الارجنتيني ريكاردو أرونوفيش مدير التصوير . فقد اوحى لي تاريخ المكسيك من خلال صوره والرسوم الجدارية المكسيكية ومظاهر الثقافة الشعبية المختلفة ... أوحت لي أفكارا حول الاخراج والاضاءة وعناصر كونت شيئا فشيئا شكل ولغة الفلم .

لقد حاولت في فلمي « يحيا الرئيس » كما في افلامي الاخرى ، أن أخلق جمالية سينمائية امريكية لاتينية .

واحد العناصر المهمة لتحقيق ذلك يوجد ـ حسب رايي ـ في الذاكرة الشعبية .

س : ما هي مجازفات هذا الانتاج المشترك .

ج ـ ان ما يجمعنا هو هدف ذو طابع ثقافي بعيدا على ان يكون تجاريا يتوخى من ورائه الربح. ولولا هذا التوجه لما كان لهذا الفلم ان يرى النور.

ان المشكلة الرئيسية التي تواجهها السينما في امريكا اللاتينية هي سيطرة الانتاج التجاري على السوق وعدم استطاعتها دخول المجال الذي يمكن ان يشكل سوقا طبيعية لها .

ان تحقيق انتاج مشترك مع دولة من دول امريكا اللاتينية او مع دولة اوروبية هو احدى الاساليب المتعددة التي تلجأ اليها كوبا لكي تفك الحصار المفروض عليها .

ومع ذلك فان الرهان ذو طبيعة ثقافية وايديولوجية،فالامر يتعلق تاريخ امريكا اللاتينية وبرواية واحد من اعظم كتاب قارتنا . وهـذا الانتاج المشترك نابع اساسا من توجه سياسي ثقافي هدفه وحدة امريكا اللاتينية .

س : أنت تقتبس ، ولاول مرة ، عملا لكاتب من امريكا اللاتينية ..؟

ج : ارغب في القيام باخراج ثلاثة افـلام لكتاب من امريكا اللاتينية .

فبعد اللجوء الى الاسلوب لاليخوكاربنتيي ساعمل على اقتباس قصة للكاتب الكولمبي غابريال غارثيا ماركين هي « ارملة مونتيال » أما العمل الثالث فلم احدده بعد ..

لقد سجل هؤلاء الكتاب التاريخ الحقيقي للقارة . وبهذا اكون قد تخلصت من المنفى . وبما انه اصبح من المتعذر علي استقاء التاريخ من ينابيعه الاولى (الذاكرة الشعبية) فقد اتجهت الى هؤلاء الكتاب الذين يعبرون هم ايضا ـ ولكن بطريقتهم الخاصة ـ عن الذاكرة الشعبية ..

اعتقد ان من المهم الاشارة الى وجود سينما امريكية لاتينية هي حصيلة لجهود كبيرة بذلت في هذا المجال . في حين كان «من الطبيعي» ان تختفي هذه السينما . فمن النادر ، في تاريخ السينما ، ان ينجح جيل كامل من السينمائيين في تطوير السينما الوطنية خارج بلده : لناخذ مثالا على ذلك السينما التشيلية حيث تجاوز عدد الافلام التي انتجت بعد الانقلاب الدموي عام 1973 عدد تلك التي انتجت منذ بدأت السينما في هذا البلد . اضافة الى هذا كله فقد تميزت الافلام الاخيرة النضج والعمق .

◆ ترجمة : محمد خالدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

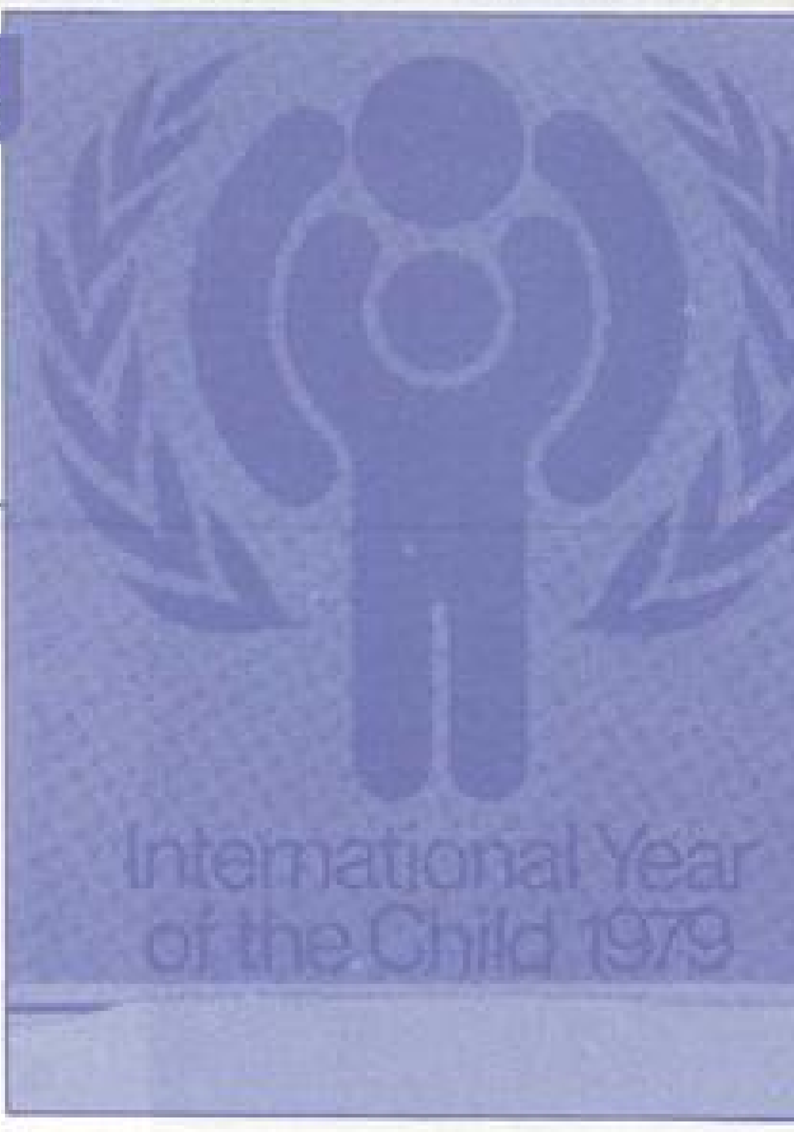

العام الدولي للطفل

التربية في صمت

■ امدت لورنس برنو Laurence Pernoud امهات المستقبل بكتاب تحت عنوان « انتظر طفلا » حاولت ان تستقصي فيه كل ما يتعلق بالعمل ونمو الجنين وعملية الولادة والعناية بالمولود وواصلت هذا الطريق وقدمت للأمهات والمربين كتابها الثاني تحت عنوان « اربي طفلي » من الولادة الى سن المدرسة يلخصه الناشر في هذه الجمل « اغذي طفلي ، انظفه ، البسه ، اخرجه ، اصطحبه من العطلة ، اعتني به ، اراقب نموه ، اربيه ، اعرف حاجاته ، افهمه . هذا الكتاب سميري اجد فيه الحل ان اعترضتني مشكلة ، انه خير دليل ، يمنحني اجابة دقيقة مفصلة عن كل أسئلتي » .

ليست هذه الكتابه الفرنسية هي الوحيدة التي كتبت في هذين الموضوعين (ماقبل الولادة والتربية) ولكن يعد كتاباها من اجل ماكتب فقد طبع كتاب « اربي طفلي » للمرة السادسة سنة 1975 وتحظى كل طبعة بالتنقيحات اللازمة لجعل الكتاب مواكبا للأحداث والتطورات . بدت لورنس برنو في كتابها او موسوعتها الصغيرة مربية لها دراية بالطب وعلم النفس والاجتماع . كتبت في ادق المواضيع واحترزت كلما لزم الأمر .

ارتاينا ان نترجم فقرات من الفصل السابع من الكتاب وهو بعنوان « التربية في صمت » مساهمة في العناية بالطفل بمناسبة سنته العالمية وفي مساعدة الأمهات وقد يحيرهن مشكل التربية باستمرار .

قد يبدو لكم تخصيص فصل باكمله عن التربية زائدا عن الحاجة في هذا الكتاب الذي يتحدث عن الطفل من الولادة الى سن المدرسة . والحال أنكم لاحظتم من قراءة الصفحات السابقة اهمية سنوات الطفولة الأولى ولعل هذه الصفحات اقنعتكم بان التربية قد تلعب دورا في هذه السنوات الاولى وينبغي لها مهما يكن أن تغرس جذورها ، لذا اصبح من المالوف القول بان التربية تبدا من المهد .

ماهي التربية ؟

هل فكرتم في ان عبارة « حسن التربية » المتداولة في تكريم الآباء الذين احسنوا تادية دورهم لاتشمل في الواقع الا الأدب والسلوك الحسن مع الناس وعلى مائدة الطعام .

والولد السيء التربية ... يرفض تادية التحية ويتفوه بالشتائم ويضع منكبيه على المائدة ويغمس قطعة من الخبز في المرق ويلعب بها في صحنه ، هذا كل ما في الأمر ولا حساب في مفهوم التربية المتداول للشجاعة والارادة والصدق والشخصية والمبادرة .

والكلمات تاثيرها اذ ظن بعض الآباء -لكثرة سماعهم حسن التربية وسيء التربية بالصورة السابقة - ان الاضلاع بتربية الطفل هو قبل كل شيء السلوك الحسن . الا تحقق ايضا اعجاب الأمهات القريبات تلك البنية النموذجية الجالسة باحتشام على كرسيها والتي تنهي عند دخول زائرة والتي لاتحدث ضجيجا والتي لا تطلب ابدا مرطبات حتى وان كان صمتها يخفي كذبها ونفاقها ! اما ذلك الطفل الصغير الصاخب واليقظ الذي يطالب « بالدندورمة » قبل أن تعطى له والذي يقاطع الكبار والذي ينغم على مائدة الطعام فانه ينتقد بشدة حتى وان كان صادقا وصريحا وذكيا .

.. لكن التربية شيء آخر . التربية هي فن توجيه طفل طوال نموه حتى يسير هذا النمو سيرا منسجما لا يعكر شيء . فيم يتمثل النمو ؟ انه يتمثل في الانفصال شيئا فشيئا عن هذا المهد وعن التبعية الكاملة لكم ليصبح الطفل الكهل مستقلا ، حرا وانسانا كبيرا مثلكم ولكن لا يصبح الطفل كهلا بمجرد بلوغه الواحدة والعشرين من عمره ، فالمولود الجديد والرضيع والصبي الصغير والولد الكبير والبنت الكبيرة والمراهق مراحل مختلفة يجب أن يمر بها قبل استحقاق لقب « انسان كبير » وقد غبط فيه الآخرين كثيرا .

ويتطلب هذا التكون سنوات ويتم بانفصالات متتابعة . فبالولادة والفطام والمدرسة يتعلم الطفل تدريجيا الاستغناء عنكم وكأنه يشعر أن مصيره كانسان يكمن في مفارقتكم . ويثور الرضيع اذا مددتم له اليد بمجرد ان يخطو خطواته الأولى . ويصيح : « لم أعد رضيعا » بمجرد أن ينطق كلماته الأولى . ويتردد في كلامه بمثابة الترجيع « عندما اصبح كبيرا .. » والمحاكاة « بابا » أو « ماما » أو الأخت الكبرى يرغب في أن ينشط بمفرده . وليس ضربا من التقلب ان اراد ان يمسك بقدحه دون مساعدتكم ، واذا اراد ان يطلق يدك أو رغب غدا الرغبة في أن يكبر تمكنه يوما بعد يوم من تحقيق تقدم .

الا ترون انه على ضوء هذا يتضح كل شيء؟ نقف حجرة عثرة اكثر من مرة في طريق نمو الطفل كلما تنزهنا به في عربته في حين انه يقدر على المشي وكلما رفضنا ان نقص شعره في حين انه يريد تسريحه مثل اخيه وكلما قلنا له باستمرار « مازلت صغيرا ... » ويقال غالبا انه امام رغبة الطفل في ان يصبح كبيرا توجد شبه رغبة لا واعية عند الوالدين في ان يبقى الطفل صغيرا . وهكذا يبدو حلم الطفل جنونيا تقريبا . اذا تركنا للطفل حذاء في نفس قياس رجله فان الرجلين تكبران رغم ذلك ولكن ملتويتين ومشوهتين وعندما نرفض الحرية الضرورية لطفل لكي ينمو فاننا لا نمنعه من ذلك ولكنه يتقدم في الحياة مقوسا ومنزعجا ، لا تكونوا متشائمين فانتم لا تخسرون طفلكم اذا اطلقتم يده . بالعكس يعترف لكم بالجميل لهذه الحرية ويبرهن لكم على ذلك فمن تلقاء نفسه يقطف لكم باقة زهور ومن تلقاء نفسه يكتب لكم رسائل عندما يكون في عطلة فبعض الروابط تنحل واخرى تحكم .

.. ان النمو عند الكثيرين تطور بطيء ومنتظم نحو هذا الكمال ونعني به الكهل . ياللخطأ ! بدعوى ان الطفل يكبر فانه لا يحقق كل الأيام تقدما في الحكمة والذكاء واللطافة والطاعة . انه يخطو خطوتين الى الأمام ثم واحدة الى الوراء وتعترضه عراقيل تعوق سيره ... ودوركم يبرز عندما تعترض ابنكم عقبات ويقدر على اجتيازها . هل يملك القوة الجسمية الكافية ليمشي بمفرده ؟ هل يملك القوة الوجدانية ليقضي نصف شهر بعيدا عنكم ؟ هذا النوع من الأسئلة ينبغي ان تجيبوا عنها ولا أريد أن اخدعكم فهي اكبر صعوبة في التربية .

ترك الطفل يتفتح وعدم عرقلة نموه ومساعدته

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على اجتياز العقبات ليس كل شيء . فللمربي مهمة اخرى يؤديها ، عليه أن يوجه الطفل نحو هواياته ليساعده على تحقيقها اذ لا يكفي أن تكون كهلا لتكون عظيما والانسان لا يحقق ذاته الا اذا حقق مواهبه وماخلق ان يكونه : مهندسا او فنانا أو تاجرا او محاسبا ونذكر كلاما مشهورا : تكمن التربية الجيدة للطفل في تمكينه من تحقيق ذاته ... فتوجيه الطفل طوال فترة نموه لا يعني ضبط الهدف من البداية : « ستكون بوليتكنيكيا او عازفا على البيانو » ولكن نتركه ينمو ونساعده تدريجيا على مصيره .

وبهذه الصورة تعبر كلمة يربي عن معناها الاصلي اذ تعني باللغة اللاتيفية ـ قاده خارج .. نحو مصيره .

هل ابني سعيد ؟

يتساءل الآباء عادة : هل ابني مغذى الغذاء الكافي ؟ هل هو مدثر التدثير الكافي ؟ ونادرا ما يتساءلون ، ابني هل هو سعيد ؟للأسف نكتشف احيانا ما ينقص الطفل ليكون منشرحا كلما حلو لنا الاجابة عن هذا السؤال . والمساء هو احسن وقت للقيام بتحقيقك ، يرتاح الطفل في سريره وينفتح قلبه ويحكي لنفسه بطيبة خاطر . لاتنتظر منه أن يقول لك انا سعيد أو غير سعيد فهده الجمل لا تنتمي الى لغته ولكن بامكانك ان تستنبط من كلامه هل ان حياته تعجبه أم ان ضبابا يعكرها .

العقاب

لا يكن أبدا امام الآخرين . لا يكن ابدا تحت سورة الغضب ولا يكن ابدا متفاوتا وليكن دوما في الحين .

العناد

عاند الطفل بالأمس عند مروركما امام مغازة اللعب . يريد الرشيشة .

ـ تعال ربما تحصل على رشيشة في عيد الميلاد .

+ لا ، اريدها الآن

ـ تعال

+ اريدها

ـ لا

+ اجل

صياح وبكاء وطفل يتدحرج على الرصيف . صحت في وجهه وعاقبته بقسوة . حسنا فعلت .

اليوم اراد الطفل ان يمسك الفرشاة عندما كنت تمشطين شعره .

ـ أنا وحدي

+ ولكن اتركني امشط لك

ـ لا . أنا

صياح وبكاء . هل هذا عناد ؟

لا . فرغبة الطفل من أن يمشط بنفسه طبيعية وشرعية . لم لا نتركه يفعل ..

قبل ان تعاقبوا بقسوة حالة عناد تساءلوا هل يستحق العناد هذه التسمية . لكن ابذلوا جهدا للفهم : نعتبر بنوع من السرعة عنادا كل ما لا نفهمه من أول وهلة .

الطفل المدلل

هو قبل كل شيء ضحية وعادة ضحية غير جدا[illegible] لا [illegible]

ويبدوا أنه لا يحب نفسه الا قليلا . على كل فالطفل المدلل نادرا مايكون طفلا منشرحا ويكون غالبا عبوسا وعلى العكس غيورا .

كيف ينشا الطفل مدللا ؟

بطريقتين ، الجبن والكبرياء

ا ـ الجبن : لم يصادف هذا الطفل المبالغ في الاستبداد مقاومة . يا للأسف ، فقد اسيء اليه عندما لم يحرموه من شيء وعندما لم يوقفوا عناده وعندما لم يهذبوا ميوله . لقد حرموه من بذل جهده وقهر نفسه وفيما بعد من تقدير نفسه .

يقال ان الطفل المدلل يصبح كافرا بنعمة والديه عندما يكبر وله كل الحق ، لقد أساؤوا اليه كثيرا .

ب ـ الكبرياء

يدلل بعض الآباء ابنهم نظرا لأنه الأجمل وينبغي أن يحصل على أحسن اللعب وتلبى طلباته على احسن وجه ، فطفل الجارة يملك دبا كبيرا ، اذن يحصل طفلنا على دب اكبر .

كيف نعالج الطفل المدال ؟

لنعالج أبويه أولا . كيف نقوم تربية سيئة المنطلق ادت الى دلال الطفل . لا يتحقق هذا الا بمزيد من الصبر فيكون العزم على ترويض طبع الطفل عالقا بالذهن دوما . نمنحه فرصا كي يتحسن دون ان نعاكسه أو نكلفه بمجهودات تتجاوز سنه ، نتركه مثلا ينجز أعمالا يومية بمفرده كغسل اطرافه وارتداء ملابسه وندفعه لتقديم خدمات واعارة لعبه والقيام بما يتطلب منه جهدا واذا اتمه فهو يمنحه نشوة انجاز أمر مفيد ، يجب ان نكف عن المدح ماعدا المدح الذي يثبت للطفل اننا لمسنا جهدا محققا وصعوبة مقهورة .

ندمج الطفل المدلل مع اطفال اخرين دون ان نشعره أنه اعلى منهم .

ولكن الخوف من دلال الطفل لا يبرر تربيته تربية صارمة .

اللعب :

يعتبر اختيار اللعب من رفوف مغازة كبيرة امرا مستحيلا على الطفل اذ أن وفرة اللعب تدير راسه ، يحسن اذا ان نأخذه معنا لرؤية نوافذ العرض على انها مشهد ونسجل انطباعاته فهي تساعدنا فيما سنختار له . واللعبة التي نعطيها اياه ـ مهما كان ثمنها ـ ملك له . واذ كنا مسبقا لا نحتمل أن نراها وقد فسدت فنهبه لعبة اخرى اقل قيمة ، والفرحة التي تبعثها اللعبة لا توازي ثمنها ، واذا لم يركب لعبته كما هو منصوص عليه في الاعلان فندعه يصنع بها ما يشاء . عندما يجلس في ركنه منهمكا في لعبته مناجيا نفسه في غموض فلا نكن مثل هؤلاء الآباء الذين يريدون مهما كلفهم الامر ان يعلموا طفلهم كيف ينبغي ان يسير اللعبة . والطفل يصر كثيرا على ان يكون اول من يشغل لعبته ، انه لا يريد ان يتخلى عنها وهذا التصرف شرعي . لا تنتظروا ان يصيح وهو يفتح الصندوق : ما اجملها ! كم انا فرح ! هذا بالضبط ما اريد، ونادرا ما يثمن الطفل في الحين ما يتسلمه من لعب وعادة ما يشرئب عنقه الى لعبة اخيه او أخته ولكن تجازون بعد بضعة أيام عند ما ترونه ينام بلعبته ويرفض مفارقتها . كم من لعبة ! لا يقدر على اللعب بأجمعها ! والقديمة منها ! العله ينساها .. برهني على فطنتك ، ضعي جانبا كل ما يهجره الطفل وفي يوم تعيدينها له بمناسبة الم او حزن او مجهود منجز او حصبة يصبح مهجور الامس مفاجأة سارة او صديقا قديما يلتقي به مع صيحات فرح .

اكبر صعوبة في التربية

يريد الطفل وعمره :

سنة : ان يغادر حاجزه ليكتشف المنزل .

ستة عشر شهرا : ان يتخلص من يدك ليمشي وحده .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثلاثون شهرا : ان ياخذ سكينا ليقطع وحده حاجته .

سبع سنوات ، ان يذهب وحده الى المدرسة.

تسع سنوات : ان يذهب الى السينما مثل زملائـه .

ثلاثة عشر سنة : ان يخرج وحده ليلا .

اربعة عشر سنة : أن يسافر في العطلة بدونك .

وكل مرة نتساءل هل ينبغي ان نتركه يفعل ام ننتظر فترة أخرى هذا هو التمرن على الحرية بالنسبة الى طفلكم وهذه اكبر صعوبة في التربية بالنسبة اليكم ايها الآباء وكنا قد نبهناكم لمعرفة متى ينبغي ان تطلقوا العنان قليلا ومتى ينبغي أن تكبحوه . لا ينتظر بعض الآباء رغبـــة طفلهم في التخلص منهم . يدفعون به الى الامام دون لطف « اريد ان أجعل منه رجلا ، لا مجال في عالم اليوم للدجاج المبلل .. ينبغي ان يتدبر امره مبكرا! » وهكذا يربى الطفل على الشدة . يجب ان يحذق السباحة قبل الاخرين ، يجب ان يعبـر الفنـــاء بمفرده في الظلام ..

وعلـى العكس لا يجرؤ بعض الآباء علـــى اطلاق يد طفلهم ... يريد الطفل ان يخطو خطوة: احذر ستسقط ، يريد الطفل ان ياكل وحـــده : احذر ستتوسخ ، يدخلونه الى المدرســة بعــد الآخرين ، يخشون عليه أن ينتابه الخوف .يريد ان يتعلم السباحة يخشون عليه من الغرق وكان والديه يخشيان من رؤيته يكبر . على الطفــل ان ينتزع حريته نتفة نتفة . وهكذا تفقد مثل هــذه الحرية جاذبيتها ويصبح الطفل وجلا مـــن فرط حبسه ويفقد الثقة في نفسه تدريجيا أو على العكس يحلم باليوم المنتظر الذي يستطيع فيه حقا الخروج ولكن بدون رجعة هذه المرة .

واخيرا نوع من الآباء لايضغطون ولايلينون ، يتركون اما غير واعين أو لا مباليـــن اطفالهـــم يفعلون ما يشاؤون ، ونتيجة ذلك يشعر الطفــل بالاهمال ولعل هذا الموقف الأخير أسوأ المواقف الثلاثة .

ولكن كيف السبيل لمعرفة متى نوافق ومتى نرفض ؟ الأمر دقيق اذ لاتوجد قاعدة ولا وصفة : يتعلق كل شيء بالطفل فالوجل يجب أن ندفعــه برفق الى الامام ولا اعنـــى دفعه بقـــوة ، وأن نساعده على التخلص وأن نمنحه الثقة في نفسه ، انت كبير ، باستطاعتك أن تفعل مثل الآخرين .

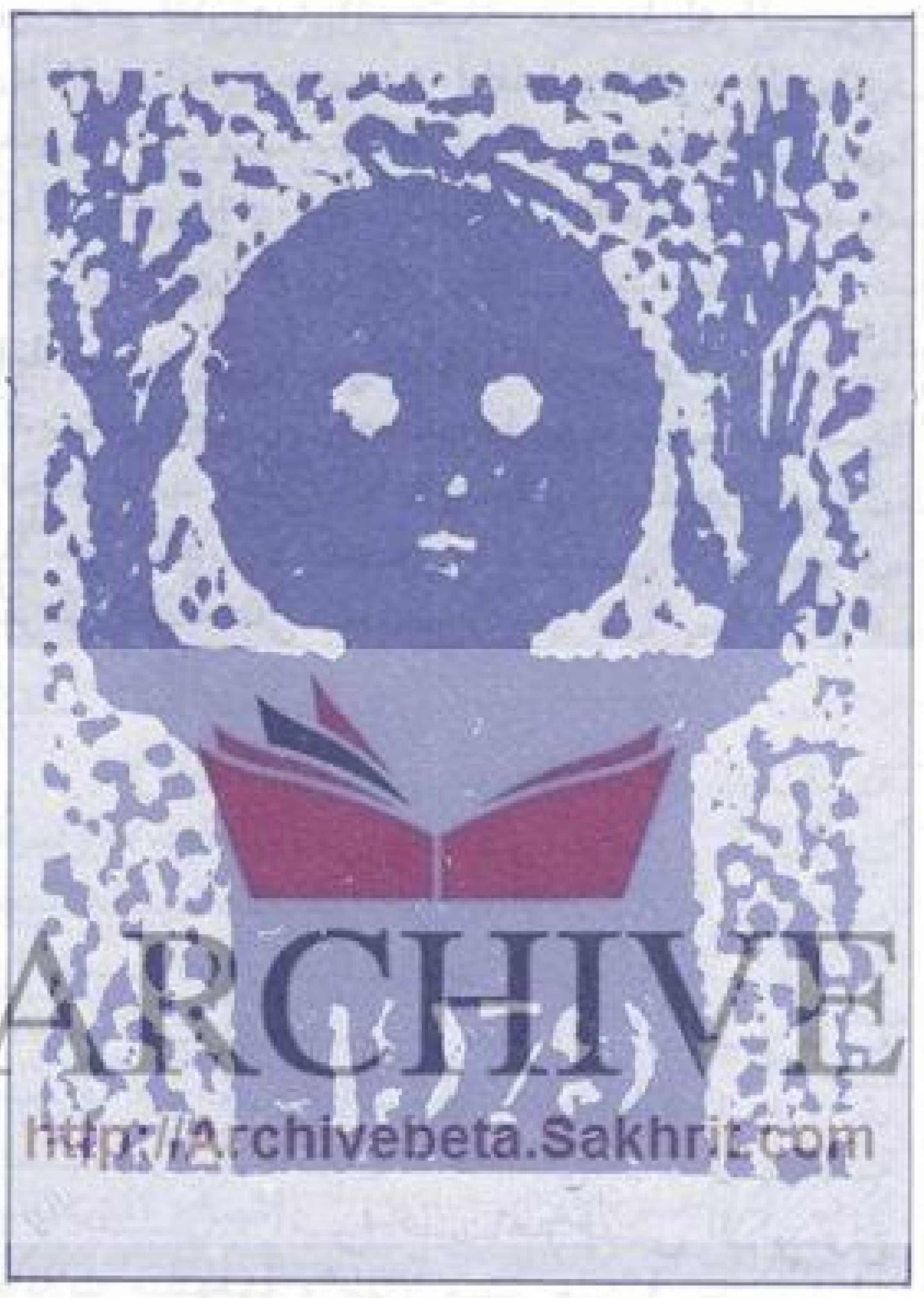

كرافيك للفنان احمد العمراني ـ المغرب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يجب ان نردع قليلا الطفل المغامر والا فانه يلقي بنفسه الى التهلكة .

ندع من يكون في منتصف الطريق ، يتقدم وفق معدله ، ندعه ينجز ما يناسب عمره ، نثق به و بالعناية الالهية ثم نحرسه عن بعد والحال ان تركه مع البقاء على مراى منه او الى جانبه يوافق ميله الى الطمانينية . والطفل الأكثر جراة والأكثر استقلالا لاتقل حاجته الـــى وجودنا . يطمح الى اكتشاف المجهول ولكنه يريد في نفس الوقت ان نضمن له الراحة والأمن ولا يمثلهـــا غيرنا ، ازاء هذه الرغبة المزدوجة ينبغي ان يكون موقفنا مزدوجا : نطلق العنان دون ان نتركـــه يسقط ، افكر مثلا في الام التي تقول لابنها : تريد ان تتفسح في الحديقه بمفردك ! لك ذلك ،وتخرج هي الأخرى واذا عاد الطفل ولم يجدها فانه ينهار.

نمنح طفلنا من حين لآخر نصيبا من الحرية لم يطالبنا به ونعجز عن تقدير فرحته بهذه الهدية .

« لا نجعله يعيش في عالم خيالي »

نكون قد بنينا حول الطفل عالما خياليا بـــل جعلناه يعيش في عالم لا وجود له اذا منحناه كــل ما يطلبه دندورمة او كرة او قطارا واذا اعتبرنـــا آية فنية خربشة (يرسمها) صرحنا امامه انـــه ذكي وجميل ولطيف واذا رفعنا كل العراقيـــل واذا ازحنا كل الصعوبات واذا وافقناه اجتنابـــا للغضب واذا قمنا بكل شيء عوضا عنه ، فنلبسه ونغسل له ولا نامره البتة ، واذا خفنا من تسليط نفوذنا عليه فغدا يكتشف صفا بثلاثين طفلا مثله ويندهش ان لم يكن المحور وان قيمته المدرســة ببرودة ويكون مذهولا ان لم تمجـــد المدرســة صفحات خطه ... يكتشف الطفل عالما يفرض عليه الطاعة دائما : طاعة المدرسة والأستاذ والمديـــر والضابط والقوانيـــن ويعســر عليـــه التعـــود فهو يجهل عالما لايكفي فيه ان يطلب حتى ينـــال مايطلب فهو يحاسبنا لأننا اخفينا عنه كل شـــيء، لأننا اعددناه للحياة اسوأ اعداد .

العبارات المحجرة

« كاذب » و « سارق » كلمتان لايتفوه بهما الكهل عند مخاطبته طفلا صغيرا ففي هذا الســن لايملك الطفل بعد معنى اخلاقيا ، كيف لـــه ان يميز بين الخير والشر ، كيف له أن يكون كاذبـــا او سارقا ولكن اذا تفوهنا بهذه العبارات نجعلـــه عرضه للكذب واذا ادرك أننا نعتبره كاذبا فقـــد يصبح كاذبا فعـــلا .

والكـــذب هـــو اول عيـــب يخشـــاه الآباء

حسب تحقيق قام به « روز فانسان » في بيئات مختلفة ، اذا شاطرك هذه الاغلبية 75٪ من الآباء الراي فاعلمي جيدا ان صراحة طفلك ليست سوى ثمرة استقامتك . احذري خاصة الأكاذيب الاجتماعية . . .

امثلـه :ـ

كان تقولي في الهاتف ، زوجي ليس هنا بينما هو الى جانبك .

في الكمارك : ليس عندي ما أصرح به بينما تعلم كل العائلة ان الساعة الجديدة في معصمك ولعلك بعد حين تقصين الحدث بافتخار لصديقاتك . ولاتضمن لك هذه الاحتياطات أن ابنك لايكذب ابدا فربما يدفعه طبعه الى خرق الحقيقة ويسمع آخرين يكذبون ولكن المهم ان لا يسمعك انت بالذات تكذبين .

تربية الطبع

يسارع الآباء اليوم أكثر من أي وقت مضى في تربية الطبع ، فصعوبات الحياة تزداد لذا يجب أن نسلح اطفالنا . . .

اجمعاخصائيو الطفولة وعلماؤها النفسانيون وخبراؤها على ان الاضطرابات في الطبع التي تلازم البعض طوال حياتهم تبدأ جذورها فيالطفولة الأولى ، ليس كل الاضطرابات ولكن أكبرها خطرا ، تلك التي تمنع الشخص حقا من الاشراق في الحياة ونعني مركب النقص والتذبذب والعدوانية .

نذكر أول **مركب النقص** فهو الذي يخلق الخجولين ومحطمي العزيمة والمرضى بالفشل وكذلك من هم على نقيضهم ظاهريا : الأفظاظ والمتكبرين زيفا أولئك الذين يتابهون ليخفوا شعورهم بنقصهم . ان مركب النقص أسوا العاهات الأخلاقية فالمصاب به يكون معزولا غير مرغوب فيه ونحكم عليه بأنه تافه ومغرور ومحتقر في حين أنه يستحق العطف فقط ، « دع هذا » ، « لاتزال صغيرا » ، « لن تبلغ ذلك أبدا » ، « لاتستطيع » « لاتعرف » .

العدوانية : هي التي تنتج المنحرفين والثائرين على من يكبرهم وخاصة الآباء .

لماذا يكون المراهق عدوانيا ؟

عادة لأننا لم نعره اهتماما كبيرا عندما كان طفلا . يرغب في القسوة والشدة ليرغم ويجذب انظار ام شاردة الذهن وأب مشغول كثيرا . ونجد من هذه الكراهية المستقبلة بتفهمنا له اليوم وبالوقت الذي نخصصه لطفلنا وبالفرح الذي نظهره امام ابتسامته الأولى او خطوته الأولى وبالاهتمام الذي نعيره لأسئلته وأفعاله وحركاته دون أن نبلغ حد اقلاقه .

التذبذب : هي التي تخلق القلقين والمسترقين الذين يبنون قصورا و يعيشون في الخيال وقد تخلق اللا اجتماعيين والمنحرفين لأن المراهق المتذبذب يشعر بالفشل لذا يريد أن يفرض نفسه على المجتمع .

كيف ينشأ المتذبذب ؟

بحرمان الطفل من احدى حاجاته الأساسية مثل الأمن . والأمن يختل بفوضى واضطراب يعمان البيت نتيجة غياب الأب والأم المتقطع والتشاجر والتنقلات المتواصلة . وتشير الاحصائيات الأخيرة في فرنسا الى أن سبع مائة منحرفا من مجموع ألف والداهم مطلقون . ويروي السيد « شزال » قاضي الاطفال بمحكمة « لاسان » أنه شاهد في الاكواخ عائلات منسجمة واطفالا منشرحين في حين ان الأطفال الذين مثلوا امامه في المحكمة ياتونه من عائلات ثرية ولكن غير مستقرة .

نظرته اليكم :

ان الجنة في نظر الطفل هي ان يصبح كهلا اذ لا أحد يرغم الكبار على النوم في الساعة السابعة أو على تناول السبانخ أو على التحية وللكبار حق الخروج ليلا . . .

ولكن لكل دوره : الأب هو المسؤول والبطل فهو الذي يصدر الأوامر وهذا طبيعي انه الأكبر والأقوى والام هي الساحرة : تهدهد وتسلي تقدم الطعام والشراب لذا ليس بامكانك التصريح بأنك حزينة أو بانك لا تعرفين ما تفعلين أو بانك مريضة فهذا يزعج طفلك لأنه يثمن الأمن في كنفك ولأنه يجدك جميلة فكوني معتنية بنفسك .

لنقل ان هذا الاعجاب المطلق في السنوات الاولى (وهي التي تعنينا) لا يثبت ضرورة اذ يندفع الطفل الى التقييم عندما يبلغ مستوى التفكير فقد يحدث ان ينقد والديه ثم في سن المراهقة سواء اثبت الاعجاب ام انتصر النقد وفي سن الكهولة سواء بحث الطفل على مماثلتكم أو الاختلاف عنكم ولكن في كل الأحوال فان الصورة التي يحملها عنكم تلعب دورا حاسما في حياته .

لا تقل ! ـ

اذا كنت على سفر لاتقل : لا أدري هل عندي البنزين الكافي لأبلغ المحطة القادمة وعندما تشعل المدفأة الغازية لاتقل ينبغي أن نصلحها والا فستنفجر في يوم من الأيام فكر في هذا ولكن لاتصرح به أبدا أمام طفلك فقد يتأثر طفل عادي الى درجة الهوس نتيجة تخوف تحدثه مثل هذه الجمل .

التربية في صمت

ليس أعسر من تقديم نصائح في ميدانالتربية لما تتصف به من طابع عام لايتناسب مع انماط الأطفال والآباء المختلفين الى مالا نهاية له ،ومهما يكن فاني اغامر بذكر نصيحة اخيرة مثل ما يقول السيد « تليراند » لمعاونيه : « اجتنبوا خاصة الحماس ، لاترددوا دوما : قل صباح الخير ، استقم ، فكر في غيرك » فلا يكونلكم ولطفلكم وقت للراحة . خذا معا فترة للأستراحة. اضحكي وامرجي مع طفلك او اسمعيه على الأقل او باختصار اغتنمي وجوده فغدا يذهب الى المدرسة ولات ساعة مندم .

ترتكبين هفوات ولا تكون احداها خطرة اذا غمر ابنك الحنان وتدلكم هذه المقارنة على ماأريد ابلاغه ، لا يلحق الصغير الذي يرضع حليب أمه اي مرض خطير الا نادرا لأنه يمتلك الأساس : حليب امه . كذلك فلا خطر يحدق بالطفل المغمور حبا. على كل لا تتوهموا أن ما تقولونه لطفلكم هو مايطبعه أكثر من غيره ولكن ماتقومون به أمامه . لاتكونه أوامركم ونواهيكم انما الطريقة التي تعيشون بها أمامه بما فيها مشاغلكم واهتماماتكم وأذواقكم ومحادثاتكم مع ازواجكم وأصدقائكم والاطار الذي تربونه فيه ومزاجكم وابتسامتكم وانتباهكم لهؤلاء وهؤلائك ومطالعاتكم والجرائد الموضوعة علىالمنضدة وما تسمعونه مناسطوانات وما تشاهدونه من برامج تلفزية . . .

بالعيش مع الطفل دون أن نتوجه اليه مباشرة ودون أن نبث المبادىء الأساسية نعلمه اهم ماينبغي أن يعرفه واذا ناقضت الافعال الاقوال فالافعال تطبعه أكثر . فالتربية الوحيدة التي تقدمها في النهاية هيالتربية في صمت .

ترجمة : رضا الكشو

و

راضية عبيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في المكتبة

الروائي وتجربتة البرناسية

بقلم الناقد فيليب توينبي

■ يحس الشعراء الشبان في الواقع بسعادة اكثر عندما يتشكلون بمجموعة شعرية ، كما ان عمل النقاد يكون اكثر سهولة ويسرا في عملية التصنيف والفرز ، بيد انهم بعد تجاوز مرحلة الشباب وتقدمهم في السن يشعرون بما فيه من كفاية القوة للانبثاق من الرحم الدافىء لمضمون تلك المجموعة من الشعراء ، وبالتالي الشعور بالاستحسان الواثق من قبل أولئك الذين شاركوا معهم.

ان هذا الاتجاه لابد ان يؤدي الى اقلاق النقاد وحنقهم الذين يجابهون اليوم عملا شاقا يتعلق باصدار الحكم على كل شاعر منفردا فيما يتعلق بحضوره الخاص ، بدلا من اصدار القرار الشامل بالنسبة للمجموعة مرة واحدة ، وفي استعمال بياناتهم الشعرية كوسائل متممة للحكم .

في اواسط الخمسينات .. اعلنت مجموعة جديدة عن نفسها واطلقت عليها أو انها سميت بالمجموعة الهادئة البسيطة الواثقة واكبر اعضاء هذه الحركة البارزة « فيليب لاركين » و « كنكسلي اميز » و « دونالد ديڤي » و « اليزابيث جينكيز » غير انني اتذكر ان احدهم الذي كان متميزا بين تلك الحركة وهو « روبرت كونكويست » قد أفلح في ايجاد وسيلة للخروج من ذلك الوعاء الكدر الصغير .

وفي الاربعنيات .. كانت هناك ايضا مجموعة من الشعراء تمارس نوعا من الضبابية وعدم الوضوح والاسراف في الغموض والرومانسية المبهمة وقد تاثرت بالشاعر « ديلان توماس » ، لكنها لم تلبث ان هاجمت زعيمها ورفعت راية التصدي والمنافسة بقيادة الشاعر «ويليام امبسون» ودخلت في معركة حامية ، مستخدمة ـ كما فعلت من قبل ـ العصي والمطارق ضد اسلافهم من مستخدمي البنادق القديمة الصنع ، مطالبة باسقاط فن الخطابة وعلم البيان والاعتداد بالنفس ومنادية بسيادة العقل الحصيف ، وسلوك منهج الاستخفاف بالذات .

حقا .. لقد كانت جميع تلك المساجلات والمعارك هزلا طيبا ودعابة فريدة من نوعها ، غير ان « سفر الرؤيا » و « الحركة » اليوم ليسا مسرحين عن العمل طويلا او مشتتين فقط ، بل ان الناقد او متخير المقتطفات الادبية الذي يتطلع الى الوراء ، ويتفحص هاتيك الايام سيجد ولا شك شيئا من الاهمية وبعضا من الاهتمام بين الجمهور نفسه اكثر مما يجد بين اولئك الذين جعلوا من انفسهم فريقا للمباراة في المشاجرة او المشاكسة .

وفي بعض الاحيان نرى ان ان هناك بعض المعوقات التي تصيب الشاعر في البدايات ، غير ان بين مجموع شعراء تلك الحركة .. يظل الشاعر « اميز » اكثرهم امانة واخلاصا الى بيانها الاصلي ومبادئها ، ولم يكن الامر لانه افلح في تطوير نفسه كشاعر ، ووسع من مدار نشاطه وعمله ، بل لانه حقق بجدارة الامرين معا وبمنتهى العدالة والثقة في رواياته ايضا ، بيد ان « الموقف » تبقى جديرة بالاهتمام الذي لا يتحول كرواية متميزة ، ذلك اننا نرى الفرد الهادىء ، المجرد من ركام الاوهام، أو الانسان الغاضب ، والمفكر الكئيب يعكس نوعا نمطيا من الاشكال الباعثة على الجو التهكمي بحيث يترك ذكرى حادة من السخرية بقدر اكبر مما تثيره تلك النفس المعنية بالاستهزاء .

وكان التاثير المبكر في كل ذلك قد تحدر بكل وضوح من الشاعر الكبير « اودن » . وبكل اطمئنان يمكنني القول بانه ليست هناك قصيدة واحدة في هذه المجموعة الشعرية يقدر لها ان تكون بوضعها الحالي من الجودة لو ان « اودن » لم يكتب انماطا شعرية مماثلة لها ؛

الطائرات .. يظهرها التاريخ برعونة
والحرب في الموضع الرديء وفي اليوم غير المعتاد
انه الغباء في مصير طلقة الرصاص
والثلمة المباشرة في الطموح تجعلان الجميع يتكلم وحيدا

ذلك مقطع من قصيدة جيدة كتبت في البدايات بعنوان « الشتاء المضحك » :

اشباح الميت تلوح
هكذا .. او هكذا خلل الثنية وفي الموعد المحدد
وخارج الظلام .. وفي ليلة واحدة من السنة
تبدو للانسان المعوج
بعد بصيص من الايماء

تلك ابيات مستلة من قصيدة متاخرة بعنوان « ضائع » غير ان شبح « أودن » الرمزي مازال يظهر خلل تلك الثنية من الزمن على الرغم من انه اليوم اثر وبالشكل الملائم في تركيب«أميز» وشكله الشعري ، ولكن من وجهة نظر شعرية فردية .

وفي الحقيقة.. ان «بتيجمان» يمثل اكثر من « أودن » في المسالة الشعرية المتأخرة ، واكثر من « لاركن » كذلك .

وبالنسبة الى « أميز » استطيع التعبير عن سعادتي بالقول بانني أذهب معه بعيدا اكثر من اولئك الثلاثة .

وبعبارة اخرى .. ان«اميز» كان يعرف كيف يأخذ مايريد من الاخرين ، وكيف يحيلها الى مادة مملوكة له .

ان أغلب القصائد تضمنتها المجموعات الشعرية هنا ..ليس بالامكان لأحد أن يقدر على كتابتها .

ان مجموعة متناثرة ـ 128 قصيدة خلال 35 سنة فقط ـ لم تجعل حتى الآن من « اميز » شاعرا للحظات المهدورة ، يبدد الزمن بين العمل الجدي في كتابة الروايات ، وتهيئة سبل عيشه .

وعلى النقيض .. نحن نستقي المعلومات مما يضيفه الناشر من نعوت لمضامين الكتاب على الغلاف الخارجي .. ان « اميز » يعتقد بصورة راسخة ، بان الشعر ينبغي ان يكون فنا عاليا اكثر من كونه وظيفة او مهنة عابرة ، ولابد انه ناضل طويلا وباناة وصبر في خلق اشعاره ، كما انه طرح جانبا وبكل صرامة الكثير من الشعر الرث او الهابط .

ومن النتيجة التي يمكن استخلاصها .. نجد ان هذه المجموعة لاتضم اكثر من اثنتي عشرة قصيدة رديئة من جهة ، وربما لاتتعدى خمسين قصيدة تتسم بالروعة المتناهية والدهشة البالغة ، كما ان الخطيئة تكمن في الاصرار على الاهتمام والاعتداد والتباهي الذي يبدو متكلفا او قسريا ، أو مثل لكمة عنيفة اصابها الاخفاق او نوعا من التحفظ والاحتراس ،حتى بالنسبة لقصائد الحزن والكتابة والضياع .

ان افضل الشعراء المبدعين ليسوا بحاجة الى أن يصمموا لهم موقفا وضعيا محددا ، بل يكيفون رواقهم بكامله طبقا لما يحتاجون في عملية تصنيف قصائدهم .

ان « اميز » لايفتقر الى قابلية التكيف او عدم المرونة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العقلية كما يبدي ذلك .. وعلى سبيل المثال ، في احدى قصائده الجميلة القصيرة التي تتسم بالمحاكاة الساخرة .. نجده يستخدم ذلك التنوع العظيم من اشكاله الشعرية ، وفي مدى قابليته للانسلال العفوي من الرصانة والاسلوب البلاغي من خلال سلوكه الوصف الشعبي المعقد الذي تمتاز به كل قطعة من الفصاحة ذاتها .

وهناك الكثير من القصائد الرائعة التي تستحق الكتابة عنها وبجدارة لكنني سأركز على واحدة منها وعنوانها « قيمة المعاناة » التي تدور حول الاتجاه الثالث في الكتاب .

صحيح ان العنوان تهكمي ، غير ان المعالجة غنية تماما في نسيجها و نبرتها مفعمة بالندم بصورة رقيقة ..

وفي بيتين من الشعر في هذه القصيدة تستطيع قراءة قصة امير من القرون الوسطى بعد حياته :

كانت محاطة لسنوات
ومتميزة في الهيكل والشعور
وبكل ما يؤكد ضمانتها
لكنه هجر مقصورته ..
للخراب
واصبح راهبا مشردا

ان البيت الشعري الاخير يدلنا بجلاء الى التفسير الندمي الحزين للشاعر بصورة اكثر بعدا ومدى تاثيرا وبشكل هادىء ومنطو على التعبير الماكر :

اي عار مخجل
ان يفرض على القصر الفخم
الدمار
وان حاشيته تموت
وكل نفائسه الاثيرة تلاقي
المشقات
والاغتصاب الجديد يؤكد
التناقض
انها تشير الى انسان محدد
خاصة منذ ان استطاع هذا
الانسان
ان يرى كل مايدور هناك
ليس عن طريق الضحك وحده
الذي كان يثيره مرح والده
بل بتحول مواقعه مع سائسي
الخليل
خلل الثانية ، الستين من
تامله

ان الحكم على قصيدة ناجحة يبرز من خلال التلقي الجيد للقارىء الذي لا يتعامل عاطفيا مع مضمونها بشكل مسبق .

اما انا ، فافضل شخصيا اولئك الذين اصبحوا رهبانا ولقد احببت هذا الكتاب ، لأنه يحقق الاشتباك بطريقة افضل من حد السيف .. انني احترم القدسية اكثر من القوة العالية والتخمة ، بيد انني بعد قراءة القصيدة [illegible] القوي ، مع ما تخللها من ذرائع رقيقة بالنسبة لمجموعة من القيم المضادة الاخرى تحولت ولو بشكل موقت على الاقل الى جانبه ، كما وجدتني منضما بافضليتي الى ذلك الراهب ، وباسف ما الى الأمير ، وبعاطفة جديدة الى اريافه المهجورة !! .

ولكي انهي مقالتي بنفس ضربة السوط كما اختار « اميز » الخاتمة الاخيرة لقصائده .. لابد لي ان اثبت هنا تعقيبه الرائع الممتع على ملاحظة تافهة لترنيمة جنائزية اطلقها « جيمس شيرلي » في يوم ما :

ان اعمال الانصاف
تتنسم وحدها العلوية
ورائحة النور
في اعماق اتربتها
وتحقيق العدالة كثيرا
وبنفس مستوى الطيبة
وكرفسة ذكية في زاوية
منفرجة

« قصائد مختارة » الكتاب الاخير الذي صدر للشاعر كنكسلي اميز ويضم قصائده للفترة من 1944 الى 1979 .

◆ ترجمة : علي الحلي

الثنائية اللندنية

■ سميره المانع تقدم لنا من لندن ، رواية جديدة اسمها « الثنائية اللندنية» بعد «السابقون واللاحقون» رواية (بيروت 1972) و « الغناء ـ مجموعة قصص بغداد 1967 » ..

في هذه الثنائية ازدواج خراج، تصطرع فيه وحدات الشرق ، وحالات الغرب .. الرسائل هي المحور الاساس في « الثنائية ... » بين «منى» (البطلة ـ ان حقت التسمية ـ) و « سليم » (البطل) أو الطرف الاخر في المعادل النفسي والوجداني الذي تقوم عليه اساسيات بناء هذه «الثنائية» .

[illegible] لغتها البسيطة العذبة ، لاحذلقة و (افتعال) وهي بالتالي قريبة الى النفس ، لكنها «في الرسائل» تخرج على «التقريرية» بصيغة مبررة ، ان اعتماد «الرسالة» مادة قصصية ، هي الفة لذكريات ماض تحاول سميره اعادة صياغته وتغذيته بافكار المناخ الذي يحيطها .

دون شك ، بعضنا قد يستأنس افكار « الثنائية .. اللندنية » وبعضنا يعتبرها مادة وعظية في بعض جوانبها .. وان اتت احيانا على لسان مستر روجرز او « سليم » او « منى » كما في مدخل « الثنائية » عن مقتل ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن ..

ان زاوية النظر في « الثنائية » لا تتخلص من نمط التفكير الانكليزي، البارد احيانا ، والمشبع بالملاحظات النقدية التي لا تتواءم مع حس الشرقي الذي يعيش تناقضات عالمه ـ على ارضه وليس بعيدا عنها ـ وعلى اية حال فان سميره المانع أرادت ان تقول شيئا فقالته .. بعيدا عن تقنية السياقات المالوفة في « الرواية العربية » ، وبلغة تحتفظ بالكثير من رونقها الشفاف وتلقائيتها الظاهرية .. ◆

الزوج الممتاز

■ تعتبر رواية الكاتبة الانكليزية باميلا هانسفورد جونسون الجديدة « الزوج الممتاز » تتمة لروايتها السابقة « موهبة خاصة » . وقد كتبت الناقدة آن دوشان في ملحق التايمز الادبي قائلة : « ان جونسون قدمت بلا شك اسهامة كبيرة في ادب بريطانيا المعاصر . انها خلقت شخصيات ساطعة لا تغيب عن البال ، كما انها كانت تستطيع دائما فهم وعكس هموم ومعاناة الناس المختنقين باجواء رقابة الحياة المملة » . في الرواية الجديدة ايضا يبقى البطل الرئيسي هو طوبي روبرتس وهو شاب ينحدر من الطبقة الانكليزية المتوسطة استطاع بفضل مواهبه العملية الحصول على منصب مريح في احد المصارف .

طوبي الان متزوج (يتذكر قراء الرواية السابقة انه كان لا يقدم على الزواج خوفا من الفشل في العثور على زوجة مناسبة) وزوجته المختارة هي امراة تكبره بكثير ولكنها تتيح لطوبي تحسين حالته الاجتماعية .

وتظهر في الرواية الجديدة شخصيات اخرى من رواية «موهبة خاصة » كزملاء طوبي في الجامعة واصدقاؤه الجدد في الوسط الاجتماعي .

وتموت أم طوبي وهي الفنانة الموهوبة التي تسمو على ابنها الوصولي كثيرا بقيمها الاخلاقية .

وكما تذكر الناقدة دوشان بحق فاننا نرى بالتدريج كيف تتوضح لوحة المجتمع على خلفية من ابطال الرواية الذين تعرف باميلا هانسفورد جونسون جيدا كيف تقدمهم . ◆

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اناديك ياملكي وحبيبي

■ عن دار الآداب ببيروت صدرت حديثا المجموعة الجديدة للشاعر محمد علي شمس الدين والشاعر في هذه المجموعة لايعبر عن ماساة الجنوب اللبناني الصامد بوجه العمالة المتمثلة بسعد حداد والتهديد الصهيوني فحسب . وانما يتعدى ذلك بالاحاطة بهموم كل الوطن العربي .. وسواء شاء أم ابى الشاعر محمد علي شمس الدين فاننا سنتعرض الى قصائده بهذهالمجموعة الجديدة (اناديك ياملكي وحبيبي) على انها قصائد جنوبية تساهم في المقاومة وفي تاكيد صمود الانسان العربي في لبنان .

(صباح التعب) اولى قصائد المجموعة .. تستمد شفافيتها من الاوزان ذات الشحنة الموسيقية العالية التي توزعت القصيدة عليها فقد اختارها الشاعر (المتدارك ـ المتقارب ـ الرمل ـ الخبب) وقد كان الشاعر موفقا تماما في الانتقال من وزن الى آخر بدون ان تفلت من يده خيوط القصيدة .. وللواقع المر انعكاساته فيها لذلك نرى انالشاعر يبوح لنا :

تغيرت حزني قناعا اخيرا

صباحا اخيرا ياصباح التعب ..

ولطالما اخذت المراة شكل الوطن على امتداد خارطة الشعر العربي ويشاركهم الشاعر محمد علي شمس الدين في اقتناص هذا الرمز فتاخذ (منيرفا) قناع الوطن وتتسلل عبره فتكون زرقاء اليمامة المعاصرة او بلقيس ولكنها تبدو محاصرة بحراب الشرطة ويظل الشاعر (العاشق الاصيل) الذي لم تشوهه الخيانات ولم تضعف حبه لهذه الارض :

لست هجينا

لكني البدوي تبردت قدماه على

شطآن المتوسط

لم يخسر الا الحمى ..

ـ انت الحمى ـ

....

ونسيت بان اسمك زرقاء النظرات

ودفنت عيونك في الصحراء

نسيت قليلا احلامي ..

غير ان هذا التعب الذي تحمله القصيدة (والذي هو نتيجةموضوعية لواقع الجنوب اللبناني) لايسيطر على الشاعر ويوقعه في مصيدةالياس القاتم فمازالت فيه روح الامل والثورة الرافضة :

سالغي مواعيد هذا البكاء

وانسى باني مريض

وانك انثى بعيده ..

في قصيدة اناديك ياملكي وحبيبي والتي حمل الديوان اسمها يستفيد الشاعر من الحوار في اغنائها .. والحوار في هذه القصيدة حوار متفاعل ينبع من داخل القصيدة فلا يتعب القاريء ولا يثقل القصيدة باستطارادات لاموجب لها ..

ـ.. تخاطب من

ايها الحاكم في الارض

ـ.. اخاطب نفسي

ـ.. من انت ياسيدي .

ـ.. انا حارس هذا الركام

في هذه القصيدة تحس ان بعض مقاطعها قريبة من شعر المقاومة وبالذات من الشاعر محمود درويش وربما كان ذلك من وحدة الموضوع وهمومه :

كل شي هنا قابل للخديعه

النساء الرجال البحار السماء الكلاب

الممالك

....

تلوب الجبال الرمال الدمى

يلوب الزبد

تلوب البحار التي تفصل العاشقين

ولكنني خائف ان تكون البحار التي

بيننا

غير موصلة للهوى ..

والشاعر في هذه القصيدة يكشف اوراق اللعبة الطائفية التي يلعبها اليمين اللبناني والتي يدفع ثمنها الناس البسطاء الذينغرر بهم:

ليس لي ندم غير هذا الهوى ..

انهم خدعوني

انهم عرضوا جثتي في مزاد

بفلسطين من فضة كاذبه

هذه القصيدة (اناديك ياملكي وحبيبي) تشترك مع قصيدة(صباح التعب) بنفس المعالجة الشعرية للحدث فتتعدد الرموز والاشخاص لتحريك جو القصيدة ومنحها ديناميكية التواصل لكسر طوقالملل الذي يصعب القاريء عندما يعالج قصيدة طويلة يحملها اليه صوتواحد ورمز واحد .

الموت يحتل المساحه ويفترش ارضية قصيدة (درشة القتله) .. ولأنها تمتلك نفساً قصيرا وموضوعا مركزا واحدا فانها تنمو وتتكثف حد التازم وبذلك تمنح الضربة الشعرية الاخيره الغرض المطلوب :

الذي يفضل الشمس عن طفلها

ورشة القاتلين

هنا كل موت بمقداره ..

في عموم القصائد القصيرة التي احتوتها المجموعة تبدو قدرة الشاعر الكبيرة والماعة باسرار العملية الشعرية واختيارة الاوزان الشعرية الملائمة لطبيعة الحدث .. وتاكيد صوته الشعري المتميز .. ولست ادري لماذا يخيل للقاري، ان قصيدة (اغنية معدنية) هي قصيدة تعتمد تجربة سعدي يوسف في اختيار المفردة أو التشكيل الفني :

فجاة

العصافير ذات المخالب

العصافير ذات المناقير معقوفة

والرؤوس المدببة المعدنية

العصافير نازية

العصا (....)

وبعد ..

ان الشاعر محمد علي شمس الدين شاعر كبير بحق .. وتعتبر مجموعته الشعرية الجديدة اضافة للشعر العربي المعاصر وتعبيرا عن روح شعبنا العربي في الجنوب اللبناني في المقاومه والانتماء القومي.

جواد الحطاب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عزال حمد السالم

رواية من تاليف عادل عبد الجبار

■ «عزال حمد السالم» العمل الروائي الثاني لعادل عبد الجبار .. فقد اصدر روايته الاولى في عام 1973 وكانت بعنوان «في يوم غزير المطر ، في يوم شديد القيظ» .

وتتناول روايته الثانية هذه ثلاث مسائل تسير بشكل متواز على امتداد صفحاتها التي تجاوزت الخمسمائة .. المسالة الاولى مسالة سياسية وتتعلق بالطعنة الغادرة التي وجهها حكم عبد السلام عارف الى حزب البعث العربي الاشتراكي في الردة المشهورة بردة تشرين السوداء في عام 1963 . وتتمثل في احد شباب الحزب «منذر سعيد» الذي تطارده السلطات العارفية بتهم باطلة . والثانية مسالة اجتماعية وتتعلق بما تنطوي عليه الاعراف العشائرية من تناقضات وقيم حميدة وباطلة ، اهمها الكرم والشجاعة وحماية الضعيف والقتل والنهي عن الزواج من بنات الاعمام .. والثالثة مسالة عاطفية وتتمثل في حادثتي حب وقع فيهما كل من حمد السالم ومنذر سعيد مع فتاتين اعرابيتين شابتين .

تبدأ الرواية بلجوء منذر سعيد الى عزال حمد السالم الكائن في ناحية ما من قضاء الفلوجة هربا من مطاردة السلطات العارفية له بعد ردة تشرين باعتباره بعثيا ينشد تحرر وطنه من التجزئة والتبعية والقهر الاجتماعي ..

وحمد السالم اعرابي شجاع كريم النفس مضياف يقيم لوحده في عزال بناه بنفسه في ناحية ما من الفلوجة بالقرب من نهر الفرات ، وقد ارشد منذر اليه رفيق له في النضال يدعي حميد مزبان .

وكعادة حمد السالم فانه يرحب بمنذر ويدعوه الى الاقامة بعزاله ماشاءت له الاقامة دون ان يساوره اي خوف لأنه دخل في حمايته وليست هناك قوة تستطيع النيل منه مادام حيا .

وفي المنطقة نفسها يعيش في عزال آخر لايبعد كثيرا عن عزال حمد السالم شيخ عجوز أدرد يتصف بالجبن والمخاتلة يدعي مرهون مع فتاة اعرابية جميلة جدا كان قد عقد عليها قرانه غفلة بعد ان قتل ابن عمها «مالك» الذي كانت تحبه ويحبها في حادث عشائري بالرغم من انه كان عنينا وتدعى سليمة ، ومرهون هذا كان يخاف حمد السالم خوفا شديدا ويخشاه الى ابعد حد .

في الفصول الاولى من الرواية نشاهد سكونا ملحوظا في سيرها . اذ يقتصر الحدث فيها على استرجاع منذر لطريقة هروبه من بغداد الجديدة الى الفلوجة ومنها الى عزال حمد السالم . وعلى عاطفة الحب التي تنشا بين منذر وزوجة مرهون السابقة سليمة وعلى جزيئات يومية من حياة حمد السالم الشاقة . ومنذ اليوم الاول من وصول منذر او الثاني يدرك حمد السالم كنه العاطفة التي بدأت تنمو بين الفتى والفتاة . فيبادلها على حذر ، لانه سبق ان مر بتجربة حب مع فتاة جميلة من عشيرة مجاورة ، ولكنه لم يستطع التقرب منها بسبب ابناء عمومتها الستة الذين نهوا عن زواجها من غريب . ولأنه كان يدرك ان بقاء هذه الفتاة الجميلة مع مثل هذا العجوز العنين الاخرف ظلم لا ترضى به السماء نفسها .

وتمضي الاحداث على هذا المنوال من البطء ، لقاء بريء بين منذر وسليمة ، وذهاب الى الواحات بقصد المتاجرة ، او الى الفلوجة للابتضاع حتى يجيئه في يوم صديقه ورفيقه في النضال حميد مزبان حاملا اليه رسالة من الحزب ويطلب منه السفر الى سوريا في مهمة حزبية مستعجلة .. وبعد التشاور مع حمد السالم يتمكن الاخير من تسفيره الى سوريا رغم ايشاء مرهون بسفره الى بعض الاشخاص الحاقدين في الفلوجة والمتعاونين مع السلطات العارفية بحكم ارتباطهم العشائري .. ويكون نتيجة الكمين الذي نصبه له اولئك الحاقدون ومن ضمنهم مرهون قتل مرهون نفسه وعدد من المتآمرين معه .. وفي سوريا يلتقي منذر بالرفاق الذين كلف بالذهاب اليهم ، ويفهم انهم مكلفون بايصال شحنة من الاسلحة الى بغداد عن طريق الموصل .. وتتم العملية بنجاح ، وفي مشارف الموصل يلتقي كل من حمد السالم وحبيبته زكية واخيها صكبان وسليمة واثنين من ابناء العشيرة . وكان صكبان شقيق زكية هذا يرفض منذ البداية هذه التقاليد البالية ويؤيد زواج اخته زكية من حمد السالم لانهما يحبان بعضهما ، ولأن ابناء عمومته قد وافقوا على زواجها من ابن عمهم الكبير المتزوج ، فاتفق مع حمد السالم على ان يجيء بها وسليمة التي اصبحت حرة ، ويذهبوا جميعا الى قرية من قرى الموصل . حيث يقيمون هناك عند ابن عم لهم ومنها يكون اتصالهم بين حلب والموصل بقصد الاتجار .

وبعد ان يتم اللقاء هذا ويتعارف الجميع يتم الاتفاق بين منذر وحمد السالم على ان يكون زواجهما في ليلة واحدة ، حمد السالم يتزوج من غرام صباه زكية ، ومنذر يتزوج من فتاته سليمة ..

ويواصل منذر وزوجته سليمة ورفاقه السوريون سفرهم مع الاسلحة الى بغداد لا لكي ينعم بزواج هانيء ، وانما ليواصل النضال من أجل مبادىء الحزب واهدافه الكبرى في التحرير من الظلم والتبعية .

الرواية كما هو واضح تنتمي الى الاعمال التي تجسد نضال حزب البعث العربي الاشتراكي ومقاومته العنيدة لرصاص الحكومات التي ارتبطت بشكل او بآخر بالتبعية الاجنبية ، وتحدد في الوقت ذاته علائق مرفوضة كانت ماتزال تهيمن على سكان الريف الى جانب صفات اخرى تعتبر علامات مضيئة في حياتها الداخلية . اما الجوانب الاخرى التي لها علاقة بالفن الروائي بشكل عام ، كبطء الحدث مرة وخلوه اخرى ، وادارة حوار لايهدف الى شيء انما لمجرد قتل الوقت كما يقال ، فان من الممكن التغاضي عنها مادام هناك مايعوض عنها . ◆

تلك النيران الزرقاء

■ تضم المجموعة عشر قصص ذات مضامين مختلفة بالرغم من انها تستمد مادتها الخام من الواقع الاجتماعي والسياسي لفلسطين والعراق بشكل خاص . ونظرة سريعة نلقيها على عناوين المجموعة مثل «القمر يحي الثوار» ومضمونها عن النضال السري لحزب البعث العربي الاشتراكي ، و «الدمية» وموضوعها مستمد مما هو متوارث شعبيا ويتلخص في الحنان الدافق الذي تسفحه ام عاقر على دمية جامدة . و «الشمس وراء البرتقال» وتعكس هموم الشعب الكردي في صراعه مع قوى الطبيعة . و «الشحارير وخيوط النار» وتنقل لنا جحيم النار الذي اندلع في تل الزعتر . وغيرها من المواضيع .

نجد انها بالرغم من توحد المصدر الا ان هناك تفردا لكل اقصوصة وان بعضها يسودها جو شعري شفاف .

مملكة الحرف

■ بعد مجاميعه الشعرية الثلاث الاولى « نبضات قلب والامل الظمآن وقنديل في العاصفة» صدرت للشاعر الدكتور محمد حسين آل ياسين عن وزارة الثقافة والفنون مجموعته الشعرية الرابعة « مملكة الحرف » وهي تحتوي على اثنتين وعشرين قصيدة تكاد تلتقي معظمها في محور متميز هو التواصل من خلال التوهجات الذاتيةمع الاحداث الكبيرة التي تمر بها الامة مرورا عاصفا وتعاني ما تعاني من صراعات تستحيل في اكثر من موقع الى فرز حقيقي لكل القيم الفكرية السائدة التي لم تعد تتلاءم مع المرحلة الراهنة ولا مع الطموحات الجديدة التي اخذ ابناؤها يتبنونها تمشيا مع روح العصر والمفاهيم الفكرية المتطورة للمبادىء القومية في المجتمع العربي الحديث .

وقد اظهر الشاعر قدرته الشعرية ومكنته اللغوية في بناء القصيدة العمودية التي تؤلف القسم الاكبر من مجموعته الجديدة حيث يمكن القول بأنه واحد من الشعراء الذين ما يزالون يمتلكون قوة الاداء وجزالة التركيب في البناء الشعري للقصيدة العمودية الاصيلة .

ولعل القصيدة التي يستفتح بها مجموعته والتي اسماها « غد الشعر » خير مثال على ما نقول :

ما طال بي وانا في سكرة أمد
اوتاه بي خاطر ينأى ويبتعد
حتى ارى شبحا تدنيه خطوته
مني وفي مقلتيه يستفيق غد
غد يتوجه مجد ويرفده
وحي وتمتد منه للنجوم يد
غد ارى لبنات الفن قد شمخت
صرحا وقام به من عزمة وتد

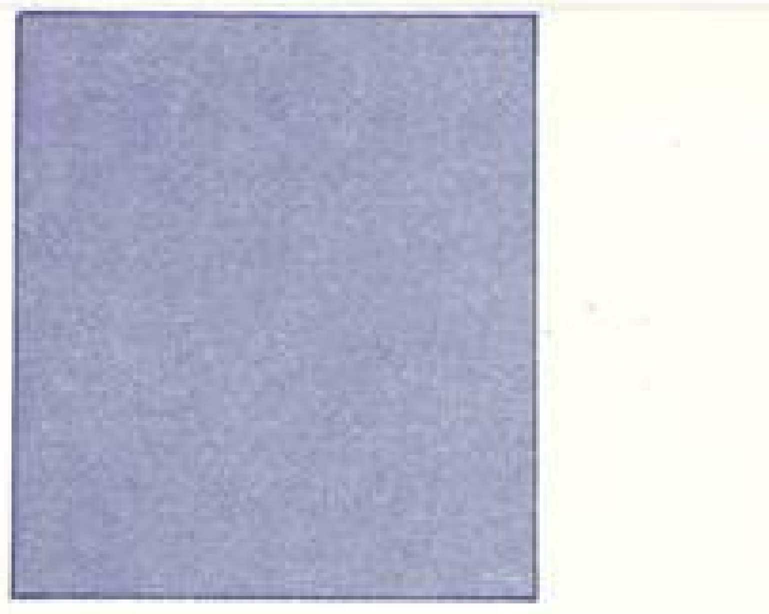

الممر

■ هذه واحدة من روايات الحرب ، تنتمي الى مجموعة من الاعمال التي ظهرت خلال السنوات الاخيرة ، كوابيس بيروت لغادة السمان ، الفارس القتيل يترجل لألياس الديري ، وغيرهما .. كما انها الرواية الاولى لياسين رفاعيه الذي عرفناه من قبل في مجاميع قصصية متميزة اضافة الى مجاميع عامة واصيلة من القصائد المنشورة .

الرواية من منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق عام 1978 تنحصر مكانا في ممر من احدى الشقق في عمارة معرضة للقصف ، وليس فيها غير بطلين فقط ، رجل وامراة ، لا معرفة مسبقة بينهما يجدان نفسيهما في هذا الممر ، كانت المراة خارجة لزيارة اخت لها في المستشفى فكان ان حوصرت بالقذائف ، وكان باب بيته أول باب يفتح لها ، هو اعزب وله خطيبة ، وهي متزوجة عن حب ولها طفلة جميلة ، هو مسلم وهي مسيحية .

وتحت ظروف القصف والوحشية والحنين والعنف تولد بينهما عاطفة من نوع خاص ، عاطفة نادرة أملتها حالتها الاستثنائية والنادرة .

وحياة البطلين مورست بكاملها فهناك احلام وسيجائر وطعام ومشاعر وجنس وذكريات وخوف وحب وقدر غامض . لغة ياسين رفاعية الصافية ذات الجمل القصيرة اللاهثة والموسقة لا تنطوي على فائض من مناجيات ولا افعال ، وكل كلمة جاءت في السياق الفني .

◆

بيروت .. وجوه وحكايات

■ لقد اشعلت خطبة الجمعة رأس الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز شيبا .. فليس بالامر الهين ان يلتزم زيد من الناس مهما كان موقعه في الحياة بالقاء خطبة في يوم من كل اسبوع يفترض فيها ان تلم باصول البلاغة المتعارف عليها من وضوح في المعنى وسمو في الغاية وايجاز في القول .

وارى ان التزام الكتابة الاسبوعية في مجلة معينة لا تقل شأنا عن خطبة الجمعة .فهي تتطلب من الكاتب ان يحدد فكرة معينة ذات هدف واضح وان يعبر عن هذه الفكرة في حيز محدد وباسلوب جميل يعطي نفسه للقارىء منذ السطر الاول .

لذلك نرى ان الكتاب الذين يلتزمون الكتابة الاسبوعية في عدد من صحفنا ومجلاتنا غالبا ماتكون كتاباتهم ذات طابع مهلهل ، تفتقد الفكرة الواضحة والاسلوب الجذاب، الا قلة منهم ، اولئك الذين تجد في كتاباتهم شيئا من العذاب الروحي والمعاناة الحقة . والبراعة في اقتناص الفكرة الجديدة غير المكررة .

ومن هؤلاء القلة الاستاذ ذو الفقار قبيسي . وكتابه الجديد « بيروت » الذي يضم المواضيع التي سبق ان نشرها اسبوعيا في احدى مجلاتنا العربية تفصح بشكل واضح عن مدى قدرة الكاتب في التعبير عن افكاره الثقافية والحياتية والسياسية باسلوب واضح وجميل يعطيك نفسه منذ السطر الاول .

◆

في رياض الفكر

■ منذ سنوات ليستقليلة والمقالة الادبية تعاني حالة حرجة من حالات الركود بعد غياب عدد كبير من اساطين هذا الفن الرفيع منهم الزيات والرافعي وطه حسين والعقاد والمازني وغيرهم . ولم نكن نشهد للمقالة حضورا حقيقيا في عالم الكتابة . على ان هذا القول ليس مطلقا فكتاب الاستاذ عبد الرزاق البصير « في رياض الفكر » يمكن أن ينهض دليلا على قدرة المقالة الادبية في أن تقف على ساقيها مرة أخرى وقد دب فيها شريان دم حار اذكته قريحة الاستاذ البصير . يضم هذا الكتاب عددا من المقالات ونقدات لبعض الكتب التي توفر المؤلف على دراستها ثم التعليق عليها ، وهو في مجموعه يعد اسهامة كبيرة في معالجة الكثير من القضايا الادبية والفكرية ، لاسيما واننا عرفنا الاستاذ البصير ممن يحترمون كبرياء الكلمة ونصرة الحقيقة .

والمؤلف اذ يضعنا وجها لوجه أمام مسائل هامة لايلبث ان يتنقل بالقارىء في رحاب اللغة والشعر والتراث ومضان الكتب وكانه بذلك يوحي للقارىء بأن الثقافة العربية الأصيلة لابد أن تتوفر على هذه الجوانب المختلفة وتغتني بها وتتمثل تجاريبها الابداعية .

وبعد فكتاب « في رياض الفكر» رحلة شيقة معالكلمة الفاعلة والنظرة الصائبة الشجاعة وتلك ميزة الاستاذ البصير التي ينماز بها من بين كتابنا المعاصرين .

◆

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يوميات السيد علي سعيد

تاليف : د . عدنان رؤوف

■ يؤكـد اكثـر الروائييـن والقصاصين انهم يستمدون مـن حياتهم الخاصة ومـن تجاربهـم الشخصية مواد رواياتهم وقصصهم.. وانهم كثيرا مايوزعون اجزاء مـن حياتهم الداخلية والخارجية علـى نماذج معينة من شخصيات اعمالهـم الادبية ، وانهم يديرون على السنتهم كلاما يعبر عن وجهات نظرهم فـي الحياة ومعتقداتهم الفكرية . وحتى الروايات او القصص التي تتشبث بالخيال وتسرد احداثا غير واقعية ، فانك تجد فيها شيئا من« خصوصية » المؤلف ومن تجاربه الخاصة .

وان بعض الروايات والقصص تلغي الكثير مما يتطلبه الفن القصصي من تزويق لكي تقترب من الكتابات الخاصة بالسير الذاتية .

ورؤية « يوميات السيد علـي سعيد » للدكتور عدنان رؤوف اقرب ماتكون الى هذا النوع من الكتابة منها الى الرواية بمفهومها العام.. ويتكون مثل هذا الانطباع لدى القارىء منذ الصفحات الاولى ، حيث تشعر ان المؤلف يتحدث عن شخصية معروفة لديه تماما واطلع على ماوقع لهـا تفصيلا ، ووقف على مجرى تفكيرها واسلوبها في الحياة .

واحداث الرواية بشكل عـام ليست كبيرة ، وليست جديدة وغير بعيدة عن عالم القصة ، وتتلخص في هذا الانفصام الحاد الذي يحس بـه الرجل الشرقي ، العربي بشـكل خاص ، في المجتمع الغربي ..

فعلي سعيد بطل الرواية شاب عراقي من عائلة فقيرة ، نشا وترعرع في زقاق عفن مع اناس شاحبي الوجوه، وتعلم في مدرسة يضربه فيها المعلم بالعصا حتى تنكسر علـى راسـه ص 18 .. وحين يصل الى مرحلة معينة من الدراسة يقرر السفر الـى اوربا لمواصلة دراستـه .. وما ان يستقر هناك ويتزوج وتنجب لـه زوجته ولدا حتى يتجسد الواقـع المرعب امام السيد على سعيد ويدرك مدى الهوة التي تفصل الشرقي عـن الغربي ، سواء كان ذلك في نمـط الحياة او في اسلوب التفكير ..ليس هناك مايجمع بين النقطتين .. كـل شيء مختلف .. « وانه اثم كبيـر لايغتفر ان يقترن رجل شرقي بامراة اوربية » ص 13 .

لقد تزوج السيد علي عن حب.. احب فتاة اسماها « مايا » في الثانية والعشرين من عمرها ، طالبة فـي كلية الطب ، واحبته وتزوجها وعاشا سنة او سنتين في وفاق تام وانجبت له ولدا .. الا ان ماورثه عن البيئة التي ترعرع فيها واخ يوحي له بشكوك لايعرف هو مدى صحتها .. فاخذت الغيرة تعمـل عملها في هذا المجال وتوحي له بافكار غير سليمة عـن افكار زوجته .. وازاء هذا الشـد والجذب تقرر الزوجـة الاوربيـة الانفصال عن زوجها العراقي لكـي تحمي نفسها من العذاب والتهديد.. ومن هنا يبدأ الصراع بين الاثنيـن، او بين حضارتين متناقضتين كما يؤكد على هذه الناحية . هي تريد الطلاق واخذ الطفل معها وهو يحاول جهده ان يثنيها عن عزمها هذا .. وتحدث عدة امور ولكنـه ييأس في النهايـة فيتخلى عن كل شـيء ويعود الـى الوطن..

والشيء الذي حاول ان يؤكـد عليه السيد علي سعيد ان هناك تمايزا واضحا في التعامل مع الشرقي مـن قبل الاوربيين بشكل عام ومطلق.. فهم ينظرون الى الشرقي نظرتهـم الى الملونين بصورة عامة ، نظـرة مليئة بالاحتقار والازدراء ، والتفوق، والتمييز العنصري .. ومـن هـذا المنطلق لم تستطع زوجته ان تعيش معه بالرغم من انها انجبت منه ولدا.. فقد اصرت على الانفصال منه بعـد ان « استهلكته » .

وارى ان وجهـة نظر كهـذه لايصح تعميمها على الاوربين بشكل مطلق وهي وان صحت علـى نماذج معينة ، كثيرة او قليلة ، فان من غير الممكن جعلها قاعدة عامة .. والعكس صحيح كذلك .

واذا امعنا النظـر في احداث الرواية .. فاننا نجد ان السيد علي سعيد يناقض نفسه حين يحاول ان يجعل من وجهة نظره هـذه قاعـدة عامة .. فهو يعترف في اجزاء كثيرة من الرواية ، ان الفتاة احبته لذاته.. وانها ضحت من اجله بكل ماتملك ، وانها تفتقده اذا غاب عنها يوما واحدا وتود لو انها تقبله الف مرة .. لقد احبته كرجل وكانسان ..اطاعته ، نفذت مايريده ، منحته روحهـا وجسدها .. وقد تعلم هو منهـا اشياء كثيرة .. اعادت بناء عقله مـن جديد .. تعلم منها حياتهـم الظاهرة والخفية .. تعلم كيف يلبس ،كيف يسكن وياكل ويتحدث ويكون لطيفا مع الآخرين .. ص 16 ،40، 131..

ولكن ، حين بدأ يشك فيها ،ويتهمها بامور لايعرف هو مدى صحتهـا .. ويشك في الجنين الذي في بطنهـا ، بل ويبلغ الامر الـى حـد الظرب والتهديد بقتلها وقتل نفسه ، فـان من الوارد جدا ان تتحول مشاعرها عنه ، لا الى الكره ، فهي لم تقل لـه مرة واحدة رغم كل ما فعله بهـا ، من انها باتت تكرهه ، ولكـن الـى الانفصال على الاقل ،لكي يعيش كل منهما حياته المستقله .. وهذا مـن حقها ، لا لأنهـا اوربيـة تعودت الاستقلال والمساواة ومجابهة التحدي، عكس زميلتها الشرقية ولكن لانها انسان ومن حقها ان تنقذ البقيـة الباقية من حياتها وتحياها وفـق مشيئتها ، بعيدا عن الضرب والشكوك والتهديد والدموع التـي يجعلهـا تسيل كل يوم تقريبا ..

والذي اراه ان السيد علي سعيد في مذكراته التي كتبها كان منحازا الى نفسه في اكثر من حالة .. ومع انـه حاول ان يكون حياديا تجاه اقـوال زوجته ، ويدونها كما قالتها ،وتعكس جانبا من سلوكه نحوها ..ان تحليله لعواطفهـا ومشاعرها تجاهـه كـان مستقى من النظرة التي يحملهـا الشرقي عن المراة بشكل عام ..

قلت ، ان الرواية اقرب ماتكون الى السيرة الذاتية ، وانها تعتمـد على احداث معينة وقعت فعلا على الشخصية الرئيسة ، وانها وفقـا لذلك تفقد الشيء الكثير من مواصفات الروائي ، واهم شـيء هو انحياز الكاتب نحو شخصية دون اخرى .. ولكن هذا حديث آخر يخرجنـا عن الحدث الرئيس .. ويكفي انـك لاتشعر بالملل حين تبدا قراءتها ، فان مافيها من صدق في سوء الاحداث باسلوب جميل فيه طراوة المحتمـل ولينه ، يجعلك تتغاضى عن التدقيق في امور ربما لاتعيرها اهمية كبيرة .. ◆

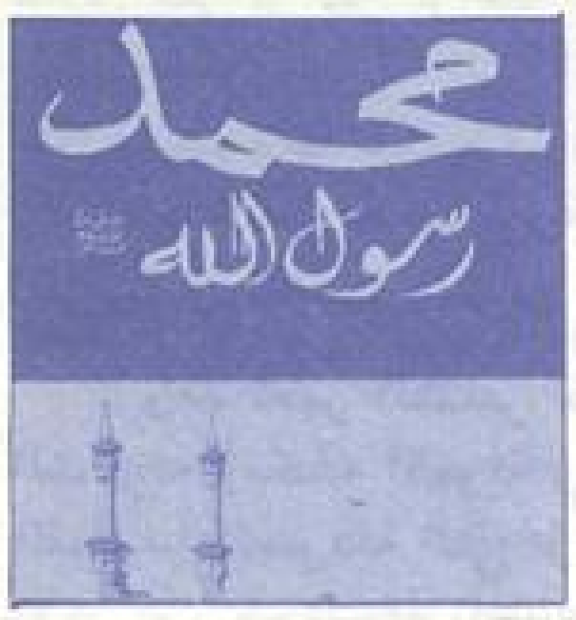

محمد رسول الله

■ حياة الرسـول محمد (ص) اصبحت مادة خصبـة للدراسات الغربية التي وجدت فيها جوانـب متعددة لعبقرية فذة غيرت مسـار الأنسانية والحضارة العالمية الحديثة. ولذلك ليس من المستغرب ان نجد المستشـرق الاسبانـي المعروف « البارو ماتشوردوم » ينكب بلهف على دراسة حياة الرسول فيعلـن اسلامه ويتسمى باسـم « احمد عبد الله » ويؤلف كتابه « محمـد رسول الله » الذي صـدر باللغـة الاسبانية اخيرا وهو اول كتاب عـن النبـي الكريم يصـدر باللغـة الاسبانية . ◆

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يونسكو

مشكلات الأعلام الحديث (القسم الخامس)

1 ـ وسائل الاعلام : اداة لنقل الرسالة الثقافية

132 ـ تلعب وسائل الاعلام والاتصال في كل مكان دورها في نشر المعارف ودفع عجلة النشاطات الثقافية وفي تطبق السياسات الثقافية حيث وجدت ، كما تسهم ، بشكل عام في انتفاع الجماهير بطريق حر وديمقراطي بالثقافة وتيسر مشاركتها الفعالة في الحياة الثقافية للمجتمع . وتقوى وسائل الاعلام والاتصال عادة الذاتية الثقافية للشعوب والجماعات . وخاصة :

(1) اذا لم تؤخذ الذاتية الثقافية على أنها انطواء على النفس او رفض للآخر بل بالعكس على انها ارادة في المشاركة والاقتسام مع الغير . وهذا يعنى طبعا ان يمتلك المرء عناصر فريدة واصيلة يجدر تقاسمها ؛ (2) اذا اخذ الاتصال بمعناه اللغوي اي التقاسم والتبادل والمشاركة مع الغير ؛ (3) اذا اخذت الثقافة بمعناها الواسع (... كل ما يضيفه الانسان الى الطبيعة) بحيث تشمل التربية والفنون والعلوم والطرائق المتنوعة لفهم العالم والحياة وتفسيرها .

133 ـ ويكلف المسؤولون عن وسائل الاعلام غالبا بوظائف تتجاوز مجرد انتاج ونشر الرسالات الثقافية . ويجري ذلك خاصة في البلاد النامية حيث يقوم الاتصال بوظائف خاصة في خدمة التنمية التي تؤثر فيها عوامل ومكونات من انواع مختلفة (خاصة منها المكونات الثقافية) والتي تتفاعل فيما بينها بشكل متواصل . وعلى الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة على الصعيد العالمي لاعطاء اهمية اكبر للتعبير الثقافي داخل وسائل الاعلام ، على الاقل من الناحية الكمية ، فان هناك الكثيرين ممن يعتقدون اليوم ،ولأسباب كثيرة ، ان أجهزة الاعلام لا تقوم بدورها المرجو ولم تتحرر بعد بما يكفي لتمكينها من النهوض بمسؤولياتها في تنظيم وتنفيذ حوار حقيقي بين الثقافات . ويطرح السؤال اليوم بقلق شديد عما اذا كان من الممكن وكيف يمكن اثراء المحتوى الثقافي لوسائل الاعلام التي اصبحت تشكل اليوم بالنسبة للعديد من الدول وللأغلبية العظمى من الافراد السبيل الرئيسي بل الوحيد أحيانا للحصول على الثقافة . ويعتبر البعض ان وسائل الاعلام غير قادرة على القيام بهذا الدور لأسباب تتعلق بطبيعتها وبالمكان الذي تحتله في العديد من المجتمعات العصرية . وتظهر في نفس الوقت تساؤلات اخرى في الراي العام على الصعيدين القومي والدولي : ما هو السبيل لمنع ظهور وانتشار انواع من الثقافات التافهة ذات الصفة الاستهلاكية ؟ وكيف يمكن تفادي التنميط والافقار والفراغ في مضمون الثقافات واضعاف القدرة على الابداع ـ وهي اتجاهات كثيرا ما تشجع عليها بل تنتجها بالفعل وسائل الاعلام (عن طريق نقل الافكار والصور النمطية والبرامج الهزيلة وسيطرة المصالح التجارية والدعائية ، والامتثالية العقيمة للثقافة الرسمية ، الخ...) ؟ ويجري التساؤل في اطار آخر عن كيفية تفادي كافة أشكال السيطرة والعدوان الثقافي التي تفسد تنوع الثقافات واصالتها والتي يمكن أن تشجعها وتنقلها وسائل الاعلام والاتصال ؟

2 ـ الاعلام الجماهيري والثقافة الشعبية

134 ـ هناك علاقة وثيقة تربط بين « الاعلام الجماهيري » و« الثقافة الشعبية » . وتشكل هذه الاخيرة الانتاج الواسع للرموز والرسالات الاعلامية التي تعتبر بحق ثورة صناعية جديدة في مجال الثقافة . ان لكل مجتمع نظام اتصال خاص به ، أي نظام تفاعل اجتماعي عن طريق الرسالات الاعلامية . بيد أنه لم يحدث الا في هذا القرن ان بررزت ظاهرة فذة هي تنظيم المجتمع حول انظمة وسائل الاعلام .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فقبل ظهور وسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة بزمن طويل ، كان عدد كبير من الاشخاص يستفيدون من اشكال اخرى للاتصال العام . واستطاعت وسائل الاعلام بفضل الوسائل الجديدة ومؤسسات انتاج وتوزيع الرسالات أن تجد سبلا جديدة للوصول الى جماهير اوسع . ولكن في كثير من الحالات لم تستطع هذه الوسائل ـ التي توجد عادة في المدن وتنظم على اساس مركزي ـ تلبية حاجات وتطلعات الجماهير والتعبير عنها وانما لبثت وعبرت ـ ويالتناقض ـ عن حاجات الاقلية .

والواقع ان وسائل الاتصال الجماهيرية اصبحت اداة لصياغة الثقافة الجماهيرية أكثر مما هي عامل من عوامل هذه الثقافة . فهي تستعمل كقنوات لنقل المضامين الثقافية التي تشربت بها بالفعل خلايا البنى الاجتماعية والتي تتخذ لنفسها مظهر جماهيريا . وتظهر الثقافة الجماهيرية من زاوية معينة كبنية فوقية قائمة على ما يمكن تسميته «بالبنية الاجتماعية الجماهيرية» .

ولم تؤد التغييرات المتواصلة الى قيام تجمعات انسانية فحسب بل كذلك الى خلق مفهوم « للجماهيرية » يتعلق بتدفق الرسالات الاعلامية اكثر من تعلقه بالكائنات البشرية . ويقصد بعبارة الجماهير الغفيرة مجموعات كبيرة غير متجانسة ومشتتة من البشر لا يمكن ايصال نفس الرسالة الاعلامية لها في وقت قصير او ايجاد نوع من التفاهم ووحدة الرأي بينها الا بواسطة الانتاج الكبير واجهزة التوزيع الجماهيرية .

ان مفتاح المغزى التاريخي لوسائل الاعلام يكمن اذن في تلازم مفهوم « الجماهير » مع عملية الانتاج والتوزيع . فالاتصال الجماهيري هو الانتاج والتوزيع الواسع النطاق والمكثف للسيل المتصل من الرسالات الاعلامية العامة والتي يتم تلقيها على أوسع نطاق عن طريق التقنيات والمؤسسات الملائمة . ويشكل تصاعد وسائل الاعلام نحو السيطرة على الثقافة الجماهيرية في القرن العشرين تحولا رئيسيا في الشؤون الانسانية لأنه ينقل الى المجال الثقافي الأثر الحاسم للثورة الصناعية . وتصبح وسائل الاتصال الجماهيرية (كالطباعة والافلام والراديو والتلفزيون) اسلحة ثقافية بين ايدي النظام الصناعي التي صدرت عنه .

3 ـ وسائل الاعلام : اداة لنقل الرسالة التعليمية

135 ـ لوسائل الاعلام في تطبيقاتها التربوية مزايا ثلاث : الحجم الممكن لجمهور المستمعين اليها، وسرعة تغلغلها ، وغنى صورها السمعية والبصرية . وقد ادى كل من هذه الجوانب الى تطبيقات خاصة في مجال وسائل الاعلام التعليمية . فقد ادت امكانية شمول طلاب احدى المدارس بواسطة الراديو والتلفزيون مثلا الى تنظيم طرق للتعليم المباشر استعمل التلفزيون فيها كامتداد للنظام المدرسي فكانت برامجه التربوية في كثير من الحالات صورة مطابقة للدروس المعطاة في الصف . وقد ساعدت الخاصية الفورية والتغلغل الآني للتلفزيون التعليمي على استعماله في خطط اصلاح البرامج وكوسيلة لاطلاع الاساتذة على طرق التعليم الجديدة واشراكهم فيها ولوضع تجارب تدريبية جديدة تحت تصرف التلاميذ . ومن ناحية أخرى ، سمح تنوع المصادر السمعية البصرية بتحقيق برامج اذاعية وتلفزيونية يتمثل هدفها الرئيسي في بلوغ ما لا يمكن تحقيقه في الصف : الا وهو تجاوز الحدود المعهودة للمدرسة وتوضيح المفاهيم المجردة بطريقة الصور المتحركة او العروض المسرحية . وهنا يكمن ايضا السبب في الاستعمال المتزايد لوسائل الاعلام في تعليم الكبار وفي تعليم النشء خارج المدرسة سواء بواسطة برامج محو الامية الجماهيري او في برامج

تنمية المجتمعات المحلية . وقد كانت النتائج شديدة التباين سواء بالنسبة للبيئة المدرسية أو غير المدرسية أو بالنسبة للبرامج الموجهة للأطفال أو النشىء أو الكبار . وهناك حاجة لاجراء دراسة تقييمية عميقة لاستخلاص أقصى ما يمكن من ثمرات التجارب التي أجريت حتى الآن .

136 ـ ان مساوىء وسائل الاعلام التعليمية تنتج الى حد كبير من حسناتها . ذلك أن البرامج الجماهيرية الموجهة الى مجتمع مدرسي ما يمكن ان تعطى انتاجا لا تراعى فيه أي نقاط تركيز أو ما يتسم به جمهور الدارسين من خصوصية وتمايز. كما أنه في المرحلة الحالية من التقدم التقني المستخدم على أوسع نطاق ليس هناك ما يسمح بالتغذية الارتدادية أو بالحوار . والوسائل التي تتيح تنويع الوتيرة في البث المباشر لاتزال قليلة. واذا كان البث محددا بوقت معين من النهار افتقر الى المرونة في استخدامه بسبب هذا التحديد .

ان تاريخ وسائل الاعلام التعليمي يعتبر الى حد كبير تاريخ محاولات الاستفادة من نقاطه القوية للاقلال من نقاط الضعف فيه . وقد استعملت بوجه خاص في الانظمة المدرسية برامج ذات هدف واضح ومحدود لغرض استخدامها في اطار يمكن ضبط عناصره . كما استخدمت طرق التسجيل على نطاق واسع منذ ظهور أشرطة التسجيل السمعية والبصرية ، فأصبح استخدام مواد الاذاعة والتلفزيون بذلك مرنا نظرا لامكانية اجراء التسجيل من قبل المعلم وليس من قبل المنتج . وقد سمحت أنظمة « الاعلام المتعدد الوسائل » بالوصول الى درجة من التوازن بين مختلف وسائل الاعلام تيسر العمل أمام فئات معينة من الدارسين (كما في نظم التعليم عن بعد) حيث يجمع بين الدروس بالمراسلة ومجموعات المواد التعليمية والمعنيات السمعية البصرية . وعلى صعيد آخر فان وسائل الاعلام بالمجتمعات المحلية. كالاذاعة المحلية ونظام التلفزيون بالكابل ومجموعات الفيديو ـ قد ساعدت على ادخال وسائل الاعلام التعليمية خارج اطار المدارس حيث يمكنها المساهمة في عملية الحوار الاجتماعي .

137 ـ ويمكن القول عموما أن هناك اربع فرضيات أساسية لاستخدام الاعلام لأغراض تربوية :

أ ـ استخدام نظام القائم لبث برامج ذات هدف تعليمي الى المستمعين العاديين ، كتعليم الآباء والأمهات في السويد وتنظيم الأسرة في الباكستان وبرامج محو الامية في هيئة الاذاعة البريطانية بالمملكة المتحدة ، الخ . . ؛

ب ـ استخدام نظام الاعلام القائم لادخال عناصر جديدة في نظام تعليمي بقصد اجراء التعديلات اللازمة في تقديم المعلومات وتداولها داخل هذا النظام ، وبالتالي اجراء تعديلات في الوظيفة التي يقوم بها ؛

ج ـ استخدام نظام للاتصال يمكن بفضله محاولة تغطية كامل الوظائف التعليمية التي يقدمها نظام تعليمي تقليدي وذلك بتنشيط منهجه الدراسي العادي . ومن أمثلة ذلك تليسكولا في البرتغال والتليسكو نداريا في المكسيك ؛

د ـ انشاء نظام جديد ذي وظائف جديدة تماما تؤدي الى اعادة تشكيل البنى التعليمية ، والى عمليات تربوية جديدة كنظام « بلاتو » في الولايات المتحدة .

هذا ويبدو أن وسائل الاعلام في البلاد النامية تؤدي خدمتها في اطار التعليم غير المدرسي . ذلك أن مختلف عناصر برامج التنمية يجب أن تسندها برامج تعليمية موجهة الى جماهير مختلفة كالشباب والنساء وسكان الأحياء الفقيرة والمزارعين والحرفيين والعمال المهرة وغير المهرة ، وذلك بقصد استثارة دوافعهم وتنمية قدراتهم اللازمة لمواجهة احتياجاتهم العاجلة (كالسكن والتزود بالماء ، الخ . . .) أو لحفزهم الى المساهمة في جهود التنمية وتحسين الشروط الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الفردية والجماعية . وانه لمن المفيد ان يجري تبادل نتائج التجارب التي أجريت في هذا المجال وتعميمها ، والعمل في الوقت نفسه على ان يلقى عنصر الاتصال في هذه التجارب الدعم المادي والمعنوي .

وفي هذا المجال يجدر استعمال أجهزة الاعلام بشكل مكثف والى اقصى حد لاقتلاع جذور الامية، هذا الداء المخجل الذي يعتبر أولى مشاكل التعليم في العالم . فكيف يمكن التحدث عن الاتصال الجماهيري عندما يعيش في العالم أكثر من 800 مليون نسمة ممن هم فوق الخامسة عشر من عمرهم ـ اي أكثر من ربع سكان العالم فئة العمر هذه ـ محرومين من القدرة على القراءة والكتابة؟ وقد برهنت التجارب أن الطريقة التي يستعان فيها بعدة وسائل للاعلام مثل المطبوعات ، والبرامج السمعية البصرية وبرامج الراديو والتلفزيون يمكنها وضع برامج فعالة لمكافحة الامية . بيد أن وضع هذه البرامج موضع التنفيذ يقتضي الدعم السياسي والمادي الضروريين . ان حل هذه المشكلة لايمكن أن يتم دون الاستعانة بوسائل الاعلام ولكن ذلك يتوقف بدوره على قرار الحكومات .

3 ـ نهوج جديدة في عملية التعلم

138 ـ من بين النهوج التي تطورت في السنين الاخيرة لاستخدام الاعلام والاتصال في الاغراض التعليمية نهج يعتمد على انتاج برامج وتوجيهها نحو هدف معين (للتعليم مثلا) أو بقصد الاعلام (تهيئة البيئة التعليمية) . ويعتبر هذا النهج الاتصال انتاجا . ويهدف هذا النوع من العمل التعليمي ضمان تعميم قدر معين من المعلومات التي تهيء الفرصة لتحقيق المساواة في المجتمع . وثمة نهج آخر يعتمد على استعمال أكثر مرونة للاعلام والاتصال وذلك بايجاد نظم يقوم فيها جميع المواطنين بدور خلاق داخل مجتمع رائده الاتصال . والهدف من ذلك رفع مستوى الوعي في كل بلد ولدى كل مجموعة وكل فرد . ويرى هذا النهج في الاتصال « عملية متطورة » ، كما يرى في التعليم عملية متطورة للتعليم وتحقيق الذات أكثر مما يراه مجرد اكتساب للمعرفة . فهذا النهج يتمثل اذن في تشجيع ومساعدة أعضاء المجتمع على اعادة لاكتشاف المعرفة المندمجة في البيئة وتنظيمها وتنميتها فيما بينهم .

وبذلك يكون هدف النهج الاول (ذلك الذي يعتبر الاتصال انتاجا) هو التحديث ، أي ايجاد نموذج خارجي من التنمية باستبدال بنية بأخرى عن طريق برمجة الجهود ومركزتها وترشيدها . أما وسائله فهي التوجيهات والاشكال والطرائق المعدة مسبقا . لذلك فقد يبقى غريبا عن المواطنين اذ أنهم لا يشاركون في تحديد أهداف التحديث وتقتصر مشاركتهم على البت في أمور ثانوية .

اما النهج الثاني (ذلك الذي يعتبر الاتصال عملية متطورة) فهو يهدف الى تحرير المواطنين بالكشف عن الامكانيات الكامنة في المجتمع والتي لم تكشف أو تستغل بعد . انه يشجع مختلف المجموعات المكونة للمجتمع لصياغة قيمها وثقافتها التي تعبر عن ذاتها .

139 ـ ونظرا لأن النهجين لم يلتقيا ، فما أكثر ما كانت السياسات نفسها تحيد عن الهدف بسبب التأثيرات الخارجية أو الملابسات الداخلية. ويبدو ان الحل المناسب يكمن في البحث عن نظام ذي بعدين يشمل في الوقت ذاته الصعيد القومي والصعيد المحلي . ذلك أنه على الصعيد المحلي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

او الافقي يمكن لمشاكل وتطلعات الافراد والجماعات أن تصبح وسيلة لأعمال مشتركة واضحة ، في مراعاة لما يفرض عموديا في شكل قيم قومية صالحة للجميع . وفي هذا الصدد ، يتعين وجود طريقة تسمح بالتصحيح والمواءمة بصورة متواصلة بين هذين البعدين . هذا ويحاول كل من النظامين في الوقت الحالي التطور بمفرده منفصلا عن الآخر . والمشكلة الرئيسية هي الربط بينهما على نحو يقوى من فعاليتهما من اجل التنمية وبحيث يدعم كل منهما الآخر .

5 ـ التعليم والتدريب في خدمة الاعلام والاتصال

140 ـ الى جانب الخدمات التي يقدمها الاتصال ـ بوسائله الاعلامية وممارساته في ميدان التربية والتعليم ، فان هناك جانبا آخر لهذه العلاقة هو الخدمات التي يقدمها التعليم والتدريب في مجال الاعلام والاتصال .

141 ـ ويستهدف التعليم والتدريب في مجال الاتصال ثلاث فئات متميزة . الفئة الاولى تتالف من المهنيين في مجال الاتصال أي الذين يتعلق عملهم جوهريا بالاتصال سواء في النطاق العلمي أو على صعيد البحث . وتتالف الفئة الثانية من الذين يستعملون الادوات والمواد الخاصة بالاتصال اثناء عملهم الاعتيادي (كالمدرسين والمدربين وغيرهم ...) . والفئة الثالثة تتالف من الجمهور ، أي مجموعة الافراد الذين هم على اتصال يومي مع نتاج الاعلام والاتصال والذين بذوقهم وبصيرتهم يحددون نظام القيم الخاص بوسائل الاعلام . ولكل فئة من هذه الفئات مشاكلها واولوياتها . ففي فئة المهنيين في وسائل الاعلام كان هناك في الماضي تمييز واضح بين تدريب المهنيين الممارسين وبين تدريب المشتغلين بالبحوث مما أدى الغلو فيه الى اثارة أشكال من الصراع والتصام . وقد تبين اليوم أنه ليس من المفضل فحسب تقريب الجانبين أحدهما من الآخر سواء من ناحية القيم او الناحية التقنية ، بل وان هذا التقارب يحول دون المضي في ممارسة بعض التطبيقات المهنية العقيمة . ويشعر الكثير من هؤلاء المهنيين أنهم بحاجة الى تدريب اضافي يؤهلهم لتقبل التجديدات ويساعدهم على التغلب على جمود المهنة ورتابتها . ومن ناحية أخرى يشعر الباحثون أن بحوثهم غالبا ما تعتبر هدفا في حد ذاته حتى عندما تخطط بهدف تنفيذ برامج عمل اجتماعي .

142 ـ وأما الفئة الثانية ـ المؤلفة من الذين يستعملون أدوات ومواد الاعلام والاتصال ـ فهي وثيقة الصلة بالفئة الاولى على اعتبار أن تحسين تقنيات التعليم يمكن أن يطبق تطبيقا مباشرا على هذه الفئة . وقد كان استعمال هذه الوسائل قبل عشر سنوات ذي بال ، ولكن منذ أن اتضح نظام عمل هذه الوسائل الاعلامية زادت برامج التدريب في هذا المجال . ومن المفيد جدا أن يتلاقى منتجو الوسائل ومن يستخدمونها بغية ايجاد أسس مشتركة للعمل فيما بينهم .

143 ـ أما الفئة الثالثة فهي تعاني أكثر من غيرها من الاهمال : فالمفروض تهيئة الشبيبة والكبار لاتصال أفضل ولتمكينهم من استخدام « انتاجه » والمشاركة في « تطويره » . ولم يقتصر الامر على الاهمال بل تعداه الى الادراك الضيق لمفهومه كمجهود هدفه تعميق وعي الجماهير بالدور الذي تلعبه وسائل الاعلام في الحياة اليومية . فاذا أريد للرسالات والمضامين التي تنقلها وسائل الاعلام أن تكون على مستوى من حيث التنظيم والنوعية ، واذا أريد للمشاركة الشعبية في الاعلام والاتصال أن تصبح حقيقة واقعة ، فمن الضروري أن يكون تطور عملية الاعلام وتأثيراته أكثر وضوحا لدى الجماهير التي لها أن تلعب دورا يزداد أهمية في ادارة وسائل الاعلام .

144 ـ ومهما تكن أهمية هذه المشكلة فان هناك مشكلة أخرى تعتبر أساسية أيضا . ذلك أن تجربة التعلم التي يمر بها الدارسون من جميع المستويات يجب أن تصبح تجربة اتصال ، تجربة علاقات انسانية وحوار ومشاركة ، عوضا عن أن تكون مجرد نقل للمعلومات في اتجاه واحد ، ويجب أن تكون الوسيلة لتحطيم الحواجز بين الافراد وبين الطبقات والجماعات والامم . هذه هي أجدى مساهمة يمكن لمعرفة الاتصال ولتجربته تقديمها لاثراء التعليم على اعتبار أن المعنى الاساسي لكل منهما هو التبادل أو هو شكل من أشكال الترابط الاجتماعي وسيلته الرموز .

145 ـ وللاتصال جانب آخر أصبح له أهميته الكبرى لدى الكثير من المفكرين والباحثين الرسميين خاصة في العالم الثالث . وهو يتعلق بالقيمة التعليمية للاعلام والاتصال وبالمغزى التعليمي للرسالات وللأخبار المتداولة في العالم ، أو على العكس مغزاها كعامل مضاد للتعليم وغالبا مضاد للمجتمع . ان الدور التعليمي والاجتماعي الذي ينيطه هؤلاء بالاتصال يتمثل ، ضمن أمور أخرى ، في الاستجابة لحاجات التنمية في المجتمع ، ومن ينبغي اعتباره مصدرا لخير المجتمع .

6 ـ الاعلام في خدمة العلم والتكنولوجيا

146 ـ يتمثل الدور الاساسي للاعلام والاتصال في مجال العلم والتكنولوجيا في تدبير شؤون المعرفة الانسانية ـ الذاكرة الجماعية ـ أي مجموع المعلومات التي تحتاجها المجتمعات لتحقيق تقدمها في العالم الحديث . ويرتكز هذا الدور على اقامة أجهزة وشبكات لنقل المعلومات . وهنا يطرح ثلاث مشاكل ذات طبيعة تقنية : كيفية الوصول الى المعلومات ، وكيفية ادارة ومعالجة المعلومات وكيفية استخدام المعلومات بشكل فعال . وبطبيعة الحال فان كلا من هذه المشاكل يتضمن عددا من القضايا المعقدة والدقيقة والمثيرة للجدل ، خاصة وانه غالبا ما يكون الاعلام العلمي وثيق العلاقة بالاعتبارات السياسية والاقتصادية والعسكرية من حيث البث في من سيتولى ادارة شبكات المعلومات وفي نطاق وطبيعة مدخلاتها ومن سيستفيد من مخرجاتها .

147 ـ وفيما عدا هذه الاسئلة الحساسة ، فان الجانب الكمي وحده مثير للدهشة في حد ذاته . فاستنادا الى بعض التقديرات التي أجراها عدد من المنظمات الدولية التي اهتمت بهذا الموضوع في بداية السبعينات يتبين أنه في مجال العلم والتكنولوجيا وحده يتم نشر مليوني دراسة علمية في كل عام ، أي بمعدل ستة آلاف الى سبعة آلاف دراسة يوميا بين مقال وبحث وتقرير الخ ... يضاف الى ذلك حوالي 10 تريليون (10–13) من الحروف والارقام تمثل كمية المعلومات العلمية والتقنية بجميع أشكالها التي سجلت منذ ظهور العلم وحتى منتصف الستينات . ولما كان الوصول الى هذا الرصيد الهائل من المعلومات والمعطيات شديد الصعوبة بالنسبة للبلاد النامية ، فان هذه البلاد تهتم بنظم المعلومات الدولية أو الاقليمية وتزدهر المبادرات الرامية الى انشاء مثل هذه النظم والشبكات . ومهما كان الموضوع ، فان الهدف هو تهيئة اطار يتيح تيسير الوصول الى المعلومات في جميع انحاء العالم . وفيما يلي أمثلة على بعض نظم المعلومات هذه : الاعلام العلمي والتقني (UNISIST) ، نظم المعلومات الوطنية (MATIS) نظم المعلومات في علوم التنمية (DEVSIS) ، نقل التكنولوجيا (LATFIS) الاعلام عن السياسات العلمية والتكنولوجية (SPINES) نظم المعلومات في تخصصات عملية معينة (INIS : الشبكة الدولية للمعلومات النووية ؛ AGRIS : نظام الاعلام عن البحوث الجارية في مجال الزراعة ؛ AIDS : شبكة الاعلام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عن وثائق المعالجة الآلية للمعلومات) .

148 ـ ان التزايد السريع في انتاج المعلومات العلمية والتقنية ، ومعدل بطلانها وازدياد درجة تقنيتها بسبب التخصص المتعاظم في ميدان البحوث وكثرة تنوعها بسبب تداخل فروع العلم والتكنولوجيا وتدويلها ، كل ذلك يستوجب تعزيز وتنسيق نظم المعلومات العلمية والتقنية اللازمة لتوجيه وتنمية النشاطات العلمية والتقنية . كما يستتبع هذا التعزيز والتنسيق ضرورة تذليل مختلف أنواع العقبات التي تعترض حرية الوصول الى مصادر المعرفة على المستويات الوطنية والاقليمية .

ومن بين هذه العقبات التي تعرقل توسيع نطاق تداول المعلومات العلمية والتقنية يمكن ذكر ما يلي :

ا ـ ان العقبة الكبرى هي بدون شك ذات طبيعة سيكولوجية وتربوية : وسببها الجهل بالتسهيلات التي تهيئها مرافق المعلومات أو عدم القدرة على الاستفادة بها او الخوف الذي تسببه تطبيقات معالجة المعلومات ؛

ب ـ ان الوصول الى المعلومات العلمية الهامة ليس بالامر الهين نظرا لأنه بمقدار قيمة البحوث وغناها واهميتها في التطبيق تكون صعوبة الحصول عليها وذلك بسبب السرية الصناعية المرتبطة بالمنافسة من ناحية او بسبب السرية العسكرية المرتبطة بالسباق من اجل التسلح من ناحية أخرى ؛

جـ ـ كما ان العقبة الناتجة عن علاقات القوى بين الأمم وبين المنظمات والافراد تلعب دورها في هذا المجال . فالواقع أن الذين ينتجون أكبر قدر من المعلومات هم الذين يتلقون بطبيعة الحال القدر الأكبر من المعلومات كذلك . وعلى الرغم من أنه يمكن نظريا اعتبار أشكال نقل العلم والتكنولوجيا على النطاق الدولي وسيلة اتصال محايدة في خدمة التعاون العلمي والتكنولوجي على الصعيد الدولي فانه لا يمكن انكار الاستخدام العلمي لهذه الوسيلة تمليه غالبا رغبة دول المصدر في تعزيز مركزها في الاسواق الاجنبية . وبعبارة أخرى فان المشاكل التي تنشا في سائر مجالات الاعلام والاتصال ـ كتشويه فكرة التداول الحر للمعلومات ، وتبعية البعض وسيطرة البعض الآخر والاختلالات وضروب التفاوت ، الخ . . . ـ تنشا ايضا في هذا المجال .

149 ـ ان النقل الدولي للتكنولوجيا لا يتيح في حد ذاته للدول المستوردة امكانيات تعزيز جهود التنمية فيها . فالمشكلة الاساسية للبلاد النامية هي أنها تشتري وتقلد وتستخدم المعلومات العلمية والتقنية التي طورت وطبقت في الاصل في اكثر النظم الاقتصادية تقدما . ولا يمكن ان يكون التطور الاقتصادي السليم الا ثمرة لانشاء أو لدعم الامكانات العلمية والتقنية المحلية . والواقع أن نقل التكنولوجيا في شكل انتاج او طريقة أو مهارة يجب ان يندمج في اطار الجهود الجديدة التي تهدف تهيئة قاعدة من المعرفة العلمية والتكنولوجية تتيح للدول النامية تدريجيا تحمل أعباء الادارة الفكرية لاستقلالها الاقتصادي . وقد ارتكزت على هذه المعضلة كل المناقشات التي دارت في السنين الاخيرة حول عدم ملائمة التكنولوجيا المنقولة من الشمال نحو الجنوب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

150 ـ الا يمكن الدفع بانه ليس ثمة أجوبة متسقة ومقبولة حول الدور الذي يلعبه نقل العلم والتكنولوجيا في التنمية الوطنية وفي تلبية الحاجات العالمية ما لم تتغير روح المنافسة التي لاتزال سائدة في العلاقات على الوطنية والدولية وتحل محلها روح التعاون القائمة على وجود الترابط بين الجميع في مجال المعرفة التي يتوجب اعتبارها بصورة متزايدة ملكية مشتركة للمجتمع الدولي ؟

ثالثا ـ الجوانب والمتضمنات الاقتصادية للاعلام

151 ـ يرتبط الاعلام في بناه كما في مضمونه بشبكات متعددة من التبعية للاقتصاد . وبديهي أن يرتبط بالنظام الاقتصادي المهيمن في كل بلد . وتختلف الاهتمامات بالاعلام والاتصال والمواقف منهما تبعا لكون النظام الاقتصادي قائما على الملكية الفردية أو على الملكية الجماعية ، او كون الاقتصاد منتميا الى ما يسمى باقتصادات « المركز » او الى الاقتصادات « الهامشية » ، او لكونه يعتمد اساسا على السوق الداخلية أو على الاسواق الخارجية . وتظهر تبعية الاتصال للنظام الاقتصادي جلية في البلاد التي تتهاوى فيها البنى التقليدية وحيث يرزح الاقتصاد تحت قوى السيطرة والتبعية لبلاد اخرى .

وما عدا هذه العلاقة العامة ، ينبغي أن يتجه الانتباه الى الجوانب الاقتصادية الاخرى .

1 ـ تاثير العوامل الاقتصادية على الاعلام

152 ـ تعتمد الامكانات التقنية والمهنية للاتصال اعتمادا وثيقا لم يكن مباشرا على القدرات الاقتصادية لكل بلد او مجموعة بلاد ، كما تعتمد على البنى الاقتصادية فيها وخاصة ما يتعلق منها باليد العاملة . فمهما كان شكل الاقتصاد ، مركزيا كان أم لا مركزي ، زراعيا أم صناعيا ، ذا انتاجية عالية أم منخفضة ، فهو يؤثر على جميع البنى الوطنية للمجتمع بما فيها الاتصال . ومن الجدير أن تحظى مختلف العلاقات وروابط التبعية هذه باهتمام الدراسات المتعمقة . فقد ادت التعميمات السطحية الكثيرة التي صدرت بهذا الخصوص الى كثير من سوء التفاهم بل الى مصادمات عديدة . كما يؤدي تجاهل العلاقات المتبادلة بين الاقتصاد والاتصال أو الافراط في تبسيطها الى منع الدول من دعم أسس استقلالها الثقافي ، واستقلالها الاعلامي بوجه خاص .

2 ـ الاعلام والتنمية

153 ـ ويرتبط ارتباطا وثيقا بالتنمية سواء من حيث وتيرتها او فلسفتها . وقد كان له تأثير مؤكد على قضايا التنمية في بلاد متعددة وخاصة فيما يتعلق بدعم التحديث بنشر الافكار والتقنيات الجديدة واقتراح المناسب منها وتهيئة الجو الملائم لتقبلها وأحيانا بابدال الممارسات القديمة بأخرى جديدة . وقد لاحظ كثير من الباحثين أنه اذا كانت البلاد المتقدمة قد وضعت تقنيات الاعلام موضع التطبيق بعد مضي وقت طويل على انطلاق الثورة الصناعية فانه لا يمكن للبلاد النامية اتباع نفس الطريق ليس لضرورة التعجيل بالتنمية وانما أيضا للارتباط الزمني الوثيق بين الثورتين لديها . وبتعبير آخر ليس هناك بلد لم تدعم فيه وسائل الاعلام والاتصال جهود التنمية في كافة مراحلها واطوارها . ولئن كان بعض المراقبين قد اعتبروا أن التفائل كان مسرفا بخصوص دور الاعلام والاتصال خلال العقود الاولى للتنمية فانه من الصعب قبول الانتقادات الموجهة الى البلاد النامية التي ترغب في وضع الاعلام في خدمة أهداف التنمية حسب الامكانيات والضرورة .

154 ـ وربما كانت مسالة نماذج التنمية تتمتع باهمية اكبر . فقد كانت التنمية في الماضي تتمثل بصورة رئيسية في النمو الكمي والتصنيع والنمو الحضري والتخطيط المركزي والتكنولوجيا كثيفة راس المال . وفي مثل هذا

النموذج يركز الاتصال على نشر المعلومات وعلى الاقنــاع وتوعية السكان بفوائد التنمية و « التضحيات » التي تتطلبها وتنمية استعدادهم لاتباع القادة المسؤولين . ويتضمن تقليد النموذج الغربي للتنمية نشر الاساليب الغربية في الاتصال التي تكون احيانا مغالية في التبسيط ومسايرة للأساليب الاعلانية . وكانت النتائج بعيدة عن التوقعات ويعترف بعض أنصار نظرية « الاعلام في خدمة التنمية » بان الحملات التي تجمع بين التنمية والاعلام تفيد الفئات ذات الامتيازات داخل كل مجتمع أكثر مما تفيد الفئات الهامشية ،وتبقى بالتالي على الفوارق بين الاغنياء والفقراء على حالها . ويمكن هنا تعميم هذه النتيجة على المستوى العالمي بالقول بأن الانطلاق الاعلامي يفيد بالدرجة الاولى البلاد المتقدمة والفئات الاجتماعية التي لديها امكانية أكبر للحصول على السلع الصناعية . وتنطبق نفس التساؤلات على أنماط الاتصال . وقد أبدى كثير من ممثلي العالم الثالث خيبة أملهم من النموذج السائد في الاتصال « من أعلى الى أسفل » وذهبوا الى التساؤل عمن يتصل وبمن يتصل ومن يسيطر على نظم الاعلام والاتصال ولمصلحة من تعمل هذه النظم ؟

155 ـ ويثار اليوم التساؤل حول نهج التنمية هذا ، وتبرز أهمية عدد من المفاهيم : كالحاجات البشرية الاساسية والتوزيع الاكثر عدالة وتحسين نوعية الحياة ومشاركة السكان في اتخاذ القرارات والعمالة المكثفة والتقنيات الملائمة والاصلاحيات السياسية والاجتماعية .ومن بين الاهتمامات الكبرى اليوم المتضمنات التي ينطوي عليها نهج انمائي جديد بالنسبة لاستراتيجية الاتصال . فما هي التغيرات الواجب ادخالها على نظم لتأمين الانتقال من التنمية المستوردة الى التنمية الذاتية ؟ واذ ظهر بوضوح أن التخلف لا يجد أسبابه فقط في البلاد الفقيرة وانما ايضا بل أكثر في الشروط المفروضة من الخارج على اقتصادها وفي هيمنة البلاد المتقدمة على الاسواق العالمية ، فيمكن التساؤل عندئذ عما يمكن للاتصال أن يفعله لايقاظ الوعي بهذا الموضوع وما هي المنافع التي يمكن أن يقدمها ؟ ومن جهة أخرى فما هي أنواع الممارسات والبنى الاعلامية الضرورية لحث الشعوب على المشاركة بصورة حقيقية وفعالة في تحمل أعباء تنميتها ؟ وما معنى قولنا « نظام اعلامي آخر » من أجل « تنمية أخرى » ؟

3 ـ الاعلام كصناعة

156 ـ تزداد باستمرار مختلف أنواع الرسالات والبث الاعلامي التي تدار على أسس صناعية . ويحتاج في مختلف مجالات الاتصال النمو باطراد الى رؤوس أموال كبيرة والى استثمارات مستمرة . ويعتبر الاقتصاديون أن حجم راس المال المستثمر في عمليات الاعلام والاتصال هو ذو اهمية كبرى ، ويؤدي تزايده الى نتيجتين هامتين : (1) يتعين زيادة عدد المستفيدين من اجهزة الاعلام كي تصبح عملية الاعلام مربحة (تبعا لتكلفة الوحدة المقابلة لشخص مستفيد واحد او لرسالة اعلامية واحدة) ، (2) يتجه الاشراف على الاموال والتجهيزات الى الانتقال الى ايدي الشركات الكبيرة القادرة على توفير رؤوس الاموال اللازمة وزيادتها بدلا من وجودها تحت اشراف من يستعملها فعلا او امكانا . وكما هو الحال في أكثر من الصناعات الاخرى ، فان تخطيط التوسع في الاعلام وفي استخدام الاموال المخصصة له أصبح امرا لابد منه على مستوى الاقتصاد الوطني والاقتصاد العالمي . ويجب ايضا التمييز في عملية الاعلام والاتصال بعناصر الانتاج والارسال والاستقبال لأن القرارات العامة المتعلقة بتوجيه وبتمويل كل منها يمكن ان تختلف اختلافا كبيرا في كل حالة من هذه الحالات .

157 ـ وهناك ظاهرة اقتصادية أخرى مرتبطة ارتباطا وثيقا بتصنيع وبنشر الاعلام وهي : ان تصنيع الرسالات الاعلامية يسبب او يشجع تركيز نشاطات الاعلام . ويظهر هذا التركيز بدوره في ابعاد ثلاثة : (1) الدمج الافقي والراسي للمشاريع المرتبطة باعلام وبالبرامج الترفيهية ، (2) تنوع المنشآت المهتمة بتوسيع اجهزة الاعلام (كالصحافة المكتوبة وانتاج الافلام او حتى المسرح) وعلى سبيل المثال صناعة الترفيه والمشروبات وشبكات الفنادق والمطاعم وشركات الطيران ومنتجي السيارات وشركات المناجم ، (3) اندماج وترابط المنشآت (انشاء شركات كبيرة ذات اجهزة اعلامية متعددة) . هذا وقد اتخذت بعض البلدان تدابير صارمة للحيلولة دون تركز السلطة بين يدى الشركات الضخمة من جراء شرائها لمنشآت الصحافة والراديو والتلفزيون . وقد برز في بعض البلاد نظام شديد التعقيد من العلاقات المتبادلة داخل قطاع الاتصال يتضمن اتفاقات وتبادل أسهم وطرق مالية يصعب من خلالها اكتشاف ما يرتكب من مخالفات لاصول المزاحمة عن طريق القوانين المضادة للاحتكارات . وهكذا يزداد تسارع تمركز السلطة الاقتصادية حول القطاع القطاع الاساسي الذي يشكله الاتصال .

158 ـ وقد ادى تصنيع الاتصال الى ما يسمى « بالانفجار الاعلامي » الذي يفسر تفسيرا مزدوجا . فعلى المستوى النظري كما بالنسبة للمستقبل يمكن ابراز العوامل التالية : (1) الحصول السريع على اعلام أغزر ، (2) مساهمة اكبر في جهود التنمية الاجتماعية بفضل تفهم الواقع بشكل أوضح ، (3) تفاعل متوازن ومتعدد الجوانب في المجال الثقافي قادر على تشجيع الديمقراطية ، (4) الوعي بالمصير المشترك في تنمية مجتمع شامل ، وان كانت هذه الظاهرة تأخذ مظاهر مختلفة اذا ما حللت من وجهة الاجتماعية ، (5) الوصول الى اعلام غير متوازن وغير متكافىء سواء على مستوى البلد الواحد او على مستوى المجتمع الدولي ، (6) تدفق الاعلام في اتجاه واحد بالاضافة الى عدم توازنه من الناحية الثقافية والى الطابع الترديدي لمضمونه ، (7) الاشباع الاعلامي في المناطق الحضرية او شبه الحضرية مع بقاء أغلبية الشعب في غفلة من القضايا والاحداث الرئيسية في عصره، (8) تناول الاعلام المنقول عن طريق شركات عبر وطنية وقائع خارجية بعيدة الصلة عن مشاكل ومتطلبات الثقافة والتنمية الوطنية .

4 ـ الاعلام كقطاع اقتصادي في طور التوسع

159 ـ يشار اليوم بصورة متزايدة الى بوادر ظهور مجتمع اعلامي يتداخل في نماذجه وآفاقه مع المجتمع التربوي الذي ورد تحليله في تقرير اللجنة الدولية لتنمية التربية الذي صدر بعنوان « تعلم لتكون » .

160 ـ وتدعو بعض الحقائق الى الاعتقاد بأن الاعلام أصبح يشكل عنصرا يزداد اهمية الاقتصاد الوطني :

(أ) فنشاطات الاعلام والاتصال تستخدم يوما بعد يوم أعدادا متزايدة من الناس وتساهم في زيادة الدخل القومي . ففي الولايات المتحدة مثلا ، تبين المعطيات المتعلقة بتطور القوى العاملة والنفقات الاستهلاكية والدخل القومي الاجمالي حجم التغيير في بنى الاقتصاد منذ عام 1950 . ان ما يقارب نصف الدخل القومي الاجمالي يتم تحصيله اليوم من انتاج وتحويل وتوزيع المواد والخدمات الاعلامية .

(ب) خلقت نشاطات الاعلام والاتصال منذ عام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1972 في بعض البلاد التي بلغت شاوا بعيدا في التصنيع عددا من فرص العمل يفوق ما خلقته قطاعات الزراعة والصناعة والخدمات مجتمعة .

(ج) يزداد عدد المستهلكين الذين يخصصون قسما متزايدا من دخلهم للحاجات الاعلامية وللنشاطات الثقافية والخدمات الاخرى التي تقدمها وسائل الاتصال . وهكذا فان نفقات الاستهلاك المخصصة للحاجات والخدمات الاعلامية قد سجل ازديادها في الولايات المتحدة بنسبة 39٪ بين عامي 9150 و 1971 ، بينما بلغت نسبة زيادة النفقات الخاصة بمجموع السلع الاستهلاكية 7ر5٪ (أي ان معدل التزايد اعلى بثمانية اضعاف) .

لذلك تزداد الاشارة اليوم الى قطاع جديد (القطاع الرابع) في الاقتصاد يجمع كل المهام التي تلعب فيها عملية الاعلام دورا اساسيا . واذا استمر الاتجاه الحالي فانه يمكن ان نتوقع منذ الان ان يبلغ عدد العاملين في القطاع الجديد 65٪ من القوة العاملة قبل نهاية القرن الحالي وهي نسبة تعادل تقريبا نسبة القطاع (الثاني) الصناعي في الاقتصاد عندما كان في أوجه . ومما لا شك فيه ان هذا القطاع يشكل اليوم في كثير من البلاد القطاع الاقتصادي الوحيد الذي يتمتع بنمو حقيقي سواء في الانتاج او في العمالة . ومن هذا التطور الذي تظهر اماراته في بعض الدول شديدة التصنيع يستخلص بعض الكتاب نتيجة متفائلة مفادها ان قدرات النمو الاقتصادي غير محدودة ، ما دام النمو لن يكون نتيجة للتراكم البسيط للمصادر المادية (وهي محدودة بطبيعة الحال) وانما نتيجة للتلاقي بين المصادر المادية المحدودة والمصادر غير المادية او المعنوية غير المحدودة . وبالعكس فان هناك بعض الكتاب (جان بودريارد مثلا) الذين يحذرون من سراب المثالية السبيرنية او الايمان الصوفي بمعالجة المعلومات ويعتبرون ان الانتقال يجرى حاليا من هدف الاستهلاك الامثل الى هدف الاعلام الامثل الذي لا يقل اتساما بالمثالية عن الاول حسب رأيهم .

161 – ويبدو من الضروري القيام بدراسات من اجل (1) تحديد اكثر دقة لبنية القطاع الرابع الآخذ في الاتساع ، من حيث علاقته ببقية القطاعات ، (2) تعميق الجوانب الاقتصادية للاتصال وآفاقه وتأثيراته على النمو العام . ومن الملائم ان يؤخذ بعين الاعتبار هذا التحول وتأثيراته سواء على البلاد المتقدمة (حيث يجب التأكيد مما اذا كانت هذه الظاهرة ممكنة النشوء في البلاد ذات الانظمة الاجتماعية الاقتصادية المختلفة والى اي مدى) او على البلاد النامية (التي تخشى اتساع الهوة بينها وبين البلاد الصناعية) .

رابعا – الجوانب والمتضمنات السياسية للاعلام

162 – ان لعدد من تأثيرات الاتصال ومشاكله ووظائفه ، اذا ما اخذت بأبعادها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، انعكاسات سياسية تؤدي الى [illegible] . فالعلاقات القائمة بين الاتصال من جهة وبين الايديولوجيات والعمل السياسي من جهة اخرى تشكل احد العناصر الثابتة والدائمة في نسيج الانشطة البشرية . وفيما عدا السمات التي تميز هذه العلاقات المتضمنة في التحليل السابق ، هناك سمات اخرى تستدعي انتباها خاصا .

1 – الاعلام كقوة سياسية

163 – سميت الصحافة بمعناها الواسع ، التي تشمل اليوم الى جانب وكالات الانباء والجرائد اليومية ، الصحافة المذاعة والمجلات الدورية والصحافة السرية – «بالسلطة الرابعة» منذ القرن الثامن عشر ، في الوقت كان فيه نفوذها في فرنسا معترفا به كقوة سياسية واجتماعية معادلة لقوة النبلاء والكنيسة وعامة الشعب .

164 – وقد تأكدت الصورة الشعبية « لسلطة الصحافة » على مر السنين . وليس هناك من احد يستطيع نكران الدور الذي لعبته الصحافة في بث الافكار الثورية وفي التنديد بسوء استعمال السلطة من قبل الحكام وبفضائح المجتمع او بالكشف عن الاختلاسات وعن الاعمال غير المشروعة والظالمة في مناسبات لا تحصى على المستوى المحلي والوطني والدولي . وليست قضية « واترجيت » و « فيتنام » الا امثلة حديثة للدور الرئيسي الذي يمكن ان يلعبه الصحفيون والكتاب في الكشف عن الوقائع الخفية وفي تشكيل الراي العام والحث على العمل السياسي . ففي اليابان مثلا ، اضطر رئيس الوزراء الى الاستقالة من منصبه في عام 1974 اثر حملة صحفية عنيفة نظمتها وسائل الاعلام اليابانية حول الرشوة والفساد في عالم السياسة .

165 – ويمكن للصحافة ان تشكل « سلطة مضادة » قوية في الحالات التي تعمد فيها السلطات الحكومية او الاقتصادية او غيرها الى تضييق الحصار على الاعلام او تشويهه فيما يتعلق بالمشاكل ذات المصلحة العامة . ولا يقتصر الامر على الصحافة والاذاعة فقط بل يشمل ايضا المجلات الدورية والصحافة الساخرة او السرية ، وهي تشكل في مجموعها وسائل ناجعة لاسترعاء انتباه الجمهور الى الوقائع الخفية او المعلومات المغرضة . ومن جهة اخرى فقد اظهرت بعض الدراسات ان دور اجهزة الاعلام يتجلى في تعديل الراي العام اكثر مما يتجلى في تحويله جذريا فيما يتعلق بالمسائل السياسية ، وبالتالي فان طاقتها الرئيسية تكمن في دعم المواقف والآراء بصورة عامة اكثر مما تكمن في قدرتها على تغييرها . وتظهر بعض الدراسات ايضا بجلاء التأثير السلبي الذي يمكن للصحافة ان تمارسه لاسكات النقد والمحافظة على الوضع القائم . وهذا التشجيع على الامتثالية ملازم للنظم التي تلتقي فيها مصالح الناشرين مع مصالح النخبة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاكمة .

2 – الاعلام والآراء السياسية

166 – غير انه يوجد بعض الغموض والالتباس حول دور الاعلام والاتصال في تغيير المواقف السياسية . فكما تبين آنفا ، يسير الاتصال في اغلب المجتمعات ان لم يكن فيها كلها « من اعلى الى اسفل » (اي راسيا وفي اتجاه واحد اكثر منه افقيا او من اسفل الى اعلى) . وتتميز وسائل الاعلام وخاصة منها التلفزيون نظرهم في مشاكل اغلبية الجماهير بل وبمحاولة باستئثار اقلية من الناس بالحديث عن وجهة اقناعهم . وهناك حالات كثيرة تعمد فيها وسائل الاعلام الى تبرير النظام السياسي القائم والتي تعمل في اطاره . وغالبا ما تساهم اجهزة الاعلام في دعم الوضع الراهن والمحافظة عليه اكثر من ان تناهض السلطة او تهددها مهما كانت السياسية بينهما .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد لوحظت النتائج السياسية لهذا التركيز في بلاد عديدة في كافة انحاء العالم . ويسير التطور في اتجاه يتقلص فيه عدد المشرفين على الاعلام كلما ازداد عدد الافراد المستفيدين منه . ويزداد توسع ظاهرة التركز هذه بحيث تؤدي بصورة عامة – ما عدا بعض الاستثناءات – الى ان مضمون الرسالات الاعلامية السياسية الموجهة الى اعداد متزايدة من الناس يقررها عدد من المسؤولين يزداد تناقصا .

167 – وتطرح هنا كثير من الاسئلة التي تحتاج الى مزيد من التمحيص : الى اي حد يمكن للاعلام السياسي ان يتركز بين ايدي عدد قليل من الاشخاص المثلين لمصادر السلطة العامة او الخاصة ؟ وهل ينبغي للمجتمعات ان تتخذ التدابير اللازمة للحد من التركز المبالغ فيه في المواضيع التي يتجلى فيها ؟ وما هي التدابير التي يمكن اتخاذها من وجهة النظر الواقعية ؟ وماذا ستكون نتائجها ؟

3 – الاعلام كاداة سياسية

168 – يقوم المشرفون على وسائل الاعلام سواء اكانت هذه الوسائل عامة او خاصة او مشتركة بين القطاعين بشكل عفوي او بقرار مدروس ، يقومون بتوجيه الرسائل الاعلامية الى جمهورهم بحيث يخلقون الجو السياسي الذى جاء وصفه آنفا . ودون التساؤل حول مختلف الدوافع التي تحرك مختلف المصادر ، فانه من الواضح ان الحكومات والصحف ومعلقي الاذاعة والتلفزيون والمجلات الدورية والشركات الخاصة والاحزاب السياسية والنقابات والمنظمات الاجتماعية التي لا تحصى تستعمل وسائل الاعلام الموضوعة تحت تصرفها للدفاع عن وجهة نظر خاصة في سبيل التأثير السياسي على الراى العام . وهناك امثلة عديدة لحكومات استخدمت وما زالت تستخدم الاتصال كاداة لبلوغ اهدافها من تشكيل الذاتية الوطنية وتقوية وحدتها في فترة الازمات (كأحاديث تشرشل الاذاعية خلال الحرب العالمية الثانية ودور اجهزة الاعلام في نزاع الشرق الادنى وخطب كاسترو في التلفزيون في الاوقات العصيبة) وفي كسب تأييد الراي العام لقرارات سياسية هامة (عندما يحدث تغيير في التحالفات السياسية مثلا) .

ويتضمن هذا النهج بالضرورة جوانب ايجابية وسلبية معا . ويجد الجمهور صعوبة احيانا في معرفة ما اذا كانت وجهة النظر المعبر عنها تعكس موقفا انحيازيا قويا او موقفا موضوعيا وما اذا كانت تخفى مصالح انانية او حزبية . وقد تسبب الجهود المخلصة في اعلام الراي العام في خلق جو من التوجيه العقائدي او من التسليم السلبي . وفي اسوا الحالات ، وعندما تكون مصادر الرسالات الاعلامية محدودة العدد ، فان التركيز يقتصر على وجهة نظر واحدة محددة مما يؤدي الى الدعاية والى التلاعب في تشكيل الراي العام .

ان الجو السياسي والاجتماعي في مجموعة هو الذي يقرر ، اكثر من وسائل الاعلام نفسها او من القائمين عليها ، ما اذا كانت الجوانب السلبية او الايجابية هي التي تسيطر . غير ان السؤال حول مسؤولية وسائل الاعلام يظل قائما . فما هي الوسائل المتاحة لهم والتي تتيح لهم التحقق مما اذا كان المواطنون المطلعون ، اذ تقدم لهم مختلف وجهات النظر بالنسبة لمشكلة ما ، يجدون انفسهم في وضع يسمح لهم باجراء الاختيار اللازم والمشاركة الذكية الواعية في اتخاذ القرارات السياسية ؟ (وحسبما يقول المثل : ان الشخص غير المطلع هو رعية ، اما الانسان المطلع فهو مواطن) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

4 – الاعلام والعلاقات الدولية

169 – يلعب الاعلام في العلاقات الدولية دورا هاما ان لم يكن حيويا في اطلاع المجتمع الدولي على المسائل التي تهم الانسانية كلها والتي لا يمكن معالجتها الا ببذل جهود دولية متكافلة . فخطط العمل المعزولة حيث التدابير التي يتخذها البعض تصطدم بعدم المبالاة من قبل البعض الاخر لن تؤدي الى اقامة النظام الاقتصادي الدولي الجديد او الى القضاء على الملاريا او مجابهة تلوث البيئة . ان التكافل بين مختلف البلدان ، المتقدمة منها والنامية هو امر معترف به اليوم وتقع المسؤولية الاساسية على وسائل الاعلام للتأكيد على ان الانسانية كلها مرتبطة بمصير واحد .

170 – ومن ثم النداءات المتزايدة من جانب الساسة والعاملين في وسائل الاعلام والاتصال انفسهم الى التركيز على توعية العالم بالمشاكل الاساسية التي تهدد مستقبل الانسانية باسرها ، كالفقر والجوع والامية والبطالة والظلم الاقتصادي والنمو السكاني وتدمير البيئة والتمييز ضد النساء والعنصرية وسباق التسلح . ونظرا لخطورة هذه المشاكل على الصعيد العالمي ولابعادها واستمرار على الصعيدين الوطني والدولى ، يتجه كثير من الناس الى تشجيع المسؤولين عن وسائل الاعلام للتحلى بروح اجتماعية اكبر واستخدام الوسائل القوية الموجودة تحت تصرفهم لافهام كافة الشعوب بتعلق مصيرها بعضها ببعض وبكونها مهددة سوية بنفس المخاطر وبانها تتقاسم نفس المطامح .

171 – وتكفي بعض الامثلة لتأييد هذه الاقوال : فقد بلغت نفقات التسليح 400 مليار دولار في السنة . وهذا يعني ان القطاع العسكري يمتص وحده وفي يوم واحد اكثر من مجموع المساعدات المقدمة سنويا الى الخمس والعشرين دولة الاقل تطورا . فكم من الناس على اطلاع على هذا التبذير الهائل لنتاج الجهد البشري ؟ واذا اعتبر ذلك تهديدا لبقاء الانسانية افلا يلزم استخدام مصادر الاعلام والاتصال على نطاق اوسع لتفادي هذه الكارثة ؟

وكم من الناس – بكل ما لديهم من شكاوى ومشاكل – في البلاد الصناعية يدركون حقيقة الظروف المريعة التي يعيشها المليارات من اخوانهم واخواتهم في العالم الثالث ؟ وهل تعلم المجموعة الدولية ان الدول الاعضاء في الامم المتحدة قد تبنت برنامج عمل يستهدف اقامة نظام اقتصادي عالمي جديد وهل تفهم بالتالي ما يترتب عليه من نتائج ؟

هذه فقط بعض القضايا التي يرغب منتقدو وسائل الاعلام في ان يروها تناع على نطاق اوسع على الجمهور الدولي لحثه على فهمها بصورة افضل وحفز ارادته لحلها .

ان قائمة القضايا والمشاكل المطروحة على الانسانية طويلة . ويعتقد الكثيرون ان الدور الاول لوسائل الاعلام هو تخصيص كافة جهودها لاسترعاء الانتباه الى هذه المشاكل ودفع المبادرات القادرة على ايجاد الحلول لها . فبفضل الاتصال وحده – عن طريق التبادل والتفاهم المشترك – تستطيع شعوب العالم ان تتحد في سلام ورخاء .

كاتب.. مجنون.. مجنون.. مجنون

■ المغامرات التي عاشتها النصوص التي خلقها « هنري لوغراند » تدفعنا الى الاعتقاد بان خطورة الادب تكمن في انه موصل جيد للجنون !

لانعرف الكثير عن هنري لوغراند غير انه ولد في 25 تشرين الثاني سنة 1844 ، انه تزوج من كارولينا بريز دو مولينا في 18 حزيران 1847 وأخيرا انه مات في 10 آب 1875 ، في مستشفى للمجانين في توجا . سبب دخوله المستشفى كان اصابته بالشلل المتولد عن الجنون التام . نعرف ايضا أنه كان مهندسا استقر في بوثيه في اواسط القرن التاسع عشر وانه بدا يكتب قصة حياته . من 1835 الى 1865 ظل عاكفا على كتابتها وحين لم يعد لديه شيء يكتبه اخذ يستنسخ جميع الرسائل التي تسقط تحت يده ثم انتقل الى عقود الزواج والاوراق الرسمية .. الخ . وحين لم يعد لديه مايستنسخ أخذ يصف الصفحات التي استنسخ عليها . ولكي يجعل من المستحيل على احد قراءة قصته والاطلاع على أسراره الخاصة عمد هنري لوغراند الى اختراع لغة سماها السنسكريتية استخدم فيها الحروف اللاتينية . كل سنتمتر واحد يضم ثمانية وعشرين حرفا لاتينيا ! في 1865 وهي السنة التي يتوقف فيها فجاة عن الكتابة يكتشف لوغراند انه قد كتب 15 الف ورقة (وهناك من يقول 150 الفا) مقسمة الى 45 جزء .

بعد وفاة لوغراند انتقلت المخطوطة من يد الى اخرى . ورثته باعوها الى الناشر المكتبي بيلان . مكتبي آخر « دوربون » حصل عليها سنة 1895 ثم باعها مرة أخرى الى بيير لوي في 28 كانون الثاني سنة 1907 .

بيير لوي كان الاول الذي فكر في فك رموز هذه المخطوطة العجيبة حيث توصل بعد جهد جهيد الى فك رموز352 حرفا من حروف لوغراند.

الا انه كان واثقا من انه لن يستطيع ولو بمعجزة ان ينتهي من فك رموز هذه الآلاف المؤلفة من الصفحات فاذا ما اشتغل يوميا عشرا منها فلن ينتهي المؤلف الا خلال سبع سنوات « ولذا فقد اكتفى بنشر مقطع بسيط منها . الا ان النقاد سرعان ما واجهوا هذا العمل بشيء من الرفض ومن الاستخفاف وكانه قضى عدة سنوات من حياته ليزعج النقاد والصحفيين فقط ! »

هدات القضية فترة ما ومرت عقود قبل ان يقترب أحد من المخطوطة حتى جاء دور جون بول دومون وابدى الاهتمام بمخطوطة لوغراند ، التنقيب في الارشيف وتصحيح ماقام به بيير لوي . وكانت النتيجة نشر كتابين . الاول : « آديل ، آديل ، آديل » وهو موجز لكل ماكتبه لوغراند ، و « الحلقة العاشقة لهنري لوغراند » الذي يمثل الجزء الثالث فقط من المخطوطة . لقد رسم هنري لنفسه مجتمعا سريا وصفه في مؤلفه . في هذا المجتمع لايعيش غيره وغير تسع نساء لم يعط اسماء لهن ، وحيث تدور تفاصيل العلاقات التي تربطه بهن وبنفسه الداخلية . ◆

الكاتب المسرحي دورينمات رساما

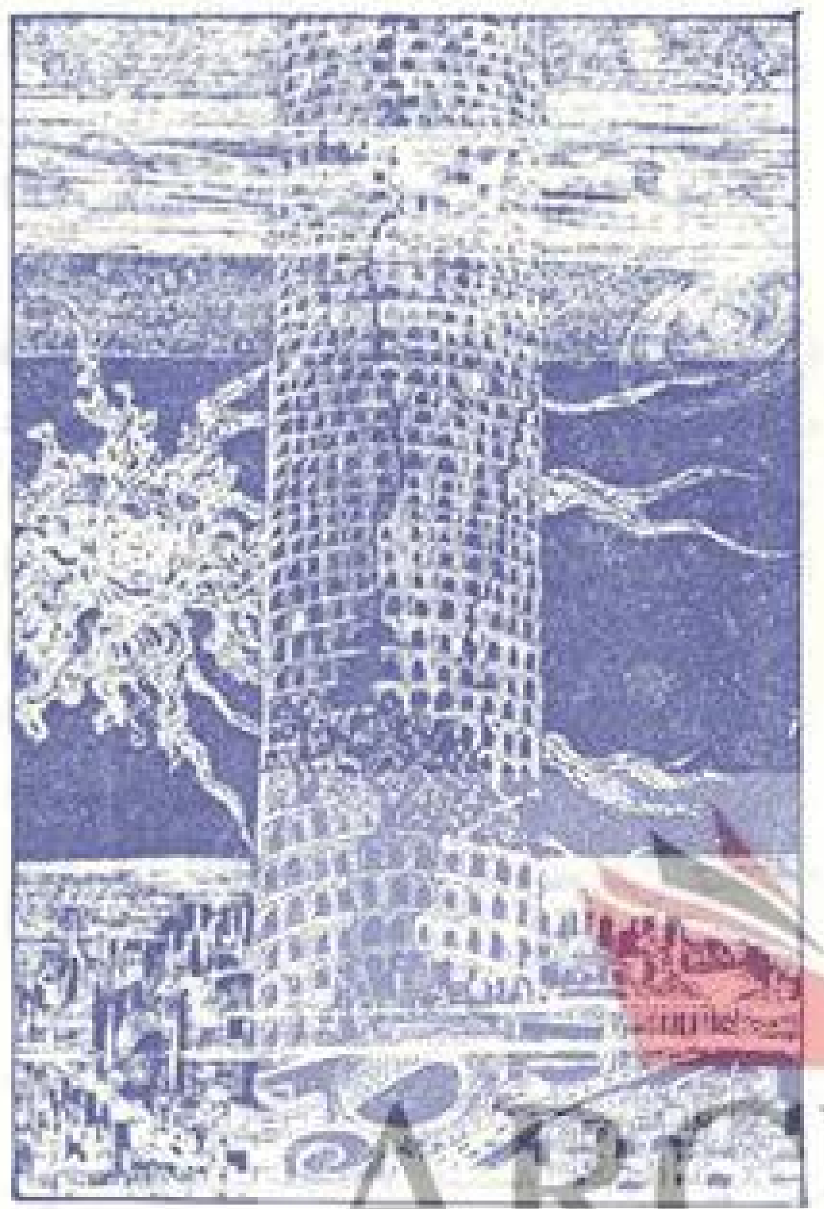

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

▼ نظم الكاتب المسرحي السويسري المعروف فردريك دورينمات (1921) معرضا لرسوماته في كالري كييل في زيورغ وقد ضمت المجموعة المعروضة العديد من اعمال التخطيط الى جانب بعض الرسومات المنفذة بالحبر وقلم الرصاص او بمادة الكواش . وتمثل هذه الاعمال سنوات مختلفة من هذا الكاتب والرسام . ان اعماله هي امتداد لمسرحياته ، هذا مايبدو للمشاهد السريع حيث ان غالب الموضوعات التي عالجها في المسرح نشاهدها هنا ، ولكن اي تفحص لهذه المجموعة يدحض الفكرة التي في اعماله الفنية بمثابة رسوم توضيحية لافكاره في المسرح مع حقيقة ان مقدرته على الرسم سبقت الكتابة . فقد كان في المدرسة يرسم بامعان وصبر وسرعان ماترك دراسته الجامعية بقصد ان يكون رساما وقد كون مجموعة كبيرة من الاعمال المتنوعة تفصح عن مقدرة واضحة قبل ان تجرب يداه الكتابة لاول مرة عندما كان عمره في الرابعة والعشرين. ومع نجاحه في المسرح ظلت رغبته على الرسم تسير متوازية رغم الانشغالات ، فورق الرسم وقلم الرصاص والحبر موجودة دائما على منضدة الكتابة للاستعمال ، وهكذا كان بمستطاعه ان يتحول من الكتابة الى الرسم حتى بدون ان يغادر كرسيه الجالس عليه . هذه الوحدة في الوقت والمكان تفسر الى حد ما الهيمنة العددية للتخطيطات على اعماله الملونة واعمال الكواش او الرسوم الزيتية . ولربما هناك سبب آخر جعله يفضل التخطيطات عن المواد الاخرى بأن التخطيط يتيح له امكانية التغيير وحيثما شاء .

يحلو لدورنيمات عندما يتكلم عن رسوماته ان يستخدم عبارة « التاليف المسرحي » ويشير دائما الى انه « لايعير اهتماما لجمال اللوحة وانما لامكانياتها » وفي هذه العبارة بعض التفسير للعلاقة بين الافكار والاشكال المرسومة ، اي ان الكاتب بحكم امتلاكه لكلا المقدرتين يحاول أن يوضح افكاره ضمن رغبته على الايصال ومن هنا يمكننا ان نفهم كيف أنه أحرق مخطوطته « برج بابل » والتي كتبها في بداية حياته المسرحية ليحولها فيما بعد الى مجموعة هائلة من التخطيطات تحت نفس العنوان . هل كان الرسم أكثر قدرة على اثارة التخيلات بعالم يتبدل ؟ ام ان التصورات التي ارادها دورنيمات كمفاتيح لعوامله الداخلية لم تكن شديدة الاثارة على المسرح . ان دورنيمات وهو يغرق اعماله برموز عديدة لايتخلى عن دقته في تصوير شخوصه فهو يتجاوز الشكل الواقعي الى الشكل الرمزي مع المحافظة على دقة تصوير الاشخاص ولربما يتميز دورنيمات بأنه شديد العناية في تنظيم شخوصه في امتدادات مختلفة وبنفس الوقت يحلو له أن يعطي لشخوصه حجوما مختلفة دون أن يعير اي اهتمام لمسئلة المنظور على الرغم من ان بعض اعماله تعتمد اصلا على هذا الجانب. من هنا تاخذ اشكاله المرسومة طريقها لتكوين العلاقة مع افكاره في المسرح حيث انه يمارس الرسم وقتما يجد التاليف المسرحي بعيدا عن الامكانيات ■

لوحات جديدة من نيويورك

■ سبعة فنانين من مدينة نيويورك شاركوا في تقديم تظاهرة سريعة في متحف هايورد كالري توضح الابحاث التي تجري في ميدان الرسم في هذه المدينة التي تعتبر الان احدى مراكز الفن في العالم .

فيليب كوستن ، عرف في البدايات كفنان جداري متميز بالافكار وقد اثارت اعماله في الخمسينات اهتماما كبيرا وسط نقاد الفن لاسلوبها التجريدي . خلال السبعينات انتج مجموعة متتابعة من الاعمال الكبيرة الحجم والتي يعتمد في تكوين عناصرها على بقايا الاشياء الموجودة في الاستوديو بالتضاد مع وجوه او وجه انساني لا تتميز فيه سوى العين المفتوحة . ان تعامله مع المساحات تختلف عن الاخرين ، فهو يهتم بان تكون المساحات الملونة عنيفة السطح ، بمعنى محافظته على طراوة عمل الفرشاة وبسبب ذلك يلجأ في بعض الاحيان الى تداخلات لونية غير نظيفة كما يتوصل الى تمييز اللون كلون وليس كشكل كما لدى الاخرين .

وعلى الرغم من الفرق بالاجيال بين كوستن والفنانين الاخرين مثل زوكر ، موري ، كوت الاانهم معروفون جدا في الاوساط الفنية تمكنوا ان يشدوا الانتباه لاعمالهم بطرق مختلفة في الشكل واللون والتي لا يريدون تصنيفها كفن تجريدي او تشخيصي . جيري زينوك لا نجد له اي خط او شكل ، اللوحة لون بمجموعها ، اصغر الفنانين روز بليكز تترجم انطباعاتها لاشكال يومية مثل الدرج ، الفراش ، الخيمة الى مساحات سوداء خشنة السطح وبمناخ درامي ، ولعل التخطيطين المعنونين ، رسوم بدون عنوان للحرب ورسوم بدون عنوان للنوم يعكسان مقدرة جميلة وشفافة لمشاهداتها للاشياء على عكس اللوحات الزيتية القاتمة اللون .

اما جاكي بيرثوت فهو يؤكد على اللون كالاخرين معتمدا على تضاد خلفية اللوحة مع المستطيلين اللذان يتوسطان كل لوحاته . ان منحاه ازاء اللون وتضاءل جدول الشكل في بعض اعماله تقربه من نظرة زميله زينوك وخاصة في اللوحتين التي اطلق عليهما عنوان (صور شخصية) . في اللوحتين ليس هناك غير مساحة اللون وليس هناك اي حدود شكلية او لونية تقودنا الى ملامح انسانية . اما الن كوت فهي بلوحاتها الكبيرة الحجم لتذكرنا بهندسية موندريان للاشكال الا ان كوت تفصح عن عبثية تلك الهندسة ، الوان متنوعة تتقاطع بخطوط سوداء وباتجاهات غير موحدة تؤكد على زوايا لونية معينة تتضاد مع خطوط سوداء تنتشر على شكل علامات مبهمة على سطح اللوحة . . هذه العبثية في منطق التكوين تخلق الشعور بمناخ عذب بلعبته اللون .

لا تهتم اليزابث موري بحدود اللوحة الكلاسيكية ، تعطي لاشكالها وعناصرها حرية تجاوز هذه الحدود، فمرة تكون اللوحة اقرب الى شكل نجمة اختلفت زواياها وتارة اخرى الى شكل مربع دقيق تغلب فيه صنعة التكوين الداخلي على تجاوزات الشكل . في لوحة غروب نيويورك ، اشكال تجريدية ملونة ومساحات تبهر بتوازنها وعلاقة اشكالها ، لاشيء فيها يذكر بالمشهد الطبيعي ، وكأن الفنانة تريد ان تعطي للغروب اهمية الاحساس به اكثر من مشاهدته . اما بريساريوس بيرج فان لوحاته تذكرنا باعمال التزيينات التي تنفيذ على القماش ، فيها تأكيد على الخط الذي يكون الاشكال وهي اشكال واقعية مع الاهتمام الواضح بتنوع الالوان وغناها ، لا يميل الى استخدام لوني ضمن المساحات وانما يكون الخط من خلال قطع القماش التي يلصقها ثم يلونها حسبما يريده .. ان مجموعة الاعمال المعروضة لا تشير الى تميز في ابحاث المجموعة عما نشاهده في الفن الاوربي ، اذ لا زالت هذه الاعمال بشكل او باخر انعكاسات اوربية في شروط اللوحة الحديثة ◆

شركات الأدوية والعالم الثالث

■ لقد دللت الاحصائيات الحديثه على ان واحدا من ثلاثة اطفال في العالم الثالث يموتون من امراض مثل الملاريا والاسهال الصيفي قبل وصولهم سن الخامسة كما ان هنالك نسبة اقل ممن يموتون بعد هذا السن . كما دللت الاحصائيات على ان العالم الثالث تصرف من 20 – 50 بالمائه من ميزانيتها الصحيه على الدواء في حين تصرف الدول المتقدمة 10 بالمائه فقط من ميزانيتها الصحية .

ترى شركات الادوية في العالم الثالث سوقا جيدا لبيع ادويتها . التي هي اصلا صالحة لسوق العالم المتقدم اذ ان هذه الشركات لاتصنع ادوية للمناطق الحارة ولاتعمل اية ابحاث بالنسبة لامراض هذه المناطق والادوية الصالحة لهذه الامراض وتستغل هذه الشركات عدم اهتمام حكومات العالم الثالث باهمية الدواء اذ ان من السهل على اي انسان في العالم الثالث الحصول على اي دواء من الصيدلية وبدون وصفة مما يزيد من استهلاك هذه الادوية كما يولد امراضا كثيرة نتيجة سوء استعمال الدواء كالسرطان مثلا . كما ان كثيرا من دول العالم الثالث ولعدم وجود مراكز لنقل التكنولوجيا واجهزة براءة الاختراع تحصل على رخص صنع الادوية الغالية ذات براءة الاختراع المكلفة في حين يمكن الحصول على ادويه ارخص وبدون الحاجة الى براءة اختراع خاصة بها . كيف يمكن الحد ما تاثير الشركات المتعددة الجنسية في هذا المجال ووقف استغلالها لألاف الناس في العالم الثالث . يمكن تقديم بعض المقترحات في هذا المجال واهمها .

1 – فرز الادوية الضرورية للأمراض المنتشرة في العالم الثالث ، ولقد فرزت منظمة الصحة العالمية 200 نوع من الادوية التي يمكن الاستفادة منها في الدول النامية.

2 – ان معظم الدول النامية تطلب عروضا من الشركات التي تصنع الادوية ثم تاخذ ارخص هذه العروض وفي بعض الاحيان لايكون هذا الاختيار صحيحا اذ ان الادوية التي تختارها الدول النامية يمكن ان تكون رخيصة فعلا الا انها رديئة النوعيه وفي كثير من الاحيان غير مفيدة لمعالجة الامراض المنتشرة في هذه الدولة لذلك من الضروري وضع اجهزة تقوم بفحص الادوية وفعاليتها وبعد ذلك يتم اختيارها على ضوء هذه الضوابط .

3 – وضع تحديدات على استعمال الادوية بحيث لايصبح الدواء سلعة سهلة التداول في اسواق الدول النامية .

4 – لقد منعت الكثير من الدول المتقدمة الشركات من عمل دعاية لها عن طريق النماذج التي تمنح للأطباء، ويمكن اتباع نفس الاسلوب في الدول النامية .

5 – ان من الضروري تغيير المناهج التي تدرس لطلاب كليات الصيدله في الدول النامية اذ ان هذه الكتب موضوعه حسب الحاجات والمتطلبات للمجتمعات المتقدمة ولايوجد هناك تركيز على معامل الكلفه وتاثير الدواء الجانبي وغير ذلك من الامور .

6 – ان نقل التكنولوجيا في مجال صناعات الادوية يتم عن طريق الشركات المتعددة الجنسية ولقد دللت الكثير من تجارب نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة الى الدول النامية عن طريق الشركات المتعددة الجنسية على ان هنالك الكثير من المضار التي تلحق بالدول النامية نتيجة الاعتماد على الشركات المتعددة الجنسية في نقل التكنولوجيا . الا ان هنالك الكثير من الشركات ممن لها استثمارات كبيرة في الدول النامية ففي كولومبيا مثلا تقوم الشركات باعطاء ضرائب عن ارباحها المسجلة وتبلغ هذه الضرائب 6 بالمائه من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ارباحها المسجلة الا ان ارباحها الحقيقية هي غير ارباحها المسجلة ولو تم تسجيل الارباح الحقيقية لارتفع مقدار الضرائب الواجب تقديمها من قبل الشركات المتعددة الجنسية الى الحكومة الكولومبية باكثر من خمسة عشرة مره مما تقوم بدفعه فعلا . وهناك مثل جيد بالنسبة لممارسة الشركات المتعددة الجنسية في الدول النامية فعندما انتشرت الكوليرا في سيريلانكا كان عند الشركة العامة للأدوية السيريلانكية مسحوق تتراسيكلين وقد طلبت الحكومة السيريلانكية من شركة متزر تعبئة المسحوق في الكبسولات المتوفرة لدى مخازن الشركة الاجنبية في سيريلانكا الا ان الشركة رفضت ذلك مما نتج عن استيراد الحكومة لهذه الكبسولات من الخارج وباسعار مضاعفة .

لقد اهتمت الاونكتاد بهذه المشكلة ودعت لاقامة مراكز انتاجية اقليمية ومراكز للبحوث في مجال الادوية في حين قامت اليونيدو بتطوير مشاريع صغيرة وتجريبية متعددة الاهداف لانتاج الادوية .

◆ ترجمة : د سلمان رشيد

ريلكه باللغة الروسية

■ لم يتوفر للقاريء الروسي الاطلاع على مجموعة مترجمة تضم الاعمال الكاملة نسبيا لشاعر النمسا الكبير رايز ماريا ريلكه الا بعد مرور خمسين عاما على وفاته ، اذ صدرت مثل هذه المجموعة مؤخرا في موسكو عن دار نشر (ناووكا) .

كتب ريلكه ذات مرة يقول : « بماذا أنا مدين لروسيا ؟ انها جعلت مني ما هو أنا الآن . لقد خرجت منها داخليا [illegible] جميع منابعي العميقة هناك ! » . كتب ريلكه هذا الكلام في عام 1920 بعد مرور 20 عاما على رحلته الاخيرة الى روسيا ، وقبل خمس سنوات من صداقته المفاجئة العاصفة مع اثنين من الشعراء الروس الشباب هما مارينا تسفيتاييفا وبوريس باسترناك . وكانت صداقة رومانتيكية كما يظهر بوضوح من الرسائل المتبادلة بين الشعراء الثلاثة والتي نشرت قبل عام في مجلة « قضايا الادب » السوفيتية .

وكانت قد نشرت في السنوات الاخيرة اربع مجموعات مترجمة لقصائد ريلكه بشكل متفرق ، غير ان تلك المجموعات لم ترض القراء أبدا . وذلك لان هناك بعض الشعراء يمكن ان تشكل قصائد مختارة من اعمالهم ضمن مجموعة واحدة كتابا جيدا يمتع القاريء . ولكن ريلكة كما يشير الناقد السوفيتي أرخيبوف لاينتمي الى هذا النمط من الشعراء. اذ لا يمكن تقويمه الا بعد الاطلاع على شعره كله لانه كان يكتب ويفكر في صورة « حلقات » . وحلقات ريلكة كانت علامات رسمتها السنون على جذع الشجرة حسب تعبير الشاعر نفسه . ◆

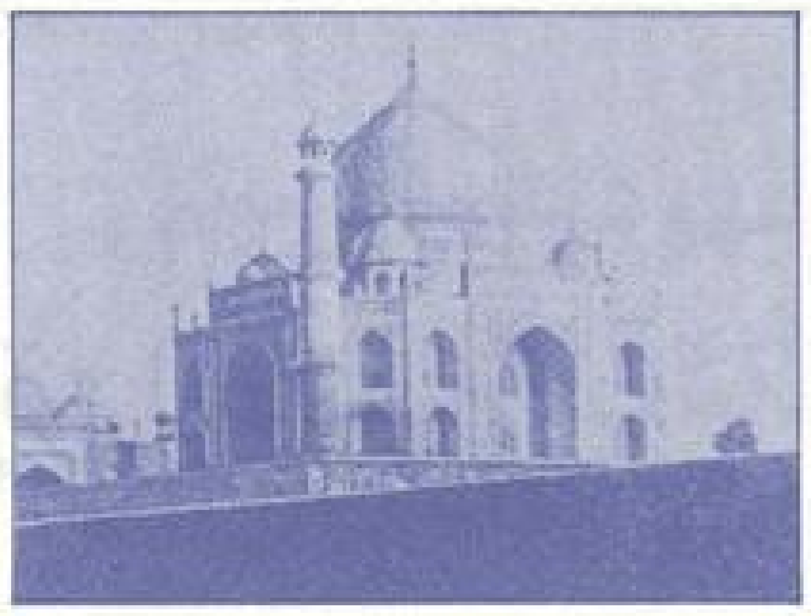

تحنيط تاج محل

■ اصبح ضريح تاج محل المرمري في دلهي و المشهور على نطاق العالم مهددا بالخطر ، اذ بدأت « القروح » تغطي جدرانه . وقد اعلن فريق من الاختصاصيين للصحفيين الهنود بان سبب ذلك يعود الى مركبات سامة في الجو ناتجة عن الدخان الخارج من مداخن المؤسسات الصناعية . يرى هؤلاء الاختصاصيين ان الطريقة الوحيدة لانقاذ هذا الاثر المعماري الفذ يكمن في « تكفين » المبنى كله بقماش صناعي لا يتأثر بالتفاعلات الكيمياوية . غير ان مختصين آخرين يعترضون على ذلك بالقول ان مثل هذا القماش لايستطيع الصمود بوجه العواصف الرملية التي يكثر هبوبها في تلك المنطقة ، وان مثل هذا « الكفن » لن يقاوم اكثر من بضع سنوات . كما ان هناك صعوبات مادية تعرقل تنفيذ المشروع ... ◆

شاشة داخل شاشة

■ يكفي ان تضغط على المفتاح المطلوب على لوحة مفاتيح هذا التلفزيون (ياباني) لتظهر في الزاوية اليمنى السفلى على الفور شاشة صغيرة تعرض ما يجري على اية قناة أخرى يود المشاهد معرفة ما يقدم فيها من مادة . وتكون الصورة التي تعرضها الشاشة المصغرة بالابيض والاسود ، أما اذا فضل المشاهد رؤية البرنامج على الشاشة الكبيرة فان ضغطا على مفتاح آخر سينقل الصورة اليها لتظهر هذه المرة بالالوان ◆

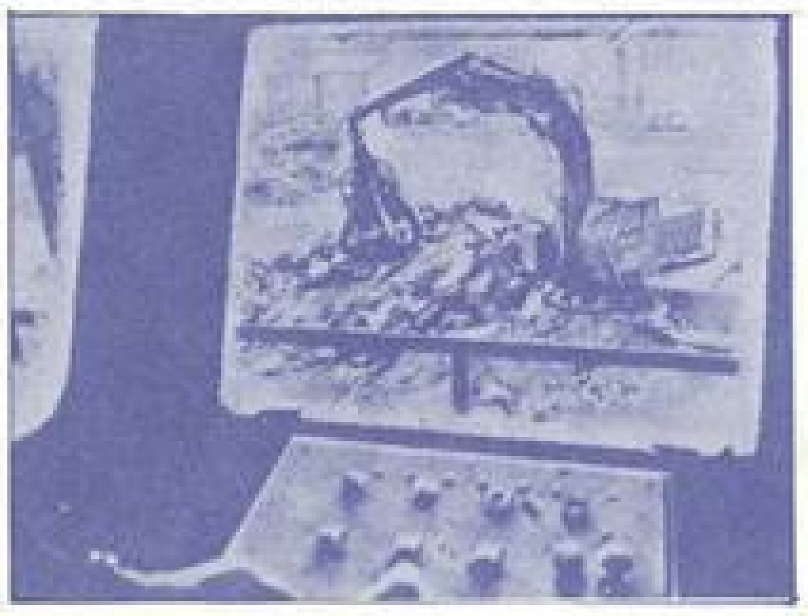

حفارة بدون سائق

■ انتجت احدى الشركات الفرنسية المتخصصة في صناعة الآلات الرافعة الهيدروليكية حفارة ومكائن اخرى تستخدم لأعمال البناء وتعمل بالتوجيه الآلي بدلا من قيادتها بواسطة سائق . ومن شان هذا النظام الجديد ان يفيد في انجاز اعمال البناء في المناطق التي قد يتعرض الانسان فيها للمخاطر سواء من حيث طبيعة الارض أو في الاجواء الحارة جدا او التي تحتوي على غازات مضرة بالصحة . ويمكن تثبيت كابينة القيادة في مكان خارج دائرة الخطر وعزلها عن أي تأثير يهدد بالحاق الضرر بالانسان . ◆

راديو يزن 100 غم

■ تستمر النزعة نحو انتاج أصغر الاشياء بمساعدة الالكترونات والترانزستورات كهذا الجهاز الجيبي الذي عرضته مؤخرا احدى الشركات (يابانية) . وهو عبارة عن راديو يزن مائة غرام فقط ويمكن وضعه في الجيب الاعلى للجاكيت تماما كما يثبت الانسان فيه عادة زهرة أو قلم حبر . هذا ويضم الراديو كذلك ساعة الكترونية ومنبه . الساعة التي تعمل بالكرستالات السائلة تظهر الوقت والتاريخ واليوم والشهر، كما انها تشغل وتوقف المنبه حسب رغبة الشخص . ◆

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غاز الهيدروجين وقود المستقبل

■ يؤكد العديد من العلماء في العالم ، على ان غاز الهيدروجين سيكون في المستقبل المصدر الرئيس للطاقة . فمنذ مدة ليست بالقصيرة، وردت في النشرات الاخبارية لبعض وكالات الانباء العالمية انباء اكدت نجاح تجارب تشغيل السيارات بواسطة الطاقة الحرارية التي يحررها غاز الهدروجين عند احتراقه ، بدلا من استخدام البنزين او الكازولين.

لقد أجريت مثل هذه التجارب في الولايات المتحدة الامريكية والمانيا الغربية واليابان وكذلك في الاتحاد السوفيتي ايضا ، لتشغيل السيارات والتراكتورات والحاصدات ، بل وحتى الطائرات كما وشيدت بناية خاصة أجريت فيها تجارب تشغيل اجهزة التدفئة والتبريد وسخانات الماء والثلاجات والطباخات على اساس استخدام غاز الهدروجين لهذا الغرض .

الهدروجين صديق البيئة

ترى ،لماذا انصب اهتمام العلماء على هذا الغاز العديم اللون والرائحة والمذاق وغير السام ؟

كحقيقة علمية ، فان البترول سينفذ في المستقبل ، باعتباره لحد الان مصدرا رئيسيا لوقود المحركات. ويضاف الى ذلك انه ، عند احتراق الهدروجين مع الاوكسجين تتحرر طاقة حرارية . اما العامل الثالث ، فيكمن في ان الهدروجين غير مضر للبيئة . فاذا ما احترق داخل المحرك ، فانه سيخلف بخار الماء . وعلى هذا الاساس ، فان الهدروجين يعتبر وقودا مثاليا للمحركات المالوفة . وان أستخدامه لا يتطلب اجراء تغيرات معقدة على تصاميم المحركات .

ان غاز الهدروجين كمولد للطاقة، على عكس الطاقة الكهربائية ، يمكن خزنه بكميات كبيرة بسهولة ، كذلك نقله الى مسافات بعيدة بدون خسارة ، كما وانه يتواجد في مياه المحيطات والبحار بكميات لا يمكن تحديدها .

في ضوء ذلك يحق للمرء ان يتساءل : لماذا لم يستخدم هذا الغاز الغني بصفاته الايجابية كمصدر رئيس للطاقة لحد الان ؟

لم يزل العلماء يواجهون مسألتين رئيستين تحولان دون تعميم استخدام هذا الغاز لتشغيل المحركات .الاولى الجانب الاقتصادي عند انتاج غاز الهدروجين بكميات كبيرة ، اذ ان كلفته باهضة جدا . والثانية تصميم الخزان المناسب لهذا الغاز ، بحيث تتمكن المركبة من قطع بضعة مئات من الكيلو مترات ، خاصة وان القناني المعدنية المعباة بالغاز المضغوط غير عملية ، لانها ثقيلة الوزن وغير مامونة وتستوعب كمية قليلة من هذا الغاز .

لقد حققت بعض التجارب العلمية مؤخرا نتائج تدعو للتفاؤل في هذا المضمار . اذ تم التوصل الى صنع قنان من مركبات معدنية تستوعب كمية من غاز الهدروجين المضغوط تكفي لقطع 200 كم ، علما بان حجمها مشابه للقناني المتعارف عليها .وهنا تجدر الاشارة ايضا ، الى ان تحضير غاز الهدروجين بكميات كبيرة ، كما هو معروف في الوقت الحاضر ، يتطلب أستخدام نسبة عالية من الطاقة الحرارية . ولذلك يتوقع العلماء ، أمكانية أستخدام الطاقة الذرية لمثل هذه الاغراض في القرن القادم ، باعتبارها من مصادر الطاقة ايضا .

نتائج تدعو الى التفاؤل

في احدى جامعات كاليفورنيا توصل العلماء قبل فترة قصيرة الى طريقة جديدة لانتاج الهدروجين . فتحت درجة حرارة 100 فهرنهايت وباستخدام عوامل مساعدة ، تمكن هؤلاء من تحضير غاز الهدروجين عن طريق تفاعل اوكسيد الكاربون مع الماء ، ولكن في المختبر فقط لحد الان.

ان العلماء يتوقعون استخدام الهدروجين على نطاق واسع في المستقبل ، كوقود لمختلف الاجهزة المنزلية ولمختلف المحركات . اذ سيتم ضخه عبر شبكات الانابيب الغازية في المدن ليصل الى كل عمارة وشقة . واذا ما نفذ وقود سيارتك الهدروجينية فما عليك سوى تزويدها بهذا الغاز من القناة الرئيسة في عمارتك .

ترجمة ، غانم محمود

الفن الزامبي

■ اولى الاعمال الفنية التي عثر عليها في زامبيا كانت تعود الى الالف الرابع قبل الميلاد كما يؤكد العلماء المختصون بالآثار . وهذه الاعمال هي نقوش على الصخر تمثل صور الحيوانات والبشر ومشاهد الصيد .

وفيما بعد عثر على تحف فنية اخرى من أعمال الفخار والخشب و القصب ، وهي اعمال اثارت في حينه ، وما تزال ، اعجاب ودهشة الخبراء والهواة في كل انحاء العالم .

بعد ان استقلت زامبيا بدا الفن المعاصر يتطور فيها مستلهما التقاليد الافريقية العريقة كما تدل على ذلك النماذج المنشورة مع هذا الكلام للفنانين التشكيليين والشعبيين المعاصرين .

◆

عندما ترقص مدينه بأسرها «السابوا»

■ لعله أغرب كارنفال في العالم هذا الذي يجري سنويا في مدينة ريودي جانيرو حيث يشترك مئات الالوف من الناس في تقديم رقصة السامبو . انه عيد مسيحي قديم تحول بالتدريج الى شكله الحالي منذ بداية القرن العشرين . سكان المدينة الكبيرة باسرهم يرقصون ويغنون ويعبرون عن الخيال الجامح و الاحلام الجماعية بالكلمة والايقاع والحركة والقناع .

أما روح الكرنفال فهم سكان الاحياء الشعبية . فهؤلاء بالذات هم الذين ابتدعوا هذا الاسلوب للتعبير عن الثقافة الشعبية وذلك عبر « مدارس السابو » او فرق الكرنفال و التي هي بمثابة نواد لسكان الاحياء الشعبية لها قوانينها وتقاليدها الصارمة . في السابق كان كل حي شعبي يمتلك مدرسته الخاصة به . ولكن مدارس اخرى عديدة نمت وتطورت في الضواحي حتى ان بعضها حصل على شهرة كبيرة بحيث ان اشخاصا من الاحياء الغنية اخذت تنتمي اليها .

ان التباري في رقص السامبو تجري بين مختلف المدارس منذ نصف قرن . اما الجائزة فهي مبلغ نقدي او تمثال ذهبي ولكن المكافأة الكبرى هي الانتصار نفسه . بعد مضي شهر فقط على انتهاء الكرنفال (يجري عادة بعد أعياد الفصح) تبدأ المدارس بالتدريب للمهرجان القادم . قبل كل شيء يتم اختيار الموضوع الموسيقي لمسيرة المهرجان ، ولا بد ان يكون من ايقاع السامبو وهي ثمرة اندماج للثقافات الافريقية والامريكية والاوروبية .

يقوم 40 ــ 60 ملحن وشاعر باعداد حوالي 30 أغنية خلال شهر من الزمن . بعد ذلك تتم التمارين خلال أشهر على الحان جديدة . واخيرا يقع الاختيار النهائي على الاغاني التي ستقدم في الكرنفال .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

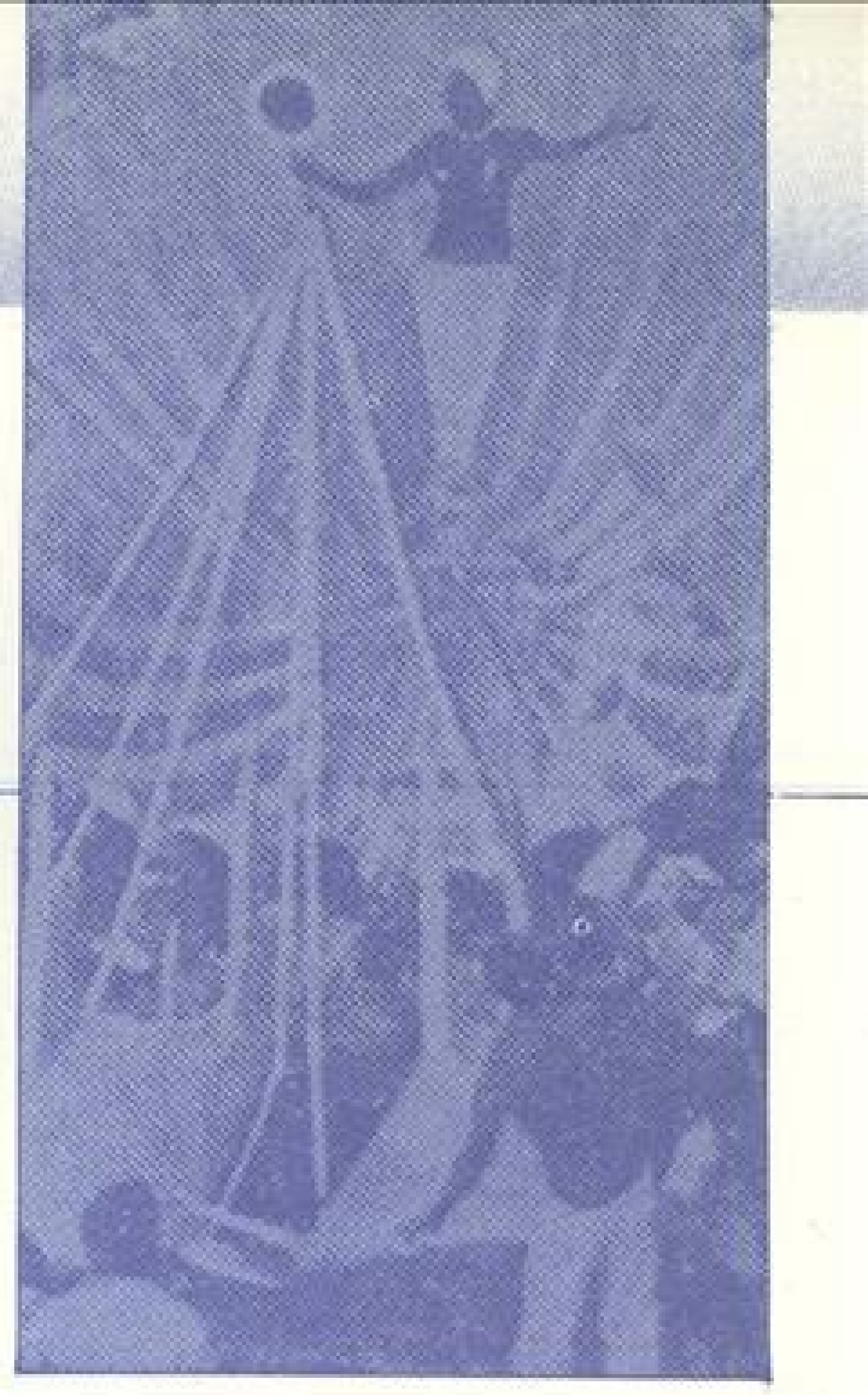

توفيق الحكيم يشكر اليهود على كرمهم ويهاجم المنتجين والكتاب العرب

ويعين مخرج يقوم باستئجار مصممي الديكورات والملابس والكهربائيين . ويقوم هؤلاء باعداد العربات والاقنعة والملابس والاضاءة والصوت ، وفي هذه الاثناء تستمر تدريبات الراقصين والمغنيين .

تجري التدريبات علنا ولكن على الجمهور المتفرج ان يدفع مبالغ معينة تستثمرها المدارس لأكمال استعداداتها للكرنفال .

واخيرا يحل اليوم المنتظر . يبدا العرض الحقيقي في الليل حوالي الساعة التاسعة . ان من الصعب تصور المشهد ما لم يكن المرء قد رآه فعلا . تستمر عروض مدارس السامبو منذ الساعة العاشرة ليلة يوم الاحد حتى ظهر اليوم التالي ! تشترك في تقديم العروض عشرة مدارس على الاقل تضم كل منها حوالي 2500 شخصية مقنعة وبازياء كرنفالية .

ان النساء هن نجمات الكرنفال الحقيقيات . ويذكر مشهدهن وهن شبه عاريات يهززن اردافهن بشكل مثير بحفلة تهتكية عملاقة . وهي بالفعل حفلة رائعة تنتصر فيها الانوثة . فكم من الفتيات الفقيرات ينتظرن عاما كاملا وهن يحلمن بيوم الكرنفال ! وفي هذا اليوم تجد مثل هذه الفتيات أنفسهن في احسن حالاتهن يرقصن امام اكبر جمهور يحضر عرضا ما في العالم . يتلوى جسدها على ايقاع السامبو تحت آلاف الاضواء وآلات الكاميرا . انها لحظة عظيمة تصبح فيها الفتاة الفقيرة .. ملكة ولكن ليوم واحد فقط !

◆

■ قال الكاتب المصري انه مسرور جدا للكرم والالتزام الذي يتحلى به اليهود . وكان الكاتب المصري يتحدث لاحدى الصحف المصرية ، واخرج توفيق من جيبه شيكا موقعا من ابا ايبان وهو يضحك ويقول : هذا الشيك من مؤسسة النشر الاسرائيلية ولم يذكر الحكيم قيمة الشيك الا ان المقربين من الحكيم يعلقون عليه دائما انه لا يرد الهدية مهما كانت قيمتها قليلة ، ويعني ذلك ان الحكيم قبل الشيك مهما كانت قيمته ، ونسي التزامه الادبي والفكري تجاه القضية، وعن ظروف حصوله على هذا الشيك قال الحكيم انه كان مقابل ترجمة لكتابه « يوميات نائب في الارياف » قام بترجمته ابا ايبان الى اللغة الانجليزية ، بعدها استمر الحكيم يكيل المديح الى اليهود وينظر الى الشيك مسرورا وقال ان الاسرائيليين يحبون العمل الدقيق ، فقد قاموا بحسم نفقات نسخ الكتاب على الالة الكاتبة، وبعض النفقات النثرية الاخرى . وعن سؤال حول انتاجه الذي انتشر بالدول العربية تنكر الحكيم للقارىء والمنتجين والكتاب العرب ، واخذ يقارن بينهم وبين اليهود ، واتهمهم بما اسماه بالتصرفات الغريبة والمريبه التي يلقاها من المنتجين العرب . ومما يبعث السخرية ان الحكيم كان يضحك باستمرار ويخرج الشيك من جيبة بين الفينة والاخرى ويقول : من اين ياكل ويعيش المشتغلون بالادب والتاليف . ومن المعروف أن الحكيم يملك ثروةطائلة كما ان نسبة التوزيع بانواعها المختلفة تتم في البلاد العربية وتبلغ النسبة ما يزيد على 90٪ من انتاجه ، ومن ناحية ثانية استضاف راديو اسرائيل مؤخرا توفيق الحكيم في برنامج خاص ،وقد كان هذا البرنامج مقدمة للشيكات التي يقبضها الحكيم دون وازع او رادع . وفي هذا البرنامج امتدح الحكيم اسرائيل ووصفها بالدولة المحبة للسلم وبارك جهود السلام كما يسميها . وليس هذا فقط فقد استعمل في هذه المقابلة كلمة «وطن» ولم يقصد الفلسطينيين وانما الوطن اليهودي . وهذه هي المرة الاولى الذي يستعمل مثل هذا الكلام كاتب عربي .

عن جريدة « الراي » الاردنية

◆

احراق الوقود وصدمة المستقبل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

■ لقد وجد العلماء حديثا بان احراق الوقود مثل النفط والفحم تزيد من نسبة ثاني اوكسيد الكاربون في الجو وهذا يساعد على زيادة درجة حرارة الجو باستمرار اذ ان ثاني اوكسيد الكاربون يعمل على منع تسرب الحرارة الى اعالي الجو .

في نهاية القرن التاسع عشر كان تركيز ثاني اوكسيد الكاربون في الجو 290 جزء بالمليون وازداد في عام 1972 الى 330 جزء بالمليون وهذه زيادة كبيرة الا انها تمثل 50 بالمائة من كمية الكاربون الذي اطلق الى الفضاء نتيجة احراق الوقود لهذه الفترة . ان هذا يعني بان هنالك خزانات امتصت نصف كمية ثاني اوكسيد الكاربون التي اطلقت. فهل امتلأت هذه المخازن ام ان بامكان الانسان استعمالها لخزن ما يتولد من ثاني اوكسيد الكاربون مستقبلا . ان اول هذه المخازن هو الفضاء الذي يمكن ان يخزن 600 جي تي (1 جي تي = 10 اس 9 طن) اما النباتات فيمكن ان تخزن جي تي 1800 ويمكن ان تخزن المحيطات في حدود جي تي 32000 . ان النباتات هي اكثر هذه المخازن كفاءة واهم هذه المخازن هي الغابات، الا ان حجم الغابات في تقلص دائم في حين ان احراق الاخشاب في تزايد وهذا يعني ان الانسان يعمل متعمدا على تقليل سعة هذه المخزن وبذلك يزيد من نسبةثاني اوكسيد الكاربون في الفضاء . لقد حسب احد العلماء من جامعة واشنطن كمية ثاني اوكسيد الكاربون المطلقة من 1850 — 1950 نتيجةاحراق المواد العضوية ب جي تي 120 في حين ان كمية الغاز المطلقة لنفس الفترة نتيجة احراق الفحم والنفط تساوي جي تي 60 .

ان كمية اوكسيد الكاربون قد تسببت كما يعتقد العلماء في زيادة حرارة الارض بنسبة تتراوح ما بين 1 و 2 درجة مطلقة ويعتقد بان نسبة ثاني اوكسيد الكاربون ستزداد في سنة 2000 الى حدود 500 جزء بالمليون وستبلغ عام 2100 بحدود 1500 جزء بالمليون وسيكون نتيجة ذلك رفع درجة الحرارة 6 درجات مطلقة . ترى ماذا سيكون تاثير ذلك على الارض ؟ يعتقد البعض بان ثاني اوكسيد الكاربون سيمنع وصول اشعة الشمس الى الارض كما هي الحالة الان اذ انه سيقوم بعكس بعض هذه الاشعة وبذلك يقلل درجة الحرارة . ان زيادة ثاني اوكسيد الكاربون كما يعتقد البعض سيكون له تاثير خاص على الزراعة اذ ستزداد الامطار في بعض المناطق في حين تصبح مناطق اخرى اكثر جفافا ويعتقد العلماء بان الامطار ستزداد سقوطا في افريقيا واوربا والشرق الاوسط في حين ستصبح الدول الاسكندنافية وشمال امريكا اكثر جفافا. ان التقديرات مهما اختلفت الا انه من المؤكد بان تزايد كمية ثاني اوكسيد الكاربون في الجو سيكون له اثار سلبية على الانسان والبيئة التي يعيش فيها ومن هنا تاتي ضرورة معالجة تزايد نسبة كمية ثاني اوكسيد الكاربون في الفضاء .

د . سلمان رشيد سلمان

◆

ملاحظات حول مقال تاريخ القهوة عند العرب

■ قرات في عدد شباط من مجلتكم الزاهرة مقالا بعنوان (تاريخ القهوة عند العرب) ترجمة الدكتور عبدالفتاح حياوي. وخرجت بعد قراءته بالملاحظات والتعقيبات الاتية :ـ

1 ـ لعل المصدر الذي ترجم عنه قد سقط اثناء صف الرصاص عند الطبع ولكي يكون قراء مجلتكم على علم به فقد اثبت لي انه مترجم من دائرة المعارف الاسلامية من مجلدها الثاني الصادر سنة 1972 .

2 ـ ان البحث الذي كتب في دائرة المعارف الاسلامية كان بعنوان KAHWA

ولكن المترجم الفاضل ابدله بعنوان (تاريخ القهوة عند العرب) فوضعه هذا التغيير امام مؤاخذات عدة منها :

أ ـ ان كاتب البحث في دائرة المعارف الاسلامية لم يقتصر في بحثه على تاريخ القهوة عند العرب ، بل شرق وغرب ، وهذا من حقه ما دام يبحث عن (القهوة) دون تحديد مكان او زمان .

ب ـ ان هذا العنوان الذي اختاره الدكتور قد يجعل كثيرا من قراء المجلة يظنون بان ما ترجمه هو كل ما جاء حول تاريخ القهوة عند العرب ووفقا لهذا الظن ، نقول ان للقهوة وتاريخها في بلاد العرب ، صفحات عدة تضمنت الكثير من المواقف والاراء الفقهية والقصائد والاشعار . وقد عرضنا نماذج منها في مقالنا (القهوة : المشروب الذي تارجح بين المنع والاباحة) المنشور في العدد (148) من مجلة (العربي) الكويتية في شهر مارس سنة 1971 .

3 ـ وردت في ترجمة الدكتور ، هاتان العبارتان :

(والشخص الثالث الذي تشرف بادخال القهوة الى بلاد العرب) و (ان كون حقيقة فضيلة ادخال القهوة كشراب اعطيت الى مختلفين ..)

والذي اراه بعد قراءه النص الانكليزي ان تكون الجملة الاولى هكذا (ويعتبر الشيخ ابو بكر عبدالله العيدروسي ، الشخص الثالث الذي ادخل القهوة الى بلاد العرب) وتكون العبارة الثانية كما يلي (والحقيقة ان اعطاء (الاولوية) بادخال القهوة كشراب الى اشخاص مختلفين ..) هذا ما نراه ، والا فماذا يقصد الدكتور بكلمة (تشرف) و (فضيلة) ؟ ربما يقول MERIT تعني الشرف و CRSDIT فضيلة ولكن سياق الحديث يدور حول تعيين من كان اول من ادخل القهوة او شربها الى بلاد العرب .

4 ـ المحتسب ومدير الشرطة

لقد ظهر لي ان كاتب البحث في دائرة المعارف الاسلامية ، قد جعل (خاير بك) مديرا للشرطة في مكة ، بينما كانت وظيفته هي (المحتسب) وفرق كبير بين واجبات هاتين الوظيفتين في ذلك العهد .

قال صاحب كتاب (عمدة الصفوة في حل القوة) ما نصه :

(الامير خاير المعمار باش مكة ومحتسبها) فهو اذن المحتسب وليس مدير شرطة ، كما قال كاتب البحث في دائرة المعارف الاسلامية . ومعلوم ان من اهم واجبات المحتسب هي (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) فلا عجب اذا ما روجع (خاير بك) لايقاف ما كان يصاحب شرب القهوة من منكرات ! وان يامر بغلق بيوت القهوة بعد ان تاكد له ذلك .

ولعل مؤسسة دائرة المعارف الاسلامية في (ليدن) تنتبه الى هذا الخطا التاريخي فتصححه .

5 ـ نقل غير صحيح

لقد لاحظت ان كاتب بحث (القهوة) في دائرة المعارف الاسلامية ، قد اثبت واقعة تاريخية حول القهوة ولكنه تصرف بالنقل ووقع في الخطا بالنتيجة .

فقد قال ـ وهو ما ترجمه الدكتور ـ روايته بالنص الانكليزي ـ :

(واخذ القاضي محمد بن الياس الحنفي على نفسه ان يستانس باراء مختلف العلماء وصار يجرب شربها على نفسه ويلاحظ تاثيرها على عقله فتوصل ان شربها غير مول ولا مسكر فاباحها للناس) هذا ما قاله الكاتب عن الاجراء الذي اتخذه هذا القاضي قبل اصدار فتواه ، فهل هذا صحيح ؟ الجواب : لا لنستمع الى صاحب كتاب (عمدة الصفوة في حل القهوة) وهو يحدثنا عن هذه الواقعة بقوله (.. فاتصل الامر بقاضي مصر وهو الشيخ محمد بن الياس الحنفي ، فسال عن تحليلها جماعةمن علماء القاهرة ، المفتين بها ، واعتمد على من قال بتحليلها ، من العلماء المعتبرين ، ثم استظهر على ذلك .

دار بطبخها في منزله وسقى منها جماعات بحضرته وجلس يتحدث معهم معظم النهار ليختبر حالهم يرى فيهم تغيرا ولا شيئا منكرا ، فاقرها على حالها) ومن هذا النص نجد ان هذا القاضي الكبير ، لم يشرب القهوة ، بل سقاها لمن حضر مجلسه ليراقب وهو (الصاحي) تصرفات هؤلاء الشاربين من اين جاء كاتب البحث بهذا الوصف الذي اوقعه بالخطا ؟

ولعل مؤسسة دائرة المعارف الاسلامية تلتفت الى هذه الحقيقة فتصححها ايضا .

6 ـ تواريخ الوفيات

لاحظت ان كاتب بحث القهوة في دائرة المعارف الاسلامية قد اثبت تواريخ وفيات بعض الاشخاص بصورة لا يعرف قارئها متى كانت تلك الوفاة بالضبط او في اي سنة . ومن ذلك ما ترجمه الدكتور وهو كما رايناه في النص الانكليزي (وهناك ثقاة من العلماء افتوا في مسالة القهوة واباحوها على انها غير محرمة ولا مسكرة ، منهم .. الشيخ احمد بن زكريا الانصاري المتوفى سنة (4/1543) وابو الحسن البكري الصديقي المتوفى سنة (3/1543) الذي نظم الاشعار بوصفها ومدحها واوصى بعدم الاستماع الى راي عبدالحق او فتوى ابي الحسن (صفوة الصفوة) ومنهم عبدالرحمن بن زياد الزبيدي المتوفى سنة (8/1567)) .

لا ارى كيف يعرف الباحث المستند الى هذا البحث وفاة كل واحد من هؤلاء اذ هناك سنتان ففي اية سنة مات كل واحد منهم ؟ ثم ما هذا الفرق الكبير في تحديد سنة وفاة الصديقي وهو عشر سنوات ؟ انه خطا دون شك لابد من تصحيحه .

واذا قيل ان السبب في هذا التفاوت راجع الى تحويل العام الهجري الى ما يقابله من العام الميلادي ، اقول هذا صحيح ، ولكن الاصح منه ، ان يثبت كاتب البحث تاريخ وفاة كل واحد من هؤلاء العلماء بالهجري اولا ثم يذكر الى جنبه ما يقابله في الميلادي ، اذا اراد الدقة العلمية في البحث .

فهل تلتفت مؤسسة دائرة المعارف الاسلامية ، الى هذه الاخطاء او الهفوات وتعمد الى تصحيحها خدمة لقرائها ؟

وبعد :

فهذا ما خرجت به من ملاحظات وتعقيبات بعد قراءة مقال (تاريخ القوة عند العرب) ارجو ان تجد لها مكانا على صفحات مجلتكم الزاهرة ما دامت تسعى الى البحث عن الحق والحقيقة ولكم شكري واحترامي .

عبدالرزاق الهلالي

من تاريخ التعليم في العراق

■ لقد قراءت المقال الذي كتبه الاخ الاستاذ عبدالرزاق الهلالي في عدد اذار 1979 حول (من تاريخ التعليم في العراق) ولا يسعني الا ان اقدم له شكري الجزيل على التحقيق الرائع الذي قدمه وبصفتي احد اعضاء البعثة العلمية الاولى ارجو ان يسمح لي ان ابين بعض الايضاحات التي اراها مناسبة راجيا التفضل بنشرها وشكرا .

1 ـ ان طلاب البعثة الاولى وعددهم تسعة ارسل ستة منهم الى الجامعة الامريكية في بيروت وثلاثة الى المملكة المتحدة البريطانية ونظرا لعدم وجود ثانويات كاملة . فقد تم اختيارهم ليس بنتيجة المباراة بل بعد مقابلات شخصية مع بعض مسؤولي وزارة المعارف انذاك وكان قسم منهم من خريجي دار المعلمين والقسم الاخر من طلاب الثانويات والثالث من موظفي الحكومة . ولقد علمت في حينه من احد مدراء المدارس الابتدائية الذي كان يزور المستشار البريطاني بان المسؤولين راعوا في اختيارهم اعضاء البعثة عدة اعتبارات منها التفوق في المدرسة وضعف الحال والتمثيل لبعض المناطق والطوائف. واذا دققنا في اسماء اعضاء البعثة نجد ان ثلاثة منهم كانوا يمثلون السنة وثلاثة للشيعة واثنين للمسيحيين وواحدا لليهود .

2 ـ أ ـ اما بخصوص عضو البعثة محمد دشتي الذي كان طالبا في دار المعلمين في بغداد والذي كان يسكن في كربلاء يظهر ان وزير المعارف اذ ذاك وهو العلامة السيد هبة الدين الشهرستاني علم مؤخرا بان الطالب المذكور ليس عراقيا لنا لقد قرر عدم التوقيع على عقده وقال امامنا وعند تقديم العقد له لتوقيعه وبالحرف الواحد كما اتذكره (لا يمكنني التوقيع على هذا العقد ولا اتحمل المسؤولية امام الاجيال القادمة التي ستتهمني بانني ارسلت ايرانيا للدراسة على حساب الحكومة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العراقية) . ومع ذلك وبالرغم من هذا الموقف المشرف للسيد الوزير فقد ادخل الطالب ضمن اعضاء البعثة وسافر الى بيروت بعد ان وقع العقد المستشار الكابتن فارل .

ب ـ لقد صدق ظن الوزير بحقه اذ بعد رجوع الطالب المذكور الى العراق وبعد اكمال دراسته وتعيينه مدرسا في دار المعلمين في بغداد اخذ يتصل ببعض الجهات الاجنبية مما حمل بعض زملائه والذين يعرفونه جيدا ومنهم على ما اتذكر الاستاذ الاعرجي والسيد شفيق سلمان والسيد سعيد فهيم على مراجعة الاستاذ ساطع الحصري مدير المعارف العام واخبروه عن أتصالات ونشاط محمد دشتي ، وبعد التحقيق صدر امر نقله الى ثانوية الموصل ولكنه لم يمتثل للامر ولم يلتحق بعمله الجديد ولما كان كفيله قد مات في تلك السنة فلم تتمكن السلطات من اتخاذ اي اجراء بحقه . وبعد مدة قصيرة زارني في نادي التضامن واخبرني بانه سيسافر الى الموصل في اليوم الثاني الا انه في اليوم المذكور هرب الى ايران حيث عمل هناك في احدى الدوائر الرسمية حتى وفاته .

3 ـ من المؤكد ان مستشار وزارة المعارف الانكليزي لم يكن راغبا في ارسال بعثات الى الخارج ، والقرار صدر بالرغم منه لذا حاول وضع العراقيل المختلفة لعدم ارسال بعثة اخرى في السنة الثانية ونظرا لضعف ميزانية وزارة المعارف اذ ذاك عمل على وضع الخطة لزيادة مصاريف اعضاء البعثة منها انه اوعز الى ممثلي حكومة العراق في بومباي والقاهرة ، وكانوا من وكلاء التاج البريطاني ، العمل على التبذير في الصرف . ولما كان السفر الى بيروت عن طريق البحر وكان من الضروري ان يكون المرور عن طريق بومباي فقد ابقى الممثل البريطاني في بومباي اعضاء البعثة اسبوعا في احد الفنادق الضخمة قبل ابحارهم الى عدن وقدم لهم المخصصات مع ان الطلاب كانوا قد استلموا هذه المخصصات في بغداد قبل سفرهم . وكذلك عندما وصلت الباخرة الى بور سعيد وكانت متجهة الى بيروت لم يسمح لهم الممثل البريطاني بالسفر وطلب مواجهتهم في القاهرة فذهبوا الى القاهرة وانزلهم في احد الفنادق بضعة ايام وزودهم بمخصصات ايضا وبعد ذلك ارسلهم الى بور سعيد مرة اخرى ومن هناك الى حيفا ثم الى دمشق بالقطار وبعدها الى بيروت. ويظهر من كل هذا كيف ان المصاريف قد تضاعفت مما ادى فعلا الى عدم ارسال بعثة اخرى في السنة الثانية.

ب ـ لم يكتف المستشار بذلك بل عمل على عدم تخصيص مبلغ محدد للطلاب في الجامعة الامريكية في بيروت وكان الصرف يجري تحت اشراف احد اساتذة القسم الاستعدادي في الجامعة السيد نجيب نصار الذي كان لا يرد طلب احد من الطلاب وبقي الحال على ذلك حتى مجيء الاستاذ ساطع الحصري حيث تم تثبيت المخصصات الواجب صرفها على الطلاب في البلاد المختلفة .

4 ـ اما فيما يخصني فانني لم انتسب الى مدرسة الاليانس كما جاء في المقال ولم اكن تلميذا فيها وكنت قد اكملت الدراسة الابتدائية في المدرسة الحيدرية الرسمية ثم انتقلت الى مدرسة التعاون وبعدها مكثت سنة واحدة في السلطاني قبل الاحتلال البريطاني وعند تأسيس المدرسة الاهلية (التفيض بعدئذ) داومت فيها لحين انتخابي عضوا في البعثة العلمية الاولى .

يوسف زينل

◆

ملاحظات حول الوثائق الخاصة بثورة العشرين

■ نشر الاستاذ الفاضل كامل سلمان الجبوري في العدد الثامن من مجلة افاق عربية القراء القسم الثاني من الوثائق الخاصة بثورة العشرين ويتجلى الجهد المبذول في اخراجها وترجمتها وتحقيق نصوصها ولي بعض الملاحظات حولها :

1 ـ ان اغلب الوثائق يعود تاريخها الى ما قبل الثورة بكثير ولاتوجد علاقة من قريب او بعيد بها فالوثيقتين الاولى والثانية تاريخهما 20/صفر/1918 والثالثة تاريخها 27/رمضان/1918 وكذلك باقي الوثائق .

2 ـ بعض الوثائق لا تتعدى ان تكون مراسلات عادية بين افراد ولا يوجد فيها ما يرمي الى التحضير للثورة او التحريض عليها .

3 ـ الوثيقة الاولى مضبطة نظمتها سلطات الاحتلال البريطاني الغرض منها امتصاص النقمة الشعبية وايهام الناس بان سلطات الاحتلال تعطي اهتماما خاصا للمقدسات الدينية وموروثات الطوائف والفرق الاسلامية وهي من المثبطات لا من المشجعات على مقاومة السلطة .

وقد ورد اسم السيد حسين الدده والصحيح حسين زاده .

4 ـ جاء في مقدمة الوثيقة الثانية انها نظمت من قبل سلطات الاحتلال ووقعت من ابناء الحلة الذين حضروا زيارة الاربعين . وهذا خطا اذ ان المضبطة اعلاه وقعت من كليدار الروضة الحيدرية السيد علي الكليدار والسيد محمد علي القزويني وعبدالرزاق شريف رئيس بلدية الحلة ووقعها اناس ليسوا من ابناء الحلة فقط بل من الهندية والشامية والنجف وبغداد والسماوة والرميثة والكفل وغيرها لذا لا يجوز القول انها وقعت من ابناء الحلة لان عبدالرزاق شريف لا يمثل الا نفسه ولا يمكن القول انه يمثل ابناء الحلة فللناس رايهم في الاحداث .

5 ـ وردت اسماء الكثير م نالاعلام من رجال الدين وشيوخ العشائر والوجهاء كان على المحقق ذكر ترجمتهم والرجوع الى كتب الانساب والاعيان ففي ذلك فائدة كبيرة . فلهم تراجم في شعراء الغرب وماضي النجف وحاضرها وتاريخ الحلة والكتب الاخرى الخاصة بالاعيان والرؤساء .

6 ـ هناك الكثير من الاخطاء اللغوية والاملائية كان على المحقق الاشارة اليها في الحاشية او تصحيحها بعد الاشارة اليها وان بقائها على ما هي عليه امر مرفوض في تحقيق النصوص وترجمتها .

الوثيقة العاشرة :

الرسالة المذكورة كانت كثيرة التشويش مختلة التركيب مفككة الجمل واعتقد ان ترجمتها غير امينة او ان مترجمها تقيد بالتركيب الاجنبي للجمل فجاءت مرتبكة غامضة وفيها اخطاء واضحة منها : (بلغوا سلامنا واحترامنا المفدعم) والمفدعم ليس لها معنى . و (واسعى في قبال هذا التراقى) بدون معنى .

محمد علي محيي الدين

ـ الحلة ـ

◆

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com